

Handwritten scribbles and faint markings on the left side of the page, possibly including a signature or initials.

296:K11hA

كعدان - بشير

هوء لا الصهيو نيون

296
K11hA

~~2~~ 65

JN 11 54

~~11~~ ADT 67

JL 12 / 54

AG 16 / 54

~~2~~ 67

AG 31 54

SE 15 54

~~MAY 19 55~~

~~JUN 19 56~~

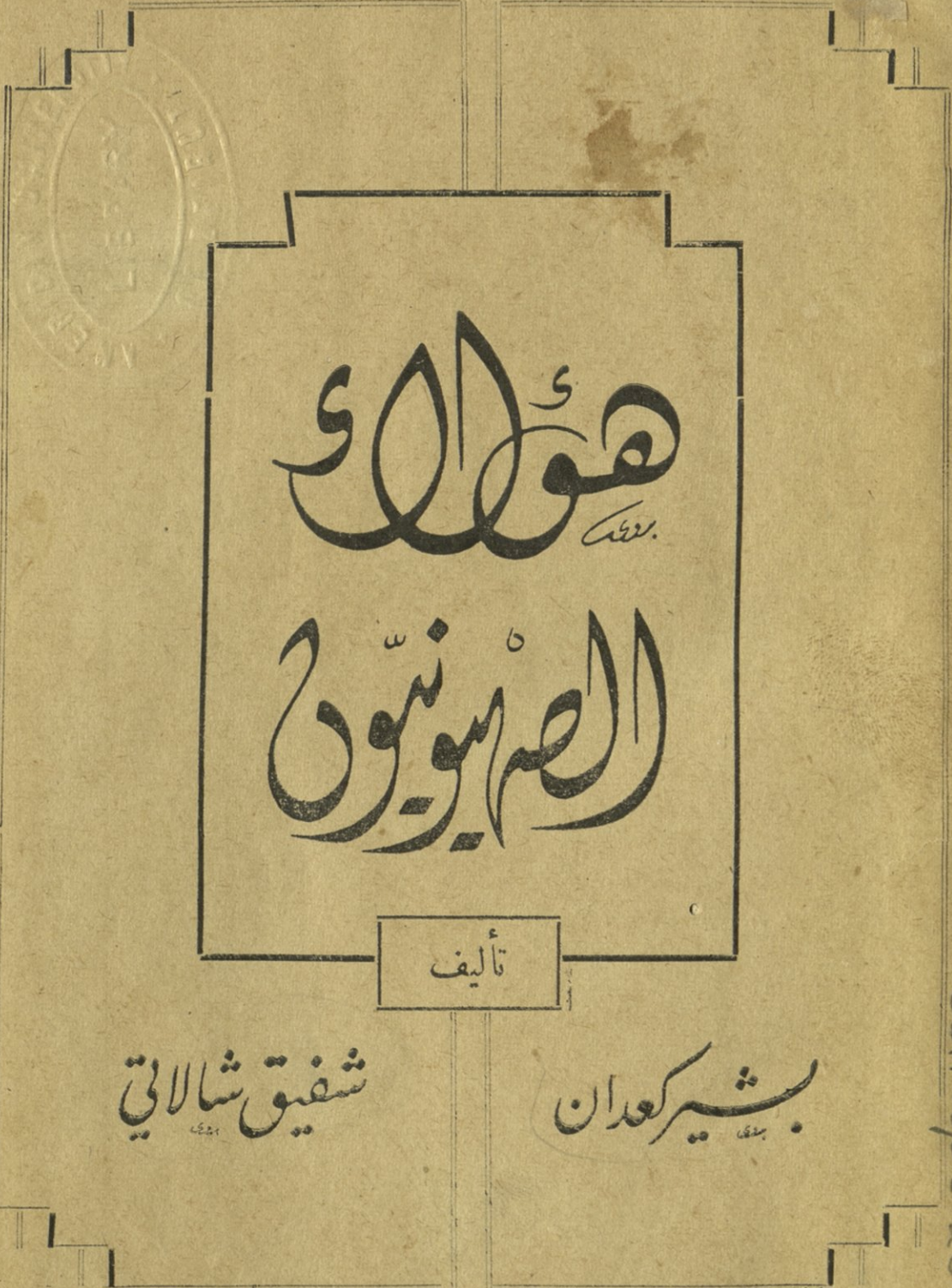


200

cat. Apr 20:54

296
K112A
C.1

دار القبط العربية للتأليف والترجمة والنشر



هو الله
بمشق

الصغير بنون

تأليف

شفيق شالاتي
بمشق

بشير كعدان
بمشق

مطبعة دار القبط العربية بمشق

cat. Cop. 20:54

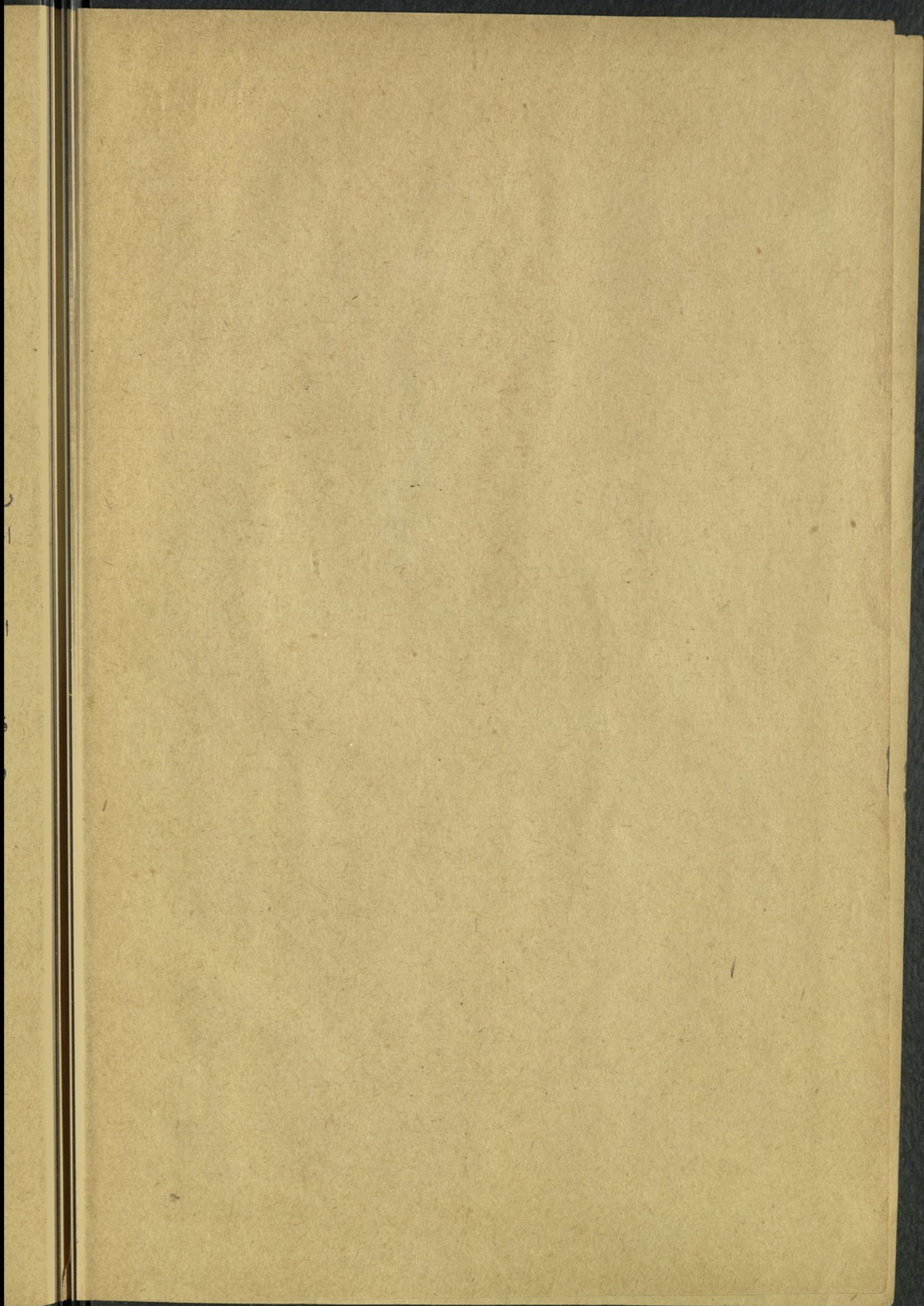
1858
1858



اللقاء

الى الشباب العامل تحت جناح الصمت ...
الى الشباب الواعي الذي لم تدنسه أرستقراطية طبقية ولا رأسمالية موروثية ...
الى الشباب العربي معقد الرجاء في إنقاذ فلسطين ...
نقدم هذا الكتاب بكل تواضع

المؤلفان



اللمحة

هؤلاء الصهيونيون ... ليس في الواقع كتاباً أدبياً ، ولا علمياً ، وإنما هو ريبورناج صحفي مطول ، دفعنا الى أن نخرجه على هذه الصورة معرفة تامة بنفسية الجماهير ، وإرادة غالبة لأن يقرأ من قبل أكبر مجموعة عربية في الوطن والمهجر .. ولعلك — سيدي القارىء — ستلمس فيه أدباً مكشوفاً ، أو فيكاهة مترامية الاطراف ، فاعتبر ذلك من (المقلبات) واغضض الطرف عنها إن كانت تثيرك . إن هذا الكتاب عملي قبل كل شيء ، سيريك قسماً من المستعمرات الصهيونية ، فتلمس حياة القوم ، ونشاطهم ونتاجهم ، ونظامهم في القرى والمخازن والاعبياد والشوارع ودور اللهو ...

نحن نعتقد أن رحلتنا الى القطر الشقيق ، بعد دراسة وافية له ، هي الاولى من نوعها لدى العرب ، ولم يكن نتاجها نظريات ومقررات وتاريخاً ، بل هو وصف صادق لحياة عدوة ما كرهة يجب الاستعداد لها بكل جد ... !
لقد أخذنا أحاديث هامة من شخصيات صهيونية لها تفكيرها الخاص ورأيها الحازم في القضية دون أن نذكر مآربنا أو طرفاً من مهمتنا ...
ولعلنا آثرنا أن نرتب هذه الاحاديث وننظمها وترتيبها بما له صلة بها من معلومات خاصة وعامة عن الصهيونية ، على أن نبقها جافة خاماً بين يدي القارىء ...
لقد آثرنا ألا نناقى العرب فنحط من قدر الصهيونية ، ونرفع العرب الى درجة التخدير ، فإن هذا النحو الذي يخوه كثير من مؤلفينا وصحفيينا طريق ضالة

ردية... لاننا نؤمن بأن معرفة قوة العدو ودخيلته بصدق وحياد، تهيئ للعرب
مصدراً للدفاع هاماً وسلاحاً مرهفاً حاداً...
أبداً لم نترك مصدراً ولا رأياً قيل عن فلسطين إلا ونهلنا منه لنسعف كتابنا
مفضلين عدم ذكر ذلك بسبب أسلوب الكتاب وطريقة البحث...

إيها العربي...

إن فلسطين هذه ملكك، يجب ألا ينازعك فيها أحد...
ولقد أراد الصهيونيون الاستيلاء عليها، لأنها أعظم بقعة مقدسة في الأرض،
فلم يستطيعوا حتى الساعة ولن يستطيعوا... لأنها ملكك. ولأنها يجب أن تحفظ
من أجلك... لقد تلقى الاجيال العربية كبراً عن كبر، حتى صارت اليك، كما
تنتقل الشعلة المتألقة من يد الى أخرى، ويجب أن تسلمها أنت أيضاً بدورك الى من
يخلفك من الاعقاب سالمة دون أذى...

لقد كافح عنها أسلافك ضد الصليبيين، واليوم أن أوان كفاحك ضد الصهيونية
والانتداب المرير...

لقد قضى أسلافك رافعي الحسين، وستميش أنت رافع الجبين ثم تقضي...
ولكنك ستخلف فلسطين وحدها عربية.. وهي وحدها التي تبقى عربية خالدة...

إيها العربي...

إننا نعتقد مخلصين أنك لن تنتهي من كتابنا هذا حتى تتكون لديك فكرة تحفزك
الى العمل.. العمل الذي ينقذ فلسطين من هذا الاخطبوط الصهيوني الخبيث...
فلا تجدد مأساة الاندلس ثانية..

دمشق في ٦ نيسان ١٩٤٦

بشير كهدان وصفيق كلالبي

كتب تنصدر قريباً

للاستاذ شفيق شالاتي:

- ١ - ديوان المحاسبات
٢ - تاريخ اليهود تحت حكم العرب
في الأندلس

للاستاذ بشير كمدان:

- ١ - رسائل مطحنتي (ترجمة)
٢ - مذكرات معلم
٣ - هكذا قال أستاذي المحامي





س

ب

و

ف

ا

ع

ع

)

لا

ا

ف

ل

ا

ن

م

أول الرقص ...

يكد صاحبي الشهم يطمئن إلى نفسه في عربة القطار ، حتى أبصر من لم النافذة سحابة سوداء تهرع نحوه . ولم تكن هذه السحابة السوداء ، سوى جماعة من نسوة الحارة ، وعلى رأسهن والدته . أقبلن يودعنه وداعاً يليق بأمثاله ... فهو يسافر اليوم إلى فلسطين ، كإرحل بالأئس كولومبس إلى أمريكا وفاسغو دوغاما إلى جزائر الهند ، والسندباد إلى بلاد الواق ...

ولقد كان قلبه الكبير وحده ، هو الذي دفعه إلى هذه الرحلة الجبارة ... فليكافأ إذن بوداع الأم الرؤوم ، والجارات (الحناين) ، وهو بكل هذا التقدير حقيق جدير !

ثم أحاط الوفد الكريم بمقطورته ، وقد رفعت كل واحدة منهن طرف نقابها ، عن عين واحدة ، وأبرزت أرنبة أنفها ، كما تفعل تماماً بعض النسوة البلديات ، عند ما يختلسن النظر إلى الجمال الصارخ ، أو الأزياء الجديدة ، على قمات بنيات (الدوات) المتمايلات في دروب الشام !..

ودنت منه والدته ، ودست في جيبه تعويذة ، قوامها كيس صغير من الملح ، لا يتجاوز حجم البندقة ، ليدفع عنه غائلة العين ، وأولاد الحرام ، ومواجهة الحكام !! ولعل الصبي المدلل ، لجأ إليها في أول طعام تناوله ، ليرش بعض ملحها على البيض المسلوق والخبز ... أو لعله لاذبها ، لدى أول صراخ سمعه في الحجرة المجاورة فأطل فضولاً وسرعان ما رأى شيخاً متقاعداً ، يتشاجر مع شاب ، وقف يودع ذويه مع أتراب له قبل أن يهيم بهم القطار . وكأن نظراته العابرة ، وقعت على بدر الدجى ، وست الحسن والجمال ، زوج الشيخ المصون ، فاستشاط غضباً ، وصاح بالشباب كما صاح في سالف الزمان ، الدون كيشوت ، بالطواحين والشياطين ، ومنعهم من الوقوف أمام حجرة (الحريم) منعاً لاستئفاف فيه ولا تمييز ... لكن ناقوس المحطة خف إلى

لمجدة الشاب ، فقرع ودندن ، إيذاناً بالرحيل ، فانسلوا يتعثرون بخطاهم ، جرو مبلل
مهزوم ، وانتهت المعركة بانسحاب المتخاصمين !..

وعاد صاحبنا بقامته الضخمة يلقي النظرات الأخيرة ، على من جشمت نفسها عناء
الحضور ، مع سربها الكريم المتهادي ، كالاوز والبط ، ثم وضع على وجهه تلك البسمة ،
التي اعتاد أن يلصقها به كل حين ، ولوح بيد تحمل منديلاً مطرزاً مهدي إليه من
إحدى بنات الحلال ، دون أن يأبه للونه الأحمر الفاضح ، أو بحسب لتفسيرات أمه ،
وظنونها أي حساب !..

وانحنى يحتضن النافذة ، غارقاً في تأملات طويلة ، لعلها كانت قصائد عصماء
يرثي بها شبابه الداوي ، وقد حملة القطار إلى بلاد حبيبة إلى نفسه ، طالما درس
تاريخها وخطط مصوراتها ، وسأل عن كل شاردة وواردة فيها ، وهي لا زالت
مجهولة منه ، بعيدة عنه ، يخشى أن تقع فيها حوادث إرهابية ، يذهب ضحية لها وقرباناً
رخيصاً على مذبح المغامرات ... بيد أن الفضول ، وحب الاستطلاع هما وحدهما
الذيان دفعاه وزميله الكريم ، إلى دراسة الحال في فلسطين ، وجس النبض عن
طريق العمل ، لا الصحف والخطابة ، لعل كليهما يفهان الداء والدواء ، فيسر دا لبني
قومها ، السادة النجب كما تقول - أم كلثوم - ، نواحي الضعف والقوة عند أبناء
صهيون ، فينتبه لها العرب ، ويلتموها دراسة وقناعة بعد أن تقدم إليهم على شكل
دجاجة مطهية شبيهة ...

حوران العابسة

وقطع سلسلة تأملاته تلك الأراضي المترعة بالأحجار السوداء ، المسماة حوران :
أنبار الرومان وأهراء أمبراطوريتهم !.. حوران ذات الأرض الخصبية والتربة
المنتبتة !..

حوران ذات الأعماد السالفة .. يراها بأعينه مهملة معطلة ، نعم ! هو يعتقد
مخلصاً بأنه لولا السماء وخيراتها ، والأرض وبركاتهما ، لما انتبت هذه البقاع جوباً
ذهبية سدت حاجة القاصي والداني ... وها هو ذا يتساءل الآن : أهذه هي حوران

حقاً ، ونحن في القرن العشرين ! ؟ ... ولم هذه الصخور والأحجار في أراضيها
بعد آلاف السنين؟ .. ولمن هذه الأكوخ السوداء التي يعافها النظر ويمجها الذوق ..؟
أهي للحواراني الكادح العامل ، أم لمواشييه وأطياره ..؟

يا لله ! أين آثار العمران ..؟ أين يد المدينة .؟ أين المشاريع الزراعية ، بل أين
طرق المواصلات الحديثة ، يملؤها سكان الارض ، بحيلهم ورجلهم ومنتجاتهم ...؟
أبعد ملايين السنين تكرر وتمر ، وحواران باقية كما خلقها الله !! ثابتة على المبدأ
لا تحيد عنه قيد شعره ... ؟ إن الجاهل يتعلم .. والمريض يشفي .. ومواكب
الحضارات تجري .. والاختراعات والاكتشافات تقرب الدنيا ، وفي كل يوم نبأ
وأحداث ، توقظ الغافل ، وتنبه الوسنان ، وتحيي الجامد والموات ، وحواران ما زالت
كما يراها الآن ، في خمود وفتور وعبوس ...!؟

وفرك عينيه قليلا ، وكرر النظر ليرى هل هو يقظان أم حالم ؟
نعم هذه هي حوران ...! هي ذاتها منذ آلاف السنين . وداؤها الأول والآخر
الجهل ، الجهل الذي أرداها هذه الهاوية السحيقة من التأخر والانحطاط .
فالحواراني محافظ لا يروم تبديلا ولا تغييراً ، وانه لا يسر للانسان أن يقوض
عرشاً متين البناء من أن يهدم تقليداً مضحكاً ألفه الناس ، وتواضعوا عليه ، فهو يرى
أن الله خلق الارض ، فهو إذن يكفل إنتاجها . والآلات الحديثة تدمج التربة وتقتلها ،
والأسمدة تسممها وتميتها ، والاساليب الزراعية رجس من عمل الشيطان .. ! فلم
الآبار الأرتوازية ومحركات ديزيل ، وماء السماء من صنع الاله ، وجل الباري فيما
صنع . !؟

وصفر القطار ، وتأفف صاحبي ، وراح (ينقر) على طرف النافذة ، شأنه عندما
يرتبك أو يعجز . غير أنني سألته برصانة وحذقة : ومن هو ياترى المسؤول عن
هذا التأخر والانحطاط .؟ هل يستطيع الفلاح الجاهل الفقير بوسائله المحدودة
الابتدائية ، أن يتحمل تبعات العمل الانشائي وينهض بحوران إلى مرابي الفلاح ..
وهل هو مسؤول عن إسعاف قراه بانشاء المصارف الزراعية ، لتقوم بأوده ، فتقرضه

وئساعده وئحنو عليه . ؟ وهل هو ممن يستطيعون بناء المستشفيات ، وبت المدارس
وإنشاء المزارع الفنية ؟

فأجاب والامسى يحز فؤاده : كلنا يا صاح مسؤول ولئن كانت التبعة تقع في
الدرجة الاولى على عاتق الحكومة ، فعلى كل طبقة من طبقات الائمة أن تحمل قسطها
من هذه التبعة . ولن يكفي اهتمامنا بتحسين العاصمة ، وبعض المدن ، مع إهمال القسم
الأكبر من الوطن . وإلا فكم جلسة عقدتها لجنة الدستور ، لتقرر أن السوريين
أمام القانون سواء ؟ وإذا كان النائب لا يمثل منطقته الانتخابية وحدها ، بل يمثل
الائمة بأسرها ، فليكن دفاعه عن كل بقعة من البلاد لإصلاحها وازدهارها ، لا
لشخصه ومطامعه ومنطقته ، ولينظر الى ذلك التفاوت في التعمير والإصلاح ، بين
البلدان المختلفة وبين المناطق في المدينة الواحدة ، وليذكر أن سورية ، هي وحدها
التي تخلد ، أما الأشخاص فزائلون . !

ثم صمت وقلب شفثيه ، وارتسمت على وجهه إشارة تعجب أطول من أنف
سيرانو دي برجرالك، وعاد إلى مقعده يتسلى بازدراد بضع تينات رطبة، تنسيه وطنيته
وفورة حماسه إلى حين...

وعجب صاحبنا من ترددي على الطعام ، فمد رقبتة القصيرة إلى جعبي ، يجول
فيها بعينيه السوداوين ، وخياشيمه تتراقص كأذني أرنب، واستطاع بذكائه النادر
أن يكتشف الوان الطعام . وكان لهما (مدلاً) شيئاً، تناول منه قرصاً، وطفق يتأمله
بعيني خبير، وعهدي به من (النباتيين) أتباع المعري و (شو) ، ولولا خشيتي من
(موضة) تبديل المذاهب والمباني ، لتركت بين يديه جعبي ، ينعم بما فيها من
طعام فاخر لذيذ .

والح علي مشفقاً بأن لا استعمل اللحم كثيراً ، لأنه متعب للمعدة ، ومورث
مرض الملوك ، وخاصة عقب شهر الصوم والبركة؛ ونصحتني بأن أترك هذا الطعام
يتصرف به في أحد الوجوه الخيرية ، كاطعام المساكين من أبناء القطار ، وأن أخضع
في سفري هذا، إلى (ريجيم) خاص يهديني إليه . ورحم الله (ايزوب) وسقى قبره

ماء الورد ، فما زالت قصة : ثعلب العنب ، محترمة وصحيحة !

كنوز الفحم الأبيض

ولم يكد القطار يغادر (درعا) بعد نوم عميق على قضبانه الحديدية، حتى راح يعدو ويلهث ، ايدرك مافاته من الوقت الضائع في (الروتين) الحكومي . وعندما اجتاز قرية تل شهاب ، تلمظ صاحبنا، وسال لعابه لمناظر الشلالات. كما يسيل لعاب صهيوني جشع، أمام مشروع زراعي أو صناعي يدر عليه المال والمال ... بيد أنه شتان بين الاثنين ؛ فقد كان صاحبنا يتملظ لعطش أصابه، أما الصهيوني فيتملظ لامتلاك أرض الغير ، ولربما يأسف على ضياعها كما نأسف نحن . وقد يتمنى امتلاكها ليصيرها جناناً عوض البوادي ، وليجري في هذه السهول الجرداء، أنهاراً من الذهب الوهاج؛ وهل هذا السيل المتدفق من ارتفاع عشرات ومئات الأمتار، سوى ماء غزير ينطوي على معدن كريم، هو الفحم الأبيض، الذي يجعل من حوران ، لو أحسن استغلاله حدائق وجنات مكسوة بالازهار والاثمار، منارة بالكهرباء ، وشموس العلم الحديث، لا كما هي عليه اليوم كأنك تجري في وادٍ غير ذي زرع . فلا مشروع صناعي، ولا زراعي ، ينعش قلب البلاد الذائب على المشاريع التي يحلم بها ، وما زالت في حيز الخيال . إنه ماء ينحدر منذ الازل ، وأكبر الظن انه سيظل ينحدر الى الأزل ولن نتفع منه إلا بالتحسر والنظر ، فمتى يطل وجه المشاريع الحالم، على حوران، ليغتسل بامواه هذه الشلالات، ويتلأأ بقطراتها . ؟

وغرق صاحبي يفكر يفكر شيلوخ البندقية ، يفكر بألف مشروع ومشروع، كما فكرت في القديم شهر زاد، بقضاء الف ليلة وليلة ...

لم يفكر بفكرة البلدي علة تأخرنا وجمودنا ذلك الفكر الذي يزور أولاد الحلي، وشباب (الزكرت)، حينما يشاهدون الماء ، والخضرة والشكل الحسن ، فيتشوقون الى نفس أركيلة، أو كاس (عرء) أو قضاء ساعة مع (خانم) محترمة ، تذهب عن النفس الشجن .

لا لا ! لم يفكر بكل ذلك . ! فكما انه من العار أن تغازل محبوبك وبيتك
يحترق ، فمن الجريمة أيضاً أن تترك هذه الثروة الطبيعية الهائلة تبيد سدي ، لتجاس
تندب صروف الدهر ، وتتهم الأقدار أو تستسلم إلى نوم هاديء لذيذ ...

ولقد كنا نسمع دوماً شنشنة تأليف اللجان ، لدراسة موارد الري وطرقه ،
ثم نسمع عن التقارير في هذا الشأن الشيء الكثير . غير أننا لم نلمس في الدوائر
الخاصة والعامة سوى سلة المهملات لقضاء الحاجات . فهي تسع كل ما يراد بحثه من
قيم الأمور إذا لم يكن صاحب الفكرة ، من المحسوبين أو المقربين أو ؛ فظن خيراً
ولا تسأل عن الخبر ...

إن مشروعاً واحداً ... مشروعاً واحداً ، نستغل به جزءاً من قوى هذه
الشلالات ، حقيق بأن يجعل من حوران ، زمردة كريمة ، لا تقدر بثمن ، خالدة على
عمر الدهر . وتلك لعمر و الله أجل خدمة تسدى للوطن : ذلك الوطن الذي كثر
عاشقوه وقل منصفوه .

وجلس صاحبي ينفخ ويزفر ، وقد هاجمه شيطان شعره ، فانشد معلقاته المشهورة
— عديدة البحور والقوافي — ، يهجو بها الزمن ، ويشتم الاجيال النائمة الخاملة ، منذ
آلاف السنين ، حتى الأجنة في البطون .

نعم ! إن الأرض يرثها عباد الله الصالحون ، الصالحون لهذه الحياة ، الذين
يزينون الدنيا بأعمالهم وعمرانهم ومنشآتهم . ومعاذ الهوى أن يسلم الله دنياه ، وهي
صنيعة يديه وعزيزة عليه ، معاذ الهوى أن يسلمها للجهلاء المتنازحين المتأخرين ،
فالصالحون في الإدارة ، والسياسة ، والحكم ، والصناعة ، والزراعة ، والاخلاق ، هم الذين
يرثون الأرض ومن عليها ، أما الفقراء في عقولهم ، الضعفاء في سواعدهم ، راكبو
الحمير والبغال ونحن في عصر القنبلة الذرية ، والقذائف الصاروخية ، فقد أصدر
الدهر عليهم حكمه وما أقساه ..!

وبدا صاحبنا في حماسه ، مسلماً في هيجاته ، لذيذاً في ثورته ، وعهدي به ضفدعي
الدم ، لاتزعجه رياح الخماسين ، ولا عواصف القطب . ولقد كان كلما أبصر قطرة

ماء تلتثر من أعالي الشلالات فتداعب وجهه مع النسبات ، هاج وماج وانتفخت منه الأوداج ، وطرق حافة المقعد بكلتا يديه ، وأقسم أغلظ الأيمان الغموسة ، بأن الناس في بلادنا - إلا من رحم ربك - لا زالوا يفكرون بفكر حاجي بابا أصفهاني ويقيسون قيمة الأشخاص ببراعتهم في (بلف) الجماهير ، أو الجولات الخطابية المسرحية . فمن أخضر عود المنبر تحت قدميه كان السيد المطاع ، والأمر المحبوب ، وكفى الله المؤمنين القتال . !

وبعد فانا نريد أفعالاً لا أقوالاً . نريد برامج مفصلة مدروسة ، تكمل بالتطبيق والعمل ؛ لا أن تقوم حكومة ، فتفكر وتؤلف اللجان ، وقبل أن تنتهي من مهمتها تستقيل الوزارة ، وتأتي أخرى لتكرر نفس المسألة . ! إن الوقت لا ضيق من ان يتسع لهذه الترهات ، فلم يعد فن الحكم خطباً تائقاً ، وهتافات تسمع ، وتصفيقاً يدوي ، بل أصبح درساً وبحثاً وعملاً وإنتاجاً . !

ذكريات اليرموك

ولما كان صاحبنا من رواد المعرفة ، وقد شدا من كل علم خيراً ، ولم يدعن يوماً لترهات الزاعمين بأن ذكاه موضع مناقشة قديمة منذ حياته الأولى ، فقد راح يلقي المحاضرات على زبائن القطار ، عن هذا النهر الذي يجتازه الآن ، بين أشجار الرمان والدفل والقصب ، وقد تداخلت ألوانها ، وتشابكت فروعها ، وتعانقت اغصانها بين أنامل النسيم العليل .

ومنذا الذي يمر باليرموك ، ولا تكتسح فكره آلاف الذكريات والعبر ؟
فعلى ضفافه جرت إحدى معارك التاريخ الحاسمة ، وتقرر مصير الإمبراطورية الرومانية أمام جيوش العرب :

هنا انتصرت جيوش خالد على جيوش هرقل ، وكانت جولة واحدة ، فانهارت الإمبراطورية كبيوت من ورق . وإذا بأبواب الشام تفتح أمام الغر الميامين .

ومنذا الذي يرى اليرموك ، ولا تهيج الذكريات ؟ ومنذا الذي يشاهد هذه البطاح ، ولا يخج ساجداً لله ، تقديساً لأجداده واحتراماً ؟

فالى اليرموك وجه الفكر والقلب، فهو صحيفة مكتوبة بالنجيع، سطرتهما يد البطولة
والتكاتف والاتحاد إرثاً محفزاً للعمل والجد .

ها هي ذي تنقضي مناظر الآكام الصخرية القائمة ، والبراري المهملة المقفرة ،
إلا من بعض اكواخ موحشة ، على رواب صخرية ، منبسطة حيناً ، شاهقة احياناً ،
تشمخ بأنفها إلى العلاء ، وتتعاقب فوقها أشعة الشمس ، وقزعات الغيم من السحب
السارية ...

وها نحن نشم روائح الكبريت ، تتصاعد من الحمة ، وندنو من سبخ ، وقد نشاهد
عن بعد طبريا فنقلب الاءعين ونمتع النظر بأول مناظر فلسطين ، وقد وجدت كل
حواسنا نصيبها من اللذة : فثمة الزهر المشتعل في خمائله ، والورد الناعس في غلاله
ينسيانا تلك المناظر الرهيبة في حوران وما تلاها ، فرحنا نعب الهواء بملء رئائنا ، حتى
خلنا أنا توردا عافية وصحة ، ولمعت أعيننا اطمئناناً وجرأة ومغامرة ، كما لو كنا
جنديين من أبطال وادي الكنال ، او جزر سليمان ، عاد إلى وطنها بعد طول جهاد .



طـ بـ رـ يـ اـ تـ حـ لـ م

و بدت (سمخ) تقبع على ساحل طبريا ، هاجعة على الحصباء ، كعروس حاملة ..
و كنت أو من أننا نعيش بجسمنا وروحنا في القرن العشرين ، قرن السرعة
وسباق الزمن ... ولذا فلم استغرب سرعة صاحبنا الفائقة مثلما استغربها المسافرون ،
عندما تدرج من القطار ، كمظلي هابط .. وكأنما كان من أتباع تلك النظرية
القائلة : إن الطبيعة ترهب الخلاء . فهو أيضاً يخشى الفراغ ، ويرهب البطالة والعطالة ،
ويعاديها ويهجوها دوماً وأبداً ، سيما ودقائقه محسوبة عايمه ، فعليه أن يسدد الحساب
بأمانة وإخلاص ..

فلم يكذب يودع أمتعته في أنفم وأقرب فندق في (طبريا) حتى استدعى الخادم
يسألها عن مكان فيه راحة للنفس ، وممتعة للقلب من وعشاء السفر ، ووعورة الطريق
فهدته الى (اليدو) ..

مغامرة غير منتظرة

واليدو مرقص صهيوني ، وحديقة وحمام للسباحة ، على شاطئ البحيرة .
فالقوم هنالك يرقصون دوماً وأبداً ، يرقصون في البارات والصالات ، ويسمرون
في ظلال الشجر ، وتحت أشعة القمر ، دون أن يحدث الواحد منهم قلبه ، بدقات
طويلة عريضة تبيئه : انتبه . افتح عينيك ، على مخاصر ابنتك أو اختك أو زوجك .
فكلهم في الحب سواء ! على مذهب (مزدك) المقدس . !

وكانت الأتغام تصعد وتهبط ، فترفعنا معها ، وتنزلنا كذلك ، وثمة موأند (البنج
بونج) ، ومقاعد نصّدت مثنى مثنى ، لأمير في نفس يعقوب . ! وهنالك الأدرج
والأحواض والبحيرة ، فاخر نفسك ما يحلو ..

وكان أول ما بعث الشهبق وحبس الزفير في صدر صاحبنا ، رؤيته عادة مفتاناً
تلعب (البنج بونج) ، وهي عارية ، إلا من (مايوه) أحمر قائم ، لا يتجاوز سطحه
طابع البريد ، ينسجم فيه لحم كلباب التفاح ، وخصر نحيل ، وردف خير ما أصفه
بلا أدري كيف هو ؟

فوقف كالمشده يتابع كرة (البنج بونج) ورأسه ينوس كرقاص الساعة
يميناً يساراً . فهو منظر أزعجه إزعاجاً لم يكن في قائمة حسابه ، لأنه كان يعتقد أن
هذه التوابل والافاوية مواد منفجرة تهيج ما كمن من مواد قانون الجزاء ، وأنها
ليست من منتوجات طبريا ، بل هي من (ماركات) تل أبيب المسجلة . !
أما وأنه فوجيء بها في طبريا ، فأمر لم يكن في حسابه ، ولم يجد وسيلة لاطفاء
لهيئة المتصاعد سوى ماء البحيرة ، فغطس غطسة جعلت حرارة الماء ترتفع الى
درجة كافية لغايان فنجان قهوة بلدية من النوع الممتاز . !

وعهدي به عواماً كالبط ، فذابه كالرصاص يهبط إلى الأعماق ليطفىء أواره
المشتعل . ولقد أخرج رأسه من الماء ، وطفأ ، فاذا بسوق مرفوعة في الهواء ،
وكانها علامة النصر ، من تحتها مايوهات بألوان قوس قزح . فلم يفهم كثيراً سر
ذلك ، ولكنه اطمأن إلى أن القوم يكافئنه على مهارته في الغطس والعموم .
وكانت أشجار الصنوبر والورد على الشاطئ تحييه (وتناغشه) من بعيد بعيد
دون أن يكثر لها ، لأنه يعتقد أن أبا الطيب المثني كان يعنيه ولا شك ساعة
تحدث عن ذلك الأسد الذي كان إذا ورد بالبحيرة شارباً ، ورد الفرات زئيره والنيل ؛
ومن كان موضوعاً لانشيد أبي الطيب ، فلن تستويه شجيرات الصنوبر ولا الدفل
قرب البحيرة . . .

وما كاد صاحبنا يخرج من اليدو ، ويأج غرفته في الفندق ، حتى استلقى على سريريه
ينتقم لجهاده وتعبه في مصارعة الأواه ، فأطبق جفنيه كما تنلق (الجوارير) باطمئنان
وعناد ، واستسلم إلى نوم عميق . وسوف يتحدث الفقير الصابر رفيقه زمناً طويلاً عما
أصابه من هذا النوم ، وحسبه أن غطيظه العالي الصارخ أيقظة قبيل الفجر بساعات . !

فجر باسم

مددت بصري من النافذة أستمتع بالفجر يبرز في أرض الجدد ، وبالبحيرة
الزرقاء الداكنة . وكانت السماء ذات لون بنفسجي ترينها في الأفق البعيد ، رقعات
من الغيوم ولسان من الجبال ، يحيط بالبحيرة الهادئة ويحتضنها ، وقد يتألق سطح
الماء أحياناً بنور خافت تعترض النظر إليه بضع شجيرات من النخيل المياس على
وقع النسائم ، وعلى الشاطيء دور هاجعة انبعثت من نوافذها الأضواء الباهتة ،
وكأنها في ظلمة الليل ، نجوم تهتز في الأرض اليابسة دون السماء .

وهناك في ذلك المكان الصامت ، وفي هدأة الفجر لم أكن أسمع نامة او
حركة سوى صوت باشق يصني على شجيرة مُصطكي ، وحيدة بين أشجار
الأوكاليتوس التي تملأ المكان بأدواحها وأفنانها وهي رابضة قبالة الفندق .

وكان كوكب الزهرة يتألق في سماء الفجر كالجوهرة فيبعث بي لذة نفسية صوفية
تغمرني على أثرها طمأنينة ساحية . أما الجامع الكبير في المدينة فكان مضاء الفناء
بالكهرباء مؤذناً بصلاة الصبح ، وقد بدت أقواسه وأعمدته إلى جانب المئذنة ، وكأنها
صرح أندلسي يهمس في سكون الكون بخشوع وإكبار : حي على الصلاة ، حي
على الفلاح . حي على العمل . أبدأ لن تكون أرض العرب لاسرائيل . !
وكان غضب صاحبنا شديداً لوقوعه في ورطة فندق عظيم نخم . لأنه لم يعتقد ذلك أولاً :
لأنه مقيد باللوائح والقوانين ، والبروتوكول والاتيكيث ثانياً : ولأنه يأبى ان يعترف
بكل هذه الترهات . فقد ولد الناس أحراراً ، وسيعيشون أحراراً وإن المدينة
الزائفة لن تسترها هذه المظاهر البراقة ؛ ويكفي العالم حربان طاحتان في غضون
خمسة وعشرين عاماً ليحكم على نفسه بأنه لم يختلف كثيراً عما كان أيام سكناه المغاور
والكهوف . !

فلن يستطيع صاحبنا الثائر على سجلات المدينة أن (يكسر) بطيخة
في حجرته على المائدة ، ولن يستطيع الخروج حافياً أو بالقبة المخصص للمراحيض

والوضوء — وقد حمله معه في حقيبته — فهو لا يريد أن تنسيه السياحة بين الكفرة
وفي مستعمرات اليهود ، فروضه الدينية ، وصلواته ... مع العلم أنه لم يستعمله
— القبقاب طبعاً — إلا مرة واحدة عندما ودَّ أن يسمر الباب ، كيلا يفاجأ (بقرمطة)
رغيف يابس نسيه في الحقيبة من آثار القطار .

وهو يمقت تلك الاصول أيضاً لأنها تمنعه من الخروج إلى ردهات الفندق ،
يتمايل بقده المياس بين الغرف عارياً ، إلا من قميص ضئيل لا يستر شعره الكثيف
المترامي الأطراف كأمعز جبلية في ذلك الحر المرهق ...

على أن هناك شيئاً آخر كان ينغص على صاحبنا حياته ، وغدا سئل الشاغل
في هذه الفنادق الضخمة الفخمة ... ذلك هو : بيوت الخلاء الفرنسية ... فهي
لاتلائمه : مذهباً وعادة وصحة ... فكان يخرج منها كل مرة يتفصد جبينه عرقاً ،
وكانه نجا من معركة أبي قير ، فلا تسمع منه سوى سعاله الخانق ، يخالطه هدير
(السيفون) المزعج ، وتمازجه لعنات الالباسة ... ولا يرضيه بعدئذ سوى أن
تفتح مصاريع الحمام على آخرها ، فينتقم لكبريائه الجريح ...!

سارئة العيون

لك أن تسمي صاحبنا ذا الفك الحديدي ، فهو يتحدث دون ملل أو خجور
عن كل ما يراه ، أو يعلق عليه بشتى الأفكار والملاحظات فيصير المعلوم بالمجهول ،
والحاضر بالماضي والماضي بالمستقبل . كان رأسه — كما تعلم — يعصف بألف
مشروع ومشروع ، منذ أن غادر دمشق . فهو يريد أن يدرس حالة العرب في فلسطين
ويشاهد أبناء عمومتهم اليهود ، ثم يستلخص من كل ذلك دروساً يأمل مخلصاً أن
ينتفع بها أصحاب العقول ...

وهكذا شرع يطوف أنحاء طبريا ، ويتجول في أسواقها ، ويسأل عن مرافقها
وأوضاعها .

ولقد عاد مطرقاً بعد جولة قصيرة وفي وجهه عاصفة شديدة من الغضب .

فسكت ، وسكت دون أن ينبس ، فكان ما شاهدته حبس لسانه عن الكلام ؛
وأخيراً تخرج وجهه وانفجر قائلاً :

مابال هؤلاء القوم ، أبناء الأخوة ، هؤلاء العرب ، أبناء شياطين البر والبحر
التواقين الى الأعباد تحت كل خافق ، الذين حالفوا الزمان وصارعوا الخطوب ؛
ماباله يراهم يتشاءبون مللاً ، ويتمطون ضجراً ؟ بيوتهم تتهاك على بعضها ، وأسواقهم
وسخة ، والاهمال صفتهم البارزة ...! ولم يتسكع هؤلاء الشبان الأقبوياء في مقاهي
البلدة ، يقتلون الوقت (ببايخ) الأحاديث ، وشراب النارجيلة ، ولعب الورق ...؟
أليس في ميدان العمل متسع للجميع ؟.

أبدأ لن ينسى صاحبنا سوق الخضز مثلاً ... فهل هو (هال) أم دكا كين من
أخشاب وقصدير صدى ..؟ فلقد كانت فوق الوصف ، لما تحتوي عليه من وسخ
وتفسخ ونوم وخمول : ثياب مهلهلة وسخة يعلوها الزفت ، ولحي طويلة وأظافر
محشوة بأقذار الشهور والليالي ، وبائعات لبن خاثر لم يشهد مثلهن وسخاً ، ولم تحظ
عيناه والله الحمد ، بأشبه تلك الأواني النحاسية اللبهم إلا في بعض دروب الشام
النائية القديمة ، أو قراها المهملة على الفطرة الأولى ..

ولم يبصر يوماً فواكه متفسخة كالتي رآها . فهل يقول إنه رأى بائع تين
يحرس كوما من الزناير ، وعندما يضطر إلى بيع بضاعته يطردها السرب الثقيل
الظل ، فتعلو في الطريق أمامه سحابة شقراء لها طنين ورنين ، فيرفع ماشاء من
تينه المتفسخ ، حتى إذا انتهى من مهمته أو كاد ، عادت الزناير إلى قواعدها آمنة .
كما تعود القلاع الطائرة إلى حظائرهما إثر غارة جوية موفقة ...!

كل ذلك جعله يترك هذه المناظر المؤذية ، ويحوقل ثلاثاً ، ويسلم أمره إلى الله
فيما رآه ، ويميم وجهه ككرة أخرى شطر (الليدو) ليمتع باصرتيه بأمواء البحيرة ،
ويسر قلبه ونفسه بروائع المناظر ، فليس للحياة كما يعلم سوى ربيع واحد ، فلينع
بريعة ، قبل أن يداهم الفصل الخفيف برعوده .

عرائس البجيرة

هبطنا محمرات الليدو الشعرية رويداً رويداً ، بين مكنتظ الايدواح ووارف
الظلال ، مما ذكرنا بمحمرات الجامعة الاميركية في بيروت ، المطلة على بحر الروم .
فأنت تهبط من سلم الى آخر تحت أشجار الدفل ، والمصطكي ، والنخيل
والأوكاليتوس (الكينا) وبين الأزاهير وضروب الأقمحوان والزنايق ، وتشنف
أذنيك أنغام حيرى صادرة عن مذياع او بيان ، كأنها تقول لك : أنت فين ..؟
وأول ما يصدرك من المشاهد ، هؤلاء العراة والعاريات إلا من مايوهاات أوهى
من مجن ابن ابي ربيعة ؛ ولعل هذه المناظر الخلابة ، وهذا الجو السحري ، أنسياه
ماشاهده في أسواق طبريا ، فراح يدمدم بين حفيف الأوراق ، وأريج الأزهار :
لمن الأرض إن سلاها بنوها ؟ !

وقطع عليه جبل أنغامه أولئك الهيفوات يخرجن من الماء فانتات مغريات ،
فتاب إلى رشده ، وعذر أباه آدم في خروجه مع حوائه من جنان الخلد ...



فما هذه الشرائط والبنود
الخفاقة فوق النهود ..؟ وما هذه
الخصور الضامرة والقمامات
العامرة ، وما هذه السيقان
النحاسية اللون ، التي ذابت فيها
أشعة الشمس ، وانتحرت على

جوانبها الكؤوس الحمراء ، هذه السيقان الفولاذية الملمس كدعائم معبد سليمان
في اورشليم قوة وصلابة ؟ .

أنحن في معرض للجمال ، تتيه فيه كل حسناء بما تملك ، أم غفل الدهر فنحن
في حلم ، وهؤلاء حوارى الفردوس يملأن الفضاء بضحكاتهن الرنانة ، ونظراتهن
الذابلة الجارحة ...؟! !

وعاد صاحبتنا الى معزوفته : لمن الأرض إن سلاها بنوها ؟
وكان المسبح يكتظ بالأجسام البشرية ؛ وانك لتستطيع عن عمد او غير عمد

أن تصطدم بأي جسم يوافق هواك . وما عليك ساعتئذ إلا أن تقول : (شالي) أي عفواً بلغة العبريات فتعذر وتسلم... وإن صاحبنا ليؤكّد مخلصاً، أنه استعملها أكثر من مرة مع بنات صهيون ، اللواتي لا يكدن يسمعن حتى يرددن التحية بأحسن منها ، ويغضضن من أبصارهن ، فترتمي من أهدابهن ظلال لك ان تسميها سيوفاً تطعن قلب السابح الولهان ...

وكانت الغادات منبثات على الشاطيء دون ترتيب أو نظام، ولضحكاتهن الفضية رنين بلوري يثقب القلوب ، فيرن في أعماقها رنين أجراس الجناز... مما جعل صاحبنا يتمرد على مثله العليا...! فهذه هي فتاة من هنجاريا ، يشع من وجهها سحر ودلال وتقيض من جسمها كل الجاذبية الجنسية التي يحلم بها الجنس الخشن ، تجاذب الحديث مع جليسين ، وقد لفت ساقاً بساق ، ومالت الى الوراء قليلا ، فانكشف ثوبها عن انوار لآلاءة ، ولحم مهذب مبرد ...

وتلك هي غزالة تخشى الماء البارد ، او تفعل ذلك بغريزة المرأة الغامضة، فتستكين الى الصخور ، تتمدد عليها ، فتلين أوراكها على الصخر وتسترخي ، فتنبئ عن الطراوة ، وتم عن الغضارة المرنة في لحم الآدميات .

وزاغ بصر صاحبنا ، واضطرب فكره لهاتيك المناظر ، فكان لا يجد وسيلة لاطفاء جام ثورته سوى ماء البحيرة .! البحيرة ذات الماء العذب ، اللذيذ النقي ، الذي لم يكن يكدر السابحين فيه سوى تلك الاسماك المتطفلة الكثيرة ، تدنو وتهش الجسوم ، وتعقص الارجل ، وتحاول ان تقضم الاخفاذ .

عشاء فاضر

وخرج الدون جوان من البحيرة ، فهدته غريزته إلى أن يقصد مقهى العكاوي ذا الشهرة الواسعة في طبقة السواح الدمشقين : (أصحاب الدمعة) وأولاد الحلال. فلکم حدثوه عن أسماك كه التي تصاد من البحيرة ، ثم تقلى في لحظة الطرف ، فتراها جائمة أمامك ، تجمد الله وتشكره ، وحولها أطباق المقبلات .

ولما كان صاحبنا خبيراً في فنون الآكال ، ومكتبته عامرة بأنفس التأليف عن

الطهي وألوان الطعام من : نعيم البطون ، إلى مرشد الجائعين ، ودليل الحائرين ..
فقد طلب سمكا .

فأقبل الندل يرتب الأطباق ، كصفوف العسكر في العرض البديع ؛ ثم وضع
أمامه سمكة زعم صاحبنا وهو يهشمها أنها من أمهر الأحياء المائية .. وأنها لم تكن
تحسن السباحة فقط ، بل تحيد الألعاب البلهوانية ، وتقاوم التيسار بمثل البساطة
التي يلبي بها صاحبنا الدعوة إلى الطعام .

وكانت مصيبة المصائب ، أنه اضطر إلى تناول السمك بالشوكة ، والسكين ،
وهي بدعة قلما اقترفها في حياة ، إلا لحادث جلل .

فلاذ بالصبر ، وأفرغ على نفسه قليلاً من إكسير : كن جميلاً ترى الوجود
جميلاً . ! وتذكر قول القائل : أيها الأشقياء من بني الانسان ! التمسوا الضحك
كلما أحسستم بالرغبة في البكاء ، التمسوا الضحك كلما شعرتم بديب اليأس بين
ضلوعكم ، فان اليأس لا يلبث أن يذوب تحت نوره الساطع

وهكذا فقد التمس الضحك أمام هذه السمكة الفقيرة لوجهه تعالى ، وتذرع
بالصبر ، وأغمض عينيه وهو يدفع ثمن الطعام رغم أنفه ، مما جعله يعرج طوال
طريقه من أثر اللطمة الاقتصادية التي أصيب بها جيبه .

وكان من أشد ما عجب له صاحبنا ، واستفهم عنه بالحاح ، رؤيته بعض الفتيات
الصهيونيات يتجولن في أكناف المقهى ، أو يجلسن حول مناضد أفرغ من فؤاد أم
موسي ، جلسة الانتظار والترقب ، دون أن يدري سراً لتلك الجولات والجلسات .
فهل تلك النظرات المريبة ، وحركات الاغراء والفتنة ، أمور دبرت في ليل ،
لاصطياد العرب ، وقلوب العرب . . أم أنها نزعات بريئة للقاء الإحبة ، والعشاق
المعاميد من أبناء صهيون . ؟ أبداً . ! لم يجد لهذه الإحاجي جواباً . . .

لغة مقترنة

ولقد أبصر صاحبنا في طبريا ، صنفاً من مخلوقات الله ، لهم عمائم غريبة ،
وطراير عجيبة ، مصنوعة من جلد ما عز لم يجز صوفه ، ولها إطار بارز ، تلوح



لحمته (سوالف) تتأرجح في الهواء ؛
ولحي مسترسلة هائلة ، وألبسة
شرقية قائمة يتأبطون أنى ساروا ، كتباً
ضخمة . .

فأرشده حدسه ، وخياله الواسع ، الى
أنهم من رجال الدين . فدنا من أحدهم ،
على حساب شجاعته المترامية الاطراف ،
وقال له هاشأً باشأً : شالوم آدوني ، شالوم

(سلاماً سيدي ، سلاماً . .) وأمسكه بكتا يديه ؛ بجرأة يحسد عليها ، بل وصافحه
بحرارة ، وهو يردد شالوم . . فسمر الرجل في مكانه ، وقد اتسعت حدقاته ،
واضطربتا بالغضب ، وخطبه بالعبرية . فلم يفهم صاحبنا شيئاً من ذلك غير أنه أتقذ
الموقف بالفرنسية قائلاً : إني سعيد إذ أقف بحضرة أول (أشكنازي) في حياتي ؛
وكاد يقبل ذقنه تبركاً ؛ فأجابه الرجل بالفرنسية أيضاً ، وقد عادت اليه أساريره :
لتحل بركتنا عليك ، فان فلسطين ترحب بعودة أبنائها ؛ فهز صاحبنا رأسه قائلاً :
لقد جئت من دمشق ، وأنا شرقي ، (سيفاراد) ؛ فطرب الكاهن جزلاً ، ودعاه
للكنيس لينال البركات الكهنوتية ؛ غير أنه اعتذر لارتباطه بموعد سابق ، مع
شخصية نائفة . . فودعه عندئذ ، وهو يربت على كتفه قائلاً : أنضحك ان لا تجهل
لغتك العبرية ، لسانك المقدس . .

لا أجهل لغتي العبرية . . ؟؟ لقد صدق الرجل فيما قال ؛ فانك لاتسمع اليوم
في تل أبيب ، والمستعمرات ، وسائر الأمكنة التي يرتادها الصهيونيون ، سوى
العبرية ؛ نعم ، قد تسمع الالمانيه ، أو الانكليزية ، وألف لغة أخرى من لغات
برج بابل ، ولكن المقام الاول للغة العبرية ، فهي لغتهم الدينية ، والقومية الرسمية ؛
وإذا كان الرجل ينصح صاحبنا بتعلمها ، فلأنه موقن كل اليقين ، أنها حفظت
كيان اليهود ، على عمر العصور ، وأنهم يحملون مفاتيح خلاصهم ، ماداموا يتكلمونها
فهي رمز الوحدة ، والائتم ، والنضال لأنها تجمع ذكرياتهم ، وأمجادهم ، ونبوءات

أنبياهم ، وهي أعظم رابطة روحية ليهود العالم . ولست تدرك كم بذلوا من جهود
وأموال في سبيل نشرها ، حتى غدت اليوم لغتهم في البيت والمدرسة والجامعة ،
والحقل والمصنع . . .

فها سمع اخواننا المغرورون بكل جديد ، الذين يرطنون بلغة أجنبية مقيمة ، في
بيوتهم وشوارعهم ، ويتناسون الفصحى التي حفظت نتاج الفكر العربي طيلة
القرون . . .!! وهل أدر كوا — حفظهم الله — أنهم معاول هدامة في صرحنا الاجتماعي ،
وأنت قلوبهم طابور خامس للاجنبي ، مادامت بديهيات علم النفس تقرر أن
الانسان الضعيف يحتفظ في قرارة نفسه ، — شاء الجهر أو أبي — بحب كامن
للأمة القوية التي يتكلم لغتها ؟

فن الحياة

وطوى صاحبنا صحيفة جديدة من ثورته ، وراح يتأمل طبريا ، التي شاء
سوء الطالع أن تكون في عيد . . .! وعندما أقول : عيد . . . فمغنى ذلك أن الحياة
الاقتصادية مشلولة تماماً . فلن تجد بائعاً ، ولا صرافاً ، ولا سيارة ، ولن ترى
الصهيونيين يهيمون على وجوههم في الطرقات والشوارع ، كما يفعل كثير من عباد
الله في أعيادنا ، عندما يتسكعون في سوق الحميدية والسنجقدار والمرجة . . .! انهم
هنا ، لا يعيدون ليتصفحوا وجوه الناس ، بل ليريحوا الجسم والعقل من وعشاء العمل .
فتراهم يقضون أيام العيد بين ذويهم وأصحابهم في البيوت ، أو مع أطفالهم في الحدائق
والمساح ، أو يقصدون الجبال والأرياف ، أو يذهبون إلى الملاعب والبيع ، حتى اذا
جاء المساء ، قصدوا المسارح والملاهي ، ليغسلوا آتاع الاسبوع ، وهموم الدنيا ،
وليستقبلوا أيامهم بنشاط وقوة ومرح . . .

وعجب صاحبنا كيف يترك هؤلاء القوم أعمالهم ، لينتشروا في كل مكان ،
يضحكون ، ويلعبون ويرقصون ، ويمرحون ، ويضيعون الوقت سدى ، مع أن
علماء بلده الأفاضل ، تناقشوا طويلاً في حكم البطالة يوم الجمعة ، وهل هي حلال

أم حرام ، أم واجب أم مكروه ..؟ إلى آخر أفعال المكلفين الستة ... لأن الشغل
عبادة ، كما يزعمون !.

وهو يعرف كثيرين من كبار التجار في بلده ، يصلون ليلهم بنهارهم في إجهاد
لا ينقطع ، بين البيت والعمل .. فلا يرون ذويهم إلا في المساء ، حتى غدت زوجاتهم
أرامل ، وأولادهم يتامى ، وهم على قيد الحياة .. أما راحة البدن والفكر ، فأمر
لا يقترفها إلا ذو عقل سقيم ، أمثال من يراهم صاحبنا اليوم في طبريا .. من الغفاريب
النفاريت .. الذين أدركوا فن الحياة ، فأدوا أعمالهم على الوجه الأكمل ، ولم ينسوا
واجباتهم نحو أجسامهم وعقولهم وذويهم ، وأعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله !.

☆ ☆ ☆

وبعد فهذه طبريا ، في أيام معدودات من الصيف ...
فاقرأ أيتها العربي ، وفكر بعقلك ، واستوعب نبضات قلبك .. واعلم أن
المرح والنشاط والتنظيم أمور يتقنها عدوك فحاول أن تحاربهم بسلاحهم ، وأعد
له ما استطعت من قوة مادية وروحية ، ولك القلبة ، مادام الله معك ، وإيمانك
عامراً ، والأهم العربية من ورائك ، والضمير الانساني يعطف على قضيتك
ولا تهزوا ولا تجزهوا ، وانتم الاعلمون ، ان كنتم تعلمون ..

ولكننا نعمل



هيا الى حيفا

لم نكد نغادر طبريا ، حتى لفتت أنظار صاحبنا تلك الأعمدة الكهربية التي لانهاية لها ، تدخل أسلاكها المحطات ، وتخرج منها مزودة بالطاقة والقدرة ، لتتشر النور في أرجاء فلسطين ..

مشروع روتنبرغ

ولقد كان يتمنى من صميم فؤاده ، أن يكون هذا المشروع عربياً صرفاً ، ففي ذلك عزاء للنفس وتشجيع ... فسأل أحد (الأفندية) عما يعرف عن مشروع (روتنبرغ) وهل هو انكليزي ، أم صهيوني ، أم عربي ...؟ فصمت ، ولم ينبس ببنت شفة ؛ وكان صاحبنا لم يكن ينتظر أكثر من هذه الفرصة ، فانبرى يتحدث بعد أن تحرك في مقعده متمللاً قائلاً :

إن هذه الشركة صهيونية ، دماً ، ولحماً ... فمنذ أن وطئت أقدام هؤلاء القوم فلسطين ، بذلوا النفس والنفيس ، بكل وسائلهم الخاصة لامتلاك الأرض ، ووضع أيديهم على منابع الثروة فيها . وكان في طليعة الأعمال الجبارة التي قاموا بها ، ثلاثة مشاريع هامة جداً هي : مشروع روتنبرغ الكهربائي — وأشار بيده إلى الأعمدة المنبثة على طرف الطريق — ومشروع استثمار البحر الميت ، ومشروع الحولة ...! ثم سكت مزهواً ... فهز العربي رأسه متعجباً ، ورحت أربت على كتفه مستحسناً ، أسأله : ولكن كيف كان ذلك يا (شترية) ، فقهقه ، وقال : دعنا من كيلة ودمنة الآن ، واستمع إلي : لقد عقد وكلاء التاج البريطاني بالنيابة عن (السير هربرت صموئيل) المندوب السامي في فلسطين عام ١٩٢١ ، مع (بنحاس روتنبرغ) الروسي ، اتفاقاً على تأسيس شركة في فلسطين رأسمالها مليون جنيه فلسطيني ، لمدة سبعين سنة ، للاستفادة من مياه الاردن ، واليرموك ، وفروعها واحواضها ، في أرض الانتداب الانكليزي ، أو الواقعة في منطقة الانتداب الفرنسي

أي في بلادنا...! وذلك في سبيل توليد القوى الكهربائية وغيرها... وبعدئذ
رخص له أيضاً في أن يبني على جسر المجمع، محطة كهربائية، وأن يستعمل بحيرة
طبريا خزاناً للمياه التي يريدتها لمصلحته، فيبني السدود، ويمد الأقبية، كما أنهم
سمحوا له ببناء كل ما هو ضروري لعمله من المحطات، فيغير مجرى اليرموك وروافده
إلى طبريا، ويستملك ما يراه ضرورياً لمشروعه، كما منحوه استثمار نهر العوجا
قرب يافا...

وبدت أمارات الدهشة والاصغاء الشديد على العربي. فكأنه لم يسمع بشيء من
ذلك في سابق حياته، وليس الذنب ذنبه؛ فأين النوادي، وأين المحاضرات، وأين
المجالس الشعبية التي توقظ موات النفوس، وتعلم الغافلين ما ينفعهم ويؤجج حماسهم...؟
ولقد قاطع العرب هذا المشروع، بادئ الأمر، فأبوا الاشتراك في أربعين بالمائة
من أسهمه، فاشتراها الانكليز... وإن مركز الشركة في تل أبيب، واسمها: شركة
كهرباء فلسطين م. ص؛ ورغم أن العرب يستهلكون مقداراً عظيماً من القوة
الكهربائية، حتى لكأنهم يساهمون رغم أنفسهم - في إثراء الصهيونية وتقويتها،
فإن الشركة لم تستخدم عربياً واحداً في أعمالها أبداً...

وسكت بعد ما تبعه خطابه، وأثار أعصابه، وعاد إلى نافذته يتمتع بصره بالقرى
التي لم تثر شيئاً من حماسه، ولم تعصف فيه رغبة النزول للاطمئنان على صحتها الغالية،
لأنه لم يجد فيها جديداً، ولأنها نسخة طبق الأصل عن قرى الشام البعيدة،
المتأخرة، ويكفيها أنها في (أنتركت) بين الحياة والموت...

على هامس الناصرة

وأشار الزميل الفلسطيني إلى الناصرة، يدلنا عليها من بعيد... وعندما
وصلنا إليها، أغمض صاحبنا عينيه قليلاً، وهو يزدرد قطعة من الشاطر والمشطور
وبينها لا أدري، على قول المتحدلقين، واستسلم إلى تفكير عميق... ثم هز رأسه
وفتح عينيه، متأسفاً كفيلسوف حائر، وقال: ألا تدرون أن في هذه الربوع
ذكريات خالدة، وأن كل ذرة من رمالها لها تاريخ مجيد، عظيم...؟ إنها مدينة

السيد المسيح ، يسوع الناصري ، له المجد ؛ هذه المدينة التي أُنجيت من علم الناس
الحب والتسامح والمودات ، ومن سنن شريعة الاخاء والصفاء بين البشر ...
ولكن وبالأسف . فقد جاء من بعده اناس أضعوا التعاليم وفرطوا بالرسالة ، فكانوا
ذئاباً دونها ذئاب طوروس أو سييريا ... جعلوا من الحب استعماراً ، ومن المودات
انتداباً ، ومن الاخاء تقيلاً وتعذيباً ، ومن الرسالة السامية حرباً ظالمة لا تقي ولا
تذرع ..! ولكن ، هيات للغرب المادي الجشع ، ان يفهم تعاليم الشرق ، وصوفية
الشرق ... ولن يسود العالم السلام ، ولن يحل الاخاء مكان الجفاء ، ولن يهدأ
للأمهات والأطفال بال ، أو تنتزع من هذه الدنيا بذور الشر والعدوان ، إلا بعودة
الغرب إلى تعاليم الشرق ، ورسالات الشرق ، وفلسفات الشرق ...

وهاهو ذا التاريخ حكم بيننا ، وهاهي ذي فلسطين أمثلة أمامنا ، ألم تعش
دهوراً وأحقاباً هادئة مطمئنة حتى جاءها الغرب بانتدابه وصهيونيته ..؟!
وهل مرت عليها أيام سوداء أسوأ من أيام الصليبيين قديماً وعهد الانتداب
والصهيونية حديثاً ..؟!

لقد ذكرته هذه الناصرة السيد المسيح وخال امه النجار ، فكادت تسيل عيناه
مدراراً على مأساة المصلوب ، كما سالت عينا الفلسطيني دموعاً تلقفها منديله الملون
كقوس قزح .. ولولا مشاكستي لرسم صاحبنا الصليب على صدره ، ولنسي أنه
حنبلي مسلم تقي تقي ..!

وشرعت السيارة تتحرك بنا نحو حيفا فبدت على هوامش الطريق مستعمرات
صهيون ويطلق عليها المستعمرون اسم (كيبوتس) ومن المستغرب أن هذه
(الكيبوتسات) متقاربة جداً فهل يعني ذلك أن اليهود يملكون كل تلك الأراضي؟
وإذا كانت كلها لهم فأين ذهب العرب ..؟

ولقد ظهر ذلك النظام الذي كنا نسمع ترديده على ألسنة الناس ، ماثلاً أمامنا
فالبيوت مكعبات منشورة بترتيب هنا وهناك ، والأحواض خزانات عالية متشابهة ،
والحدائق محوطة بالصنوبر والزيتون على نسق واحد متماثل ؛ وكذا النوافر اللولبية

تدور وتسقي برشاشها الخضر ، والأشجار ، والثمار ..!
ولم أر (بيارة) واحدة أو كما يدعوها الصهيونيون (پارديس) إلا ومحاطة
بالسرو ، ومترعة بأشجار البرتقال والليمون على مسافات واحدة وأبعاد متساوية ...!
وعندما تجلت أمامنا معامل تكرير البترول وتصفيته ، ومعامل الاسمنت حمدنا الله على
السلامة ، فقد حطت رحالنا في حيفا ...



نحن في حيفا

عالم الهادار

استيقظ صاحبنا باكراً رغم أنه . فقد أجبرني على سهرة بل سهرات في مقاهي
البلدة الغامضة .. تلك المقاهي المشحونة بأكثر (أرتيستات) الحرب احتراماً ،
وأشدهن نجاحاً في دنيا الفن الرخيص !..

كان يدخل بي السرايب ليخرجني في صالة - ولا مؤاخذة - أو يخرجني من
صالة ليدخلني في سرداب .. على العمياء .. دون أن أخالف له رغبة أو ماربا فهو
رجل يحب البلدي !. ويموت في البلدي !. و ... مالو البلدي ..؟ حيث هز البطون
والذقون ، والعري الوضع ، تتجلى فيه بنت حواء بأحط ما خلق الله من
طبيعة وسخة ...

ولعني لا أنسى فراري منه أخيراً ، فأسرع يقفو أثري بعد أن هاجمته
إحدى الطيور الشاطئية ، من اضخم البجمات في حلبة الرقص البلدي تود مغازاته
لأنه بدا في عينيها - كما يقول - ولدأ طيباً من الصنف الممتاز !..

استيقظ وشهوته لحي الهادار تأخذ عليه لبه وفؤاده فما زان هذا الاسم مسطراً
في قائمة حسابه منذ مغادرته دمشق .. فجعل يقيم الغرفة ويقعدها ، ويقلب أعالها
أسافلها ، باسم الاستعداد للرحلة (الهادارية) العظيمة ، لابس ايقاظي وإزعاجي !.
وأخيراً سلمت أمري الى الله ، ور كضنا معاً مهرولين على سلام الفندق ، صاعدين في
الحي (لنبحلق) في عباد الله من بني صهيون !..

وكان القوم في عيد (روشاشانا) وقد أغلقت المتاجر ، وشلت الحركة ،
وأقفلت الشوارع الرئيسية ، وقبع أناسها في بيوتهم على قمة (الهادار) ...

والهادار ، حي يهودي ، بل أحياء صهيونية قبل كل شيء ، وأوربية بكل معنى

الكلمة . ولكلمة (هادار) وقع وموسيقا في نفس بطلنا ، أكثر مما تفعله زجاجتان من الوسكي ؛ فكان يلفظها ويتشدد بها على جميع الألحان والألغام ، ويؤكد لي أنها شطيرة من العربية . ! فالهادار هو المنحدر أو الانحدار ، لأنه يقع في سفح (الكرمل) ومنحدره . وبعد ، أفليست العبرية جدة العربية أو ابنة عمها . . . !

ولقد . . . وعى عن الهادار قبل سفره ، أكثر مما يحمله الحاج إلى بيت الله الحرام ، من المعلومات المسلوقة النيئة ، فلا يحتاج إلى (مطوف) أو دليل حتى انه كان يحدثك سلفاً وارتجالاً عن شوارع الحي العريضة النظيفة ، وموقعه الفاتن ، ومناخه العليل البليل ، ومقاهيه ، و (باراته) . فأراد أن يقرن الواقع بالخيال ، ويطبق جميع معلوماته الفلسفية ، فيبدأ بالشك حتى يرتفع إلى مرتبة اليقين . . . !

أبدأ . . . لم ينس ساعتئذ أن يهمس في أذني ، بأن بين هاتيك الربوع والمقاصف والمغاني ، بنيات يهفو اليهن فؤاده ، وسبقاناً عارية ، تضيء له ظلمة الليل ، وتقطع منه نياط القلوب ، ونهوداً صلبة تنادي : هل من مناجز . . . وشقرة محمصة ، مقالية فوق نار الشمس الساحلية ، وعلى بساط الرمال البحرية الحمراء . . . وعلى المؤمنين بما يعلن أشرف السلام . !

ولقد كنا حقاً كالمشدهوين ، في العابرين والعابرات ، والمتنزهين والمتنزهات ، وفي الأبنية ، والخوانيت ، والشوارع ، والنظام ، ومظاهر الترتيب والاهتمام . . . لن تجد هنالك مطاحات السحاب ، ولكنك تجد مغاني الشعب طياً في المغاني ، فيها نحن أمام حديقة عامة ، نثرت فيها المقاعد بانتظام ، وليست هي مقاعد محطمة كما هو الأمر في شارع بغداد ، الشارع الوحيد الذي يشتمل على خمسة أو ستة مقاعد هرمة كسيحة ؛ ولكنها مقاعد تحسن أن تكون في (صالون) الضيوف في منزلك : مدهونة ، موضوعة تحت الأفياء الظليلة ، وبين الزهور الملونة التي ذكرتنا بحديقة الصوفانية ، والمرحومة المنشية ، والمشتل الزراعي . . .

ولقد جذب نظرنا ، عناية القوم بأطفالهم ؛ فتراهم في عربات صغيرة مكشوفة تتعرض أجسامهم إلى الشمس والهواء ، لا يلبسون سوى سروال قصير جداً . . . أما

أمهاتهم وآبائهم ، فينتقلون بهم هادئين ساكنين من مكان الى مكان ، ومن ظل الى ظل ، بينما لا يتنازل عندنا الأب أن يعنى بطفله لو حده ، ولعله إذا سار مع زوجته وهما يدفعان ابنهما امامهما لمد (بوزاً) بطول شبر لئلا ينجل امام الناس من مساعده أنثاه وكان ذلك جرم مبین . . .

فهذه أم تشدو بصوت رخيم فيه عذوبة وفيه دلالة . . . وذاك أب يؤرجح العربية ذات اليمين وذات الشمال ليغفو صغيره . . . وهناك طفلة تدحرج كرة وهذا طفل يشد حبلاً صغيراً . . .

وكان الهدوء شاملاً ، والنظافة تغري المرء أن يتوسد الثرى . . . وهكذا فان القوم يقضون عطلتهم في العناية بأطفالهم أو في الصلاة أو الموسيقى أو الرياضة أو القراءة ، في الشرفات أمام فناجين القهوة ، أو كؤوس (الأسييس) . . .

ولعل العناية بالأطفال هي فكرة عملية قومية ، يقومون بها كما يتعادل النسل الصهيوني على قلة اليهود ، مع النسل العربي على كثرة هؤلاء . . . فان الوفيات عند اليهود المستعمرين قليلة جداً بالنسبة لوفيات أطفال العرب . فلو عني العرب بنسبهم تمام العناية كما يفعل خصومهم ، لما استطاعت الهجرة تغيير النسبة بين عدد السكان اليهود والعرب ، بل لباءت بالفشل الذريع . ! ومن هنا يمكننا ان نفهم قيمة المؤسسات الصحية القليلة في ارض العرب ، وضرورة الاهتمام بها . . .

وسرنا فلم نر شارباً وسخاً ولا طريقاً قذرة ؛ فكل فرد يتقد مخلصاً ان له حقاً ونصيبياً في الطريق ، والحديقة والشجرة ، وعليه حراسة كل ذلك والعناية به . فلا بصاق ولا ورق ولا تهشيم اشجار . . . فعلى كل امرئ ان يصون ملكه ويهتم به ويرعاه . وهذا نوع من الحياة القومية الواعية التي يحياها هؤلاء الأعداء الأقوياء . . . وكان لكل بناية مستودع من الصلب أسطواني الشكل ، جميل المنظر ، مزر كش مدهون بما يمنع عنه الصدأ ؛ يضعون فيه الفضلات والاقذار فلا ضرر ولا ضار . . . وقد لفت نظر صاحبنا إعلانات القوم ودعاياتهم فكانت صغيرة الحجم غالباً ، مرتبة في إصاقها على لوحات خشبية خاصة ، مدهونة ، لاتعداها

إلى الجدران أبداً ، وكلها بالعبرية وقليلاً بالانكليزية ؛ ولم نر إعلاناً واحداً
بالعربية ، وكأننا بالهادار بقعة يهودية صرفة ، يريدون جعلها نموذجاً للمدينة الصهيونية
أو للبناء اليهودي الحديث ونظامه . . .

لم يقع بصرنا طيلة جولتنا على امرأة مهملة الهندام ، عابثة أو خليعة ، أو مزينة
الوجه ، كما تبدو بعض النسوة في شوارعنا ؛ يختلن بأثمن الأجوخ والاقمشة وأثمن
الابيض والاحمر حتى ليستطيع الزوج أو الاثخ - لو أراد - أن يكشطه كشطاً .
فنحن في الصباح وكل منهن تخرج لعمل أو حاجة ، وليس لظهار الطلاء (التوايت) .
فثمة فرق بين النظافة وحسن الهندام ، وبين التبرج والخلاعة .. ولا يحسبن أحد
أن أعداءنا الصيونييين نبدوا متع الحياة وزخرفها .. لا ..! أبداً .. ولكن لكل
شيء عندهم وقته وساعته ، فلو رأيتهن في المساء ، نسيت بتي غرابل وهيدي لامار
وفيفان لي ، ودورتي لامور . . . و . . .

كان لكل بناء حديقته ، مهبا وضع وصغر ؛ وعلى رصيفي الشارع تنتشر أشجار
الزيتون على مسافات غير متساوية للضرورة . فقد افتتح الطريق وجزت أشجاره
وأبقي منها ما يمكن أن تتقارب مسافته من الآخر على حاله ؛ ولذا فهي إما نابية عن
الاستقامة المطلوبة ، أو ناتئة من صلب الجدار الملتف حولها في الطريق . . . ولقد
كان كل ذلك يهتف بنا أننا في جبل الزيتون وعلى سنام الكرمل .
وإنها لعمرى أشجار جميلة رغم كل شيء بسيطة وقورة مهابة ، حتى أنك لترأها
في حدائق البيوت لنفس السبب المذكور ، وعلى اطراف (الفيلات) والقصور .
ولقد أعجب صاحبي رتل من الناس كباراً وصغاراً ، إنثاً وذكوراً وقفوا
سلسلة طويلة على طريقة ال (كو) أو مايسمونه بالذيل . وقفوا يتعاون جليداً . .
ولم يكن بينهم صياح ولا خصام او زحام ، وإنما يقتطع البائع قطعة الجمد المنضد في
سيارته البخارية ، بمخرز في يده يثقب به اللوح عدة ثقوب ، ثم يلطمه بقبضته
فتفصل القطعة عن اللوح بانتظام واتساق . وارتسمت على وجه صاحبا إشارة تعجب
هائلة ، فحوقل واستعاذ ، واقسم يميناً بأن اهل بلده لو تعلموا هذه الطريقة الدورية

في الانتظار ، وانتظمو في سلك (الذيل) ، لما حصلت بينهم تلك المشاجرات والمذابح في سبيل الجليد ، وامام دور السينما ، وخاصة في شهر الصوم والبركة .
 كان كل واحد من القوم يحمل قطعه في شبكة او جعبة جلدية ، فلا ترى منشفة وسخة ولا منديلا مطرزاً ولا يتناولها بيده لينقلها بين حين وآخر ، كما مارس الامين من يد الى يد ، والمياه تملأ اكمامه وثيابه . . . ولقد كان البيع يبدأ بكلمة (تفضل) وينتهي بكلمة (شكراً) فلا هرج ولا مرج ، ولا محاباة أو التماسات وخواطرابي فلان أو شوارب علان ...

في مغاي الكرمل

وتردعك الزهور الكثيفة المتنوعة في كل مكان عما يشين بقدرك . وهل مثل الزهور ما يهذب الذوق ، ويرهف الحس ، وينمي الشعور بالجمال ؟
 ورغم اننا لانعرف كل اسمائها وانواعها ، فنحن نستطيع ان نقول بانها من اجمل ما خلق الله ، وابدعت الطبيعة ، وهذب الانسان ...! فهي تحيط بالابنية ، والدور ، وتستتر أكناف الشوارع جميعاً ، فتمتع العين ، وتريح النفس ، فكأنك تسير بين الرياض . واكدي صاحبنا وجزم ، بأن الأشجار والأغصان هي حائل منبع دون الغبار والرياح ، التي لاتزور هذه الاماكن أبداً ، ولا تعصف بالبيوت فتعمي الأبصار وتصيب السكان بأفانين (التراخوما) وأمراض العين . . .
 وكيف ينفذ الغبار أو تتسخ الشوارع وهناك أرض الأسفلت تكنس بمكانس ناعمة دقيقة من الشعر ، لآثر الأشواك الجميلة فيها ، او العواسج ، ولا تطرق أرضها الجمال والحمير والطنابر .؟! فعلى رأس كل طريق ، علامة ترمز إلى إقفالها في وجه الدواب والعجلات . وهو ما يضايق صاحبنا ويزعجه كثيراً فقد اعتاد — والعادة محكمة — أن يري في بلده أصحاب الخيول الأصيلة ، يتسابقون في الشوارع ، وتعود سمعه أن يختلط بقرعة الطنابر وهدير الجمال ونهيق الحمير والبغال ، ولكل امرئ من دهره ما تعودده! . اما السيارات فتصل الى قمة الجبل ، دون أن تشير عجاجاً

أو تحدث ضجيجاً . فالملك هاديء ساكن حيثما سرت واني ذهبت ، ولعل الأهلين
يعملون بعقولهم وألبابهم أكثر مما يعملون بقلوبهم وعواطفهم ، ويقول أرباب
الفلسفة والأدب بان الضجيج أعدى أعداء أصحاب التفكير .! فهل هذا صحيح؟
لست أدري ..!

وكان للطريق الواحدة منافذ عدة؛ على أن أجمل ما فيها تلك المهرات الجبلية
الخاصة ببناء آدم وحواء المكرمين .. فهي مؤلفة من سلام حجرية ، تحيط بها
أنفان وأدواح . وتؤرجها أزهار ورياحين ، تتعاقق فتشكل أقواساً من الزمرد، تكمل
هامة المرء حينما يمر من تحتها ، وتشيع فيه الطمأنينة والسعادة

ولقد ثار صاحبنا على بيته وحرارة وأهله وخلانته . ثار على كل ذلك لدى رؤيته
هذه المناهج المدنية الراقية ؛ لأنه ظل سنين متواصلة يطلب رصف حارته التي لا تتسع
لمرور ثلاثة رجال سمان معاً ، فما استطاع .. ولم يجد من يجيبه ولو بكلمة رفض .!
ومكث يفرق شتاء في الوحل فيلبس في رجله القبقاب حتى يخرج منها ، ثم يتعمل
حذاءه ويرسل قبقابه مع أخيه . وفي الصيف يثور الغبار فيجبر على دهن حذائه كل
يوم مرتين ، يخسر في سبيله نصف ليرة سورية وهو أمر يحسب له اليوم ألف حساب .
واغضبه أيضاً من كل ذلك ان هذه الحدايق والجنان والغياض والرياض لا حارس
عليها ولا رقيب .! ولكم نازعته نفسه ان يعتصب شتله ، يرصع بها منزله او يختلس
وردة يزين بها صدره ، كما يفعل بعض الشباب الهايلايف . . .

وعندما ابصر هاتيك المقاعد الشبيهة الجبلية دعا ربه أن يلهم البلدية إلى وضع
أمثالها في شوارعنا وحدائقنا ليكون لها جزيل الفضل وحسن الثواب . وكانت
تلك المقاعد بسيطة جداً ، اجتزتها اليد العاملة أغصاناً طبيعية من أشجار الصنوبر ،
وجعلتها على حالها دونما تهذيب أو تشذيب

ولعمري إنها مقاعد مريحة مائة ، على قمم الكرمل ، تحت الأقياء والظلال
فتشرف منها على البحر وميناء حيفا ، وأراضي الهادار ومصافي البترول ، حتى لتكاد
تلمسها لمساً من مكانها السحيق . . .

وجلس أخيراً على إحداها ، وأطال الجلوس ، وثنى لوقضى العمر في هذه
الأمّا كن الهادئة ، أمام المناظر البديعة ، والمناخ الممتاز . حتى لقد شاء تخليداً
لهذه الرحلة المباركة ، ان يمضي ساعة ، في مقهى معلق بين السماء والارض ، في
ذروة الجبل .

وما كادت تطأ أقدامنا مقصف (يانوراما) الشهير او : المنظر الجميل كما انتهى ان
يعربها ويترجمها الى لغته المحببة ، حتى فاجأتنا الغادات الحسنات وقد استلقين على
الكراسي المستطيلة الصفراء ، معتكفات في ذلك الهدوء الشامل ينتظرن المساء !
وكان المقصف كما يبدو للعيان مرقصاً و (باراً) وفندقاً ، ثرت فيه المقاعد
والمظلات ، حول (اوركستر) يملأ الجو بانغام ناعمة حلوة منعشة .! ولست ادري
لم يتقلص صاحبنا إلى ربع حجمه كلما رنا الى بعض الفاتنات أو حسب أن إحداهن
ترنوا ليه .! فللجمال — كما يقول — سلطان يرعش ويخجل ، فكم خرت تحت أقدامه
عروش ، وتهاوت دول ، وهو السلاح الذي لا يقهر في جيش لا يغلب ..!

وإذا كان هنالك في الحرب ، ما يسمى ، بالسوق السوداء ، فان في زمن السلم
أيضاً ، وفي مرتفعات الكرمل ، ما يمكن أن نسميه بالسوق الظالمة ..! وليس معنى
ذلك أن في هذه الذرا والمرتفعات بضائع محتكرة مهربة ، وإنما نستعير على سبيل
المجاز اصطلاحاً اقتصادياً لبيع بضائع الملاذ الأرسقراطية بثمن فاحش منكر ..!
وجاءنا ضيف كئيب محزن ، هو شبح الماضي ، فجالسنا صامتين واجمين يتأمل
كل منا الآخر ، ويذكر « دمشق ، وبيته ، وأهله ، وأيامه الضائعة سدى في
الأعمال الشاقة والمآسي البلدية المزعجة .. ولعل هذه التذكريات هي كل ما كان
يعبر به صاحبنا عن لذته وسروره ..! فلقد كانت تلك المشاهد التي تبذل أمامه دون
أن يدفع قرشاً في سبيلها ، هي أعنف لذة مرت به في حياته ..

فأين من عينيه هاتيك الغواني الساجيات تحت الأشجار ؟ وأين من عينيه
أولئك الفاتنات المترقيات .. المنتظرات .. رجل الليل وبطل التدهور والغباء ..!
ولعله سر أشد السرور لأنه المقصود بهتاف : يا صعايك العالم اتحدوا ، ولأنه

ليس من الاغنياء أولاد الذوات الذين يذبثون في (البار)، لينفقوا عن سعة وسخاء،
وإلا لتدهور في بذل مريع، أمام الأمليد العابثات فهو يعلم حق العلم أن نساء
صهيون لهن معدات في موضع القلب وابتسامات فاتنة كصناديق الحديد، تحرص
على ابتلاع النقود دون اخراجها ..! ولذا فهو يحمد الله الرحمن الرحيم بعباده المتقين
ثم قطع عليه تأمله وإغراقه وسهومه، مرور عجلة بخارية، يمتطيها فارس حديث
وخلفه أثناءه وسرواها (المزموم) — شأن بنات المستعمرات — قد ارتفع حتى
الحرقة ... وقد فرقت ساقها كعمودين نحاسيين مترعين باللحم الطري الطازج.
وعندئذ هب يكافح الغواية والاغراء مسرعاً الى الفندق ...



في ربوع الجزائر

هل يحق للسائحين الكريمن أن يزورا فلسطين ، دون ان يشاهدوا ثغراً من ثغورها الخالدة ومعقلاً من معاقليها المجيدة ...

إن (عكا) هي ستالينغراد القرن التاسع عشر . . . وعكا هي مدينة الجزائر وقاهرة قاهر الشعوب نابليون بونابارت . . . وهي المدينة التي ارتد عنها مدحوراً ميئوساً كما ارتد (روميل) شيطان الصحراء بالأمس ، عن العالمين ، فاذا بالديناغير دنيا ، واذا بالمجد تغرب شموسه ، ويتقلص الغز والنصر ، بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى .
تلك هي عكا !.. عكا التي صمدت في وجه سيد الفاتحين ، وكانت إيداناً بغروب انتصاراته ، كما كانت ستالينغراد مقبرة الجيوش التي زعموا يوماً أنها لا تقهر . . . وما أشبه الأمس بالبارحة . . .

ولئن كانت الرجال تخلق أمة ، فان هنالك مدناً تخلق شعوباً . وان عكالن هاتيك المدن ..
لقد كان صاحبي يبرر زيارتنا (عكا) بمثل هذه المقدمات الخلابية ، والالاح المستمر كطفل مدلل ؛ وعهدي به خراسانياً أصيلاً ، يتخذ مبدأ لبس الجوارب السوداء صيفاً ، اقتصاداً في نفقات الغسيل ، ويخلط النبيذ بالماء ، كيلا يسرف في الشراب !.. فما باله اليوم ينثر أمواله دون حساب .؟ هل أثقلت القطع الفضية جيوبه ، وخشى أن تثقبها فالتجأ الى صرفها . . . وأخيراً . . . سلمت أمري الى الله وقبلت منه الدلال ، وأنا أخوف ما أكون كمن يعطي الصبي واحدة .. وكنت أقرأ في وجهه آيات الاعياء والسهر ، وهو شيء لم يتعوده لعشرين سبباً ، أقلها أنه ينام في بلده من الثامنة حتى السادسة صباحاً ؛ فكيف به وسهرات الأمس السالفة ، وضياع الدراهم في غراميات مع اللقالق من بنات حواء ؛ سلام هي حتى مطلع الفجر . . . ؟

شيوخ نمشي على الماء - وممنذات صربونية

وشاء حسن الطالع أن يرافقتنا في الرحلة شيخ من شيوخ الصوفية والطرق
المجلة، من يسمونهم: شيوخ السيارات ودق الطبول، وبلع الحديد واكل الأفاعي..!
وكانت عمامته خضراء قائمة، وشعره كثأ طويلاً ملمعاً بالزيوت والعطور الخائقة،
وعلى عينيه حكمة تسمى بجدارة واستحقاق «مبطنة» عريضة، كانت تهبه نظرات
بليدة، يحاول ما استطاع أن يجعلها نفاذة ذكية، فيخفق ملايين المرات في الدقيقة.
وكانت ثيابه وسخة جدا تغطيها جبة ربما قيل يوماً إنها ذات لون أسود؛ ولعل
العين تقتحمه لآساخه المتراكمة تحت أظافره الطويلة، وعلى وجهه وذقنه اللامعين
بدهن (اللون) والعطور المختلفة..! وعندما أردت الجلوس تنحيت عنه الى آخر
السيارة، وتركت محلي طائماً مختاراً خيفة أن تلحق بي (غريبة) وهي في لغة البلد
(القملة).. أما صاحبي فلم يجرؤ على الفرار، بعد أن ابتسم له الشيخ الالتمر الصالح
واضطره الى الجلوس بجانبه لياركه ولا غير..!

ومن حسن تصاريف الاقدار أن (الغريبة) التي كان يخشاها صاحبنا كما
أخشاها، لم تجسر على ما يظهر أن تغادر الدسم والزيوت من جسم الرجل وأسماله،
لستوطن رفيقي فتصعبه. والوطن قتال. - ورحم الله أهل الامثال - ..
ولم يكذب صاحبنا يجلس بجانب الشيخ حتى راح يلحف عايمه بالسؤال عن معامل
البتروك وتكريره، والاسمنت وصنعه، والمصانع الحربية الممتدة على طول الطريق،
وأبنية الغيوم الصناعية لتضليل الطائرات، وهي تباعد عن بعضها بمسافات متساوية على
طرفي الطريق، وعن المستعمرات الصهيونية والثكنات، العسكرية وعن ألف سؤال
وسؤال دون أن يقنع بجمل الشيخ وتهربه من الجواب، أو تحبطه فيه وإيجازه الكلام
كالبريقيات. وأخيراً تطوع لنبذة الشيخ، أحد الركاب العرب، ولعله ممن يهتمون بقضية
بلاده فقال:

إن هذه الأراضى - من حيفا الى عكا - التي تمتد أمامكم يا سيدي، هي جميعها

لأبناء إسرائيل ..! فقد اشترت (الكيرين كايتم) تلك المؤسسة اليهودية المعهودة (٣٥) ألف دونم بين حيفا وعكا تلافياً لخطأ سابقة ... فقد أقسم اليهود ألا يقعوا في خطيئة إهمال شراء الأرض مرة أخرى ؛ لأن مؤسسي (تل أبيب) اشترؤا في السابق (١٤٠) دونماً فقط للمدينة الحالية ، ولو أنهم اشترؤا أكثر من ذلك لربحوا ملايين الجنيهات ، ولتغير وجه (تل أبيب) .. كما أن شركات أخرى هنا اشترت من هذه الأراضي الجرداء ما يعادل (٢٠) ألف دونم أيضاً ..!

ثم ابتسم بحفاة وتابع : أفلا ترون معي ، كيف سيكون مستقبل حيفادات المرفأ العظيم والسكك الحديدية ، ومصافي البترول ، والمعامل ..؟ إن كل ما أذكره سيساهم في غلاء هذه الأراضي - وهي اليوم ملك العدو - ويجعلها مطمئنة الى مستقبل غلاب هائل ، ليس في فلسطين وحدها بل في الشرق الأدنى كله . . لأن هذه المناطق الصحراوية ستكون - كما ينوي الصهيونيون ان يعملوا - نواة مدن صناعية ومعامل مختلفة ، يبذل فيها اليهود جهدهم لاستعمار فلسطين ، والشرق العربي أجمع ..!

ولنذكر أيها الأصدقاء العرب دائماً ، بأن لليهود رأياً يقول : لا فائدة من نمو الصناعة والتجارة ، إذا لم تزدهر قبلهما الزراعة ..! إن الآلام لم تصب اليهود طيلة القرون والعصور إلا لاهلهم الزراعة وعدم تعلقهم بالأرض ... فالأرض نواة لمحبة الوطن والاتصال به ...

وهنا تدخل الشيخ في الحديث فتغير مجراه .. فالتفت الية صاحبنا مشاكساً وقال له بلهجة خاصة : « حبوب .. شو هالسيارة يلي مرّت البارحة في ساحة الحناير ..؟ الله يكثر من أمثالكم ويبارك فيكم » .. ثم تنفس وتابع :
« الله يعزّ الدين .. شفنهم بيلعبوا بالسيوف وبيا كلو التيران ، وشعورهم منفوشة ، ودقونهم طائرة بالهوا » .. « والله شيء بحمّس ، وبنومس »
فابتسم الرجل ابتسامة الخبير المتكتم ، ثم هزّ رأسه ولعب بسبخته وقال بعد صمت طويل :

« إي ما هو أنا شيخ السيارة ..؟ ! محسوبكم ، ودناجيمكم ..! وعلى أثر ذلك

اعتدل في جلسته مزهواً وانتفخت أوداجه، وشرع يسبح الله... وهنا تابع صاحبنا قوله بعد ان انحنى على ذقن الشيخ، وراح يقبلها برؤوس أنامله تجبباً وخبثاً؛ ولولا خيفته من الجرائم المفرخة المستوطنة في تلك الغابة العطرة، لعانقه على مذهب إخوان الصفا، وخلان الوفا... « ما شاء الله... حوِّطك بالله وأولياؤه... أنتو يا شيخ بركتنا، والله يرحم الأواول الأودما شو علمونا »... وما كاد يلفظ هذه الجمل، حتى طار الرجل فرحاً وسروراً، وناولها مفاً من الورق هو إجازة ضمن خرقه خضراء، بدأ ينشرها أمامه، وكانت طويلة جداً كقرمان هياوني، لا تقل طولاً عن عشرة أمتار...! وقد بدأت بالبسملة، وانطوت على الآيات القرآنية وأسماء الله الحسنى، والأحاديث النبوية الضعيفة، والموضوعة عن الصوفية، وإجازات المشايخ بلث النار، ودخول الفرن، وطعن الخناجر، وأكل الزجاج والعقارب وما الى ذلك...! ولقد حاول صاحبي أن يطوي الإجازة خلاصاً من أرجل الذباب الكتابية، فأبى الشيخ عليه ذلك حتى يتممها... فكان يقرأ من كل سطر الكلمة الأولى، يدمدم ويهمهم بالباقي الى آخرها... ثم طواها بتؤدة يضرب بها الأمثال، وسلمها الى الشيخ الراحل الى بلد آخر، لتصديقها وختمها من شيخ مشايخ الصوفية، العالم العلامة والخبير الفهامة... كما يرحل الروادو المكتشفون من قارة الى قارة، ومن أرض الى أخرى، في طلب العلم وخدمة الانسانية والحقيقة...! وأخيراً قل صاحبنا (الحشري): والله يا حضرة الشيخ « لازم تكتب هابراهة بماء الذهب على آماق البصر...! » فاستحسن الشيخ منه هذا التعبير الغريب. وربت على ظهره يرحوله حسن الخاتمة والمصير والثبات على الايمان...

وسأله الشيخ عن (الطرائق) في الشام وأنواعها ورواج بضاعتها، فأسرع صاحبنا كلص بغداد، يثرها أمامه كما يفعل الحاوي بأصدافه وأخشابه، يكشف الألعاب والألغاز وقال:

ومن جملة الطرائق التي تزيد عن السبعين عندنا الطريقة الكعدانية، والشالاتية...! فعجب الشيخ من ذلك وهو لم يسمع بهما في حياته... وابتسم الصديق مفتخر أومد

يديه الى الشيخ، كمن يخف إنساناً بهدية ثمينة ورائحة : إن هذه الطريقة الكعدانية،
ياحضرة الاستاذ، تنتشر انتشاراً واسعاً في بر الشام وهي كالطريقة الشالاطية حتماً من
حيث المبدأ والهدف ...

فقد اشتهر أصحابها بأكل الدجاج واللحوم، وتصبر العتارب والحيات، حتى
أرؤى الناس أنهم يطرون عند الامتحان في الهواء. ويحومون حول المآذن
كالخفافيش! ثم همس بأذن الشيخ: وإنك لو شرفت دمشق ياسيدي،
لسروا بلاتك، وبنار كوا بمتدمك؛ فللقوم عندنا غاية واهتمام بكل طريف من
(الانتيكات) ..! فلم ينتبه الشيخ إلى هذه النكتة، التي تخدش ولا تدمي ...
وكنت أختلس النظر إلى وجه صاحبنا المراوغ الشلبي، دون أن أسبر غورده،
ولن يستطيع ذلك احد، حتى ولو كان أقوى كاشف كيميائي، (كعباد الشمس)
مثلاً، وأترابه في السراء والضراء ...

وهنا أدركت السياره عكا. فنزل المسافرون، وتفرق الجميع ...

في صمى الجزائر

كان من أولى وجائبنا، أن نزور قلعة عكا؛ ولكن هل إلى ذلك سبيل ..؟
فالقلعة اليوم سجن ترتعد لهوله الفرائص، وتقشع لذكوره الابدان ... ويكفي
أنه لم يحدث قط أن عاد إليه ثانية، من سجن به أول مرة ..! وتلك لعمري غاية
السجون القصوى؛ فهي مانعة رادعه، مهذبة معلمة، تعيه الى العالم أناساً صالحين
مقلمي الأظفار، كما تخرج المستشفيات أناساً معافين ... فلتمت عناصر الجرائم
والشقاوة داخل السجون، كما تقتل جرائم الأمراض بين جاران المصححات
والمشافي ...

ودخلنا القلعة بعد إجراءات طويلة، ومعاملات عريضة، فشاهدنا الخنادق
السحيقة، يجوبها المساجين باليستهم الزرقاء، ورأينا تلك الأسوار الضخمة الشاهقة
التي استطاعت الصمود في وجه الجيوش الغازية فردتها على أعقابها؛ وهنا وهناك

كنا نشاهد المدافع القديمة ، التي تملأ من افواهاها بالبارود والمتفجرات ؛ وتكاد تنطق بالغزو الفرنسي للجزار ، وصراع العتاة . ولقد دخلنا غرف المساجين المختلفة فمنها السجن المنفرد (الخلية - سيلول) ، ومنها الغرف الواسعة ، فوق الارض وتحته ، هذه الغرف التي شهدت في عهد الجزار أفظع وحشية يصلها الانسان لآخيه الانسان ؛ هذه الغرف التي كانت مترعة بالآلات التعذيب والصلب والتبل ؛ حتى وقت قريب ... ومن ثمة برج عال أشرفنا على عكا ، والبحر ، والسهول الفيحة ... فكنا نبصر من هناك سور المدينة المزدوج ، وجدارانه القائمة على قناطر متينة وعقودها المتفلة من الخارج ، المفتوحة من الداخل ، وكان لسور باب واحد في الشرق ، ففتحوها له باباً آخر من الغرب أو طريقتا ... ولقد قيل إن الهال عثروا على هياكل بشرية مدفونة بين جاري السور ، حينما كانوا ينقبونه لفتح الطريق ، مما يثبت شدة وطأة الجزار على المجرمين ، وذلك أنه كان يضعهم وهم أحياء في السور ، ويذبحهم فوقهم ..

غادرنا القلعة وقصدنا جامع الجزار ، وهو رحب الساحة ، جميل التكوين ، طابت جدرانها الداخلية بالقاشاني ، واحيطت بحجنه بغرف المطالعة الموقوفة على طلبة العلم ؛ وبجانب الجامع غرفة فيها قبر الجزار ، عليه ضريح فيه نقوش كتابية تقول : (هذا قبر المرحوم ، المحتاج إلى غفران الواحد القهار ، الحاج أحمد باشا الجزار ، عليه رحمة العزيز الغفار ١٢١٩ هـ) .

ومما لفت نظر صاحبنا ، أبيات من الشعر ، منقوشة على مدخل المسجد ، تخاميداً لذكرى بانيه ، مازال يذكر أحد أبياتها وهو :

ذاك الوزير الشهيم أحمد من غدا جزار أعناق العباد كما يجب

وما فتى صاحبنا حتى اليوم ، يدعو الله سرّاً وجهراً ، ان يفتح عليه باب الفهم ليدرك السبب الذي حدا بالشاعر اللوذعي النحوي لوضع : كما يجب !!

وبجوار الجامع ، حمام من الطراز التركي ، بناه الجزار ليكون له ولحاشيته . وإذا كان اليوم يلفظ انفاسه الاخيرة ، فإنه يدل على سابق اتان وبناء مزخرف جميل . فانك ترى فيه آثار القيشاني ترصع جدرانها ، ومصطبة الوسطى التي

يستلقي عليها الناس للدفع . أما مداخلة وردهاته ، فانها تدل على تفرده في عصره
بالروعة والجمال ، وكانت كل آياته الناطقة والصامتة ، تذكرك بعهد السلاطين والباشوات
والحریم والجواري ، وذلك الجو السحري المفعم بالنساء ، وقصص الفليله وليملة ..
وخرجنا نجوب أرجاء المدينة ، نرتقي أسوارها وأبراجها تارة ، ونهبط إلى
سراديبها وأنفاقها أخرى ، وفي كل خطوة نرى شبح الجزار ، (جزار اعناق العباد
كما يجب) ، ونعود بالذاكرة إلى تلك العهود التي لم يكن فيها انتداب ، ولا صهيونيون
وإنما حياة سعيدة مستقلة كلها تقاؤل وبركة رغم وطأة الجزار ...

وفوجئنا ببغل ، اقتطع جفنه بشريط شائك ، وظل معلقاً من طرفه ينزف دماء ،
وقد وقف صاحبه مع بيطار ، يستفهم منه عن الجرح ، وصحة البغل الغالية ، وكيف
يمكن شفاؤه ، وماهي الاسعافات الضرورية اللازمة له ...؟ ويبدو على الرجل أنه من
أصحاب الاراضي الزراعية ؛ فقد كان شديد الاضطراب على دابته ، بينما كان
البيطار يتهرب من الاجابة ، جهلاً وقلة خبرة أو دربة ..! وأخيراً ، تهد الرجل قائلاً
بأسف : آه ... إنه لا يوجد عندنا في عكا بيطار واحد ، يسعف حيواناتنا ، أما عند
اليهود فحدث ولا حرج ..! غير أن نقل البغل الجريح ، الى مستعمرة يهودية
لمداواته ، أمر مزعج لا يمكن ان أقدم عليه ... وكان البيطار وجد منفذاً في هذا
القول للدفاع عن كرامته ، فغضب وصاح قائلاً : « يا بيه .. ما عيش .. ما عيش
ما عيش .. ينفعش العرب اليوم » .. كل شيء عدل الفن يا روجي ..! روح
داويه عند الكفار هليلي ما بسموا بالله ... ما عيش يا أخي ... أنقذ الزمان
وتغيروا الناس » ...

ثم أدار منكبیه ، وترك الرجل وبغله مترددين حائرين ، وعاد الى زاويته
يصفح السنايك ، ويمجرتشي الشتائم والسباب ..!



في باث كاليم

هل نغادر حينما ولا نتمتع بسباحة في (باث كاليم) ..؟ إن كنا بالأمس
سبحنا على الشواطئ الحرة ، دون قيد أو شرط ، فلنزر اليوم مسيحاً ، تحدث عنه
الأجيال والمغامرون ، من كل صنف ولون ، حتى ذهب مثلاً !..

وسيدكر صاحبنا معاشر ، تلك المعاملات القرطاسية الطويلة في تسلم واستلام
حوائح السابحين ونقودهم .. فعليك قبل كل شيء ، وبعد دفع الأجرة ، أن تأخذ
(فيشاً) مع عليقة ثياب وكيس ، لتضع فيها ثيابك وحذاءك ؛ وعليك ايضاً إن
كنت رجلاً ، أن تدخل جناح الرجال ، دون النساء ، وإلا لكان ماتخشى عواقبه
ولا فارق هنالك بين قسم الذكور وقسم الاناث إلا بعلامه عبرية ، لم يستطع صاحبنا
— على ذمته — فك طلاسمها ، فاخطأت قدمه ، ودخل جناحين ؛ وعالج باب مقصورة
فأجابه ، وانفتح عن غادة عارية من كل شيء ، بلحمها ودمها !.. فسمر
في أرضه وشده ، وتعلقت عيناه بموضع ما من جسمها لا يزال يذكره حتى الآن !
وكان له خير زاد لا يأمه العجاف . ولعله سها هنيهة وهو شارد تائه ، أمام ذلك
الجسم العاري الشهي ، ثم عاد إلى نفسه ، وانحنى انحناء المنهزم الحجول وردد بصوت
منخفض ، تلك الكلمة التي تعلمها في طبريا : شالي ... شالي !.. (عفواً .. عفواً)
وكان يتمنى من كل قلبه أن يقيم الزمان والعمر ، أمام هذه الحجره الدائنة
التي لم تضطرب ساكنتها لمرآه ، ولم تخش عينيه ، حتى أنها أبت أن تزجره أو تنهره
للاعتداء الصريح على جسدها الغض ، يلتهمه بنظراته الجائعة .. ولعلها حسبته
من أهل الصدقة والاحسان ، فلا بأس من تركه لحظة بل لحظات ، يتذوق فيها
مرارة الحرمان ، وخدعة السراب ، في صحراء الفتنة وظلم الشباب .. وهي مع ذلك
تحتسب انه عبري وابن عبري ، ولو عرفته عربياً قحاً ، ومتعصباً أيضاً ، لكان لها معه

شأن آخر ، يجعله نادماً على خطئه المزعوم ، وفي ذلك بلاغ لقوم يعتلون ...
وعرج أخيراً على جناح الرجال ؛ وهناك رأى الحجرات لا أبواب لها ..
فأين العفاف .. وأين الشرف والحياء .؟ وهل كتب عليه أن يخلع عذاره أمام
عباد الله اجمعين ؟ ولكنه صبر ، والتف بمطرف الحزم والتجمل - فخارهم مادمت
في دارهم - وسلم ثيابه إلى المحافظ الامين ، وراح إلى المسيح ...

وكان طول المسيح أربعين متراً وعرضه عشرين . أما قاعه ، فينحدر تدريجاً
حتى يصل إلى عمق مترين أو ثلاثة . وفيه منارة للقفر ذات ثلاث طبقات ، يصعد
عليها بسلم . وقد ألصق بالجدار إنذار بلغات ثلاث ، تعني أن المسؤولية تقع على النافز
وحده ، وقد أعذر من انذر .. وعلى جانبي البركة مدارج خشبية يستفاد منها في
حفلات السباحة لجلوس المتفرجين . وفي مقدم البركة مقهى لطيب الراحة ، والتمتع
باشعة الشمس . ولا تظن أن الماء حلوسلسبيل .. بل هو ماء من البحر وإلى
البحر تدفقه محركات ضخمة .. وهناك مشرفون على البحيرة ، ومعلمون لمن يريد التعلم
وفي قسم آخر من المسيح بركة صغيرة للأطفال ، قليلة العمق ، تراهم فيها يلعبون
ويعرّحون كأفراخ البط ...

وكان النهار مشرقاً ضاحكاً وقد انتشر السباحون والسابحات . والمستحمون
والمستحمات كباراً وصغاراً عدد الرمل والحصى والتراب .

ورحنا نتمتع البصر بهذه المخلوقات السابحة الالهية ، ونأمل العذارى وانصاف العذارى
يمرغن اجسادهن بماء البحيرة . فاني نظرت وأنى التفت ، وقعت عيناك على جمال وفتنة وجلال
ولقد ابصر صاحبنا فيما ابصر ، حسناء (بولونية) مضطجعة على
هامش البركة ، ترعى طفلها وهما يتراشان بالماء في البركة الصغرى ؛ وعليها
(مايوه) مزدهر لعله صنع يديها ؛ لان تلك اليد ، أرادت ان تجعله مغرباً فاتناً ،
فأبدعت فيه ووضعت في زيه كل مواهبها ، وخاصة جهة صدره وساقيه ، مما جعل
صاحبنا (يخلق) فيها ، وكأنه لم ير في حياته لهما دافئاً حياً ..! فقد اذهلته فتحة
ال (مايوه) العليا ، لان فيها نهدين يتفجران شباباً دافئاً ، ويصرخان اين العفائى

الظالمين ١٩! وحتى تحت التماس الين الملتصق باللحم ، لطرقة الماء وحرارة الجسم ،
استطاع صاحبنا (الملهوب) أن يتلمس بنظره الثاقب ، -طوط ذلك القوام البديع
بجميع تقاسيمه الفنية وتقاطيعه . ولقد اقسم يميناً غموساً . بأن هذا الجسد العبري
يضطرم بنزوات الأثوثة وكأنه ينادي : حي على المعصية ، حي على العصيان !..
و كنت أهىء من ثورته ، وأدله على الكثيرات المضطجعات حول البحيرة ، وكلهن
مشيرات ، مهيجات ، مقبلات ، دون أن يعوي ، او يلتفت إلي ... وكأنه لم يشأ
أن يقدر الفن ويمجد الخالق على ما صنع في غير تلك المرأة المدهشة !.

كان ذلك الجسد جسماً يسترعي النظر !.. ففي الشفاه الحمراء جمرات من نار ،
وفي النظرات شعل تنلظى وسهام لا ترحم ؛ أما خصلات الشعر المتناثرة المتلوية على
الجبين ، فقد كانت منتفشة غير منسقة ، أشبه بخصلات امرأة ، خرجت منذ لحظة
من بين ذراعي رجل !.. وهذا ما جعل صاحبنا (بولول) بخفت كلما الى اليها أو
إلى إحداهن ، ويتعوذ بالله كيلا تصيبه شرارة من هذا الجحيم . ورغم أن جسمه
ركع خشماً بجوار تلك الكومة من الفتنة ، غير أن عقله الجبار قاومه ، ودينه
النقي الورع دعاه إلى الفرار من الاغراء المكتسح . فكان يستعيذ بالله ، ويحوقل
ثم يجلس صامتاً على حافة البركة ، ليستعيد ما شرد من ذهنه ، وما اضطرب من
انفاسه . وفي هذا المسبح بدا لنا تعصب التوم لبني جلدتهم سافراً .. فعندما تعلم
إحداهن أنك يهودي ، تقبل عليك بالابتسامات والسلامات ، أما اذا شعرت
بأجنبيتك فيا للهول !.. فهي تعبس وتقطب بل تولى الأدبار . اللهم إلا إذا التجأت
إلى نبي الله إدريس ، وهزرت الكيس ، فراهمك خير دالة وشيخة لربط القلوب
والشفاه والأجسام ...

ولقد كن يخطئن كثيراً فيحسدنا من أتباع (شالوم) العزيز ، وأنصار الدين
العتيد ، في المسبح أو في لباس (الشورت) والزي الاوربي البحت . فكن يتهاقن علينا
كالذباب . ولولا أن صاحبنا هاديء كتوم يحسن التظاهر بكل دين ، ويلبس لكل
حال لبوسها ، مما أرغمني على ذلك النوع من الاحتيال على عباد الله ، لما استطعنا

أن نظفر بدغدغات خدود ناعمة ، (وبيجامات) أرخص من رخيصة ، وسهرات صافية
(ومشاوير) في ظلال القمر ، وخطيبات كثيرات مجانيات .. !

مقدّمان خاليان — في بار

لم ننس قبل مغادرتنا (حيفا) أن نسهر في مقهى على ذروة الكرمل لنفرغ
لصاحبه جميع زجاجات الويسكي والبيرا . فقد كان صاحبي مولعاً بالحساء ؛ وعلى
طريقته ، فهو يعتبر كل سائل حساء يغتسل فيه ، ويفت فيه الخبز كما يفث بالثريد ،
ولو أدى ذلك الى نزاع بين جيبه ونفسه . وهي ليلة في العمر نسمر فيها تحت النجوم
الرجراجة ، والمصاييح الملونة ، وبين الزهر والورد وأنغام الجاز ، أمام المتراقصين
اللاهين ، وبجانب الساهرات الناعسات ؛ ونظل على البحر البعيد القاتم حيث المنارة
تشير وتتألق شعلة من نور ونار ، وتحت قدميك مدينة تهجع في نقاط من الاضواء
منبثة في كل مكان ؛ وهي ليلة مع الاخصام اليهود ، جديدة في كل شيء جميلة في
كل شيء ، نظافة وترتيباً وهدوءاً وفناً .

ولقد لجئنا السكون عن الهمس والكلام ؛ فكنا صامتين كأننا في حفل ديني
وإذا كانت الفوضى تجر الفوضى ، والشغب يلد الشغب ، فان النظام يقود حتماً الى
النظام ؛ وهذا ما يشعر به المرء في هذا المقهى . فهل هذه الحال موجودة في كل
مكان .. ؟ إذن فلنغادر (البار) الى آخر ولننحدر الى الهدار انزور (باراته)
ومقاهيه ، ونطوفها واحدة فواحدة ؛ فاذا بالشيء ذاته ، وإذا بالسكون مخيم والهدوء
شامل .. أبدأ لن تسمع هناك طقطقة « الشيش بيش » ولا أصوات الخدم تلعلع
« تنين شاي » « واحد أهوة » ولا قرقرة صحنون « النارجيلة » .. « بصة نار »
« ثلاثة تنباك » .. !

وجل ما هنالك ، طاولات منشورة بنظام ، وستائر ناصعة ، ومجلات مجلدة
مرصفة على الموائد ، وجرائد على حوامل خيزرانية ، تمسكها بها فلا تتثنى ولا
تزعجك بحشيشها ؛ وخدام أنظف من طيبب الحي ، يهمس بالطلب همساً ، ويكلمك

بادب ، لا يختلف عما يحدث به الوزير أو الأمير ؛ وسيدات ذليقات رصينات ،
وأناغم موسيقية علوية ، تجعلك في هذا المقهى المخوف بالورود والأشجار تسبح في
عليين ، وتنسى هموم الدنيا ولو إلى حين . . . !

ولم يرض صاحبنا عن هذا المقهى وعن هذا الوضع ، ولم يعجبه القوم ، وعدم
لا يفقهون الحياة والحرية ؛ فأين هم من رجال الشام . . ؟ ونراجيل الشام . . ! وصياح
الشام . . ؟ فهناك تتكلم بحرية فتصيح ، وتصرخ ، وتصفق ، وتبصق في أي مكان ؛
وهناك تتحدث مع من تعرف ، ومن لا تعرف ، بالسياسة والأدب ، والأخلاق أو
الدين أو المجتمع أو السوق التجارية السوداء والبيضاء . . . وهلم جرا . . .

وهناك الشراويل الفضفاقة ، والقفاطين المريحة ، والكراسي القش ،
والطرابيش والعمائم ، والاحي ، والشوارب . . ! أبداً لم يعجبه كل ذلك ، وعده
سماجة ، وبلاذة وخموداً . . .

فصاحبنا يجمد كل قديم في بلده حتى لكانه سجل في حزب المحافظين قبل ان
يولد ؛ فهو من ألد أعداء تغيير المبادئ على طريقة تغيير الاحذية . . !

كل ما في بلده جميل وطبيعي ، يجمده ويشمئز من غيره ، فهو مولع بالشرق ،
ويرتعد عندما يتجه في طريقه نحو الغرب ، حتى انه اغلق جميع نوافذ بيته وأبوابه
الغربية ، وان جملاً يسير الهوينا بخطواته الرتيبة على رصيف الشارع ، خير عنده
ألف مرة من سيارة ملعونة تثير الغبار ، وتحرم عليه لذة التمتع بجمال الطبيعة . !
فهل هو جالس في مقهى أم مقبرة ليصمت هذا الصمت الرهيب . ؟ وهل هو
في حاجة إلى القراءة والمطالعة في هذا المكان ؟ .. إن أصحاب العقول بخير . . !
لقد كان يرى في بلده ، جميع من درسوا في أوربا وغيرها ، وتأبطوا
شهادات الدكتوراه واليسانس ، لا يقرؤون بعد عودتهم ، ولا يطالعون الا قليلاً ؛
حتى أصبحوا بعد سنين معدودة ، كالأُميين عقلاً وتفكيراً ؛ ولكنهم مازالوا
كجندي قديم يعتز باوسمته ، ويرقد على حساب بطولاته فيتنبون فخراً لملهم
الشهادات والالقب الجامعية ؛ حتى لقد غدا هؤلاء المثقفون علماء يشار إليهم بالأصابع

الشمس أو العشر في المحافل والمجامع ، في الشرق والغرب ... وأصبحت مطابعا بتخمة
علمية ، وعجزت عن طبع المؤلفات وبنات الافكار التي غمرت الخافقين ...
فلم الدراسة آناء الليل واطراف النهار؟ ولم تعب الفكر والبال ؟ فالدنيا أضيق
من أن نضيعها بالحرق والبحث ، والتأليف والتصنيف ؛ وايوم عمر ، وغ أغير ١٠٠!
لا . لا ! لم يطرب صاحبنا لهذوء القوم ، ونظامهم ومرحهم ، وتذكر موطنه
وشارع بغداد ، وبائمي الكازوز والذرة المسلوقة والصبير ، فكاد ينفجر حيناً
إلى هاتيك الربوع ، لو لا أن تمالك بجلد معلم ابتدائي ، ودير مدير بين معلمين
مشاكسين مهضوبين ...

ثم قام يتحامل على نفسه ، بعد ان دفع الأجر ، وظل يحسب ما يعا له بالقروش
السورية وانصافها ، خشية تدور ميزانته ، وانقطاعه في هذا البلد ، كما ينقطع
حجاج بيت الله الحرام في مكة ، والحجاز ونجد ، وما وراء الرياض ؛ مع الفارق
بأن هؤلاء الاتقياء الصالحين تساعدهم حكومتنا لنبل المقصد ، وشرف العمل ،
أما نحن فقد نموت جوعاً ، ولا من يسأل .. ولكن الله أرأف بعباده المخلصين ،
فلقد أيقن صاحبنا أن التوازن قائم في ميزانته ، وأنه لن يهزم ولو دخل مئة مة مة
وزار جميع ملاهي المدينة ...



في طريق زمارين

صاحبنا الى رشده ، وآلى على نفسه ان يقلع عن غيبه وغرامه ،
ليشد رحاله إلى المستعمرات الصهيونية ، كما رحل السندباد بالأمس ،
إلى مدينة النحاس على فرسه المسحور ..!

وعد إلى مصوراته وكتبه وملاحظاته ، يستمد منها العلم والهمة والالهام ،
ويدرس التفاصيل ، وما في الزوايا والخبايا ، كقائد حربي على ابواب معركة ..
وكان من تباشير الرحلة أن التقى بشاب يعرفه ، كان تلميذاً له في سابقات
الايام ، وهو الآن من طلاب « شفيا » ، القرية التي تقصدها عن طريق « زمارين »
ومن الاثراف بالحق ، نسجل للطالب بانه أبدى ضروب الاخلاص والنجابة
والتفاني ، في تقديم الخدمات ، ولو كانت صغيرة ؛ مما جعل الاستاذ ينسى اتعابه
الماضية في تعليم طلابه ، ويجد في ذلك خير الجزاء .. ولن يكون هذا الموقف ،
الأول والآخر ، بينه وبين طلابه ، فكلهم بالفضل معترف مقرر ، وهذا لعمرى وفاء
تضرب به الامثال ...

فلكم عتيبا وعامنا الكثيرين ، دون ان (يتنازلوا) ويسلموا احيانا على أولئك
الصف من البشر الذين يقال لهم : معلمون .. أو أئمة الذين يهذبون النفوس ،
ويخلقون النفوس ؛ فقليلاً من المودات أيها الجاحدون !
وأخيراً قدم له التلميذ كل التعاليم والشروح الكافية الوافية لرحلته ، ولم يودعه ،
إلا والسيارة تحرك ، لتغادر حيفاً .

كانت الطريق جميلة ، تتلوى في أسفل جبل الكرمل ، وتحاذي الشاطيء
اللازوردي ، وهي مفروشة بالاسفلت ، كاغاب الطرق في فلسطين ؛ مما جعل المواصلات
سهلة مؤمنة منظمة ، ولعل الفضل الاكبر في ذلك يعود إلى شركة السيارات الصهيونية

الكبرى (إيجد) - بالجيم المصرية - فسياراتها تعمل على كل طريق ، إلا في الجاهي
خليل الرحمن ، ونابلس العربيتين ...

ولن ترى في الطريق سوى رتول السيارات ، بعضها في اثر بعض ؛ ويستطيع
صاحبنا أن يجزم بأن كثافتها بين حيفا وتل أبيب ، أكثر بكثير من كثافتها في
أعظم ساحات مدينة دمشق ... !

كنا بازاء بحرين بحر أزرق ، لاتدرك نهايته ، وبحر أخضر من الحقول
الزمردية ليس لها آخر .. وكلها من صنع الصهيونيين ، لعشرين سنة خلت . ويقرر
القوم بانهم سيجعلون هذا الشاطي عامراً بالمزارع والحدائق ، زاخراً بالمصانع
والمعامل ، أهلاً بالسكان المستعمرين ! وذلك جزء من برنامجهم الواسع ...

ليس بالخبر وصبره يحيا الانسان :

كان أمام كل محطة من محطات السيارات ، باعة للصحف والمجلات والكتب .
وكما يتزود المسافر إلى القطب ، بطعامه ولباسه ووقوده ، كذلك يتزود المسافرون
الصهيونيون ، بما يقرؤون ويدرسون فكل يلتهم جريدته ، أو مجلته ، أو كتابه ؛
ولا حاجة إلى تطبيق النظريات الامريكية في الاعارة والتأجير ، كما يفعل الكثيرون
من يعرفهم صاحبنا ...

وإذا كانت المعرفة سيادة ، وهل يستوي الذين يعامون والذين لا يعامون ،
فمن العجز ألا نعتقد أن القوم وضعوا يدهم على سر من أسرار القوة ، سهل نواله
عظيمة نتائجه ؛ ولقد تجد مع الشخص الواحد صحفاً بلغات متعددة ، حتى أن
أطفالهم يقرؤون صحفهم الخاصة ، وكتبهم وفي ذلك غذاء للنفس ، وثقاف للعقل !
فأين القوم منا ونحن نسافر في سيارة أو قطار . ؟ حين نضيع الوقت الثمين في
التفرج على الطريق من الابواب والنوافذ ، أو في الاحاديث التافهة الرخيصة ، أو في
(الأكل) وخاصة أكل (البزر) اللعين . ؟ !

وسأل صاحبنا أحد المسافرين العبريين بالفرنسية عن عدد الجرائد العبرية ،

فأجابه : إنها كثيرة ؛ وفي ازدياد دائم ؛ وهي صباحية ومسائية ، ومنها ما يطبع مرتين في اليوم ، وعندنا مجلات دورية ؛ أدبية وعلمية وفنية وفلسفية .. وقد ثبت في احصاء رسمي أن لدينا في فلسطين (٩٢) جريدة ومجلة عبرية .. ! وهنا التفت الي صاحبي وقال : بينما لا يوجد لدى العرب أكثر من تسع جرائد او عشر . ! وتابع الصهيوني قوله : وتصدر بعضها بالعبرية كجريدة : (دافار) لسان حال العمال و (هاپوكر) و (هأريقتس) وبعضها بالانكليزية (كالبالستين بوست) وبعضها بالعربية (كحقيقة الامر) التي تصدرها في تل أبيب النقابة العامة للعمال اليهود في فلسطين والمدعوة (بالمستدروت) ؛ وهي جريدة اسبوعية مصورة ، لنشر مبدأ الاخاء بين الشعبين اليهودي العربي ، كما جاء في الاعلان عنها — على ذمة الراوي الواهية — الذي شكره صاحبي وعاد يتحدثني ...

ألا ترى هذا البون الشاسع بيننا وبينهم ..؟ إذا كانت الصحافة هي السلطة الرابعة في الدولة ، وهي ذات الاثر المبين في التوجيه ، ونشر الدعوة ، وبث الشكوى والتحرير على العمل وتنوير الازهان ، وتثقيف الشعب ، فما جرى اخواننا عرب فلسطين ، بمضاعفة الجهد في هذا المضمار . نعم ، إن مجلاتنا وجرائدنا في ازدياد ، وتبشر بمستقبل زاهر ، ولكن خير البر عاجله ! وهل ينكر احدا ما أسدته جرائد فلسطين الكبرى : فلسطين ، والدفاع ، والحرية ، الى القضية العربية وتلك المجلات الطبية ، والتجارية ، والرياضية والسينائية والادبية ، فهي كلها أزهير فواحه تحمل رسالات طيبة الى العالم العربي .

اننا بحاجة إلى عمل في جميع آفاق المعرفة ، كما يفعل هؤلاء الصهيوينيون ، الذين لا يكتفون بنشر آثارهم ، بل راحوا يترجمون أرقى الادب العالمي ، والآثار الخالدة إلى لغتهم . وهم في جهاد مستمر . ويكفي أن اذكر — ولو كان المثال قديماً — ان عدد الكتب العبرية التي صدرت سنة ١٩٣٣ — ١٩٣٤ كان ٣٤٩ كتاباً ، والانكليزية ١١ كتاباً والبولونية كتابين والارمنية ٤ كتب ، والالمانية كتابين ، أما العربية فكانت ٣٣ كتاباً فقط !..

ووففت السيارة ونزل بعض الركاب فلفت نظر صاحبنا لوجه في مخرج السيارة
كثبت بالعبرية والانكليزية فقط وترجمتها : هل نسيت شيئاً داخل السيارة ؟ « نعم
هل نسيت شيئاً داخل السيارة ؟ فذكرته هذه الجملة باندازات توضع في وسائل
المواصلات في بعض اقطارنا الحبيبة : احترس من النشالين ! انتبه الى دراهمك !
فكان الانسان مهتد بلصوص شيكاغو ، كل حين ...

وعلى ذكر الاعلانات ، يذكر صاحبنا أن بعضها كان مضحكاً مبهشماً . فتري سيارة
كتب داخلها : (دخون مخذور) أي : التدخين مخذور (ممنوع) . واخرى كتب
فيها : ممنوع مد الرأس من الشباك ... والمقصود الشباك ولا شك ؛ وهناك يافطة
جاء فيها : طيب أيون .. أي طيب أيون .. ورحم الله القائمين : العالمو نورن ،
والسلامو عليكمو ..

وكانت السيارة (بادماً) صهيونياً ، وقد امتطأها العرب واليهود معاً .. بيد أن
ما يشاهده المرء ، والأسى يحز فؤاده ، أنه لا يكاد يصعد العربي لياًخذ مكانه ، حتى
يرمقه الركابون الصهيونيون شذراً ، وكل منهم يمتنى ان لا يجلس بجانبه .. وقد
ادرك صاحبنا ان كثيرين من العرب يشعرون بذلك ، فيتحاشون الدنوم من اليهود
وقد يظنون واقفين في الممر دون حراك ..! أما النساء اليهوديات فينمنن بالعرب
اكثر مما يتخيل الانسان ، لانهم يزعمون خصلات شعرهن بالبستهم الفضفاضة
فتنتثر على الجبين وتقلب حينئذ الشفاه اثمنزازاً ...

زمارين تترد

هانحن في زمارين ، أو (زخرون ياقوب) كما يسمونها أيضاً ، ولزخرون
هذه تاريخ مجيد في سجل الصهيونية ..! ففيها عقدوا أول مؤتمر في فلسطين عام
١٩٠٥ ، لبحث القضية الاستعمارية الصهيونية ..

وبينما كانت أيام الأتراك محطة للقطار ، على هامش الطريق ، مهمة منسية ،
تراها اليوم قرية عصرية ، ذات شوارع واسعة مفروشة بالاسفلت ، وقد غرست

الاشجار على جانبيها ، وملاّت رحابها غابات الصنوبر ، وفيها حديقة عامة ، تسمى
كثير من بلداننا ان تحظى بمثلها ؛ وهي منارة بالكهرباء ، كمثل قرية صهيونية !
وليس معنى القرية عندهم الابتعاد عن المدينة ، وبناء الدوريين حظائر الدواب ،
والشرب من المياه الآسنة التي ترتادها جميع حيوانات الله . ! لا ، لا ، فكل بيت في
هذه القرية مستقل عن أخيه ؛ فله حديقة وأزهاره وأطيّاره . وله نوره ومأوه
وسماؤه ... وفي القرية دار للسينما ، لانها كما علمنا ، من ضرورات الحياة لديهم ،
كلماء والهواء .. وغفر الله لمن لازوا يتناقشون هل الشريعة تحظر أو تبيح مشاهدة
السينما ، أم لا ..؟ وهم عن أعنف الفرائض معرضون ..!

ولقد تمر بأحد الاقضية في بلادنا ، ولا تجد لنفسك فندقاً تأوي اليه ، مهبطهم
شأن القضاء ، لان هنالك كرمياً عربياً محموداً ، وضيافات لانزال نتغنى بها ؛ دون
أن نتذكر بأن العصر انقلب ، واصبحنا بحاجة إلى اساليب عملية اكثر من ارتياد
المضافات ودور الخاتير ، ليكون الانسان حراً موفور النشاط والحركة ؛ فهناك
في هذه القرية ، مصرف وفنادق وبارات ومقاهي ومحطة للسيارات ومخازن تجارية
كبرى ، وفيها كل ما تشاء وتهوى ...

وهل نسي تلك الاشجار العالية ، من صنوبر وأوكاليتوس وسرو ، اسبغت
على القرية جمالا ، ولطفت هواء ومناخا ، دونه لبنان وعرنة ويبرود ، حتى غدت
القرية مغاني وجواسق .. وانتشر الاهلون من شباب اسرائيل بسر اويل
(الشورت) والقمصان الرياضية ، أما النساء فظهرن (بمايوهاتهن) وأثوابهن
القصيرة ، عراة من كل عائق ساتر .. جلسوا حول موائد الافطار ، زرافات
ووحداً ، ذكوراً وإناثاً في حداثةهم ، وفي ذلك الجو الساحر ، يشملهم هدوء
عميق ، وطمأنينة منعشة ، يسبغان عليهم السعادة والنشاط ..!

وإذا ... كانت السعادة قوة ، والمرح قدرة ، والسرور استطاعة ، فهل تخيل
أيها القارئ ، كيف يعمل هؤلاء القوم وكيف يتضاعف انتاجهم .؟ وهل
ستكرن حمة عمل هذا الصهيوني في حقله ، كمحصلة ذلك العربي اليأس القانط الكئيب ..؟

ان المدينة استغلّت كل ينابيع الثروة في الطبيعة .. وإذا علمت أن المرح في
في النفس ثروةٍ دونها مناجم الذهب ، وأن من احسن استغلالها وضع يده على
مفاتيح كنوز لا تنضب ولا تفيض ، أدركت عندئذ سرّاً من أسرار تفوق
الصهيونيين ..!

فأي عامل أو زارع يتناول طعام صباحه تحت انعام الراديو ، وابتسامات
الساحرات وأحاديث المتحضرين الشهية ، وفي هذا الهواء الطلق والنور الوضاح
وفي ظلال هذه الاشجار ، التي غرسها بيده ، وتعهدها بقلبه ، وسقاها من عرق
جبينه ... أي عامل أو زارع يتناول طعامه هنا ، ولا يعود إلى معمله أو حقله ،
عامر القلب ، ثابت القدم ، يستقبل الايام بالسرور ويودعها بالجبور ، ويبدل من
ذات نفسه كل ما يستطيع ، في سبيل القضية التي كرس حياته من أجلها ، وبذل
نفسه في سبيلها ...؟!!

وقف صاحبنا يتأمل هذه المناظر ، بل هذه (السيمفونية) الريفية الزاخرة
بالحياة والنشاط وقال : أنا أعتقد بإيمان راسخ أن هذه القرية لم تخلق بين عشية
وضحاها ؛ بل بالعمل المتواصل والسعي المستمر الواعي ، ووضوح الهدف ، وروح
التضحية ؛ وما ضر اخواننا العرب لو سلكوا نفس المسلك في قراهم ، ليصلوا إلى
النتيجة نفسها ؛ نعم ، لن تقوم لنا قائمة الا بالاتحاد والاخلاص ، ويد الله مع الجماعة ؛
وإن بيتاً يليق بالكرامة الانسانية ، يأوي اليه فلاحنا العربي وعائلته ، لن يجشمه
كبير عناء إذا حاول بناءه كبيت جاره اليهودي ؛ وحبذا لو تألفت الشركات
التعاونية لهذا الغرض ؛ وهي التي أثبتت كفاءتها في شتى الميادين .

وهل تحسبن الصهيونيين يستطيعون بناء أمثال هذه القرى لو عشن الجهل
في افكارهم وباض وفرخ . لا ، ثم ألف لا ... مادام العلم رائدهم وشعارهم ، وهم
الذين أخضعوا جوانب حياتهم لآخر ما وصل اليه العلم الحديث . فطريقنا واضحة ،
ومن سار على الدرب وصل .. أما أن يحيا بنو قومنا عراة الأقدام ، حفاة العقول ،
فهذا ما لم نسمع به في زاوية من زوايا الارض ..!

فيما زعماء العرب ، وما أغنياء العرب ، وما مفكرى العرب ، الى البذل
والعمل والتنظيم ، الآن وقت النضال والكفاح ؛ ووضع مائدة خير من
ألف قول : تمض ؛ والرهز لا يرهم ، فلسطين وديعة الابداء والارادة
في أعناقنا ، فلنسلم الوردية طامعة الى اصفادنا ، وهذا ان تنكرر مأساة
الاندرلس كرة اخرى ..!

تلك هي ارادة الحياة ، والوعى الوناب لمجراة فائدة الاعداء ، وويل
لسعب لا يترك ، فيفوت القطار ، في عصر كل شئ ، فيه قد تحرك حتى
الجماد ...

وصمت صاحبنا ؛ وها هو ذا يقصد مخزنا يتتاع منه السكاكر والشوكولا ،
لقدماء تلميذاته وتلاميذه واتباعهم في (شفيا) .. وإذا كانوا هنالك واجدين كل
ما يشتهون ، فمن البر بأولئك المغتربين ، أن يقدم اليهم هدية بسيطة في مبناها ، عظيمة
في معناها .. وهي فوق ذلك خير عون له على استقاء الاخبار والترحاب ، والمثل
يقول : (طعمي النم تستحي العين) ، وهي رمز لطيف لعهد قديم رسخت أصوله
بين معلم وتلاميذه ، ولئن قالوا قديماً : (ان كبر ابنك حاويه ..) فاني قائل : إن
كبر تلميذك أو تلميذتك ، فصاحبه ، وإنك لو اجد في ذلك صداقات بريئات خالداً ..
وما ضر صاحبنا لو استغل هذه القلوب النقية المخلصة ، في صالح قومه ؛ فيتفهم
الاسرار من ينايعها ، ويعمر صدر كتابه ويملؤه مادة وفكراً ، عله بذلك يسعف
اخوانه العرب ، او يقوم - على الاقل - بقسط بسيط في سبيل خدمة قضيتهم !



شفيًا - معقل صهيوني ...

روابي (زخرون) ، تشاهد مباني (شفيًا) وسقوفها الحمراء ، وهي
جائمة وراء الاشجار والادغال ، والهضاب المكسوة بالاعشاب
كالزمرد ...

وكلا القرينتين يقوم على رابية ، وبينهما وادس حقيق خصيب ، لا ترى فيه العين
أبداً أرضاً جرداء ، أو قفراً بلقعاً ...
وأما الطريق فطويلة ، مرتفعة ومنخفضة ، تسترها طبقة الاسفلت حيناً ،
والاحجار المرصوفة أحياناً ، وكانت الاشجار تكتنفها ، فلا تغادر ظلاً إلا لتنتقل
إلى آخر ، وتهمس على طرفيها تحت الاعشاب والازهار مياه ثرارة ، بالخان لا يدركها
إلا عشاق الطبيعة المعاميد ...

وهناك في تلك البقاع النائية ، مررنا بمعمل المشروبات الروحية ، علمنا
فيما بعد ، انه أكبر مصنع للخمر في الشرق الادنى ، وأن منتوجاته تكفي فلسطين
وتؤمن مطالب الجيش البريطاني ؛ ويصدر مافض عن الحاجة إلى خارج البلاد ..
وهذا المعمل واحد من عشرات عشرات المعامل الصهيونية التي حازت قصب
السبق في انتاجها ، وهي موزعة في أرجاء فلسطين !.

فهل جاءك نبأ معمل (نكيف) قرب طبريا ، ذاك الذي يسد حاجيات فلسطين
بمصنوعاته الخشبية ، ويغمر الاسواق في البلاد المجاورة ..؟ وهل تذكر معامل
تكرير البترول ، والاسمنت ، والمنسوجات ، والعقاقير الطبية والكونسروة ومئات
المصانع المختلفة ، التي تتسلح بها حياة الصيغونية الاقتصادية ؛ فلا سبيل إلى قهرهم
إلا بمثل هذا السلاح ..؟!.

أجل ! هنا يذكر الانسان سلاح المقاطعة الرهيب ، الذي ترتعد لو طأته فرائص

الصهيونية ، فيقض مضجعها ، وتجد فيه معولا هداما لا مانيها واحلامها ؛ ولئن
استطعنا استعمال هذا السلاح الناجع ، بثبات واستمرار ، في سائر اقطارنا العربية
— وهو امر في مقدرتنا — فسنهزم العدو الغاشم ، دون ان تسيل الدماء ، او نفقد
الضحايا ؛ وخلصك في يدك يا اسرائيل !..

كان الجو حاراً قائطاً ، والعرق يرشح بغزارة من اجسامنا ، وكان يحمل امتعتنا
حمار هزيل ، يقوده عربي من ابناء جلدتنا ، لم يستطع هضم زيارتنا الصهيونيين ،
ونحن نطق مثله ، بلسان عربي ؛ فعبس وتجهم وجهه حتى كاد ان يكشر
عن الانياب ... !

فهل ساءه ذهابنا ، حتى اربد وجهه وأرعد ، أم سرته تلك القروش التي
سيتناولها بعد قليل مع سابق إصرار على كثرتها ومضاعفتها !.. ؟
لم ينس ان يحدثنا عن بطولات العرب في الثورة الفلسطينية ، وكيف أنهم
كادوا يلقون أعداءهم في البحر ، لولا .. لولا نشوب الحرب العامة الثانية ...
(خاطر) تدخل الدول العربية ، لنصرة القضية الديمقراطية . !

وعندما حدثنا عن مغامراته ، وأنه جندل لوجده ثلاثة من أعدائه ، في هذا
الوادي الذي نحن فيه ، خامرنا الحذر ، وخشينا أن يحسبنا بقية باقية من ضحاياه ،
فأسلمنا أمرنا الى الله ، وجعلنا نردد على مسامعه آي الذكر الحكيم ، وأحاديث الجهاد
وأشعار العرب في القتال والنضال ... وأنا الآن في هدنة موقته مع هؤلاء (الصهاينة)
وما زلنا به حتى زال عبوسه ، وعاد إلى وجهه اطمئنانه ، فرجعت حينئذ قلوبنا إلى
قواعدها بعد أن هبطت إلى أسفل الحذاء ..

وعندما بصر بنا أول سكان (شفياء) ودوي صوته من وراء الاشجار : اهلاً
وسهلاً بالاستاذ ... وميت أهلاً وميت مرحباً . ! حمدنا الله على السلامة وتنفسنا
الصعداء !..

وإذا كانت ملامح الوجه ، وحركات الجسم ، ونبرات الصوت ، تعبر بأجلى
بيان عن مكونات الفؤاد ، وخفايا النفس ، فإن في الانشراح والرضاء ، والانتسام

الكاسح ، والمرح الشديد ، الذي تفجر على وجه ذاك الشاب ، التلميذ السابق ،
لما يثلج الصدر ، ويملاً رحاب النفس سروراً ، ويجعل من أشد الملمين تشاؤماً
ومتفائلاً من الطراز الاول ...

كان الشاب ماضياً لعمل ندب اليه ، ولكنه ما كاد يرانا حتى منح نفسه إجازة
موقته ، ليكون لنا لجنة استقبال وتكريم ، تليق بقدمنا المفاجيء الميمون ...
فسار معنا دليلاً ومرشداً ، يحدثنا ، وكأنه يود في لحظات قلائل ، أن يفرغ امامنا
كل ما اكتسبه من خبرة ومعلومات ، في سنواته الخالية ...



والهرة الاولى التقينا بفتيات المستعمرات
وقد لبسن القمصان (الخاكي) ، التي
تكشف عن سواعد مفتولة ، وتم عن
نهود صلبة ، بارزة قليلاً ، تبرهن عن
وجودها ، أما سراويلهن ، فزرقاء اللون
قصيرة جداً ، مزمومة من نهايتها ،
تكشف عن الافخاذ والسيقان ، ولا
تستر سوى العانة .. فترى إلى أعمدة من
اللحم المقمر ، وقد لوحتها الشمس ، كما
لوحث وجوههن وأذرعهن ... ولعل
العمل في الحقل والمصانع ، خلق من

هؤلاء الفتيات أجساماً رشيقة ، (اسبور) بكل معنى الكلمة ، ربما كانت مقبلات
ومرفهات للعاملين في تلك الاماكن النائية ...

ومما يلفت النظر ، تلك الوجوه الضاحكة المستبشرة ، التي ما كدنا نسأل عن
سرّها حتى قيل لنا: لكل إنسان في الحياة شعاره ، وشعارنا جميعاً : اضحك يضحك
لك العالم ؛ فلا سحج من الكتابة تغشى وجوههن ؛ ولا قنوط ، ولا يأس ، بل
أمل وثاب ، يحفزهن إلى الواجب المقدس ، الذي آلين على تحميته. منها بذان من
نفوس غالية في سبيله ...

ذكريات حبيبة

لم نكد نجلس في ردهة الاستقبال الكبرى ، حتى وافتنا وفود قدماء تلاميذنا
صاحبنا ، وتلاميذاته ، وأترابهم ؛ وكلها وجوه يعرفها ، وأجملها ... أقبلوا يحيون
استاذهم ، ويهنئونه بسلامة الوصول ، بألفاظ بريئة ساذجة ، بعدت عن الزخرف
والطلاء — الذي يتقنه الكثير في ربوعنا — لأنها صدرت من صميم الطبيعة التي
يحيون فيها ... !

وغمر الجميع جو عائلي من الفرح والسرور ، فليس هنالك لمعلم وتلاميذ ، بل
اخوان وأخوات ... ! وانهاالت التحايا ، وضروب الترحيب البري ، وراحوا « يتساقون
التذكر » كما يقول الشريف الرضي ؛ فذكر الجميع أهليهم وحبيهم المرموق ، ومدينتهم
الحبوبة دمشق ... ذكروا مغانيها ، واستعرضوا صيفها وشتاءها ، وعاودهم الحنين
إلى الوطن — رغم تصهينهم — حيث الخلان والاهلون ، وحيث تقف الواحدة أو
الواحد منهم ، أمام (الفيحة) فيعب منها بيديه ماءً قراحاً سلسبيلاً ، يتمنى رشفة
منه الآن ، في هذا الحر الشديد .. !

وأدبرت السكاكر والشكولاه ، وغرق الحاضرون في لجة من الذكريات
العذبة ، ذكريات التلمذة والطفولة ، وهي عزيزة على النفس ، مفرحة للقلب ...
فأين أهلهم الآن . ؟ أي الربوة ، أم شارع بغداد أو في شارع السيرايلي خضوري
أم في حارات الحي الضيقة المظلمة .. ؟ وأين هي المعلمة فلانة والمدير علاء .. ؟
وكيف حال المدرسة ، هل ستبقى مغلقة ، أم سيعود رفاقهم إليها ، بعد حوادث
أيار المشؤومة ... ؟ !

غزاء ساذ

وفيما نحن كذلك ، قرع المنبه الكهربائي ؛ فلم نفهم لقرعه معنى ؛ حتى دعانا
الجميع إلى الغداء ، دعوة بسيطة لا أيمان فيها ولا أقسام . فذهبنا إلى حجرة الطعام
يوأكبنا فتيات وفتيان يغمرهم مرح شديد ...

وكان المطعم جناحاً خاصاً من المدرسة ، تقع في مستهله حجرة لتنظيف اليدين
بالصابون والماء البارد والحار عند الزوم. أما بهوه فواسع الأرجاء. أبيض، يغمره
النور من نوافذه العالية الواسعة العريضة، وتجدد الهواء منها دوماً ، حيث
ينفذ إليه من خلال (المناخل) التي تسترها جميعاً ... وفيه مقاعد تكفي جميع سكان
الميتم أو (المفرخة) كما أراد أن يسميها صاحبنا ، كبيرهم وصغيرهم ، أساتذتهم وإناثهم ،
يجلسون معاً دون تفريق يوجب الحقد والضعينة ، بل على العكس ، فان ذلك يوحى
بالمساواة والديمقراطية الحقة .

وكانت الموائد كبيرة نظيفة جداً ، تتسع لستة اشخاص على الطرف الواحد ؛
ويجلس على رأسها أحد العمال أو كبار الطلاب أو الطالبات ، يشرف على النظام
وتوزيع الطعام ... !

أبدأ لم نثر فضول أحد ، وقلما حدق فينا تلميذ أو رقص حواجبه وجفونه
عامل أو أستاذ ، ولقد أسرع صاحبي مع تلاميذه إلى مقعد ، كاد موزع الاطعمة
أن يدنو منه ، ولحقت به خيفة أن أبقى وحيداً غريباً ...

وما أن توسطنا الجمع على المائدة المستطيلة ، حتي وقعت أبصارنا على معروضاتها
الشبيهة بالنسبة إلى مسافرين ، قطعاً مسافات واسعة مشياً على الاقدام ، ولم يدو قطعاً منذ
الصباح الباكر . و (حل) صاحبنا حزامه ، ونظر إلى اللحوم تطل مع الخضر
من صحنها ، نظرة ذلك الاسباني الجائع ، الذي قيل في إحدى القصص : إن فخذ
الضأن كانت تنكش لنصف حجمها الطبيعي لجرد النظر إليها . !

وكان سكان المؤسسة يخدم بعضهم بعضاً بالتناوب ، فها هو ذا أحد العمال يوزع
الصحاف ، فخذ منه ما تشاء دون حساب ؛ ولكن إذا علمت أن كل فرد من
الجالسين ، يعتبر هذا الطعام ملكه ، فلا إسراف ولا تقدير ، أدركت السبب في
اقتصاد القوم المنظم ، واهتمامهم بعدم التبذير . ! !

ولعل الطعام كان منافياً لادواقنا في باديء الامر ، غير اننا كنا كالذئاب
الضارية جوعاً ، فهجمنا عليه ، تفوص أناملنا في الخبز ، وملاعقنا في الطهي حتى

استسغناه . لأنهم يقدمون الطعام دوماً بعد دراسة علمية ، حسب حاجة الفرد
(للفيتامين) والمواد الضرورية على الطريقة الحديثة في التغذية ...!
وقبل الشروع في الطعام ، وقف تلميذ صغير ، فصلى صلاة قصيرة بالعبرية - طبعاً -
أنصت لها الجالسون ثم بدؤوا بالطعام بإشارة من المشرف العام ... وكانت الصلاة
كما ترجمها بعضهم شكراً للمولى على ما أنعم به عليهم من خير وبركة في الأرض
المقدسة ...

ثم أكل القوم بهدوء وأدب وصمت . أما الماء فتخلو منه الموائد ، وعندما
افتقده ابن الشام والفيجة ، جلبوا له ماشاء ، وأعلمونا أنهم اعتادوا إهماله ،
والاستعاضة عنه بالشاي أو عصير البرتقال ...
وقام الصبي ثانية فصلى وشكر الله بالعبرية ؛ وانتهى الطعام وهممنا بالانصراف
لولا أن قدمنا التلاميذ لأحد الاساتيد - الدكتور الفلاسفة - وعرفوه بنا فسر
كفرحة الغريب بالغريب ثم اعتذر عن ضيق وقته ، ودعانا إلى منزله في الساعة
الرابعة لزيارة خاصة ...

ميتم لصنع السباب الصهيوني

أو تدري بماذا تذكر كلمة (شفيا) ..؟ ألا ترى أيها القارئ أنها لفظة مشابهة
لكلمة شفاء بالعربية ..؟ وهي كذلك حقاً بالعبرية ..! وتلك لعمرى تسمية صحيحة لها ،
لان هذه القرية جديرة بان تكون مصححاً ، لعذوبة هوائها ومناخها ، ولعل ساكنيها ،
لايشكون مرضاً رغم جهادهم الطويل ، في التعمير والتحسين ...!
وأصل المؤسسة ، ميتم لأبناء الطائفة الاسرائيلية ، ممن فقدوا ذويهم ومعييلهم
في الشرق او الغرب . ولكن خشية تشرد بعض الاطفال الفقراء ، والحاجة إلى
خلق جيل واع من المواطنين المخلصين للقضية الصهيونية ، حمل القائمين على ادارتها
ان يختاروا أبناءها من غير الايتام ، ومن شتى الاقاليم ، وخاصة ابناء المتطوعين
في المستعمرات ...!

وإن صاحبنا ليذكر بعثات علمية صهيونية كانت تؤم دمشق بين الحين والحين

لتختار انجب الطلاب ، ومن يؤمل فيهم الخير ، ليرسلوا إلى هذه المدرسة وإلى غيرها ، حيث يعيشون مجاناً ، ويزودون بثقافة عمرية وعملية قبل كل شيء ، وبصناعة أو صناعات يمتازون بها ، ليكونوا في الغد صهيونيين أقحاحاً ، يستعمرون الارض ويزودون عنها ..!

وتتفق على المؤسسة جمعية يهودية تدعى : (لوشكاسوسيا ليست) وهي جمعية إسعافية خيرية ، لابناء اليهود المرزويين أو المتوفين . وقد تمد هذه الجمعية أيضاً بعض العائلات المستورة ، فتجهزها احياناً بادوات البيت أو المال اللازم للعمل ..! فمن شعار الجميع : لاتسول ، ولا تشرد ..! ومن العار أن يتسول يهودي ، أو يعيش لينسل اولاداً أشقياء جاهلين هم عبء على المجتمع ..!

فكفاح المستنقعات واجب مقدس في الارض والفكر ؛ واذا كانت مستنقعات الارض تولد الجرائم والحشرات ، وتنقل الامراض الى الاصحاء والسائمين ، فان مستنقعات الفكر أيضاً ، هي حقول خصبة لتوليد الجرائم وتقرئح جرائم الشقاء ..! وترفد هذه المؤسسة أيضاً جماعة (الهاداسة) .. والهاداسة هذه كما حدثنا بعضهم : إما كبيرة ، او صغيرة .. فالكبيرة تعنى بالمستشفيات ، والصغيرة ترسل الاموال وتجمع التبرعات لاسعاف اليهود ..

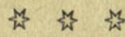
ولعل اسمها وحده يوحي بالأمل ، فقد ذكر ذلك أحد الطلاب النجباء ، وهو على قدر وافر من الثقافة والاطلاع ، فقال : ربما كان الاسم مشتقاً من الآس ، المشهور بخضرته الدائمة ، فكأنهم يتفاءلون بان تكون أيام الجماعة كلها خضراء زبرجدية ، لاتصوح ولا تذوي ، بل توحى بالأمل والرجاء . واستطرد بقول الشاعر :

« لا يكن عهدك ورداً إن عهدي بك آس »

وابتسم وشاعت في وجهه أمارات الرضا ثم تابع :

او لعل كلمة (هاداسة) مشتقة من اسم قديم (لأستير) ، الوارد في الكتاب المقدس والتلمود . وهي : هاداسة ، بنت عم (مردخاي) ، والتي اتخذها ابنة له بعد موت أبويها ، وقصتها طريفة مشهورة ؛ فقد قيل إن (هامان) وزير (احشويروش)

ملك الهند و (كوش) ، كان يفتش عن شجرة ، يجعلها (خازوقا) ليصلب عليه
مردخاي ، الذي أبي أن يسجد له ؛ فأخذ يسأل الاشجار واحدة فواحدة ، دون
أن تتنازل احداها لتقوم بالواجب ، او ترضى عن طلبه ، غير أن شوكة ضخمة —
تمثل الشر والاذى — قبلت بهذه المهمة السامية . فأعدها (هامان) ، وطولها
خمسون ذراعاً ؛ لكن (استير) أنبأت زوجها (احشوروش) ، بمراد (هامان)
من تعذيب اليهود وتشريدهم دونما سبب ، فصفح عن مردخاي ، وقربه ، وعفا عن
اليهود ، واصلب هامان ، وابناء العشرة .. لذلك يعيد اليهود كل عام عيد (الفوز)
أي الفوز ، ويذكرون فيه مخلصتهم الحسنة (استير) ويرددون مثلهم المشهور :
« هامان طراً خازوء ، هامان وئع فيه » .



هذه هي « شفيا » واكثر طلابها من أبناء الشرق ..! فهل يخطر في بالسيدي
القارىء ان فيها مالا يقل عن ثلاثمئة يماني ويمانية ..!
لا لا .. لاتعجب أيها القارىء العزيز ، فالصهيونية ذات اهداف مركزة مدروسة
لها أثرها البعيد ، في حياة اليهود الروحية والادبية اليوم . فالتعليم هو غرضها
الرئيسي ؛ حتى أنها أسست الجامعة العبرية ، وخلقت أمثال هذه المدرسة أو القرية
او المصنع اليهودي — إن شئت — لانتاج الشباب الصهيونيين الاقحاح ..!
والمدارس عندهم متنوعة الغرض وان اتحد الهدف : فمنها الزراعي ، ومنها
الصناعي ومنها العلمي .. غير أنها جميعاً ذات غاية واحدة ، وهي خالق الناشئة
لتكون مصبوغة بصبغة الصهيونية ، فلا معارض في المستقبل الصهيوني ولا خلاف .
وتتعاقد مدارسهم كافة في جميع انحاء العالم على الاحتفاظ بالشعور القومي ،
وتعزيز الآداب اليهودية واللغة العبرية ...! ومن يشك في ذلك ، فليدرس وضع
جمعية « كادима » — الى الامام — أي تقدم ..! وإلى أين التقدم ؟ إلى الشرق ..!
ليعرف الاهداف والغايات المستورة المقررة ! وهذا عين ماتفعله جمعياتنا في الشرق
العربي ، في سبيل توحيد الثقافة والآداب والروح وتعزيز القوى وتمهينها للمستقبل قريب .

ولفت نظر صاحبنا كثرة الاجانب والاغراب في «شفيا» ، دون أن يعجب أبداً .
 فإئن كانت هناك هجرات مشروعة ، فإن هنالك سيولا من اللاجئين ، لم يخضعوا
 لقيود او لشرط .! فالإيمانيون والسوريون والبغداديون والبنانيون والاوربيون
 اليهود يملئون رحاب فلسطين . وكاد صاحبنا ألا يدخل بيتاً في تل أبيب إلا ووجد
 فيه خادما يمانية ..! وقد لاقى القائمون على ادارة «شفيا» الصعاب ، في تهذيب
 هؤلاء اليمانيين . فترى بعضهم حتى الآن ، لا يحسن الاحتذاء ، فيسير حافياً ...!
 ولقد اعطوهم أحذية في بادئ الامر ، فاحتدوا يمينها في شمالها ، وشمالها في يمينها ..
 وألبسوهم الاثواب فارتدوها مقلوبه على قفاها .! غير أن الإيمان مازال في تعليمهم
 عظيماً ، لان ذكاهم الفطري ، بدأت تنحسر عنه غشاوات الجهل القاتمة .

هـذا هو الواقع

ولعل من الطرفة بمكان ، أن تعلم كيف يقضي سكان المستعمرة نهارهم :
 فمنذ الساعة السادسة صباحاً قبيل شروق الشمس ، تبدأ الانغام الموسيقية ،
 تعزف الحاناً خفيفة عذبة تتصل بكل جناح ، من مصدر خاص بالاذاعة في نفس
 المؤسسة ، يتصل بمحطة الراديو ؛ وعندم كذلك ما لا يقل عن ثلاثمائة اسطوانة
 غنائية او تعليمية وكلها بالعبرية . لان اذاعة الاغاني العربية أمر ممنوع ، ولذا فإن
 الطالب المختص بادارة المحطة وهو دمشقي — على حتمه — يرسل على موجات
 الاثير بعض القطع العربية بصوت خافت الى زملائه العرب في جناحهم ؛ اذ أن
 لكل بناء مكبراً للصوت خاصاً به .

ثم يرتفع اللحن رويداً رويداً ، فكأن النائمين يسبحون في احلام علوية ، تداعب
 مخيلاتهم آلهة الموسيقى ، حتى اذا أزفت الساعة السابعة أصبح الصوت عالياً .!
 وهنا ، ينهض الجميع ؛ ويجب على كل فرد منهم ، أن يغتسل صباحاً قبل العمل ،
 وأن يغتسل مساء بعد العمل ...! فالنظافة أساس كل شيء ، حتى إذا أتوا ذلك ،
 وارتدوا ملابسهم ، ذهبوا الى حجرات الطعام . وبعد ثذ ينتشرون في رحاب
 المستعمرة ، فيعمل الطلاب أربع ساعات متوالية قبل الظهر في علوم نظرية بحتة ،

وأما بعد الظهر ، فيعملون أربع ساعات أخرى في دروس عملية صناعية ، فيجب على كل طالب أن يتقن مهنة خاصة على الأقل كما تقتضي الشريعة الموسوية ...!

وخرج شاب لقبه صاحبنا بالفيلسوف ليحلب لنا (نايًا) يسلمنا بانغامه؛ وأقبلت عقب خروجه إحدى التلميذات القديمات لصاحبنا ، وكانت غائبة في المطبخ تقوم بالطهي حسب دورها . فهناها أستاذها على طهوها الممتاز ، وتعنى لها مستقبلا يليق بفتاة جميلة نجلاء العميون ...! وهنا أردت أن أنبهه إلى مستعمل عذارى صهيون ، فسمعت ... دون أن يأنه لي ، بل ثابر على ترهاته ، وكانت الفتاة تصيح إليه وفي عينها خفسر ودلال لذيذان ...!

وعندما رجع الشاب الفيلسوف مع (نايه) وقف يعزف بقامته المشوقة ، ونظارتاه الواسعتان تشع وراءهما عينا ن ذكيتان يقظتان ...! ولا غرابة في ذلك، فقد تنبأ له صاحبي مذ كان تصيداً بمستقبل أديب فيلسوف ، وها هي الأيام تحقق بعض نبوءته. فقد شرع الشاب بتأليفه الأدبية ، وترجماته من العبرية إلى العربية وبالعكس وغداً سيتقن ثلاث لغات ...! وهو يتبها اليوم للجامعة العبرية كيما يستفاد من نبوغه ونشاطه ، فقد أنهى دراسته في (شفيا) ، فكافأته المؤسسة ، بمنحة حجرة منزوية ينكب فيها على دراساته ، دون أن يكلف بعمل ...! ولكنه يأبى البقاء طفيلياً دون جدٍ وكد. ولقد قلنا قبل أن يضع الناي على شفثيه ، وهو يتسم معتذراً لتأخره كنت أطبق شعارنا : ازرع تحصد اعمل تنل ...!

وكان الناي من خشب الزيتون صنيعه أيدي الطلاب ، الذين يصدرون امثاله وغيره من الأدوات الخشبية الى حيفا وما إليها ، باسم مصنوعات شرقية ..

وعزف العازف قطعاً مدرسية لطيفة ، فأعد للإذهان روابي الغوطة ، وظلال الادواح وهمس السواقي ، وانطلق الفتيان والفتيات يغنون نشيداً عبرياً لم أسمعه قط في حياتي غير أن صاحبي همس في أذني : إنه النشيد القومي الصهيوني (هاتيكفا) أو .. الأمل .. وما أن انتهوا من الغناء حتى سأله صاحبنا ، أن يترجم لنا هذا النشيد ... فابتسم راضياً ، وجلس على كرسيه ساعماً في عالم الخيال ، يردد جملة النشيد العبرية

محاولاً ان يعيدها موزونة بالعربية قدر ما يستطيع ... وأخيراً قال :

«لم تزل قلوبنا تخفق ، وأعيننا تتخيل وطننا القديم ، وانفسنا تهيم به ..

أجل ..! لم تزل تهطل الدموع من مآقينا ، كتسكاب المزن

ولم يزل أملنا .. أمل ألفي سنة ، قوياً شديداً

وسنرجع إلى أرض الآباء ، أرض إسرائيل ، وأورشليم ..

ثم تنهد المترجم وقال :

أجل ..! لم نزل نذكر بيت مقدسنا ، وانهياره وانهدامه ..

لا لا .. لن نبكي بعد الآن ...!

فاستمعوا - إخوتي - إلي : إن صوت أحد أنبيائنا يقول :

لن يزول أملنا حتى يرافق آخر يهودي يلج أرض الميعاد ..

هوذا صوت أرضنا المقدسة يسأل الله ويقول :

أين وجوه أنبائي ..؟! »

وهنا دمعت عيون الفتية ، فكأن نشيدهم أضرم فيهم العاطفة ، فران علينا

صمت عميق ، وكل في واديه يهيم ..!

هكذا تعلم الصناعة - (التعليم الجامع) -

وانقضت فترة الاستراحة ، وأقبل وقت العمل ، فنهض كل فرد يلي نداء

الواجب ، وبقي بضعة أفراد برفقتنا ، ليكونوا أدلاء لنا في هذه المؤسسة .

ومررنا في بادئ الامر بمعمل النجارة : فكانت أدواته وآلاته كلها تدار

بالكهرباء .. فثمة مسحجة ، ومثقبة ، ومنشرة ، ومخرطة .. و .. وقد انتثر الطلاب

في كل مكان يعملون تحت إرشاد المعلم . وعلى كل طالب في المؤسسة أن يمر بهذا

المصنع لتعلم المهنة قبل الاختصاص ، كما يمر ببقية المهن مدة كافية لا تقل عن أربعة

أشهر لكل واحدة منها .. حتى إذا آنس في نفسه ميلاً لاحداها ، انتقاها صنعة

له دائمة .

وينتج هذا المعمل كل ما تحتاجه المؤسسة ، من موائد ومقاعد وأدوات موسيقية
وتزيينية .. ويصنع بعضها من خشب الزيتون ، وبعضها من أخشاب الأجر الخاصة
بالمؤسسة ، وما تفتقده الحاجة يشري من الخارج ..

ثم انتقلنا إلى حديقة المؤسسة ، للاستجمام بضع دقائق ، فاذا بها منسقة آتم
تنسيق ؛ فالاشجار العالية تحفها من كل مكان ، والأحواض الهندسية البديعة تزينها
وتملؤها أزهاراً وزنابق متنوعة . ويروي كل ذلك نافورات لولبية تدور من كل
جانب ..! ولقد اخبرنا القوم بان السكان يسلمون في الليالي القمرء فوق هذه
المقاعد المريحة ، فيتمتعون بما تصنعه أيديهم وجهودهم ، وينسون أشجان الدنيا
وما فيها ... !

وطاب لصاحبنا الجلوس ، نعم بالجمال والطبيعة التي هذبتها يد الانسان ، التي
لم تكتحل عيناه قبل الآن بمثلها ... وهنا شرعت إحدى الفتيات تحدثنا مع زميلها
عن المستعمرات في فلسطين ونشأتها ، حديثاً مقتضباً ، لا يروي ظمأ ، ولا يشفي
قلباً ، كما اعترفت بذلك ، ولكنها مع ذلك تشجعت وقالت :

إن المستعمرات في فلسطين على نوعين : شيوعية بحتة وهي نادرة جداً ، واشتراكية
أو تعاونية وهي الأكثر عدداً . أما الشيوعيون فيرومون العيش مع العرب إخواناً
دون هدف قومي معين ، ودون أن يفكروا بمنازعة العرب لآخراجهم من البلاد .
وأما سكان المستعمرات ، الاشتراكية ، فانهم يؤلفون عائلة واحدة ضخمة ، يبذل
الفرد منهم ما يستطيع ، ويأخذ قدر حاجته ؛ ولهم رأيهم السياسي الخاص إذ أنهم
يبذلون الجهد لانشاء الوطن القومي الصهيوني وذلك بأخراج العرب من البلاد ...
وأما التعاونيون فهم عائلات تقيم في المستعمرة ، لكل منها أرضها تزرعها على حسابها
وتتعاون في سبيل تصريف المحصول مع الآخرين ، ولا يختلفون في سياستهم عن
الاشتراكيين منا ... !

وهنا احمر وجه الفتاة وأدركت ان معلوماتها ضئيلة ، وقد تكون مغلوطة ،
فاعذرت عن متابعة الحديث وانتقلت منه إلى قولها :

وتتشكل المزرعة بأدىء الأمر من خيام ومحشبات . ويختار لها المستعمرون بقعة بوراً (بعلا) ... فكلمهم يبذل الطاقة والرى لتصير جنة غناء .. ! وإن جميع يهود العالم وخاصة في فلسطين ، يتبرعون للمستعمرة الحديثة لانعاشها ، فكأنها طفل رضيع يحتاج كل عناية .

أما العيش فيها فالطعام والسكنى واللباس تبذل مجاناً ، ولكل فرد عطلة سنوية لا تتجاوز الثلاثين يوماً ... وله ان يتناول المال اللازم لحاله وترحاله .. ! وأما اطفال المستعمرة ، فيربون في حدائق خاصة بكل مستعمرة حيث تشرف عليهم مربيات اخصائيات .. ! ولا يغرب عن البال أن الطفل الواحد يكلف ثلاثة جنينات فلسطينية شهرياً ؛ فيطعمونه ويسقونه ويمرضونه .. وإلى جانب الحديقة دار حضانة خاصة مع معالمة ومربية وليس على الائم بعد نقاهتها من الولادة أو بعد مجيئها من العمل سوى أن تأخذ طفلها ليقضي الليل بجانبها .

سمعنا هذه المعلومات التي لا ترتيب فيها ولا تنسيق ، وشكرنا الفتاة على حديثها وتابعتنا مسيرنا معاً .. ! وسألناها عن عملها في المؤسسة ، فقالت :

من المهم أن تعلم بأن أعمال البنات ليست مرهقة شاقة كاعمال الذكور . فهي لا تتجاوز تربية البقر والدجاج ، والاعمال الزراعية البسيطة ، والطهي وفن التمريض والخيطة والموسيقا والرقص والغسيل والسكى وجميع ما يتعلق بتدبير المنزل .. ! ولو ألقيت نظرة خاطفة على هذه المعلومات ، لذتلك على انهم يجهزون الفتاة لتكون عاملة في المجتمع ، وسيدة في البيت تدير اموره ، وتشرف على تربية اولادها وتكون نعم الزوج .. ولا يعني هذا حرمان الذكور مما يختص به الاناث ؛ ولكنهم قلما يقدمون على هذه الاعمال .

أما الدروس النظرية فيشترك فيها الذكور والاناث ، ويدرسون منها الزراعة والتاريخ الطبيعي وتاريخ اليهود والجغرافيا واللغة العبرية والانكليزية ثم الرياضيات ولعلمهم يهتمون بتدريس التاريخ جل الاهتمام .. ! فمن لا يعرف أمسه ، لا يدرك حاضره ولا مستقبله ! بل يظل في طفولة مستمرة ...

وصلنا الى جناح (الخياطة) وترميم الألبسة ؛ فوجدنا الطالبات (اليمانيات) يقمن بهذا العمل خير قيام ، ويشرفن على ترتيب ألبسة الجميع من سكان المؤسسة . فلكل طالب او طالبة رقم و جارور خاصان بثياب الصيف والشتاء وثياب العمل وثياب الراحة ... أما الألبسة فتكوى على الكهرباء .

وكانت رائحة (النفتالين) تقتل الحشرات (والعث) تتصاعد من ثيابها . واقدم مسحت رفوف الخزان وجميع الأخشاب بالنفط ورشت بمسحوق (د - د - ت) للفتك بالصراصير والهوام ؛ كما أسدل على كل خزانة سجف ذات حلقات تنزاق على شريط من المعدن ..! وبجانب هذه الحجرة غرفة كبيرة لغسل الثياب . فترى الملابس و (البياض) قد كومت صرراً على رفوف خاصة عريضة استعداداً لغسلها . وهناك آلة كهربائية لعصر الثياب وبرميل مترع بالماء وأنابيب تصل بين مختلف الأوعية والصهاريج ... أما الملابس الرقيقة التي لا تتحمل ضغط المصير بالآلة ، فتغسل فوق أداة معدنية خاصة ..! وإذا سألتني كيف لا تختلط هذه الملابس المختلفة العديدة لاء أكثر من خمسمئة طالب وأستاذ ومعلم ..؟ فأقول : إن كل قطعة من هذه القطع رسم على طرفها رقم صاحبها بالخيوط الملونة المغايرة للقطعة ... وإن كل ما يحتاج إلى رفء وتصليح يحال الى جهته المختصة .

أما النظافة فهي المظهر البارز في هذه الغرف المترعة بالملابس والثياب ... ولا تنس أن كل فتاة عليها أن تقضي فترة في هذه الحال ، لتمتدود بما يصلح من شأنها في حياتها المستقلة .

هذا وليس كل الفتيات في المستعمرة فقيرات يتيمات ، فثمة الغنيات ، وبنات الذوات أيضاً ..! وهل تحسب أنهن يشماؤزن من العمل ؟ كلا ..! فهو واجب عليهن ..! وما قيمة المرأة التي لا تحسن تدبير المنزل ؟ وامن كانت بعض فتياتنا (النبيلات) يتهن فخراً بأنهن لم يدخلن المطبخ يوماً ، وأنهن لا يحسنن الطهي ولا الغسيل ولا الكي ، وأن هذه الاعمال من شيم الخدم والعبيد ، فانهن يجهلن رسالتهن في الحياة ، وبئس الجيل هن أمهاته ... وما أشبه الائمة التي تظل نساؤها جاهلات عاطلات

– إلا للثرثرة والأزياء والتبرج – كطائر ذي جناح واحد ، لا يستطيع مهاعظمت قوته أن يطير ، بل يبقى ما بقي محرمة عليه الأجواء الطلقة والسموات الفساح ..! وإذا كان النسوة يشكن ما لا يقل عن نصف الأمة في الأقليم ، فويل لأمة نصفها عاطل وعبء على النصف الثاني ..!

ولعل الانتاج الصهيوني لم يبلغ ما بلغه اليوم لو لم تشترك في سبيله الأيدي النسائية ..! وإن النساء المتعاملات الشرقيات اللاتي يطالبن بالمساواة، والحقوق السياسية، فيعقدن المؤتمرات، وكلهن هدف واحد ومبدأ واحد وكتله واحدة، لو اندفعن هذا الاندفاع نحو بعضهم بعضاً ليتفهمن الرسالة السامية التي تقع على عاتق المرأة، في العصر الحاضر، لكان عملهن أجدى فائدة وأبل غاية .. لأن المرأة عندما تصبح عضواً نافعاً في المجتمع سوف تنال تلك الحقوق التي تشدها دون ضرورة لمؤتمرات وحفلات تسلية تضيع فيها الأوقات بين استعراض أبهج الأزياء والاثواب وأعنف المسابقات لظهار الجمال وضروب اللهو ..! ولو أن نساءنا تفهمن رسالتهم حق الفهم، واقتصدن في جهلهم وخداعهم، لما كان في الأمكان أبدع مما كان .

ثم انتقلنا إلى معمل صغير (للكونسروة) يؤمن حاجات القرية على أتم شكل . ففيه تحضر المربيات والفواكه المجففة والأثمار المكبوسة من زيتون و (مخلل) ؛ وفيه تصنع أنواع الشرابات ، ورب البندورة والخمور والزيت كما تخزن فيه الألبان والبيض والزبدة ..!

فأرشدوني مغفوراً لكم ، على قرية واحدة في طول البلاد وعرضها ، فكر أهلها بإنشاء مصنع واحد يتيم ، يضم شتات ما ذكر ..! – صدق الله العظيم – وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

وهناك شاهدنا معملاً واحداً للحدادة فذكرني بالحداثة والصناعة في مدارسنا الفنية الصناعية . تلك التي تنفق عليها الدولة القناطير المقنطرة ، ثم تكون نتيجتها ، ان يخرج طلابها ليفتشوا عن وظيفة كاتب أو معلم في قرية في المرتبة (١٢) تحت الصفر .. لأنهم لا يحسنون شيئاً يعملونه قط ..!

فأين التوجيه العلمي الصحيح ؟ وأين وضع الأمور في مواضعها ؟ وقد يقال :
لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ..! وكان في القسم المقابل لذلك بناء خاص للفنون
الجميلة . وهو ما تندر به بعضهم قائلًا : هذه هي الأوبرا الخاصة بنا .! ففيها جميع أنواع
الآلات الموسيقية من (كمنجات) و (ماندولينات) وأبواق وبيان و (أراغن) ..
وقد حليت الجدران بصور كبار مشاهير الموسيقيين أمثال : بيتهوفن ، وشوبر ،
وفاجنير .. ومما يجدر ذكره أنهم يفرضون على كل طالب وطالبة أن يحسن العزف
على آلة ما ، لأن الفنون ترهف الذوق والحس كما يقولون .. ولن يغيب عن ذهننا
ساعة وقف مرافقونا وعزفوا لنا قطعة مرتجلة جعلتنا نندب حظنا العاثر ، وأيامنا
المفقودة ؛ حيث لم نتعلم في حياتنا المحترمة سوى طقطوقة الوحوي .. الوحوي ..
وهناك بجانب هذه الحجرة غرفة الاذاعة .. وفيها مذياع وآلة للث وأسطوانات
تصل بسائر حجرات القرية . ولقد خلنا ان القائم على شئونها مهندس عظيم ، قضى
ثلاثي حياته في الجامعات والدراسات العامة الفنية ؛ وإذا به طالب لم يتجاوز الخامس
عشرة من سني حياته ، وقد تلقى كل معلوماته في القرية ..
وبجانب هذا الجناح ، مستشفى المؤسسة ومستوصفها ودار طبابتها ؛ فيه ممرضات
— من الطالبات الرعايب المرفهات — وفيه سرر نظيفة أنيقة ؛ لكنها خالية من
المرضى ، فهل القوم لا يمرضون في تلك البقعة ، أم ان المرض يخشاهم ، ولا يخرق
خطوطهم الدفاعية الحصينة ، لحاجتهم الشديدة إلى النفوس والأيدي ..؟ لست أدري !؟
وأخيراً وصلنا إلى رُحبة واسعة تحت الأفياء . فوجدنا آلات زراعية بينها آلة
ضخمة للحصاد والتذرية والتنقية ، لم يصل مسامعنا بعد أن في غوطتنا العريضة الواسعة ،
أو في سهول حوران الفسيحة العابسة ، آلة مثلها ؛ ولعلها رجس من عمل الشيطان
فاجتنبوه ..!

رياضة تقرير الضعيف - وفصول مدرسية

هل تخيلت يوماً مدرسة تقوم بين أحضان الطبيعة ، في الهواء الطلق ، والنور المتألق تحت الظلال .؟ وهل تخيلت مدرسة تحيط بها من كل جانب الأشجار الباسقات ، فلا تسمع إلا حفيف الأوراق ووسوسة النوافر ترش الزروع .. ؟ إذن ؛ فاعلم ان هذا موجود في (شفيا) وكل ما تخيلته هو حقيقة واقعة .. ! فثمة في ظلال الصنوبر ساحات للرياضة الحديثة كما يقولون ويزعمون .. وهي حقاً رياضة غريبة جديدة فليس فيها تمرينات (اسوج) ولا أنظمة عسكرية ولا قيود مدرسية .. ! فانظر إلى هذا العمود الخشي المعلق في الهواء .. ، ففي كل صباح يمر عليه سائر الطلاب والطالبات ليتعلموا حفظ التوازن والاعتماد على النفس .. ! وانظر إلى ذلك المتوازي والثابت والكرات فهي لألعاب بهلوانية خلاف ما يظنه كل قاريء .. . وهذه هي الجبال المعلقة بالهواء للطيران بواسطتها بين الأشجار كما يفعل طرزان في أجمته حتماً .. ! ولقد رأيناهم يقفزون كالقردة من مكان إلى مكان ، ويتسلقون الأشجار والاعمدة كالكوماندوس أو كأنهم يتدربون ويستعدون لحرب الأعدال مع اليابان في بورما .. !

وقرب المدرسة حوض للسباحة . طوله خمسون متراً وعرضه خمسة وعشرون .. وفيه مكان للقفز خاص ، وقد عريت من حوله الأشجار ليكون معرضاً للشمس والهواء ، تدفع إليه الماء محركات خاصة من البئر .. !

وأخيراً دخلنا فصول التدريس : فهذا فصل للدرس كغيره من فصول المدرسة . وليس فيه على سعته مقاعد لاء أكثر من ثلاثين تلميذاً . فهي ثلاثة صفوف ، وكل صف منها يحتوي على خمسة مقاعد ، وفي كل مقعد تلميذان .. ! وهذه المقاعد مجلوة (مبردخة) جيداً . وفي صدر الفصل لوح يفتح ويطوى ، طوله بطول الجدار تماماً . وهنا وكزني صاحبي هامساً : رحم الله أيام (زمان) في مدارسنا ، حيث تكتظ الفصول ببني آدم والاحوم البشرية ، كعلب الكونسرويه أو السردين وحيث تملأ

الجوزفرات الطلاب الخائفة وغازاتهم الفحشية التي تمنع أضخم المعلمين وجداناً مسكياً
ان يبلغوا منتهى الصف .. !

وهذا هو المختبر العلمي للطبيعة والكيمياء . وهو مجهز بكل ما يحتاج اليه الطالب
من أدوات ومواد . فهناك لوحات خشبية ملونة لجسم الانسان ، ولأنواع الحيوان
والنبات والحشرات . وإلى جانب ذلك توجد أنواع عديدة لكافة الأخشاب في
العالم، مقطوعة على أوضاع مختلفة . وثمة خزائن لحفظ المواد الكيميائية ، ووسائل
التحليل ، والأنايب المترعة بصنوف البذور الزراعية . وفيها مجاهر ، وحيوانات
صغيرة ، وزواحف ، ومعادن مختلفة ، محفوظة في الأوعية الخاصة البلورية .. ويوجد
أيضاً جسم الانسان وأجزائه ، ثم الأفاعي العديدة السامة وغير السامة . وأنواع
العظام للحيوان والانسان ، وخزائن الكتب العلمية والآلات المتنوعة ، لتطبيق
الدروس وللتجربة ..!

وليست هذه الأدوات والأجهزة برسم خداع المفتشين ورؤساء التعليم ، أو
لتزيين الفصول وغرف الإدارة أحياناً ، ولكنها وضعت ووجدت للعمل والتجربة
والتطبيق ...

وبعد فلا تحسبن أنك في معهد من المعاهد أو جامعة من الجامعات .. لا ! بل
نحن أمام دار حضانة ومدرسة ابتدائية صناعية للمؤسسة ! . وإذا علمت ان الصهيونيين
لجاناً ثقافية خاصة بالتوجيه العلمي القومي الملامم ، لزال عجبك من وجود هذه المخابر
والمتاحف المملوءة بالأجهزة والوسائل التي يتمنى كثير من مدارسنا على اختلافها
أن يملكن مثلها .. ! وإن العمل المنظم الدائب ، كفيل وحده أن يخلق ألف متحف
وألف مخبر . ولعمري ان قطرات الماء تذيب الصخر .. ! أما أن نادي طول الحياة
بأن لا استقرار بلا استقلال ، ثم نختبي وراء هذه الأحمجية ، ونجعلها سبيلاً للتكاسل
وحجة للراحة ، فهذا ما تأباه الأعم الوثابة ، طالبة المعالي .. !

وهكذا كان يشور صاحبنا لكرامته وقوميته ، كلما شاهد ما يهيج غيرته وفضولته .
وكنت أصب على غضبه (دوشاً) من الآمال والتفاؤل حتى يلين ويتسم .. !

وكانت الساعة تشارف الرابعة حينما وصلنا إلى مغنى تحت أشجار الصنوبر ،
وكأنه صومعة ناسك أو جوسق راهب ؛ يقف على بابهِ الدكتور الفيلسوف مضيفنا
منذ الغداء ..

وفي خارج المنزل سرير أبيض تغمره كلاً هفهافة بيضاء ناصعة ، وترقد تحتها
طفلة صاحب الدار ، وهي في الخلاء حيث النور والهواء والطبيعة . ولما سألنا عن
عن وجودها منفردة هنا .. أجبتنا : إنما تقصد بذلك تعويدها حياه الحرية والاعتماد
على النفس ، ونترك أمها تقوم بأعباء المنزل وتدير شؤونه .. !

قبضة الصهيونية ترعة نازية مأكرة

كان الاستاذ يقف عن كذب من طفلته يبسم لمقدمنا ، فأقبلنا محيين . ثم قدمنا
إلى زوجته ، وهي ألمانية شقراء ، ناضجة حلوة ، تظهر من سيمائها اعلام الأسي والصبر
تجلبها مسحة من الرضاء المصطنع خلقتها يد الوحدة والعزلة . ! وللهمة الاولى يبدو
على الزوجين الانسجام التام والتلاؤم ؛ فمن جانبه هدوء ودعة ، ومن جانبها إطاعة
ونظام . . ولعمرو الله ، لو كانت عندأحدنا هذه الغادة الأملود ، بجالها وسنها وهندامها ،
لدت على زوجها الهرم ، ولأصلته جحياً لا يطاق .. ولربما نشرت عنه في هذا
المكان النائي عن العالم وأقلقت المحاكم الشرعية بصراخها وشكواها .. ومن يشك
في ذلك فليزر هذه المحاكم ليظفر بأحسن جواب ويقين .. ! ولكن يبدو أن حسن
الاختيار ، وتقارب الطباع مع الصبر والحزم ، هو ما جعل الزوجين ، ينعمان بالهدوء
والحياة العائلية المنظمة . !

جلسنا إلى مائدة أعدت لنا ، مثقلة بالأواني الخزفية الفاخرة والزبدة والعسل
المصفي والمربي والقهوة والحليب .. وهي مائدة أنيقة سال لها لعاب الرفيق الصالح
فشرع يبدي هيامه بها على طريقته الخاصة دون أن يثير حوله الشكوك . !
وقضينا ساعة أو بعض الساعة ، نتحدث عن الفلسفة أولاً وهي اختصاص المضيف
ثم عن الفن والجمال .. ثم جرتنا الحديث الى السياسة ، وما يتصل بذلك من أحداث
الصهيونية وفلسطين ...

ولقد ظهرت آراء الاستاذ شبيهة بآراء تلامذته في (شفيا) صورة طبق الاصل؛ فكان الطلاب يلقنون أفكار أساتذهم بالحرف الواحد، وليس هذا غريباً عنهم، فهم يتلقونها تماماً وعملاً، بفهم ووعي...! وطفق الاستاذ يبرر قدوم اليهود الى فلسطين بما قاسوه من عذاب في بقاع العالم، بل حاول كما حاول غيره منذ سنين، أن يثبت بأن الصهيونيين، لن يضرروا العرب شيئاً بل سيكونون خير عون لهم.. ثم استشهد بقول (بن غوريون) وتصريحه، بعدم طرد العرب من أرضهم، أو سلبهم حقوقهم، أو مس أرض الفلاح بسوء.. فلقد قال وقرر (بن غوريون) منذ عام ١٩٢٤ بأن مصير العامل العربي لن يختلف عن مصير زميله اليهودي... أما الدكتور وايزمن — كما يروي الاستاذ وعلى ذمته — فقد قال عام ١٩٢٩ بأنه يأمل عند تحقيق الصهيونية ألا يطرد عربي واحد من أرضه...؛ وكذلك الأمر في مبادئ وأقوال (جابوتنسكي).. فهذا يرى ان يحافظ الصهيونيون على المساواة في الحقوق بين كافة المواطنين، بغض النظر عن الدين واللغة والطبقة...! ويرى أيضاً بأن يكون نائب الرئيس في الوزارة الفلسطينية — عند الاستقلال طبعاً — عربياً وعكس الأمر إذا كان الرئيس عربياً فنائبه يهودي...!!

ولقد كنا نعرف أنا وصديقي، بان هذه الخيالات ليست أكثر من ألقاظ، لك أن تدعوها بالالفاظ المذوقة المعسولة... ولعلمهم يطبخون ويركزون القضايا كما يفعل لاعب الشطرنج على رقعة، دون ان يفكروا مرة واحدة، بقبول العرب لهذه الحلول، أو بالحري بوجود يهودي واحد في أرض فلسطين...! ولعل الاستاذ المحدث عرف من وجهينا، صورة التحدي وعدم الاقتناع، فطفق يضرب على وتر آخر تعود أن يعزف عليه كافة يهود العالم فقال، بينما كانت زوجته تصب لنا القهوة والحليب: كيف يستطيع اليهود الحياة في أوروبا، في جحيم الاضطهاد والتعذيب، والغضب والتشريد...؟

إن اليهود كغيرهم من البشر لهم حق الحياة، وإن فلسطين وحدها بلاد واسعة تتسع لمليون يهودي آخر.. وإن في منطقة بئر السبع مليوناً ونصف المليون من

الدونمات، صالحة للزراعة والسكنى تنتظر من يعمل .! وهي حل موفق للمتشردين المضطهدين .! إن خمسة عشر مليوناً من اليهود، يقيمون في كل زاوية من زوايا العالم، لن يأتوا فلسطين كلهم، ما دامت حقوقهم محفوظة، بل على العكس فهم سيمدون بها بثروتهم وأموالهم عن بعد.. أما إذا نزلت بهم نازلة، فليس لهم ملجأ سواها، وما من أحد يستطيع أن ينكر استفادة عرب فلسطين والبلاد المجاورة، من الاموال الصهيونية والمشاريع التي نفذت في هذه البقاع.

تخيّلوا فلسطين قبل قدوم اليهود إليها، وقيامهم بمشاريعهم الصناعية والزراعية الكبرى.. فقد كانت فلسطين عالة على البلدان المجاورة، تستمد منها الغذاء والكساء والدواء.. أما اليوم.. وفي هذه الحرب الطاحنة.. بعد أن أغلقت أسواق العالم في وجه بلادنا؛ فإن فلسطين وحدها هي التي أمنت قسطاً كبيراً من حاجات البلاد المتاخمة لها..! فنحن نعمل لأنفسنا، ولا نبناء عمومتنا العرب، فليعمل العرب معنا.. وليضعوا أيديهم في أيدينا، ولديهم الطريق معبدة، والقذوة الحسنة.. أما المواقف السلبية، فلن تجديهم شيئاً..

وهنا انبرى صاحبي، كالحصان في حلبة السباق، وضحك ضحكة خشنة، كادت تزعج الزوج المصون، التي احمرت خجلاً، ثم قال بلغته الفرنسية العالية، ناقلاً نظراته بين الاستاذ، والزهرة الفواحة، يستمد من سناها عوناً ومدداً:

على رسلك يا أستاذي.. إن العامل والفلاح العربيين، لم يجنيا بما ذكرته شيئاً، لأن الصناعة والزراعة لديهما مازالت ابتدائية يدوية.. وإن من يعمل من العرب في هذه الصناعات لا يتجاوز (١٨٠٠٠) عامل؛ وليس ثمة مشروع واحد ضخم يضم أكثر من (١٠٠) عامل؛ أما رأس مال المشاريع بصورة وسطية فهو بين ال (٥٠٠) جنية وال (٦٠٠)، بينما نرى أن الصناعة اليهودية، يعمل فيها أكثر من مئة ألف عامل يهودي..! فأين هي المساعدة إذن؟

إن (١٤) مصلحة حكومية شغلت عام ١٩٤٢ : (١٠٣٤١١) عاملاً كان بينهم (٩٠٠٠٠) عامل عربي مع (٣٠٠٠٠) عربي في الجيش؛ أما اليهود فلم

يستخدموا العرب فقط ، حتى لدى ندرة اليد العاملة ؛ ويحرم تحريماً قطعياً على كل من يتناول المساعدات من المصارف المالية (كيرين كايمت و كيرين هايسود) أن يستعمل عاملاً عربياً واحداً ؛ حتى أن (المهستدروت) لم تستخدم في مشاريعها الصناعية والعمالية واحداً من العرب . وليس في التعاونيات المرتبطة بها عضو عربي .. وعند الضرورة القصوى ، في تنفيذ عقودها العسكرية أو الحكومية أو البلدية المستعجلة ، تتكرم بدعوة العرب : ولكنها لا تدفع للعامل منهم إلا ثلث أجره العامل اليهودي ، أو نصفها ..

فأين ادعاءاتكم المزعومة عن التعاون مع العرب ؟ وهل التعاون يكون باجلاء أهالي البلاد الأصليين عن موطنهم لتحلوا محلهم . ؟ وهل التعاون يكون بتدبير المؤامرات ، والكيد للعرب ، واحتقارهم وازدرائهم . ؟

وهنا أدار الأستاذ دفة الحديث ، وعاد إلى نعمة الاستعطاف القديمة فقال : لم يفتصب اليهود أراضي العرب ، بل اشتروها من أثريائهم وأغنيائهم مختارين طائعين .. وكانت جل هذه الأراضي صحارى وبقاعاً قاحلة بوراً ، صيرها اليهود حدائق وجناناً .. إن عصا موسى لا زالت في أيدينا ، فلئن شق كليم الله البحر لقومه ، فنحن نحبي الأرضين لليهود أينما كانوا ، في المهجر أو الوطن .. أنظر إلى (شفيا) هذه ... وما إن بدأ يتحدث ، حتى استأذنه بالكلام تلميذ قدم منذ هنيهة ، فقال :

شفيا .. كانت هذه الجنة مستنقعات آسنة ، فجاء قبلنا شباب مؤمنون ، غرسوا الأوكاليتوس في أرجائها ، وبنوا الأندراج الجبلية ، وحفظوا الينابيع ، وشجروا الجبال ، وسمدوا الأرض ، وقلبوها ظهراً لبطن ، ونسفوا الصخور ، وطرّدوا الحيوانات المتوحشة ؛ لقد مات منهم الكثيرون في هذه البقعة ، مات منهم شباب غض ، متحمس مثقف .. لقد ماتوا بالحميات ، ولدغات الأفاعي ، ائخلقوا لنا أرضاً وملاذاً .. لقد أدوا الرسالة ، وإننا على آثارهم لمقتدون ...

وعاد الاستاذ إلى حديثه قائلاً : أذكر أن قرية (الأعناب) قرب القدس ،

كانت أرضاً ملحية ، لا يعيش فوقها حيوان ولا ينبت فيها نبات ؛ غير أن الجهد المتواصل ، غسل التراب بالماء مرات عديدة ، حتى ذابت الأملاح ، ورسبت في الأغوار ، ثم أصلحت الأرض وأحييت ، وغدت مستعمرة نعتز بها ، وقد تحررت من كل ديونها منذ حين !.

وإن تاريخ كل مستعمرة ، هو صورة طبق الأصل عن قرية (الأعناب) .
ولا تعجب من عملنا الجبار في سبيل الأرض ، فإن أذيع سرّاً إذا قلت : إن كيان الصهيونية برمته قائم على امتلاك الأرض وإحيائها ، فالأرض قبل كل شيء هي أملنا وهدفنا الأسمى .. ولا وطن لنا بدونها .. وإن يوماً تمنع عنا الأرض ستصيبنا الكارثة الكبرى ، سنعود إلى حياة (الجيتو) والجحيم الأبدي ...
إنا نشترى الأرض ، ثم نحياها ، وسندنا في ذلك معهدان للأبحاث العلمية والتوجيه الفني ، أحدهما : معهد الدكتور (وايزمن) في قرية (رحابوت) المحطة الزراعية الكبرى في الطريق بين يافا والقدس ، والثاني هو في الجامعة العبرية في القدس .. وتدرس فيها تربة الأراضي ، وخير ما يلائمها من المزروعات والأسمدة .
ثم استأذن الطالب بالكلام فقال :

أبدأ لن نترك هذه الجنان لتعود بوراً .. لقد أسسناها على جثث الأبطال ، وسقيناها بدماء النساء والرجال ، ونحن فخورون بعملنا ؛ فالحياة جهاد متواصل ، والبقاء للأصلح ..

أجل ، كان أولئك المستعمرون الأولون ، يحملون أرقى الشهادات العلمية ، والدرجات الجامعية ، ومع ذلك لم يأنفوا من أي عمل طلب اليهم تنفيذه . لأن هدفهم مقرر واضح وهو إنشاء وطن قومي .. ولن تجد صهيونياً واحداً يتوانى عن خدمة القضية المقدسة التي لم يبصر النور إلا لتحقيقها ؛ وإذا كان لا شيء أدهى للاتحاد كالألام ، وتحمل الأوصاب ، فإن اليهود أعظم من اتحاد في التاريخ لكثرة ما انتابهم من اضطهاد وعذاب ، في كل طور من أطوار التاريخ وتحت كل كوكب ..
واليوم ؛ وقد عاد الأبناء إلى أحضان أمهاتهم ، عاد شعب إسرائيل إلى أرضه

المقدسة ، (باروخ لآدوناي) : (الشكر لله) ، ليرهن على حقه وجدارته بالحياة ..
وإذا كان شعار اليسوعيين : لمجد الله الأعظم ، فإن شعار كل يهودي ، تحت
كل خافق : لمجد الصهيونية الاء كبر ..

وزفر صاحبي لضيق صدره ، ولسماعه هذه القنابل المدمرة ، وزفر الأستاذ
وتهد ، واندفع كرة اخري يزجر :

أليس جنابة ترك هذه البقاع المقدسة ، بوراً لا تنفع إنساناً ولا حيواناً ؟ هل
تعلم أن تل أيب لم تكن قبل خمس وعشرين سنة شيئاً مذكوراً ؟ لقد كانت صخوراً
جرداء ، لا ماء فيها ، ولا نبات ، ولا إنسان .. فاذا بها اليوم ، مدينة المدائن وعاصمة
العواصم .. نعم ، ذلك هو العمل المخلص الواعي ؛ فانظر إلى أبنائنا كيف يعملون
في كل مكان .. هنا ، وفي بيسان ، والخضيرة ، وزخرون .. يجفون المستنقعات ،
ويفجرون الينابيع ، ويزرعون الكينا والصنوبر والسرو ، ليخلقوا طبقة أرضية ،
زراعية ، فزرع ولا تقطع ، وابن ولا تهدم !

وعندما كذت أسمعته يندفع في حديثه المؤمن به كل الايمان ، كنت أهيم في عالم
الخيال .. فأبصر اليهودي التائه يجوب الآفاق ، عقب غضبة الديكتاتور الجرمانى ،
ليحط الرحال في فلسطين ، يندب حظه العاثر أمام جدران المبكى ، .. ولا يخرجني
من خيالي سوى قدح الحليب مع القهوة ، تقدمه لي يد فضية بيضاء ، ألمح وجه
صاحبها ، فأرى فيه خطوط الهم والأسى ، تحت قناع الصبر والتجلى ، فأتسم ،
واشكرها بفرنسية مهمشة كفرنسيته ..

أبرها العربي : هذا حديث من احاديث كثيرة ، تركناها بدون تعليق ،
لتفهم عقليته عموك وصحبه وأهله وما آربه ، وكلها مدمرة ...
ولن يسمعك في أزميتك ، ولن يتسلك من هوتك ، سوى أمرين اثنين
هما تعمير الارض وتعمير العقل .

فالأول بعمر بالتضحية ، والجلد والوعى الصبيح ، والثاني بعمر بالعلم
والتقوى والاطلاع .

لا رجعية بعد اليوم ، ولا فيال ، ولا أوهاص . بل صفوف متعرة ،
وقلوب متألقة تعمل للعرب ، وللهجيال المقبلة .

فعلى المثقفين ، والرأسماليين ، والمتنفذين ، في طول البلاد العربية وعرضها
أن يجعلوا خلاص فلسطين من التيهن الصهيوني والاضطبوط اليهودي
هدفهم الاسمي ، وسائرهم السافل ، وغير لنا ان نغسف الجوامع والسكنائس ،
وان نزول آثارنا المقدسة ، من أن تبقى أثرًا يذكر الهجيال بأنه كان يوجد في
هذه البلاد شعب عربي ، لم يعرف كيف يحفظ بها ...

تحت ظلال الصنوبر

ما كدنا نقادر المغنى ، حتى التقينا بلغيف من التلميذات والتلاميذ الدمشقيين ،
وبرفتهم بعض اليمانيين والعراقيين واللبنانيين .. والاردنيين .. وكانوا قد اتهموا امن
عملهم ، فتحلقوا حولنا حلقات ، وجعلوا يمرجون ويرقصون ويهزجون ؛ وراحت
إحداهن تنشد أنشودة لم نفقه منها شيئاً سوى ذلك الصوت الجميل ، يتهدى تحت
ظلال الصنوبر .

ووقفت شابة لبنانية ، كزهرة في أكمامها ، لم يفح عبيرها بعد ، وتبرعت
بترجمة الأنشودة ، التي زعمت أنها لشاعرهم الاء كبير (بياليك) وقد استخفها
الطرب فقالت :

لئن كانت كلتكم متحدة قوية ،
في كل بلد ، وفي كل مكان ،

فإن البرقع الأسود سينحسر ويسقط ،
وسيرتفع بديله حجاب زير أبيض ...
وهناك ، حينما يحين الحين ، وتقع الواقعة ،
سيلي النداء كل فتاة وفتى قائلين :
نحن من يبي دنيا جديدة ...

ثم جلست فأنبرت شابة قائلة : أستاذ ، إنها لم تترجم المقطع الاخير ؛ اسمعوا :
ولتسن يميني إذا نسيتك يا أورشليم ...
وما دام العالم أجمع ينتظر فرج الرب لاعادة شعبه الى جبله المقدس ،
فإن شعب إسرائيل حي ... إن شعب إسرائيل لا يموت ...

وكانت الوجوه الباسمة تتحدى التشاؤم ، وتصغي بهدوء الى الانشودة الممتلئة
أملاً وتوثباً ، وما كادت تنتهي ، حتى عاد الجميع الى المرح ، وعبق الضحكات الرنانة ،
فما ينسى متاعب العمل ، ومشاق النهار الكادح ، ويضفي على النفس أملاً بمستقبل
رحب رغيد .

وليس أبهج لآئفسهم من أن يدنو أحدهم من حرج الصنوبر ، فيوميء الى شجرة
ويقول : هذه شجرتي .. لقد غرستها بيدي ، وتعهدتها بنفسي ، وهي رمز عملي
ونضالي . ثم يشرحون لنا كيف ينظفون الأرض من أحجارها ، وكيف يقلعون
صخورها باحدى ثلاث طرق : بنسفها بالديناميت ، أو قلعها بجرارات ضخمة أو
بربطها بالثيران ، أو بطريقة الأقسام الحزأة ، على فترات زمنية ..

ووصلنا إلى ناحية منعزلة عن القرية ، وكان أول ما صادفناه حجرة الالبان ،
وكانت جدرانها من البورسلين النظيف الأبيض ، وأخشابها مطلية بالدهان الأبيض
أيضاً ؛ وعلى النوافذ (مناخل) ، وفيها مفرزة يدوية لفصل الزبدة عن اللبن ؛ وكانت
الالبان موضوعة في أوان من الألمنيوم محكمة الغطاء ، وترى أ كياساً ملاءى باللبن
لصنع الجبن ، معلقة فوق حوض خزفي أبيض ، تتجمع فيه البقايا من اللبن الخفيف ،
والأمواه المناسبة ، التي تؤخذ طعاماً للدجاج بعد مزجها بالنخالة .

وقال أحد الطلاب : وغداً .. عندما نغادر شفيها أسفين ، نحمل العلم والمعرفة
والخبرة .. سوف نؤسس مستعمرة ، نتل إليها كل ما اقتبسناه في هذه الربوع ،
وسننشئ حجرات خاصة للالبيان والاعجاب ككاترون ، والذبدة أيضاً .. الزبدة
الشهية المعقمة .. التي لن تكون عرضة للجراثيم ، وبؤرة للامراض ..
فلم نعره اهتماماً ، شأن كل عربي يضايقه نجاح خصمه ...

أبقار بحرها انسان

ووقف الجميع مستبشرين أمام اسطبل البقر ، وهو اسطبل في كالذي قرأنا عنه
في كتبنا ، وشاهدناه في قواميسنا ، والشهادة لله ...
فسطحه شاهق ، تثير ظلماته نوافذ عالية ، واسعة ، تسترها (المناخل) وأبوابه
واسعة أيضاً ، وأرضه من الاسمنت المائل ، فيها مجار متساوية الابعاد ، ينساب فيها
بول الحيوانات إلى ساقية صغيرة جانبية .. والاسطبل مقسم الى أجزاء متساوية ،
في كل قسم بقرة بين حاجزين من الحديد ، وهي مربوطة من رقبتها بسلسلة لاتعوقها
عن الأكل .. وهذه السلسلة مربوطة بعمود حديدي أفقي عال .. وفي كل قسم
لوحة كتب عليها اسم البقرة المحترمة ..

وكان الطلاب ساعثئذ منهمكين في الاستحلاب ، وقد أمسك كل واحد بين
رجليه سطلا ، وجلس على كرسي من الخشب ، وراح يحلب البقرة ، لينقل اللبن
بعد فترة الى المحال الخاصة ، وكان بعض الطلبة ينظفون الحجرات التي انتهوا من
الحلب فيها ، فيفرشون التبن ، ويوزعون الماء والغذاء ، على البقرات العزيزات ..



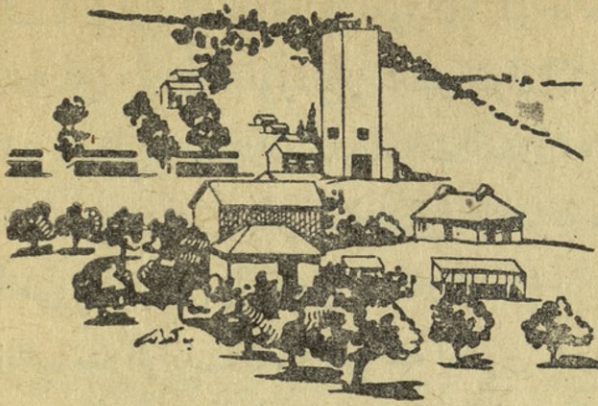
ووقف صاحبنا مطرقاً خاشعاً أمام هذه الاسطبل ، ينظر الى الأرض مرة ،
والى البقرات ثانياً ، ويقول : ألا يتمنى كثير ممن نعرفهم أن يناموا هنا في هذا الاسطبل ؟

أليس هذا الأسطبل مرتباً ونظيفاً وصحياً أكثر بكثير من ألوف البيوت في قرانا
التعسة.؟ ألم يشاهد هو في حوران أكواماً من الأءحجار ، قيل له إنها بيوت
الفلاحين ، وملاذ الحورانيين .! فهل يقول إن بعض فلاحينا لن يصلوا الى مرتبة
البقرات التي يراها الآن بعد عشرات السنين . . . واذا كانت البقرة محترمة ونظيفة
أكثر من الفلاح ، فأى قيمة للكرامة البشرية ، وما عمل وزارات الزراعة من
أقصى (أصوان) إلى أقصى (منقار البطة) إذا ما ظل الفلاح جاهلاً عارياً حافياً ،
نطلب منه الواجبات، وننتهي عنه الحقوق.؟ وهل تتجح أمة تسعة أعشارها يكدح
لعشرها . . . وهي لا ترتفع الى مرتبة البقر.؟ أليس هذا مما يثير النفس ، ويدعو الى
الكفاح والنضال في سبيل رفع هذه المواثي البشرية الى مرتبة الناس العائشين في
القرن العشرين.؟!

ثم كاد يخرج عن جلده من الغيظ ، وتابع قائلاً : لا . . . لا ، يا قوم ! لا نجاح
لنا بالخطب الرنانة ، والمقالات الزائفة ، والاءتماعات والمؤتمرات التي لا تنتهي إلا
إلى نتيجة واحدة ، هي اتفاقنا على ان نبقى متفقين أمام هذا الفلاح الكادح ، في
صبارة الشتاء ، وحمارة القيظ ، نستغل تعبهُ ، ونمتن كرامته ؛ ونستعبد زوجه
وولده ، ونشبح عنه بوجهنا ، ائماً يوسخنا بنظراته ، ثم نعلم أولادنا : احترموا
الفلاح . . . — شيء يفلق . . .

ولنترك هذه البقرات المثيرات للشجون ، ولننظر الى دار التوليد . . . وحذار
أن تحسب أنها توليد البشر . . . لا ، لا ! بل هي خاصة بالبقر . . . وهي مكان واسع
غطيت جدرانه بالبورسلين الأبيض الناصع ، مقسم الى حجرات مستقلة ، تسع
كل حجرة لبقرة واحدة حامل ، وبجانها جناح خاص لارضاع العجول الصغيرة ؛
ريثاً يشتد عضدها . . . وفي الجدار الخارجي لدار الولادة السعيدة ، أحواض تردّها
البقر يتدفق ماؤها تقياً ، من صنابير ضخمة ، يحيط بها حواجز حديدية قوية .
وهنالك اسطبل لثور هائل ضخم ، أنسانا ثيران غوطنتنا التي نعتز بها ،
ونحسبها مكنتزة شحماً ولحماً . . . أما هذا فجسمه مكسو حقاً باللحم ، لا تري له

عظماً بارزاً ، ولا ذباباً يتطاير حوله من كل جانب ، ولا يطير جلد روثه ، بل تراه



نظيفاً ، مرعراً ، مستعداً لكل

طلب .. ولعله (ثور إنسان)

فهو يفهم الكلام والاشارات ..

وما عليك إلا أن تقرع له

الحديد مرة واحدة حتى يخرج

رأسه ، ويطل عليك ، ومرتين

فيخرج ليزور خايلاته البقرات ،

ومحظياته المحبوبات ، وثلاثاً ليرد الماء ، وأربعاً ليعود الى قاعدته بعد طول جهاد ..

وكان بجانب مملكة البقر ، اسطبلات الماعز ، ثم الضأن ؛ فثمة ترى الأوعية

الخشبية مثبتة الى الجدران ، مترعة (بالبخالة) مع قطع (الخرنوب) الذي تكثر

أشجاره هنالك ، ويوجد كذلك آلة يدوية (لجرش) الخرنوب ، وعرائس (أمطار)

الذرة .. وفي أقصى القرية ، منارة عالية ، بشكل متوازي المستطيلات ، وهي أنبار

معدة للحبوب المعقمة بأبخرة (الهيدروسيانيك) حفظاً لها من الحشرات والعفن ..

وعن كذب من كل ذلك خممة الدجاج . وهي (أقفاص) ثلاثة واسعة جداً ،

مرتفعة عن الارض ، صنعت من الأسلاك الشبكية الحديدية ، فيها آلاف الدجاج

الابيض الصحيح ، لا سوداء واحدة بينها .. وعلى جوانبها عاب صغيره ، لينحدر

إليها البيض . وتسقى من بركة ، في وسطها نافورة ، يتجدد مياؤها دون انقطاع ..

والبركة نفسها ذات أسلاك ، ابتعدت عن بعضها بصورة متساوية ، حيث تجتمع في

القمة ، وكل دجاجة تدخل رأسها من شق بين سلكين ، لئلا تتعدى واحدة على

أخرى .. أما الديكة ، ففي جناح خاص ، ينظرن الدجاجات ويرددن قول القائل :

يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام ...

وانبرى الطالب المكلف بتربية الطيور والدواجن ، يحدثنا عن أولاده الدجاجات ،

وأفلاذ كبده الديكة ، بحماسة شهيد .. فحدثنا عن حياتها الميمونة ، وصحتها المغالية ،

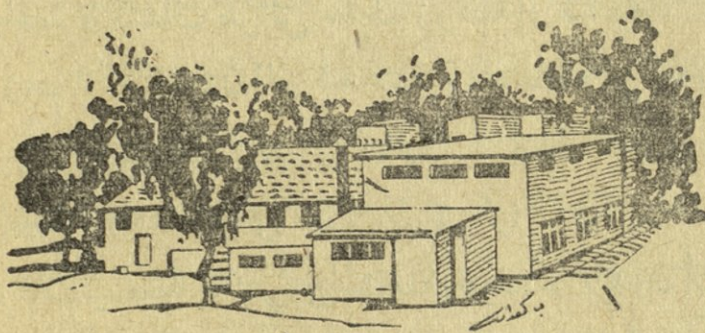
وغذائها وامراضها ، واثارها المتفوق ، وكيف ان الدجاجة استطاعت ان تبيض
عنده ممّي بيضة تقريبا في السنة ؛ وهي سليمة من كل مرض . ثم ذكرناينات آوى
التي تهاجم اطفاله بالليل ، وصوتها كهواء آلاف الهررة ولكنها لم تستطع حتى الآن
ان تقتنص واحدة منها ، لمتانة الدفاع ... ولن تستطيع !.

مستل ومطبخ

وقادنا الطلاب بعدئذ الى مستل القرية ... فرأينا الاستاذ المكلف بادارته يعمل
بنفسه ؛ وهو قدوة حسنة لطلابه ، وجبذا لو سمع بذلك اخواننا المعلمون .
والمستل عبارة عن بهو زجاجي كبير ، ذي نوافذ متحركة ، وفيه آلة نقاشة للبخار في
انابيب موزعة داخل المستل ، لتعدل الحرارة في الشتاء ؛ وفيه ما شئت من الشتل
والزهر والعشب ، وهو حقل خاص بالتجارب وتحسين الانواع ، أتت بأبهر النتائج ..
ولا يغربن عن بال القارىء ان كل مستعمرة ، او مؤسسة صهيونية ، تسعى
جاهدة لاكتشاف طرائق جديدة زراعية او صناعية ، لتعممها على سائر المستعمرات ؛
ورحم الله زمانا كان العلم فيه محتكرا عند طائفة من الناس ، حتى اذا لقوا وجه
رهبهم رافقهم علمهم واندرس بموتهم ..! وتلك لعمرى وصمة عار في جبين الامانة
العالمية ، ونحمد الله على انها في طريق الزوال ..

واقبلت تليذة مغناجة تمشي على استحياء وتقول: ألا تريدون أن تزوروا مملكتنا الصغيرة؟
فتساءلنا عم تكون تلك المملكة التي تديرها فتيات يستسلم لهن كل جبار عنيد ..!
وأخيراً ، علمنا انها تقصد دنيا المطبخ ، وعالم الطهي ..! وايس الذ لصاحبي وأمتع من
هذه المشاهد المقبلة ... فما كاد يدخل المطبخ حتى بدأت خياشيمه ترقص (الرومبا)
وتتحرك لتستنشق عبير الآكال والاطعمة المختلفة . وكان المكان نظيفاً جداً ، تدار اعماله
بالكهرباء . اما أوانيه فهي من الالمنيوم بلا استثناء . وتشرف على اموره امرأة
بدينة قصيرة وسيمة ؛ تساعدنا تليذتان تبعلمان الطهي والتدبير المنزلي ، حسب
دورها في الدراسة . ولقد شاهدنا في ارجاء المطبخ ، قدوراً لطهي اللحم

واخرى لتسخين الماء ، فترتفع حرارتها، حسب الحاجة الى نوع الطعام ودرجة نضوجه ، وذلك بمساعدة ارقام موضوعة على قرص يشير اليها سهم يدار بلولب . وثمة مقلاة كبيرة جداً تسخن بالكهرباء ، وادوات لطهي الاطعمة القليلة ، وبرد كبير لحفظ الفواكه والآكال وتثليج الماء ، ومكان خاص لتسخين الاطعمة الباردة على الغاز . وهناك بيت مؤنة تستند الى جداره صناديق خشبية مطلية بدهان ابيض ، وقد خصص كل قسم منها لنوع من الحبوب والاملاح والتوابل . ويوجد الى جانب ذلك اخصاص على شكل مكعب ذات رفوف مثقوبة لحفظ البيض ، وخزائن لحفظ ادوات المطبخ وصحافه وزجاجه ، وامكنة اخرى لوضع الخلاقين اليدوية والقذور ، ذات رفوف من المعدن .. بجانبها احواض مختلفة تصب عليها صابون ماء فاتر وبارد حسب الحاجة ، وذلك لانواع الادوات المتباينة عند غسلها .. فهنا حوض تغسل فيه الادوات الخزفية فقط ، وذاك للزجاج والبلور ، وتلك الاحواض للاواني المعدنية المطلخة بالدهن ، وغيرها للملاعق والسكاكين والشوكات ..!



وهنا تحسر صاحبي
وتأوه ، وهو يقضم
(خياراً مكبوساً)
قدمته له المرأة الطاهية ،
ولعله اعجبت ببطنه
المتفخ وعينيه الجشعتين

الى الطعام ، اكثر من الافكار التي يحملها في رأسه ... ولعله هو آسف ايضاً على انه لم ير في مدارسنا الثانوية ولا جامعتنا البجلة حتى الآن ، مطبخاً مثل هذا المطبخ ، رغم ان الحكومة بوزارة معارفها لاتعجز عن خلق مثله ، ومثل موظفيه ، ومثل ادواته الكهربائية ، وطهاته النظيفين ...! ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ...
والصبر طيب ...

وكان بجانب المطبخ مخبز (فرن) على الفن الحديث ؛ يحمى بمحركات نفثة

للهب (المازوت) بمعايير تبين درجة الحرارة والضغط وشدة النار، خلاف ما نشاهده في مدينتنا المحبوبة .. وقد احيطت جدرانه واطرافه بالخزف الناصع ؛ وفيه معجن في يدار بالكهرباء ، وآلة لقطع العجين ، وخزائن يبيت فيها الخبز ليلة ، ليحفظ ماؤه ويصلح للمعدة . ولقد حسبنا هذه الخزائن النظيفة الانيقة للثياب ، لولا ان تنبهنا الى وجودها في بهو (القرن) !..

وكانت الساعات تمر مر السحاب ، دون ان نشعر بالوقت الآفل ..! وجأة وقفنا امام بناء حديث جميل الهندسة والتركيب ، حسبناه لاول وهلة احدي بنايات هوليوود الهاربة ، او القصر المسحور للست بدور الذي حدثنا عنه قمر الزمان وولده شر كان في الف ليلة وليلة ...

وسألنا عن البناء وسا كنيه ، فاذا بصديقتينا تضحكان وتجران بيدينا اليه ، واذا به خدر الاناث الخاص وقصرهن المنيف .. وكان قصرأ يرتقالي اللون تطل شرفاته الفسيحة ، على اشجار الصنوبر والسرو ، وحديقة المؤسسة العامة المترعة بالزهور ..! وعندما ولجناه فوجئنا بحجرات واسعة ، واسرة نظيفة ، تنافس مالذكور وتكتسحها نظاما وترتيباً وتأثقاً ؛ ولا غرابة في ذلك ، فنحن في حمى الاناث ، ولعل الأنفاة البادية على الاثاث ونظافته ، يعود الفضل فيها الى يد المرأة السحرية قبل كل شيء ..!

وظفقتن يريننا بعض الاشغال النسائية ... وكان ادهشها تلك السلال والاكياس والحشايا ، المصنوعة من بقايا الاثواب ، ومزج القماش المقصوص ، حتى لا تضيع سدى دونما فائدة . وشاهدنا خزائن الاحذية الخاصة بكل خبيرة ، وكانها خزائن (التواليت) في غرف الغانيات ؛ حتى لقد همس صاحبي في اذني : وما رأيك في هذه الخزائن ..؟ الا ترى انها انظف واجمل من خزائن ربات البيوت في منازلنا !.. قلت بلاريب ، وفي في ماء .. اما خزائن الثياب ، فقد رصفت على رفوفها وفي جواريرها الملابس التحتية وغير المكواة ؛ والى جانبها تلك الاكياس الآنفة الذكر ، ليضعن فيها ادوات الزينة والصابون وفراشي الاسنان !.. وعندما خرج صاحبنا

من زيارة الحمام المفروش (بالبورسلين) سألهن مازحا : هل يردن العودة الى الشام ..؟ فأجبن كما اجابنا الذكور، بصوت واحد، نيه اغراء وفيه فتون : لا..لا.. ابدأ ، ان نعود الى حياة الكسل والخمول .. لن نعود ارقاء عبداً في دورنا !.. ومن الوفاء لهذه الجمعية التي خلقتنا خلقاً جديداً ، وبشت فينا روح العمل والكفاح ان نوّدي الرسالة التي حملتنا اياها !..

لقد مضى عشرون عاما على هذه المدرسة الريفية ، وهي تخرج الشبان والشابات فكانوا نعم العناصر الطيبة العاملة الواعية في بناء المستعمرات المختلفة ، وإنا على آثارهم مقتدون ...

قل كالمحك وامسى

لم نر في طول هذه المدرسة او المستعمرة الصناعية الزراعية الكبرى، ناظراً او معيداً ، او مراقباً ..! فكان كل واحد من الطلاب والشباب والمعلمين رقيب على نفسه .. ورحم الله امرأ عرف حده فوقف عنده ..! ابدأ ... لم نسمع ضجيجاً ولا هياجات ولا حركات ؛ فكان النظام الحازم ، يقص اذنان البشر المتوحشين الجهلاء ، ويتر اظفارهم بترأ . فلا احتجاجات ولا تظاهرات تقام ثلاث مرات في الاسبوع ، لتضيق على الطلاب الوقت الثمين ؛ ولا اضطرابات في سبيل الواجبات والقوانين المدرسية ..! بل هنالك : عمل وعلم ونظام . وان يوماً يستتب فيه النظام في مدارسنا ، ويدخل في عقل الطالب ، ان مهمته في الحياة، هي الدرس والبحث ، وترك السياسات لاربابها ، وانه يسدي اجل خدمة لوطنه على مقاعد الدرس ، لافي الشوارع صارخاً صائحاً : ابعش فلان وليسقط اعلان ، ان هذا اليوم هو رجائنا واملنا المكين ، لان نجاحنا ونجاح اوطاننا في طيه . وإنا لنعتقد مخلصين بانه سيخلق ساعته جيل واع هو مناط الامل ومعقد الرجاء . إن الطالب في المدرسة الابتدائية او الثانوية او الجامعة هو انسان (بكر) عزيز النفس أيتها ، فمن الجرم ان يكون العوبة في ايدي غيره ، يجر كونه حسب شهواتهم وماربهم وميولهم ، قبل ان يكون له رأي شخصي ، صادر عن وعي

وفهم ودرس ...

فليكن حراً مستقلاً ، لا يفكر الا بفكره ، ولا يعمل الا برأيه ، لا يبرءوس
الآخرين وافكارهم ونفوسهم ، أملاً يغادر المدرسة وقد فقد اعز امانيه واثمنها ، الا
وهي : الشخصية ، وتلك وربى نكبة الاوطان منذ ربع قرن حتى اليوم ..!

* * *

ايها العربي :

لقد بسطنا امامك صورة جد موجزة عن (سيفيا) ؛ هذا المينم الصهيوني
الذي يضم مئات ابناء اليهود من سائر بلاد العالم ، وانك لم تر فيه مدرسة ،
بل مستعمرة كبيرة مترامية الاطراف ، تهيب فتيان صهيون وفتياتهم ، اللذ
الحافل بجلائل الاعمال ؛ وسترى في كل مستعمرة ، صورة متكررة (لسيفيا)
لصنع السبان والسبات ، الذين يحملون رسالة الصهيونية .

واذا كان العرب قد قاصوا بانشاء مزرعة (دير عمرو) لا يتاصم المجاهدين ،
فاكبر ما نخشاه ، ان تبقى التجربة فردية ، ولن تكون سواه أفعالا ، الا بالكثيرات
من امثالها ...

انا نؤمن بكل حوارنا ، ان لجنة التحقيق الانجلو - الاميركية قد تحمل
القضية الفلسطينية ، وقد تقف الهجرة عند حدها ، وقد تحظر بيع الاراضي ،
وقد تسئل المقاطعة العربية اقتصاديات الصيونييين ؛ ولكن هذا لن يروم ،

ولا يمكن الركون اليه ، مادام في فلسطين صربوني واحد ؛ فقبيل اليهود
ليس بقبيل ، وان لهم اساليبهم واحاديثهم الماكرة اللئيمة ، ولن نقل
سلامهم ، وزددهم على اعتابهم ، الا بسرح العلم وانشاء امثال (شفيها)
او مضاعفة نموذج مزرعة (دير عمرو) ، وان نرفع مستوى القرية العربية ،
ونكثر من التلم بجانب العمل ، وان يحيا الفطرح والعاقل العربيان بحسبهما
وعقلهما وروحهما في القرن العشرين .



أموالهم تخدم قضيتهم ...

أما أموالنا ف...؟

لم يطب لنا النوم عقب العشاء، رغم اتعاب النهار؛ فجلسنا للسمر تحت اشعة القمر؛ وكان فيلسوفنا الشاب مضطجعاً على العشب، ينظر إلينا بعينين ممتلئتين فحصاً وسبراً..! لقد كان يوجس شراً من زيارتنا؛ ولولا بقية احترام لاستاذه القديم، وحب للعلم متأصل في نفسه، وميل للظهور كمحدث بارع ومطلع مثقف، لما أجبنا على سؤالنا قط..! ولعل كل يهودي في فلسطين يضمن بالمعلومات القيمة عن نشاط الصهيونية وتنظيماتها، وخاصة إلى العرب..!

جلسنا وحوّلنا بضع فتيات ناعمات، ونفر من الفتيان الساهرين، نستمع إلى هذا الشاب العالم، ينثر علينا من معلوماته الشيء الكثير... قال:

تسألوني.. من أين تجمع الصهيونية الأموال، وتؤمن الموارد الضخمة، لتحقيق مشاريعها الجبارة..؟ سؤال بسيط، ولكنه واسع متعب للذهن..! وقبل أن أشرح ذلك، أعيروني انتباهكم لحظة.. كيف تودون الاستقلال والخلاص من ربقة الانتداب، والجهل، والفقر، دون مال..؟ إن المال عصب العمل والانتاج والرقى.. وهو قوام الحياة والاستقرار والاستقلال.. فأمن رفيقي على كلامه بهزة رأس.. وتابع الشاب قوله كالحالم:

أبداً.. لن يكون هناك استعمار صهيوني، دون مال وموارد مستمرة دائماً..! وإذا كانت الدول المنظمة - كما تعلمون - تعتمد في تغذية صناديقها وخزائنها، على وارداتها وضرائبها؛ فإن اليهود ليسوا دولة بعد.. بل هم أدنى من الدول المنظمة بكثير. إنهم منتشرون في سائر بقاع العالم، ولا سبيل إلى الجباية منهم، ومع ذلك، فيجب

تأمين المال لاستعمار فلسطين وانشاء الوطن ، أليس كذلك ..؟

فهز الجميع رؤوسهم صامتين .. ونعق بوم حينئذ من بعيد ، بين أشجار (الاو كانيديتوس) ، فضحك بعضنا وتشاءم الآخرون .. أما أنا فهمت في عالم غامض وكلي آذان صاغية .. ثم ماد الشاب يتم حديثه :

ولذا فقد لجأ قادة الحركة الصهيونية منذ فجر النهضة إلى الاشتراكات الاختيارية . فهناك حاجات للإنسان تتطلب نفقات مستمرة دائمة : كالتعليم ، والمساعدة الاجتماعية ، والاسعاف الصحي والطبي .. و .. أفلا ترون أنه لولا الموارد الوفيرة ، والمال الغزير لما تأمن كل ذلك .؟ إن نظرة واحدة تلقى على انتشار اللغة العبرية ، وخلص الأهلين نهائياً من الملاريا ، والتراخوما ، تكفي لتقدير النفقات الجبارة في هذا السبيل . وهناك نفقات أخرى خاصة بالصهيونيين دون غيرهم ..! ألا وهي البذل في سبيل تهيمئة المهاجرين ونقلهم الى فلسطين ، وإيجاد عمل لهم ..

فلا يمكن ان تنجح الحركة الصهيونية دونما إنفاق وسخاء . فلماذا عصبنا - كما ذكرت - وهذا ما آمن به الرعيل الاول من زعماء الصهيونية في فجر نهضتهم . فقد رأوا ان نجاح الحركة ومستقبلها ، يتوقفان على درجة تضحية الشعب اليهودي ؛ فأسسوا تلك المصارف الكبرى المشهورة ، فكان في الطليعة : (المصرف اليهودي الاستعماري) وغايته ..! وهنا ... زفر المحدث وكأئنه يستعرض نضال اسرائيل التائه منذ آلاف السنين ... ثم قال : لقد كانت غاية هذا المصرف سياسة أكثر منها مالية ؛ ولذا فقد ظهر فيما بعد عدة مصارف نحت نحو ذات الاهداف ، وهي التي دعيت بمصارف : (الانكلوبالستين)

وقد أسست هذه المصارف عام ١٩٠٥ وجعلت إدارتها في (لندن) أما فروعها فكانت في القدس وحيفا ويافا وصفد وطبريا ... وهي بمثابة إدارة الهيئة الصهيونية العملية الفعلية ..!

واست أنكر ما لهذه المصارف من امتيازات وفوائد هامة ، في تقويم حركتنا ؛ غير أن هنالك مؤسستين عظيمتين جداً ، هما قلب الصهيونية النابض بحق ،

أولاهما : (البنك الملي اليهودي) ، وثانيتها : (الكيرن هايسود) . وفجأة ..!
زقرقت فتاة بغنج ودلال ..! فقد (زغدها) فتى كان بجانبها ، فلم تحمل لذة العبت
الخفي ، فانقجرت رغباً عنها ، تتلوى وتتأوه ، مما أذهلنا وأدهشنا ..! بيد ان الشاب
لم يتحرك من موضعه وهو يتلع ريقه .. - وهنا نظر إلى صاحبي ، ليؤكدي ما قلته
له في النهار، وهو أن الاباحية تجري في عروق (الصهاينة) وشرايينهم ، كما يجري الربا
في تلافيف أدمغتهم .. هذا وقد ابتسمنا للنكتة على فرض أنها نكتة ، وراى على الجميع
الصمت ؛ ثم عاد الشاب إلى حديثه : لقد تأسس المصرف الملي اليهودي عقب
اقترح الاستاذ (شايبير) عام ١٨٧٩ في سبيل تأسيس مصرف ، غايته إيجاد رأس
مال دائم ، يكون ملكا للملة اليهودية ؛ ويستخدم في الغرض الاسمى للصهيونية
وهو شراء الأراضى الفلسطينية ... - وتمت المحدث بصوت وئيد : وأرجو معذرتي
في هذه التصريحات ، فقد تكون مؤذية للعرب ، لأنها تبين مدى استعدادنا
وتعاضدنا ، غير اني أقرر لكم ذلك كأمر تاريخي علمي ..! فابتسم صديقي ابتسامة
صفراء أو خضراء ، وكلت له مثلها .. وتابع الشاب حديثه :

وبعد ، ، فقد اشترطوا ألا يمس رأس ماله ، حتى يباع مايون شلن أو خمسين
الف ليرة فلسطينية، وعلى أن يبقى نصف هذه القيمة في المصرف ..!

غير أنه في عام ١٩٠٤ سجل هذا المصرف باسم (كيرين كايتمت لاسرائيل)
وعهد بأمواله إلى المصرف اليهودى الاستعماري . أما أمواله فتجمع من استعمال
الطوابع البريدية الخاصة الاضافية ، التي تلصق برسائل الصهيونية ، كما تجمع من
الدعوات ، والهبات الاختيارية ، ومما يدفع لقيد أسماء الأفراد ، والجمعيات في
سفر الذهب ، أو ما يدعى بالعبرية : (سفرها ذهاب) وذلك عند كل ولادة أو
زواج أو اختان ..! ولليهود كما تعلمون اسمايهم الخاصة ..

ثم سعل الشاب ، واعتذر عن التطويل الممل ، وقفز مسرعا إلى قوله :
ولعل المؤسسة المالية الثانية ، أو العظمى ، واسمها كما قلت آنفاً : (الكيرين

هايسود) أو إن شئت فقل : شركة بناء فلسطين ، هي أخطر ما يفاد منه في فلسطين ، .! فان هدف هذه المؤسسة هو تأمين النفقات الاستعمارية كلها ، وخاصة نفقات المستعمرات الزراعية . وقد لاحظتم أن (الكيرن كايمت) هي لشراء الارض الفلسطينية، كما تغدو وقفاً على الامة اليهودية بأسرها .. بينما هذه للانفاق العام ؛ فينتهي عمل الصندوق القومي الأول حيث يبدأ عمل الصندوق الثاني ...! ولعلني لا أخطيء إذا قلت بأن مصير الوطن القومي يتعلق بمقدار ما يدفعه يهود العالم الى هذين الصندوقين ، فمستقبل الشعب اليهودي ، منوط بدرجة وجدانه القومي ، وبفكرة التضحية المالية لديه لتأمين موازنته . وهنا همس رفيقي قائلاً : أما نحن العرب، فكل ما يقدمه المخلصون من الاموال هو : شيكات هائلة، من الخطب والنقد والمواقف المسرحية الشهيرة ..! ولا حول ولا ... وتابع المحدث :

وإن هذه المؤسسة المذكورة تشترك في كل المشاريع الخاصة او الاجتماعية ذات الصبغة الاستعمارية أو القومية : كبنك الرهونات ، وبنك العمال ، وجمعية الانشآت التعاونية ؛ وشركة كهرباء روتمبرغ وغيرها ..! ففي اشترك (الكيرن هايسود) في أمثال هذه المشاريع ، إنما تستهدف أهدافاً تجارية بحته . لأن جميع الاموال التي تغذيها ، تدر لها ربحاً وفيراً ؛ ثم تعاد اليها ..! وهذه الأرباح لا تعود الى جيوب الاشخاص أبداً ؛ بل إلى صندوق (الكيرن هايسود) ذاتها فيزداد رأسمالها ، وتتمو مشاريعها الاستعمارية والقومية ... وهكذا تعمل بقية صناديقنا .. وهنا تشاءبت فتاة نجلاء العينين ، ناهدة الشديين ، ذات عجيذة (ومدورات) يتلمظ عليها أضراب الرياشي التائه ، وصاحبنا المفتون ، من عشاق الجمال أينما وجد ... ثم قامت تمطى وتعتذر ، فقد كحل النوم مقلتيها بالسحر ، ولم يعجبها الحديث العالمي ؛ فساحة معرفتها لاتتعدى المزرعة أو (الكيموتس) وربما لا تتعدى لطائف ذلك العبث (والنكش) و .. مما يجذبه أبناء صهيون ..!

وما أن ابتعدت ، حتى لحق بها آخر ، وقد جفت شفتاه ، ولعل النوم كحل مقلتيه كذلك ؛ وغابا بين جذوع الصنوبر في ظلمة الظلال ، تحت نسيج واهٍ من

خيوط الهلال تكاد لا تين ...!

وشرع صاحبنا يتنهد ويكبت غرائزه وميوله .. بينما رحت أسأل الشاب وقد اعتدل في جلسته : وهل تجمع الأموال كلها من فلسطين أم من الخارج ..؟
فأشار بيده متمهلاً وقال : لا جدل في أن منابع المال لليهود فلسطين ، هي من الصناديق العامة او من الصناديق القومية التي ذكرتها آنفاً .. غير أن هذه المنابع قد تكون من الخارج أحياناً ، تصلنا مع أصحابها او ترسل من قبلهم ، بينما هم يظنون في بلادهم . وقد تكون أيضاً ناجمة عن فيض الاموال الموظفة في فلسطين ، بسبب اعمال المؤسسات الآتفة ..! لكننا لانعتمد قط على ثروات المهاجرين ، منها كانت ضخمة ، ولا على الملايين المكدسة ، التي يرسلها من الخارج ، يهود مثرون ، فكلها في عالم الريب إذ من الممكن أن ينقطع واردها بين ليلة وضحاها ..! فرؤوس الاموال الاجنبية تختلف عن القومية كما ترون ، ولا يمكن وضعها موضع التداول إلا اذا أمن أصحابها على ارباحها في فلسطين . لان المشاهد ، هو أن اليهودي ويا للأسف ، مها تمس لوطنه ، ومها حركه الشعور النبيل ، فان اعتماده في البذل قبل كل شيء هو على الربح ..! بيد أن الاموال المستخدمة في فلسطين قد لا يرجح منها خير أحياناً ، وقد يأمل الفرد منها ربحاً آجلاً ، او غير كاف او بين بين ..! وإن أشد الصهيونيين حماساً وغلواً ، لا يرغب في توظيف أمواله ، دون ربح او فائدة مضمونة . ولذلك فان الجهود ستكون هائلة في سبيل جمع المال وتوظيفه ، وإرضاء الشعب المتمول وغير المتمول ليظل على مناجه في البذل .

ورغم ان المؤسسات تفيد كثيراً من شتى النواحي المذكورة ، وتزيد مواردها لتأمين الموازنة اليهودية ، فان هنالك حاجات تبتلع هذه الموارد وتندريها ؛ كالحاجات التي تشكل أساس الاستعمار الزراعي في فلسطين ؛ وبكلمة أوضح ، أي : إنشاء المستعمرات الزراعية ...

وهنا .. انفرط عقد الجمع ، وتسلسل واحد تلو الآخر أو الاخرى ، حيث لم

يبقى سوانا مع صاحبنا الفيلسوف الشاب، وهو جالس على العشب لا يتحرك إلا قليلاً، دون أن يغير جلسته أو يقطع حديثه الطريف .. وقال بينما كان يمضغ قشة من الكلاء الجاف :

على ان رؤوس الاموال الخاصة، لن تغريها المشاريع الزراعية ، ولن تغريها ابداً ..! ولو استندت اليها فقط ، لافلت هذه الاموال والمشاريع على السواء . بيد أنه لولا الزراعة، لما نشأ وطن قومي صهيوني ، ولرجع اليهود في فلسطين الى اسوار (الجيئو) .. فالعمل الاساسي الانشائي إذن هو شراء الارض وتأسيس المستعمرات .. فاليها يستند كل عمل اليهود في المستقبل . ولقد نوقش عدد السكان الزراع في فلسطين، فوجدوا أنه يجب أن يكون الثلث زراعا، والثلثان تجاراً وصناعاً ؛ ليقوم اساس الوطن القومي .

إن رؤوس الاموال الخاصة، لا تتقدم نحو المستعمرات الزراعية الا نادراً ؛ وعلى ذلك فهم يلجؤون الى الاموال القومية في هذا السبيل .

ولذا كان جل اعتمادنا على صندوق ال (كيرين كايتم لاسرائيل) و ال (كيرين ها يسود) : فقد جمعت المؤسسة الاولى خلال اثني عشرة سنة (١٩٢٠ — ١٩٣٢) مليونين ونصف من الجنيئات ، وجمعت الثانية ، في الفترة نفسها ما يربو على ستة ملايين جنيه

وكل هذه الاموال هي تبرعات يقدمها الفرد منا ليساعد امته ؛ والامة باجمعها توبخ بل تلعن كل عضو من اعضائها لا يؤدي واجبه هذا ، وتعتبره خائناً خسيماً يود انقراض شعبه ، او دوام عذابه ، ولندكر دائماً وأبداً كلمة زعيم الصهيونية الاول (هرتسل) « ان الشعب الذي يجهل التضحيات ، لا يستحق الحياة . »

ثم سكت محدثنا ، وكأنه مل الكلام ، او ادركه النعاس . ولقد آذانا حديثه رغم حياده وسعة اطلاعه ؛ لان من أشد الالم أن ترى عنوك مجزأ بكل عدة جديدة ضرورية ، وانت لا تملك سوى القليل من العمل ، والكثير من المعنات والسياح

فيأبها العربي :

ان ما شاهدته اليوم ، من توسع الصهيونية وازدهارها في ربوع فلسطين ، وما يأمله التوم من تحقيق المشاريع الرهيبة في المستقبل القريب ، لخلق وطن قومي ، لا يقتصر على فلسطين وحدها ، بل يشمل الاقطار العربية المجاورة ، وهي مجالهم الحيوي ، ولم يكن بالامكان ظهوره ، لولا التضخيات الكبرى التي يبذلها اليهود في مشارق الارض ومغاربها .

وان العربي الذي لا يحجم عن البذل ، ولا يتقاعس عن العطاء ، والذي يعلم ان فلسطين هي قلب العربية النابض ، يشعر اليوم بعبء المسؤولية ، امام الخطر الداهم . واذا كان (صندوق الامة العربية) ، لازال يجرو ، رغم ما قام به من أعمال : من مشتريات الاراضي ، ومساعدة الفلاحين ، وارشادهم وتدريبهم ، فان الآمال معقودة على ان تضاعف له الحكومات العربية يد المساعدة ، وان يهب متمولوا العرب ، في سائر اقطار الارض لتغذيته ؛ وليعلم كل عربي ، أن كل قرش يزيد في واردات هذا الصندوق ، هو طعنة موجهة في صميم الصهيونية ، وانقاذ لشبر من ارض الوطن العربي العزيز ...

واذا كان المؤرخون يجمعون على ان (ناپليون) لم يهزمه اعداؤه إلا بعد ان حذقوا اساليبه ، وقبسوا عنه فنه الحربي ، فان خير حافز لكفاح الصهيونية ، ان نستعمل نفس اسلحتها ؛ والمال هو اعظم سلاح في هذه الدنيا ، وهو سلاح الصهيونية الاكبر ...

وبه فيأبها العربي :

ان المشاريع الزراعية ، والصناعية ، والتجارية ، والاعمال الثقافية ، وامور التنظيم والدعاية ، بحاجة الى روافد لاتنضب من المال ؛ وإن (صندوق الامة العربية) لينوء عن القيام بكل هذه الشؤون . وإذا كانت الوكالة الصهيونية ، تشرف على اقتصاديات صهيون ، وتهيب بنفوس اليهود ، اينما تقفوا ، الى مضاعفة العطاء ، فان لنا

الامل الوطيد بان تشرف الجامعة العربية ، بلجانها المختلفة ، على اقتصاديات فلسطين ،
وتدعو العرب طراً الى نصره القضية المقدسة .
وبذلك نخلق فلاحاً صالحاً يحتفظ بارضه ، وعاملاً نشيطاً يخدم بلاده ، وتاجراً
واعياً يعمل جاهداً لرفع الكابوس الصهيوني ، ويعيد الى فلسطين رونقها وكرامتها ،
ويطمئن العرب جميعاً الى ان فلسطين لن تكون (اندلس) ثانية .
فإلى البذل والعطاء ، والى التنظيم ، ومضاعفة الجهد ، والى محاربة الصهيونية
باساليبها واسلحتها ...



في الطريق الى تل أبيب

وراع سفيبا

بعد نوم هادىء لذيذ في حجرة نظيفة أنيقة ، نهضنا قبيل الفجر ، نستمتع بهواء الصباح ، وشروق الشمس ، وانغام الراديو ، التي يستيقظ عليها القوم كل نهار . وبدأت تبشير النهار بأشعة الشمس الذهبية تكسو البطاح والروابي ؛ وشرع القوم ينهضون بحزم وعزم ويتجهون نحو الحمامات ، شأنهم كل صباح . واختلط صاحبنا بهم ، ايحظى (بدوش) على نفقة اسرائيل ، وليبيد حشائش ذقنه المرعة... وما ان قضى وطره ، حتى عاد متسائلاً : كم عدد العمال والفلاحين في بلادنا الذين يغتسلون مرة في نهارهم ، أو أسبوعهم أو شهرهم ؟ ألا تعتقد أن بعضهم يحتفظ بماء المعمودية ، حتى يلاقي وجه ربه طاهراً بتولاً ، وأن منهم من لا يتوضأ أو يغتسل ، ولو تصاعدت من جسمه روائح هي مزيج من العرق والتراب ، متناسياً الحكمة البليغة أن العقل السليم ، في الجسم السليم ..؟

وبعد طعام الصباح ، أحاط بنا الطلبة ، يزودون أستاذهم بتحياتهم لاهائيم وأترابهم في دمشق ، وقد هيئوا لنا دابة تنقل أمتعتنا إلى (زخرون) يقودها (عاني) هو ساعي البريد ، لهذه المؤسسة الرابضة في شعقات الجبال .

غادرنا (شفيباً) ونحن نفكر بطلابها وطالباتها ، وجلهم من العرب ؛ نفكر بهم وقد تناسوا قوميتهم ، وغدت دماء الصهيونية تجري في عروقهم ، حتى أصبحوا حرباً على بلادهم . ألم يكن بالمستطاع الاستفادة من هؤلاء الشباب والشابات في سورية ولبنان ، والعراق ، واليمن ، ومصر ، وتحت كل سماء عربية ؟ إن التنظيم والعلم والتربية ضمنت خلقهم خلقاً جديداً ، فعلام تترك هذه النفوس البريئة لكمة

سائغة بين شذقي الصهيونية؟ إنا نستطيع الاستفادة منهم ، لخير بلادهم ، بالتوجيه الصحيح ، والعلم السليم ، والدعاية الحسنة ، وحرمان علينا أن نفرط فيهم ، وبلادنا بحاجة الى كل عنصر نشيط ، وإن جريمة هجرتهم تقع على عاتق أوليائهم ، الذين رموهم طائعين مختارين في أحضان الصهيونية !

فنون التهريب الصهيوني

لم نكد نهبط زمارين أو (زخرون) حتى ركبتنا أبالسة ا-اجيم ، تغرينا باستعمال أسلحة المكر والخداع ؛ فاذا كانت القاعدة : (بين العوران أعور عينك) فكيف بنا ونحن نتنقل من مستعمرة صهيونية إلى أخرى ؟ وهل علينا حرج أن نتزيى بزي القوم ، فنمكر بهم ، ونحصل على أكثر مما يكون في حسابنا ؛ ليس أهون من هذه الطريق ... فما إن راودتنا الفكرة حتى حملتنا المردة الشياطين إلى متجر خقم في البلدة ، فدخلناه من أبناء العرب ، وخرجنا من أبناء خيبر أو أتباع صهيون ...

نعم ، فقد لبس صاحبنا القبعة ، والقميص المفتوح ، والسروال القصير ، وثني جواربه الى الكعبين ، وبدا شعره الوحف ، - لا أراك الله مكروهاً - وبدا كارد جبار ...

وهكذا ظهرنا بالبستنا الجديدة الصهيونية ... حتى أن صاحبة الحانة التي تناولنا عندها أكواب مرطب (الأيسيس) وبادلتناها أشواقاً بأشواق ، قبل زيارتنا (شفيا) ذهلت لمرآتنا ، وشدهت ، ونكصت على عقبيها ، تتأملنا من بعيد . فمن نحن ؟ وما هدفنا ؟ وماذا نصنع ؟ أيهود مهاجرون ، أم سماسرة أم مهربون ؟ وهل يرجى منا خير .؟ وقفت تتأملنا ، وعيون صاحبنا التواقه لكل جمال كانت تجوس جسمها المكتنز ، وتكاد تحترق ما وراء الثياب ...

ودنا منا يهودي ظننا هار بين ، فقال همساً : شالوم ، فرد عايمه صاحبنا التحية باحسن منها : شالوم أدوني ، فسأله الرجل : هل أتم هاربون ؟ أبداً ، هنا أمان ، لا تخشوا شيئاً أتم في بلادكم ، وبين ذويكم ، ثم جعل يهرف ويهذي بينما كانت عيناه

الزائعات تنتظر ان الثرثرة منا . فلما أجنبناه بفرنسية عالية جداً ، كالتى ينطق بها أعضاء
المجمع اللغوي الفرنسي ، لم يفهم شيئاً ، وارتبك ، وخشي العواقب . .
فهؤلاء اليهود ، يعلمون ان الهجرة غير الشرعية مستمرة ، مهما أقيم في سبيلها
من عراقيل ، وان الذين يدخلون الديار من نوافذها ، أضعاف من يدخلونها من
أبوابها . فقد ثبت في جميع الادوار ، أن الذين دخلوا البلاد خلسة ، بصورة غير
شرعية ، كانوا أكثر ممن دخلوها بجوازات . وحذار أن تحسب كل الجوازات
رسمية . ! لا ، أبداً . . فهناك جوازات مزورة ، كان يتاعها المهاجر بعشرين جنهماً
فلسطينياً . .

أما طرق التهريب (الرائجة) فكثيرة ! فهي تحدث حين إقامة الحفلات الالومبية
الرياضية ، التي كانت تقام كل سنتين مرة ، ولقد دخل بفضلها عدا اللاعب الاصلي ،
ألوف غيره ، سمروا في فلسطين . .

وتحدث أيضاً حين إقامة المعارض الصناعية ، التي تجري كل سنتين ؛ فينسل إلى
فلسطين ، بدم زيارة المعارض ، ألوف مؤلفة من اليهود الاغراب ، مع بضائع ومتاع ،
لا يجبي عنها رسم أو مكس ، بحجة أنها معروضات . ولا شك في أن الزائر الكريم
وبضاعته يظلان في فلسطين حتى قيام الساعة .

وهناك طريقة الاستيعاب ، وهي سبيل علنية لهجرة اليهود . ! فثمة تقارير صورية
تقدمها المعامل الصهيونية ، وورش البناء ، الى الوكالة اليهودية ، تظهر فيها الحاجة
الماسة للايدي العاملة ، وهذه بدورها تقدمها الى الحكومة ، فتصادق عليها ، وتصدر
أمرها باعطاء شهادات الهجرة ، بحجة قوة الاستيعاب ، التي عمل بها منذ عام ١٩٢٢
عندما أذاعها المستر تشرشل . . وزير المستعمرات ، حينذاك . .

ولا تنس أن الحكومة تسمح للمهاجر بادخال اقاربه ، كالزوجة والاولاد . .
ولقد تعدت هذه القرابة الى الاعمام والأصهار والاقوال ، ومن هم في الدرجة
العاشرة أحياناً . !

ويكفي المهاجر المهرب ، والمقبوض عليه لسوء حظله ، ان يضع خاتماً في إصبع

أحدى الفتيات، ليغدو خطاياها، ولا يجوز ساعتئذ إبعاده، بفضل هذا الزواج الصوري الصهيوني الخاطف ...

أما إذا تعذر على اليهودي الحصول على شهادة الهجرة، فإنه يجعل نفسه خادماً أو طالباً؛ وهناك سيول من اللاجئين الذين يدخلون فلسطين سياحاً ويبقون فيها.. أضف الى ذلك هؤلاء الجنود اليهود، في أيرش الحليفة، فلتعد آثروا البقاء في أرض اسرائيل. ولكم حملت السيارات الحربية، شباباً وشابات، دون أن يشعر بهم رقيب. وفي الليل والنهار، وفي البر والبحر، لا تنقطع سيول المهاجرين، ولا سبيل الى مقاومتهم، إلا بضرب نطاق حديدي حول فلسطين، فلا يتسرب من البحر أو عن طريق البلاد العربية شيطان صهيوني ..

وسأل صاحبنا الشاب الذي يتبعنا كظلنا: أي المستعمرات، أقرب الينا الآن؟ فعجب من ذلك ودهش، ثم قال: وهل تريدان العمل والحياة هناك؟ فأجبناه: بلا شك! فابتسم، ونظر الينا كمن يقرب بضاعة يرتاب فيها، ثم قل بعصبية ظاهرة: أتودان أن يري أحدكما أخته بين ذراعي رفيقه ولا يتحرك؟ اتبتغيان إباحية الاعراض، كالبهائم، فلا يعلم أحدكما مصدر ابنه، وهل هو شرعي أم طبيعي؟ وهل أزعج من إباحية الصهيونيين، واتصاهم الجنسي الفوضوي، الذي لا يعرف القيود والأغلال؟ إن الحياة بينهم جحيم لا يُطاق، فالقبلات بسعر التراب، والعناق على قارعة الطريق، وفي وهج الضحى: هرتحية مشروعة لآولاد إسحق ويعقوب، لا تلفت الاًنظار ولا تثير الاهتمام! وإن الشبان والفتيات يهزون رؤوسهم للزواج، ويسخرون منه سخرية مرة.. حتى ان الخاخام المبجل يطوف بالمستعمرات، ويحاول ان يقنع البنات والآولاد الأشتياء، بأن يجعلوا حبههم وغرامهم شرعياً على «سنة الله»، فلا يجد لنداءاته من مجيب. ولعل حرارة شمس الشرق، أثرت في نفوس المهاجرات والمهاجرين، وجعلت الدماء تغلي في العروق، والنضوج الجنسي يبدو باكراً، فأصبحت قلوب فتيات صهيون كما قيل، غرماً أنيقة، لا تكاد تخلو من ساكن قديم،

حتى يهرول اليها ساكن جديد ، ولا يكاد قلبهن يخلو حتى يعلقن لوحة عليه ؛
للايجار ولو بالتقسيم . . !

فأومأنا بالايجاب ، ثم انطلقت من أفواهنا قهقهة عريضة ، فلم يدرك لذلك سرّاً ؛
ودنا صاحبنا منه ، هامساً في أذنه وهو يشير إليّ : حذار ، إنه من الاتلجانس سرفيس
(دائرة الاستخبارات الانكليزية) فلا تدخل فيما لا يعينك . .

فلم يصدق الرجل ، ولكنه خر س بعد هنيئة ، وامتعع وجهه ، وهبط قلبه إلى
سرته ، ومنها الى حدائه .

وفي هذه اللحظة ، مرت صاحبة الحانة ، تلك النصف البولونية الحسنة ، وهي
كنسيم البحر ، ينبه الحواس ، وينعش الأجسام ؛ فنظر اليها صاحبنا ساهماً ، فهو
أبداً جائع القلب ، ظامئ الروح ، يريد ان يأكل من جسم حواء حتى يشبع ، وأن
يشرب من ثغرها حتى يرتوي ؛ وآه ، ثم آه من جوع القلب وظمأ الروح ! وكانت
عينها تلمعان بريق غلاب ، وكأنها تود أن تثق بنا حقاً ، فتحسبنا من ابناء اسرائيل
المغامرين ؛ فتفتح لنا صدرها العامر ، لتقطف ما شئنا من رمان حان قطافه ، أو
تصدق علينا بشطيرة من شفتيها الجائعتين الصالحتين للقضم بكل معنى الكلمة . .

ولو لم تسعفه سرعة بديهته ليحييها بـ (شالوم) ، تلك الكلمة التي تعلمها بعد
صبر جميل ، لما ألقذ الموقف ، أمام اليهودي المتطفل ، والمرأة التي رأت فينا مثال
المغامرين .

وبينما نحن ننتظر السيارة ، انتهزنا الفرصة ، ورحنا نتحدث الى جماعة من العرب
يذرعون الطريق ؛ ولقد خشوا أن نكون يهوداً ، فلم يهبونا ثقتهم وصدقتهم . . وهكذا
أصبح العرب لا يعترفون بنا ، واليهود لا يقرؤنا ، وويل لذي وجهين . . . وكاد
صاحبنا يخرج هويته ليثبت أنه عربي وابن عربي ، حتى اقتنعت الجماعة واسترسلت
في الحديث . وفهمنا ان البلدة — زمارين — بأسرها لليهود ، لا يملك العرب منها
شيئاً ، وهم يسكنون القرى في الجبال البعيدة ، ويؤمنون الحاضرة ، ليبتاعوا حوائجهم
من محلات الصهيونيين .

ومهما أوثق الانسان من قوة الخيال ، فلن يستطيع ان يدرك كيف زحزح العرب
عن أراضيهم ، ليحتلها اليهود ، حتى ان عشرات اقصى العربية ، قد اندثرت معالمها ،
وزالت معابدها في ظل الانتداب ، وقام مقامها مستعمرات صهيونية ، بعد أن أجلى
عنها العرب ، ليعانوا شظف العيش ، ومرارة التشرذم .

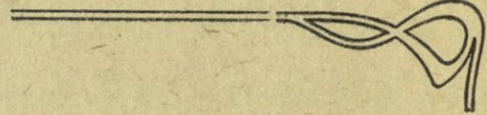
وهل تخيل الانسان ما ستكون عليه النتيجة ، فيما لو انتقلت الارض ، على مر
السنين ، رويداً رويداً من يد مالكيها الاصليين العرب ، الى اليهود الدخلاء ؟ أيمن
ان تعيش أمة بدون أرض ؟ ربما ، نعم ! واليهود انفسهم حجة علينا . ألم يعيشوا
آلاف السنين ولا أرض لهم ؟ ورغم ذلك ، فإنهم ألغوا الأمة اليهودية في التاريخ ..
غير ان هذه الحال تكاد تكون نادرة ؛ ولو لم يتمتعوا بالثروات الضخمة ، والعلم
الغزير .. والتعاون الوثيق ، لما قامت لهم قائمة ..!

على أن العرب إذا فقدوا الارض فقدوا كل شيء ..! وهل تحسب الصهيوني الذي
يشترى أرضاً يقي ساكنيها فيها ؟ كلا ..! ثم كلا ! إنه يشترى الارض ليطرد أهلها
العرب .. إن الهجرة طردت كثيراً من العرب الفلاحين ، وهذه هي الوكالة اليهودية
تعترف عام ١٩٣٠ أمام لجنة التحقيق ، أن (٦٨٨) فلاحاً عربياً ، طردوا مع عائلاتهم من
مزارع وادي (الجسريل) فقط ! ومن البديهي أن هذا العدد هو أقل ما يمكن أن
يعترف به صهيوني ..

وإن تشدق الصهيونيون بأنهم يدفعون تعويضاً سخياً للفلاح ، فاننا نعلم ان
هذا التعويض السخي ، لم يتجاوز عن كل عائلة عربية ، الواحد والاربعين جنيهاً
فلسطينياً تقريباً ، كما يذكر ذلك الدكتور (جرانوفسكي) مدير الخزنة الوطنية
اليهودية . ولا يجب ان ننسى أيضاً ذوبان هذا التعويض في بوتقة ديون الفلاح ؛
ففسد ديون منه قبلاً يشد رحاله عن الأرض ، ثم يرداً طريداً . ولقد
كانت ديون الفلاح بصورة وسطية عام ١٩٣٠ تعادل السبعة والثلاثين جنيهاً .

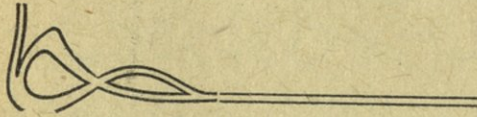
أما أثمان الارض الباهظة ، فلم ينلها إلا كبار الملاكين الاقطاعيين ، وجلهم
من خارج فلسطين ، كما ل سرسق مثلاً ، الذين باعوا وادي الجسريل بأجمعه ، وبلغ

ما تناوله اليهود منهم عشرين قرية كاملة بأرضها وسكانها ، وحيواناتها ..
أجل ، لم يفد صغار الملاك من مبيع الارض أبداً ، لان تسعين في المئة من
الاراضي المباشرة ، هي من أراضي كبار الروس ، عطاء الهامة ، كما يقول أحد رجال
الصهيونية العالميين ..



فيأبها العربي :

أليس مما يحزن النفس ويعلؤها أسي ، أن تري أبناءك وأطفالك ونساءك ، يهيمون
على وجههم في الأرض ، لا يجدون لأنفسهم ملاذاً ولا سكناً ، بعد ان احتل
الصهيوني أرضهم ؛ وجلس الديار ، وطمس الآثار ؛ لقد علمت ان أمل الصهيوني
الأعظم ، هو احتلال الأرض بأي ثمن ، ولولا الأرض لما قامت له قائمة ، ولولاها
لعاد شريداً طريداً تحت كل كوكب ؛ لولا الأرض لما استطاع الصهيونيون أن
ينشئوا مزرعة ، او معملاً ، أو مدينة ؛ ولولاها ، لما توافدوا من زوايا الدنيا الأربع ؛
فخير طعنة نجلاء ترونها في صدر عدوك الأرقم الغشوم ، هو حبس الأرض عنه ،
وحرمانه منها الى الأبد ، ليراها بعينه ، ويتمزق من أجلها قلبه ، ويتفطر كبده ؛
فليكن شعارك دائماً وأبداً : بيعوا اليهود كل شيء ، إلا الأرض ، ولا تشتروا منهم
شيئاً إلا الأرض ..



في تل أبيب

وكما تهفو قلوب الحجاج لرؤية البقاع المقدسة ، كانت كبد صاحبنا تذوب

حناناً الى (تل أبيب) ، الى هذه المدينة الغربية ، في بلادنا الشرقية ..!
كان يتلهف شوقاً الى رؤية قلب الصهيونية النابض ، ودماعها المفكر ، ودررة
جهودها طيلة السنين ..

وفي الباص ، جلست الى جانبه بحكم المصادفة فتاة صهيونية ، والمصادفة كما تعلمون
عمياء ، فانتزعت الفرصة السعيدة ليغازلها عن طريق العلم والجد ؛ ففط رقبتة نحوها ،
وسألها باسمها بلغة لك أن تدعوها: كو كتيل لغات .. سألها عن تلك المعامل والمزارع
التي تكتنف الطريق ، بعد ان تمنى لها عدم الانزعاج .. فابتسمت له ، وقد أيقنت أن
ليس في خلقته ما يشجع على عصيان الله ؛ ثم بدأت تحدثه عن كل بناء ، وعن كل
بقعة نمر بها ، وتشير الى كل ما يجذب الانتباه . فهنا معامل النسيج ، والادواء
وأحجار الماس ، وهناك معامل السكاكر والشوكولاته والزيوت والسمن ، وهذه
معامل الدباغة والنجارة والحداثة ، وتلك معامل الاسنان الصناعية والكيمياء
والايسمدة .. معامل لا تنتهي ، إلا لتبدأ من جديد ..

ولعلها تمت البقاء معنا لارشادنا الى ما يفيدنا ، كأبناء ملة واحدة ؛ ولليهودي
الغريب مكان مرموق في (كادر) نساء صهيون ، غير انها اعتذرت وتلطفت بأنها
لولا هدفها (هرتساليا) تلك المستعمرة القائمة في أرباض (تل أبيب) ، لكانت دليلنا
ورفيقتنا ، وربما ملاذ لهونا — على رأي صاحبنا — ومتعتنا الى حين ..

ولم تنس قبل هبوطها من السيارة ، أن تهمس في آذاننا هاشة فرحة : إن
الصناعة الصهيونية تتكاثف كما رأيت في حيفا وماحولها ، وفي تل أبيب ، وماجاورها ،
وقد خطت خطوات هائلة في مضمار الرقي ، وسنداها الرئيسيان : معهد الدكتور
(وايزمن) ، والجامعة العبرية ، سندا الحياة الزراعية أيضاً .

وربت صاحبنا عندئذ على كتفها كالمثجب الصدوق ، وقال : إن الصهيونيين بنوا
المعامل ، نعم ، ورقوا الصناعة ، نعمين ، وغمروا الاسواق بمنتجاتهم ، ثلاث
نعمات ؛ ولكن لا تنسي يا عزيزتي تلك الخبرة الفنية التي انتقلت معهم من أوربا تامة
كاملة ، كما تنتقل الثياب الاميركية من بلد الى آخر ، جاهزة مفصلة .. فأجابت وقد
حملت حقيبتها تمهم بالنزول : او تريد ان تقول : إن الصناعة انتقلت من الغرب في
رجوله كاملة ، دون أن تتمر في فلسطين ؟ فأجابها كما يقتضي المقام : طبعاً ، وطبعاً ، وإلى
اللقاء وألف شكر ...

ثم التفت إلي ، بعد أن شيعها بنظرات يفهمها اللبيب ، وقل : لقد سها عن بالهم
أن هذه الصناعة ، إن تقدمت في ربوع فلسطين ، فليس الفضل في ذلك للصهيونيين ؛
بل لآسيادهم الانكليز ، الذين فرضوا حماية جمر كية هائلة ، على المنتوجات المستوردة ،
وأعفوا كثير من المواد الخام ، والمواد المصنوعة صنفاً أو اياً ، والفحم ، والاكياس ،
والآلات من كل رسم جمركي .

وإذا أدركنا ان أكثر المعامل في فلسطين ، يقوم برؤوس أموال انكليزية ،
أو أمريكية ، تحت أسماء صهيونية مختلفة ، فمنا عندئذ سبب هذه الحماية ، التي أضرت
بالسكان العرب أعظم الضرر ، وجعلتهم أمام أمرين : إما أن يدفعوا ضريبة جمر كية
هائلة عن وارداتهم ، أو أن يشتروا البضائع الصهيونية . !

وإذا علمت أن الصهيونيين يضيفون على ثمن كل حاجة يصنعونها ٢٥ ٪ من
ثمنها الاصيلي ، باسم شراء شبر من فلسطين ، أدركت دقة موقف العرب ، من
هذه الصناعة الجائرة .

واذكر ان الحكومة لم تسلك هذا السبيل إلا تحت تأثير الصهيونيين ، الذين
اكتشفوا أن الاضرار بطبيعتها الزراعية ، لا يمكن أن تستوعب عدداً عظيماً من
المهاجرين ، ولا سبيل الى إنشاء الوطن القومي ، إلا بترقية الصناعة بجانب الزراعة ..
ولقد ثبت للخاقين ، أن الصناعة الصهيونية ، سيئة الصنع ، رديئة الجنس ، لا
تحمّل مقاومة البضائع الاجنبية ، أو مباراتها ؛ ولذلك فرضت الحكومة حمايتها ،

لتساعد اليهود على حساب العرب ، الذين انتشرت بينهم البطالة، بشكل يدعو الى الرثاء..

محنة رائحة وشركة حيازة :

وبينما كنت أتعلم من حقيقتي الثقيلة ، كان صاحبنا لا ينقطع عن الهمس في أذني همسات شاعر .. فجعلت ألتقط منه ما صفا ، وأهمل ما كدر ، سهواً ومللاً . كان يتمم لوحده : تيلافييف .. تل الربيع .. يقول الناس عنها : درة غربية ، في بقعة شرقية .. وهل العرب بحاجة الى درر في بلادهم ، درر ظاهرها الرحمة ، وباطنها العذاب ؛ ألا إن الفقر مع الحرية والاستقلال ، خير ألف مرة من الغنى مع الرق والاستعباد ..! لقد دعا بعضهم (تل أيب) بباريز الصغرى .. أو لا تدري يا صاحبي أن موقع البلد سابقاً كان رمالاً برمالي ، وأول من أسسها ستون رجلاً ، رأس مالهم أربعة آلاف جنيه فلسطيني فقط ..!

هذه هي (تل أيب) .. بلد حديث وغريب في الشرق .. غريب بمجده ، وأبنيته ، ونظامه ، ونسائه ورجاله ، ووجوهه وأسننته ..! فهي برج بابل القرن العشرين ؛ غير أن هنالك لغة رسمية ، لا يقوم مقامها لغة ؛ هي اللغة العبرية ، لغة المدرسة والجامعة والمعمل والمزرعة ، يتكلمها القوم طراً ، ويلبها الالمانية أو الانكليزية ، ثم بقية اللغات .. إلا العربية ..! ولم أسر بضع خطوات حتى أدركني التعب ، فوقفت مع رفيقي على رصيف المحطة التي سكنت إليها السيارة ، وبدأنا نتأمل دنيا تل أيب ، وما فيها من جديد ..

فهذه هي شركة السيارات اليهودية التعاونية المسماة (إيجد) — بالجيم المصرية — ولا غرابة فنحن في محطتها ..! وعندما نقول محطة ، فلا نقولها مجازاً أو مبالغة ، بل حقيقة راهنة ..! وأتلا يفوت القارئ من وصفها شيء نستحسن أن ندخل من باب لها يعتبر مدخلا ، لتنفيذ من آخر نعتبره مخرجاً ... فهي ساحة واسعة ، لعلها تعادل ساحة المرجة المحترمة في دمشق أو أكبر . بنيت بالاسمنت المسلح ؛ وفي واجهتها صف طويل من الحجرات الصغيرة ، لها كوات ، فوقها لوحات كتب عليها أسماء المدن والدساكر التي تمر بها السيارات ؛ وكل كوة هي خط مواصلات خاص .. فاستمع إلي :

تقطع تذكريتك ؛ وقد يكون القائم على العمل في الكوة رجلاً أو امرأة سيان..
ولا تنس أن تقف للقطع في آخر (الذيل) بترتيب ، وانتظر دورك ؛ وبعد التجربة ،
ظهر للقوم ، أن في الترتيب والنظام فائدة وكسباً للوقت . ثم تعطى تذكرة عليها
رقم ، وفيها دوائر ، تعين اسم الشهر والنهار والساعة ، فيعرف مفتش السيارة أو
مراقبها مثلاً ، متى ركبت .. لأن الحل والترحال في أوقات معينة .

ثم تخدر في نفق ، علت جدرانها أنواع الصحف والمجلات والكتب ، ويكاد لا
يعر مسافر إلا ويشترى صحيفته كما يشترى تذكرته.. وهناك في بهو تحت الأرض ،
ترى منافذ مرقمة .. انظر الى رقم تذكريتك ، واسلك المنفذ الذي يحمل نفس الرقم ،
تخرج منه الى سطح الأرض ؛ فتعمر فوق رصيف طويل عليه لوحات بأسماء المدن
والدساكر أيضاً . لا ريب أنك تعرف القراءة ، وإلا فسل بإحدى اللغات التي
تتقنها ، إلا العربية لأنهم يجبلونها .. أو تجاهلونها .. وبعد ، فقف حيث وجدت
اسم المكان الذي تقصده ، حتى إذا أذفت ساعة الرحيل ، وجدت سيارة تقف
أمامك ، وكأنما الأرض انشقت عنها ، فانتظر دورك — من فضلك — .. ثم اصعد
مبرزاً بطاقتك التي تثقب في دائرة الساعات والإيام ..! وإذا كانت السيارة تتسع
لثلاثين راكباً ، وكنت الواحد والثلاثين ، فلا تفكر في الصعود ، لأنه لن يسمح
لك .. فيجب ان تنال راحتك ، ويرتاح جارك ، فهذه سيارة ، وليست علبة
(كونسرو) ..! ولقد تخين ساعة الرحيل ، فتسير السيارة ، ولو كان فيها
شخص واحد .

ولا تنس أن أمام كل موقف ساهماً خشبياً ذا عجلات ، لرفع الامتعة وإزالتها ،
دون أجر أو (بقشيش يا بيك) ، ودون ان يحمك دهان السيارة بالسلام .! وفي
المحطة تكثر دكاكين بائعي المعجنات والمرطبات ، كما أن فيها غرفاً للاستعلامات
والمخابرات الهاتفية .. وإذا خرجت من باب المحطة الحديدي ، فلن تستطيع الرجوع
إلا من النفق ، فالباب يتحرك دائماً الى الأمام ، بعناد وإصرار .. هذا ولن تعدم في المحطة
باعة الشاي المتجولين ، وقد وضعوه ساخناً في كؤوس مثبتة ، فوق حوامل معدنية

نظيفة ؛ ولن تفقد بائعي الفطائر ايضاً ، وهي محفوظة في علب بلورية ، وقد ارتدى صاحبها مئزراً أبيض ناصعاً ، وصفف شعره ، وحلق ذقنه ، وشمر عن ساعديه ، ولمع حذاه ، فكأنه مهندس أحد الخطوط الجوية ، لما وراء البحار .! وكذلك فأنت ترى باعة الدجاج والسكاكر ، ينتقلون بين المسافرين بهدوء وسكون ؛ ويعلمون عن سلعهم بصوت خفيض ، لا كأصوات باعنا الاء كارم ، الشبيهة بصفارات الانذار ، أو بأصوات بعض المغنين أيام محطة إذاعة الفرنسيين بدمشق .

ولقد أقسم صاحبنا بتربة أجداده الكرام ، أنه لا يصدق أبداً أن ما يراه الآن

بأم عينيه ، هو من أعمال الأفراد الصهيونيين ، بل هو عمل حكومي جبار .. فهذا التنظيم الدقيق ، عمل تعجز عنه الدول ، وتنوء به الميزانيات الكبرى ،

ولن يعقل أبداً ، أن تقوم به شركة كيفما كان لونها ، ولو هبطت من المريح . .

فقد كان يرى ، ولا يزال يذكر ، عندما كان موظفاً في الجزيرة والفرات ، أن

أصحاب السيارات في تلك المناطق النائية من بلاد الله ، كانوا يملؤون سياراتهم

ركاباً وأمتعة ومواشي وطيوراً ، حتى ليحسبها الرائي سفينة نوح ؛ فيها من كل زوجين

اثنين ؛ ومن فاض ، أو بالحري ما فاض من الركب جعلوه في (اللوج) على ظهر

السيارة ، أو ربطوه بجانبها ، أو مؤخرتها كما يربط المتاع . . والحاجة أم الاختراع .

وكذلك فإنه لا زال يذكر بأن أصحاب السيارات في دمشق ، لم يستطيعوا حتى

الآن أن يتفقا على سعر واحد في سفرياتهم ، أو أوقات منظمة في تنقلاتهم . . ولا

زال الجمهور تحت رحمتهم ، بين قيل وقال ، ومنافسة وشجار ، إضاعة للوقت الثمين . .

إذن ؛ فهل هو على حق حينما يتساءل :

من أين لهؤلاء القوم ، أن يقوموا بهذه الجهود الجبارة ، وهم على عكسنا تماماً :

ضربت عليهم الذلة والمسكنة . .! ؛ ذلك ما يعتقده ويعتقده الكثيرون ممن يرتاح

ضميرهم ، ويتفألون تماماً ، ساعة يرددون هذه الآية الكريمة ، أو يرونها منقوشة على

شاشة بيضاء في مظاهرة احتجاجية ، فيهممون ويسبحون ويصيحون : صدق

الله العظيم . .! والحمد لله على الايمان ، ولا شيء عندهم غير ذلك . .! أبداً ، ولا شيء

غير ذلك ! أو ليست النظافة من الايمان ؟ .. ولكن لا .. وألف لا !
فلن ننال حقنا بالسباب والشتائم ؛ وان تقهر عدونا بما نضم له من حقد
وكراهية ؛ فهذه الشركة الجبارة ؛ هي أعظم مؤسسة من نوعها في الشرق العربي
حتى لقد فاقت مثيلاتها في كبريات مدن العالم ، وهي فخار الصهيونيين ، وذروة ما
وصلوا اليه من التعاون والتنظيم والابداع ..

هي شركة تعاونية قبل كل شيء . لها محطاتها في كل مكان ، وأبنيتها الفخمة ،
وموظفوها ، وعمالها ، وهم يرتدون ألبسة رسمية جميلة متشابهة ، ولها (باصاتها)
تسير في كل اتجاه — اللهم إلا نابلس وخايل الرحمن — تسير في نظام دقيق ،
مدهش ، يدعو الى الاعجاب ..

وإذا كانوا يقولون منذ أقدم العصور : لا يفل الحديد إلا الحديد .. فإن أولى
وجائب العرب أن يضعوا يدهم على سر تقدم الصهيونيين ، وفي هذه الشركة التعاونية
أبرز مثال ..

إن الصهيونيين يسرون في كل عمل يعملونه على سنة التعاون ، ونظامه الدقيق ،
لأن الانسان قليل بنفسه ، كثير بأخيه . فما ضر اخواننا العرب ، لا في فلسطين
وحدها ، بل في كل صقع عربي ، ان قبسوا هذا النظام التعاوني المدهش ، في سائر
مشاريعهم ؛ وعندئذ يحاربون عدوهم الماكر بسلاحه ، ويدفعون عن بلادهم هذا
الخطر المحرق الجارف ، ويد الله مع الجماعة ..!

ووقف (باص) أمامنا ؛ فأسرعنا نمتطيه ، قبل ان يفوتنا ، مبالغة في الحيطة
وبعد النظر ..

جيس صهيوني لأهداف رهيبة

أقول ... ركبنا (باصاً) واتجهنا نحو أقرب صديق لصاحبنا ، في (تل أبيب) ،
ليكون لنا دليلاً في هذا الزحام الشديد .. ورغم أن (مفكرته) تحوي فائمة طويلة

من أسماء الأدلاء والصدقات ، فإنه لم ير إزاعجهن منذ وصوله ، وحبذا إبقاءهن
ذخراً لصروف الليالي وأنصافها ..

والتقى بصديقه .! وكانت المفاجأة مربة . . فكيف يرى زميله المسلم العربي
هنا في دياره ، وقد تركه منذ سنوات في دمشق ، حاملاً كغيره من المثقفين ..؟
هذه مسألة يحسب لها كل يهودي ألف حساب ؛ غير أن الرجل مع ذلك أكرم
وفادتنا ، ونزل بنا إلى الشارع ، وكل منا ينوء بحقيبتيه ؛ ولولا (الشورت) ولذة
التعري ؛ لهلكنا حراً وعرقاً .. ولانقلنا إلى مقبرة (الدحداح) فرع تل أبيب ..
وما كاد دليلنا الاستاذ الجديد ، يهبط بنا الطريق ويمشي بجانبنا ، حتى مرت بنا
فرقة من الفتيات الناضجات المرحات ، بلباس الكشفية القصير . . جداً . . والمرصوص
على لحومهن الطرية الغضة ، وهن يكدن يرقصن دون موسيقا .! فأشار الاستاذ
إليهن وهو فخور مزهو قائلاً : هؤلاء من فرق النساء الكشافات .. ثم تتم : ولعلمكم
لاتامون شيئاً عن الحياة الرياضية في ربوعنا . . فاسمعوا باسم الزمالة حديثاً طريفاً ..
قد لا أحدث به عربياً غيركم .!

إن النظرية الصهيونية تقول : كما أن الشعب لا يسمى شعباً دون أرض ، فإن
الأمم كذلك ، لا تقوم لها قائمة دونما جيش .! ولعل الفرق الكشفية والرياضية
خير ستار لنا لتشكيل الجيش المنشود .! إن فلسطين يجب أن تحمي .! فقال صديقي
وقد وقف ليريح ذراعه من الحقيية بعد أن وضعها على الأرض :

وهل التفكير في هذه المنظمات ، بدأ منذ تبشير الصهيونية .؟ فأجاب : نعم ؛
لقد عقد أقطابنا الأولون المؤتمرات ، وأوصوا بالاهتمام بالجسم والعقل في كل جيل
صاعد . ولن يتحقق ذلك إلا على سواعد الفرق الرياضية والكشفية .! فهمس
صاحبي مازحاً : أتقصد أن ظاهرها رحمة وباطنها عذاب . . ؟ فهي ليست إذن ، كما
ترعمون ، لتقوية الطفل اليهودي والطفلة اليهودية ؛ بل لتنمية العضلات استعداداً
لصروف الزمان !..

فضحك الاستاذ ضحكة مباهاة ومكر وقال : لك ان تظن ما تشاء ، فإن هذه

الجمعيات ، ما زالت في نمو وازدياد ، وهي تلقب عندنا بأسماء أبطالنا القدماء ؛
كشمشون ، وباركوخبا وغيرها ، لتوحي الى الجيل الصاعد بالنشاط والمحاكاة
وتقليد الأجداد ، وبذا يعدونه ويهيئونه نفسياً وجسدياً للأيام العصبية ..
وثمة غير ما رأيت من الفرق والجمعيات النسائية ؛ فهناك المنظمات الرياضية
والأدبية والتهديبية أو الاجتماعية .. كلهداسة ، واليهوديت ، وبنات صهيون ..
فقاطعها صاحبنا وهو يعاود السير ؛ وإلى أي الفرق يستند إذن الجيش الخفي ،
الذي نسمع كل يوم أخباره ..! فابتسم الاستاذ وتمهل قليلاً ثم قال : بعد أن أدار
لسانه عشر مرات في فمه : أعتقد بأنه يعتمد على الفرق المتطرفة كالمكابيين مثلاً ..
فهي الجمعية الصهيونية الأولى التي تضم أعضاء من الشباب المتحمسين ، والفتيات
المتحمسات للوطن القومي .. وخاصة أرى أن شبان حزب الاصلاحيين أتباع
(جابوتنسكي) ، و (ترمبلدور) القليل أثناء دفاعه عن مستعمرة (تل حي) في
اضطرابات عام (١٩٢١) ، هم أقوى وخير من يعقد عليهم الرجاء ..
أجل ! لقد رأى زعمائنا أن الزحف على فلسطين ، هو أعظم حل للمسألة اليهودية ،
ولن ينقذ الشعب من الضغط والتشرد سوى ذلك .. ففلسطين هي الوطن الاول لنا ..
وإن المثالية الدينية اليهودية ، قد آمنت في نفوسنا روحاً وطنية هائلة ، من جراء
الاضطهادات الماضية والحاضرة ، فظهرت منذ أن كنا قابعين تحت أسوار (الجيتو)
وإن تكن لم تتشكل بعد بطابعها السياسي الحاضر ... ورغم الفرق الشاسع ، بين
الصهيونية ، والحنين الديني الى صهيون ، فإن زعماءنا ومفكرينا ، رأوا التزاماً عليهم ،
حماية فلسطين من الطوارئ في الحاضر والمستقبل ، بالقوى العملية الصرفة ، ولن
يكون ذلك إلا بالجيش ، .. نعم ، الجيش ..!

وعاد صديقي الى مداعبة زميله قائلاً :

أوليس عمل الفتيات في جيشكم ، هو الترفيه عن المعسكر ، كمرهات الحرب ؟
وغمز بعينه وابتسم ، وأدرك الاستاذ المقصود ، لكنه بلع ريقه ، فالحقيقة مرة محزنة
كجميع الحقائق ، وقال : نحن في هذه الجمعيات نعلم الفنون العسكرية باسم الرياضة ..

ويزيد عديدينا في الأرض المقدسة ، باسم الرياضة أيضاً .. أفلم تسمع بحفلات (الأولمبياد) التي كنا نقيمها كل سنتين ، والمدعاة (الاسكازي) يث يتبارى فيها رياضيو العالم الصهيوني !!؟ هي باسم الرياضة ولكنهما من وسائل التهريب .. — هدفان بحجر واحد .. وهنا ، وصلنا الى الفندق .. وهو نزل يطل على البحر ، وصاحبه صديق حميم للاستاذ الدليل المحترم .. وما إن دخلنا الحجرة ، حتى طلبنا ثلاثاً من (الاسيس) وجلسنا نستمع الى المحرث ؛ وعندما مرشف الجرعة الاولى تابع : إن نواة المؤسسات الصهيونية العسكرية في فلسطين هي هذه الفرق المذكورة . وهي مختلفة الآن قوة وضعفاً وسلاماً وثورة .. وليس أمتن ولا أبرع من فرقة (الهاجانا) بينها ، ومعنى ذلك (الدفاع عن النفس) .. فعندما بدأ الاستعمار الصهيوني ، في عهد الائتراك ، حين كان جبل الأمن ضعيفاً ، كانت القرى الصهيونية ، تجند فرقاً من شبابها وشاباتها ، للذود عن حياضها ؛ وقطع دابر اللصوص . وفي عهد الانتداب الانكليزي ، واستتباب الأمن ، جمعت أسلحة (الهاجانا) كما جمعت أسلحة العرب .. غير أن فلسطين كانت تغفو فوق برميل من المتفجرات ؛ فما كانت تنقضي فترة دون ثورات واضطرابات ، وأصبحت مصالح الصهيونيين مهددة كل حين ؛ فعولوا مرة اخرى على تشكيل فرقهم القديمة ، وفرضوا على كل يهودي ويهودية الانخراط في سلكها ، وأن يكون نواة لجيش المستقبل ، فتسلحوا واستعدوا !..

وهنا ، استرد الاستاذ أنفاسه ، وجرع جرعة أخرى ، فسأله صاحبنا : إذن فقد خلقتم الجيش دفاعاً عن النفس فقط .. أليس كذلك ؟ فقال الاستاذ : طبعاً ، ولكن .. ليس هذا كل ما في الامر !.. ولعل الاستاذ (الطارطوع) ترك لسانه أكثر من اللازم ، لجماعة من العرب ، يحرصون على كل كلمة صهيونية ، لينقلوها إلى أذن الناس ، الذين أوشكوا أن يستيقظوا بهد طول رقاد — وصح النوم — .. فلم يكتفوا أن للصهيونيين ثلاثة جيوش يهودية سرية — ستهدد السلم على كل حال — وأول هذه العصابات — ولا نسميها جيوشاً — هي عصابة (شترن) الشهيرة .. فهي كما يقول ، جيش مدرب صغير ، قد لا يتجاوز المئات من الأفراد !.. غير أنه

شديد الخطر كالأفعى (الناجا) ، ويعزى إليه تدمير جريمة قتل اللورد (موين) ..
أما الثانية فهي عصابة (ايرجون زفاي لويي) أي الهيئة الوطنية العسكرية . ولا
يزيد عدد أفرادها عن (١٥٠٠) نفس . وهي تنتمي الى الحزب الصهيوني المتطرف
الذي ينادي بضم شرقي الاردن الى الوطن القومي ؛ أما أعضاؤها فليسوا مجهولين
— كما يقال — من السلطات الرسمية ولو أن زعيمهم ما زال في طي الخفاء ! ..
ويقول الاستاذ بأن (الهاجانا) المذكورة آنفاً ، هي الجيش الثالث ، إذا لم نقل
عصابة ثالثة ، وأن عدد أفراد هذه الفرقة يقدر بـ (٨٠) ألف مقاتل . ولعل من
أعجب العجب أن معظم أعضاء هذه العصابة ، كانوا سابقاً من رجالات الانتداب ،
وأنهم ما زالوا حتي اليوم يحملون أسلحة شرعية حكومية باسم الدفاع ضد العرب ! ..
ولقد سألت الاستاذ : وهل حصل اشتباك بين هذه الفرقة والعرب فيما مضى ؟
قال : لا . . . أبداً حتي أن (برنارد جوزيف) المدير السياسي للوكالة اليهودية ، صرح
بأن (الهاجانا) لم تقدم على قتل عربي واحد . فهمهم صاحبنا ساعتئذ بصوت مرتفع :
لانها لن تجرؤ على ذلك ..

ولم ينتبه الاستاذ لهذا الرد الساخر ، لانها كره في الحديث قائلاً : إن أعمال
الصهيونيين الارهابية ليست موجهة ضد العرب ، وإنما هي للتنبيه الى مطالبنا .. واذا
لم نحل هذه المطالب كما يقول المدير السياسي المذكور ، فإن هذه الاضطرابات ستستمر
وستزداد عنفاً . . . نعم ، ستزداد عنفاً . . . فقلت مؤكداً جداً : ولكن أيها الاستاذ
لو فكرتم ان فلسطين لا يسكنها إلا العرب واليهود والانكليز ، لآدر كتم أن هذه
العصابات والفرق العسكرية الارهابية ، لم تؤسس وتسليح للفتك بالأصدقاء الانكليز
فقط . . . بل هي سلاح مرهف أيضاً لتهديد العرب ، كيما يستكينوا الى الضعف ،
فلا يقوموا بمظهر عنيف ضد الصهيونية ! ..

لقد تداول العرب منشوراً من إرهابيي اليهود جاء فيه : اعلموا أيها الجيران ..
ان الحكومة العبرية المستقلة ، تمنحكم المساواة في الحقوق المدنية ، وتكون معاملتها

لكم إنسانية راقية ، وذلك بقبولكم في مراكز حكومية ، وتمكين جماهيركم من العلم ، فتمتد زراعتكم وصناعتكم ، وستبزن بورتاً ؛ لا من الخيام الحقيمة ..
لا تحملوا على اليهود ، ولا تنهبوا أموالهم ؛ لأنكم اذا رفغتم يدكم على اليهود ، فسنتظر الى قطع اليد بواسطة سلاحنا ، ونظن أنكم تحققتم وجاء الى مسامعكم ما هي قوة الشباب العبري الحالي ..

فهل هذا المنشور كتاب غرامي ، يقدم الى العرب ، أم دعوة حارة لوليمة فاخرة ؟
وضحك الاستاذ قائلاً : لقد فاتكم شيء كثير من الغرض ، كما فات العرب جميعهم فهمه . ! فاعلموا أن الصهيونيين لا يريدون قتال العرب بالسلاح ، لانهم يضمنون بنفوسهم وأرواحهم ، فلم ينس الصهيونيون قط موافقتهم في الثورات الخالية ، حين قضى كثير منهم ضحية في سبيل بناء الوطن القومي . ! فهم يهادنون العرب ، لانهم يعلمون ان قتالهم سيثير عليهم سخط الامم العربية المجاورة والمسلمة . عدا أن الحرب ستكلفهم الضحايا من زهرات الشباب والشابات ، الذين بذلوا في جلبهم من الخارج كل غال وثمان .. وان فقد هؤلاء الضحايا ، سينقص اليد العاملة اليهودية ، ويزعزع الانتصار الصهيوني ، .. نحن نضن بسفح دماننا ، وكفانا ما جرى في أوروبا . ! أما ملايين الجنبيات فسنبذلها في شراء الأرض ؛ ندفع في المئة الفاً ، وفي الالف عشرة آلاف ، لنصل الى الهدف دون قطرة دم . . أفهمتم . . ؟ قلنا : ربما . !
ثم عاد الى بحثه عن (الهاجانا) فكانه متيم بها عاشق ، أو كأنه أحد أفرادها فقال : لقد بدأت فكرة هذه العصابة كما ذكرت باسم الايمن ، من قرية صغيرة ، للدفاع عن النفس الى مجموعة موحدة ذات قيادة عليا . . فتال رفيقي : وكان من جراء ذلك أن جرد العرب من سلاحهم ، فذهبت عنهم الطمأنينة أمام عدد مسلح بين ظهرانيهم . . فأجاب باسماً : هذا أمر يعود الى الحكومة البريطانية ، وتنظيم صفوف العرب ، إذ انهم يستطيعون تأليف المنظمات السرية وتهريب السلاح مثلما نفعل . . وقد سبق لهم فعل ذلك بنظام وحزم .

وسكت كلانا على مضض وتابع الاستاذ (المتصهين) : إن الحامية الانكليزية
الدائمة في فلسطين تتألف من (٢٥) ألف مسلح ، بينهم (١٠) آلاف عربي ، و(٤)
آلاف من اليهود ضررهم أكثر من نفعهم ، لأنهم من ملتنا وجماعتنا .! أما (الهاجانا)
فلا يقل عدد رجالها مع بقية أفراد العصابات الأخرى عن (١٠٠) ألف مقاتل
بأحدث سلاح .! فعندنا مدافع الهاون ، ومدافع مقاومة الطائرات ، والبنادق سريعة
الطلقات ، والمسدسات والقنابل ، و .. و .. ثم سكت ليبلغ ريقه هنيهة ، وليجرع
كأسه قائلاً ، بعد تأمل قصير في دخان سيجارته :

إنكم ولا شك تتذكرون وصول جيوش (روميل) الى العلمين ، حين أصبحت
على مرأى من الاسكندرية ، وحق الخطر بوادي النيل ، وتعات الهتافات العدائية
في مصر : إلى الأمام يا روميل ، يا روميل دربك مفتوح .! ونشطت حركات
الانهمامين ، ورجال الطابور الخامس .! نعم .! لقد استولى علينا — نحن اليهود —
فرع عظيم ، وأيقنا أن مأساة يهود أوروبا ، ستجدد كرة أخرى في فلسطين . . .
فطلبنا من الحكومة ملحين أن تتسلح للدفاع عن أنفسنا ، ومساعدة الجيش البريطاني
فظفروا بما أردنا . ثم بقيت عندنا الاسلحة حتى الآن ، وانضم اليها كثير من جنود
الحلفاء اليهود ، إذ سمح لهم بالاقامة في فلسطين ، عدا ما ابتعناه من الجنود الآخرين
من مختلف الاسلحة المهربة ، كما استطعنا استخدام بعض بدو الاقطار المجاورة ، في
هذا السبيل .!

وتتم ريفيقي : أجل ، لقد كانت التحريات ، تثبت دوماً ، وجود مستودعات
للذخائر عندكم ، ومعامل خفية للأسلحة ، والقنابل اليدوية . . وربما للدبابات ،
والطائرات ، والغواصات . . وزاد ريفيقي متهكماً : إذن ، فإن الاسد البريطاني ، لن
يكون أمامكم سوى حملٍ وديع ، لا يمكنه قمع اضطراباتكم بقوى جيشه وبوليسه .?
فقال الاستاذ : لو شئنا المضي في النضال . . فنعم .! وهو الواقع .!

ثم قام الاستاذ مودعاً على أن يعود مساءً في الساعة الرابعة ، ليرينا أشهر مشاهد
(تل أبيب) . . ولكنه قبل أن يغيب في فرجة الباب قال : ولا تنسوا أبداً أن عندنا

فرقاً للسلام أيضاً ، والتفاهم مع العرب . ! فهناك حزب (بریت شالوم) أي عهد السلام أسسه عام ١٩٢٦ خمسون رجلاً منا .. ! أي من أبناء الزمالة — ويقصد المدرسين — ومن المهتمين بالاستعمار ، وذلك للتوفيق بين العرب واليهود . ! فأغرق صاحبي بضحكة استمرت ثلاث دقائق ، ثم قفز لاحقاً به وهو يقول : يجب أن تعلم بأن العرب لن يتخذوا بنعومة الاقاعي ، ولهم من تجاربهم وقواهم واتحادهم الحديث ما سيطيّر بالحلم الصهيوني ، بعيداً عن الروابي السبع ، الى أحجار (الجيتو) .. ! فقال له الاستاذ : أو تمزح . ؟ إن للجدران آذاناً .. وستسمعك (الهاجانا) ، فابتسمنا ، وضاع الحديث بين ضحكات عاليات وأصوات : الى اللقاء .. الى اللقاء ..

وما إن أغلق الباب ، حتى ثار صاحبنا غضباً متألماً وقال : لقد نظم هؤلاء القوم الزراعة فأبدعوا ، واهتموا بالصناعة فتوفقوا ، وانكبوا على التجارة ، فأثروا بالعجب العجاب ، وهامهم يتسلحون ، ويستبقون الحوادث ، كأنهم سيقيمون في فلسطين أبد الدهر .. فأين العرب ، وماذا يفعلون .. ؟

لقد انقضى عهد الكفاح السليبي ، وأماننا الخطر الاكبر ، وإن لم تقف وقفة الرجل الواحد ، فان مستقبلنا قاتم حزين .

إنهم يتمرنون على الاسلحة واستعمالها ، نساءً ورجالا ، وفي كل يوم نبأ عن نشاطهم ، حتى ضجت الأرض من فعالهم والسماء .

والانكليز بعيدون عن المقاومة لهذا النشاط الارهابي العسكري ، خشية الرأي العام الصهيوني العالمي ، ففي العام الماضي اعتدت عصابة على حياة الحاكم العام (السير هارولد ماكميكل) وفرت آمنة مطمئنة ... ومنذ بضعة أشهر ، قتل اللورد (موين) ، وقائد سيارته ؛ فأعدم القاتلون ، وظل أفراد منظماتهم يرتعون آمنين .. وفي كل يوم ، تنسف محطات ، وجسور ، ومخافر ، وقطارات ، ودوائر رسمية ، دون خوف أو وجل ؛ والانكليزي يقف وقفة المتفرج . . حتى لقد هرف البعض بأن ثمة أوامر صدرت تمنع البوليس من استعمال السلاح ضد اليهود .

فماذا أعد العرب لليوم العصيب ؟ كفانا الارتجال في سائر أعمالنا ؛ ودرهم وقاية

خير من قنطار علاج ؛ ومن العار أن يرجف معتدصهيوني أثيم ، قائلاً ، بعد أن تحدث
عن قوة الجيش الصهيوني : « على أن العرب قد أعدوا جيشاً قوامه فرقة تتألف من
مئتي كشاف ، سلاحهم الوحيد التشيد العربي الفلسطيني .. »

لن يفل الحديد إلا الحديد ، وقضيتنا في فلسطين قضية حق وعدالة ، ولكن
هذا الحق ، لا قيمة له ، إذا لم تدعمه قوة ، وفي صفحات التاريخ خير مثال لقوم
يعقلون ...

نعم .. للصهيونيين ان يدعوا ماشاؤوا ، وليابسوا جلد الحمل متى أرادوا . فلن
يخضع عربي واحد بمزاعمهم .. لأننا لن ننسى الحوادث الماضية في الثورات الخالية ،
وما فعله اليهود في كل مكان من تقتيل العرب ، وتشويههم وتدمير بيوتهم . وإن من
أهم الأسباب التي تخيف العربي على مستقبل بلاده ، هو ما يراه من رغبة اليهود في
العيش في هذه البلاد كيهود ، لا كفلسطينيين ، يعيشون في بلاد عربية ، مع العرب ..
وحتى يوم الناس هذا ، لا يستخدم اليهودي في مصانعه أو مكاتبه أو أعماله إلا
اليهودي ؛ وإذا صادف أن أحد المتعبدن اليهود ، استأجر أحد العمال العرب في
تعهداته ، قام عليه اليهود ، وأخذت الحاميات اليهودية ، تهجم على العمال ، واضطر
صاحب العمل ، لطرد العمال العرب ..

هذه الحاميات التي سمحت الحكومة بتشكيلها ، دون أن تسن لها أي قانون أو
تطبق أي تدبير لايقاف حركتها ، برهان جلي على ما يضمرة اليهود للعرب ..
ولعل أبلغ وصف لقوى اليهود ، وجيوشهم — ونحن لا نعتقد بوجودها —
ومنظمتهم ما قاله أحد الأدباء :

إن الارهاب اليهودي في فلسطين ، وقوة اليهود المزعومة ، هي أشبه بلوح
من (الصبارة) ظاهره أشواك تدمي ، ولكنك إذا ثنيتته انكسر إلى الأبد .
وبريطانيا لم تحاول حتى الآن ان تكسر لوح (الصبارة) هذا ، فلم تعدم إرهابياً
واحداً ، ولم تنسف بيتاً يهودياً واحداً ، ولم تقتل زعيماً يهودياً واحداً ؛ وشتان بين

دليلها للارهاب اليهودي اليوم في فلسطين ، ومن بطشها بثورات العرب في السنين
السابقة ، حين أعدمت بكثرة ، واعتقلت بالآلاف ، ونفت بالعشرات ، أو نسفت
قرى بكاملها .!؟

ولو أن العرب تركوا الارهاب اليهودي ، مجرداً عن الحراب البريطانية
فستجدون بأي سهولة سينكر لوح (الصبارة) هذا .

ألا فلننتظر ، وإن عهد (طيتس) لا زال يرن في الآذان ...

كان الفندق يطل على البحر من شارع فخم .! وفي صالته السفلى تعزف الاغنم
الموسيقية لتشنف آذان الآكلين على موائدهم الناصعة ، وتهدهدهم كأنهم في عليين ..
وكان الوقت ظهراً ، وتدل أبيب غارقة في سبات القيلولة ؛ فهم يغلقون محلاتهم حباً
بعيون النوم والراحة ، وتلبية لنداء الروح والجسد .. ومن الخير ان تعلم ، أن كافة
مرافقها ، من حوانيت ومخازن ومتاجر ومعامل ودوائر ، تفتح الساعة الثامنة صباحاً ،
وتغلق الساعة الواحدة ، ثم تعود الى العمل في الساعة الثالثة لتغلق في السادسة ..
وقد شك صاحبنا كثيراً ، في أن لا يكون هنالك من يتذمر من هذا النظام
الكسول ، لأنه دليل على إهمال الكسب وهجر الربح ، وهذا أمر لا يستطيع تحمله
يهودي من فصيلة شيلوخ .. وصاحبنا يذكر بأن من يعرفهم من التجار في بلده
يصلون ليلهم بنهارهم ، فلا يرون أولادهم ولا زوجاتهم إلا في المآتم والاعبياد ، ولا
يستريحون من العمل إلا اذا أصابهم مصيبة غير منتظرة ، لأن العمل عبادة والبطالة
لهو وزينة من عمد الشيطان .!

وهكذا فقد اضطجع كل منا على سريره بعد غداء دسم ، مما جعل رفاقي يضع
بين أمواج النوم العميق ، منتظرين قدوم الدليل المتبرع الصهيوني ..

هل تهزم تل أبيب .؟

وأقبل الرجل في تمام الخامسة ، كأنه مخفي وراء الباب ؛ وهتف قائلاً : هيا

بنا .. وأسرعنا نهبط سلام الفندق كالسناجب ، فسار بنا الى (الكورنيش) ،
حيث الاجسام البشرية ، على رمال الشاطئ ، لا اعداد لها ، تمرح وتسبح ، وطفق
يحدث كصهيوني متعصب ، فخور معتز بمدينة ، التي هي رمز الصهيونية ، وثمره
جهادها الجبار .. فقال بعد أن زفر زفرة خرجت من أعماق قلبه : أتدرون لو أن
شركة (آشوزات بايت) لم تشتري لبناء (تل أبيب) تلك المئة والأربعين (دونماً)
بل اشترت عشرة آلاف (دونم) ، لكسبت فروق الاسعار التي دخلت جيوب
العرب فيما بعد ، لأنهم رفعوا ثمن الاراضي بجنون أسطوري . ؟ وكذلك لو أن
تلك الشركة ، فعلت ما أتمناه لبنيت مدينة أوسع مما ترون الآن ، وأكثر جمالا وصحة
من المدينة الحاضرة .. ولو أن صناديقنا اشترتها لربحت ألوف الجنيهات وملايينها ،
ملايين نحن بحاجة الى كل مليم منها ، لبناء الوطن ..

والآن ، دعونا من هذا ؛ فهل يروق لكم أن تروا بيوت الفنانين والأدباء ،
ونواديتهم ومقاهيهم الخاصة التي يجتمعون فيها . ؟ فخلناهم يسخر بنا ، فنحن نعرف أن
الأدباء في بلادنا حليفهم الفقر ، وخذينهم الاملاق ، ولكنه قال : ها كم هي ! وأشار
بيده الى بنايات ومقاه كانت تملأ الرصيف وتكتظ بالزوار .. ثم تابع : إن البلدية
هي التي تؤمن لهم الدور اللازمة ، وهم يدفعون ثمنها بالتقسيط ، على طريقة : ادفع
الاجرة مع شيء من الثمن .. وكانت تلك البيوت تشبه بعضها بعضاً ، أما الدور
الاخري الفخمة فهي مختلفة عن مثيلاتها اختلافاً كبيراً في العظمة ، والتسابق الى التفنن
في الهندسة ، وكان على أبواب بعضها لوحات مستطيلة نحاسية ، أو خشبية ، فيها
كوة كفوهة مكبر الراديو ، وبجانبا أزرار مختلفة ، تحت أرقام وأسماء .. وقد
شرح لنا الاستاذ ، تلك الطلاسم ، بأن الطارق يضغط على الزر المشير الى رقم المنزل
المقصود ، فيسمع صوت الخادم من المكبر ، ثم يتخاطبان ؛ فاذا شاء صاحب المنزل
استقباله فتح له الباب ، بواسطة جهاز كهربائي ، وإلا رده رداً جميلاً .. وهكذا
ينجو القوم من الضيوف الثقلاء ، واللصوص والمفاجآت ..

وانطلقنا من حي الى آخر ؛ فهنا حي المدرسين ، وهناك حي الأطباء ، وهذا

حي التجار، وذاك حي المحامين، والموسيقيين.. وهلم جرا.. وكل بيت تحيط به حديقة، تطل منها أشجار متنوعة، غرست تحت إشراف البلدية، لأنها صاحبة الحق في تعيين البناء وتوابعه.. فهي تعين نوع النبات، والورد والزهر، والشجر، مقدرة في ذلك ارتفاع البناء، وعرض الشارع، وضخامة القصور. فبعض الأشجار طويل، وبعضها قصير، وغيرها مثمر، والآخر للزينة وهكذا!..

ولقد شاهدنا ميمتاً فخماً تحيط به حديقة مكلمة بالزهر المختلفة ألوانه، فذكرنا بميامنا وملاجي متشردينا، - إذا كان ثمة ملاجيء - وتسلسلت بنا الأفكار، إلى فقرائنا وأيتام مجاهدينا - أصحاب العائلات الفقيرة المستورة، لا الأغنياء الأكارب - وكيف أنهم مهملون، منسيون على سطح الأرض، دون معين أو مسعف!.. تذكرنا كل ذلك ونحن مشدوهون أمام الواجهات البلورية الحديثة، والطبقات المتعددة من البناء، والأشجار السامة، والنوافذ العريضة النظيفة!..

وهبطنا نفقاً خرجنا منه إلى (ساحة لندن) وهي من أحدث الحدائق في مدينة الربيع، وربما في الشرق كله!.. وهي مخصصة لنزهة الأطفال كما يظهر.. فقد رأيناهم في عرباتهم، بأجسامهم العارية، تحت شمس مشرقة، ونور مظلل بالخمائل، وأمامهم مربياتهم يتنقلن بهم من مكان إلى مكان، حيث يؤرج الجوفوح الأزاهير، ويظلل المتزهين أفنان كشيفة.. وكانت نافورات المياه تغسل الأوراق وتصيرها زمردية لامعة فتسبغ على الحديقة رونقاً وبهاء..

ولن يستطيع الإنسان مهما أوتي من سحر الوصف، وصدق الملاحظة الدقيقة، أن يحيط بدقائق هذه الحديقة، فهي آية من آيات الجمال؛ ولو لم يكن في (تل أبيب) سواها، لكفاها أن تسمى بحق (تل الربيع)!

مررنا بدار (الأوبرا)، فشهدنا ضخامة بنائها وروعته، وتمنينا لو تحظى مدننا الكبرى بأمثالها.. فليس من الحضارة، في القرن العشرين، أن تظل مدينة تحترم نفسها دون (أوبرا) أو صالة عظيمية للموسيقى والتمثيل..

ثم رأينا دور السينما، التي تنيف على العشرين داراً، ويحتوي بعضها أجهزة

لتكييف الهواء وتلطيفه في الصيف ..! وتسخينه وتدفئته في الشتاء ..! وبذلك يظل الجو معتدلاً ملائماً للرواد والزبن في كل آن وحين ..! ولقد قيل لنا بأن بعض الافلام يستمر عرضه في صالة واحدة أكثر من ثلاثة أشهر ، إذ لا يوجد رجل يحترم نفسه ولا يذهب الى السينما ، ولو مرة في الاسبوع ؛ فالسينما مدرسة الشعب ، ومثقفة الجيل ، ولو كره الجامدون .. ثم انتقلنا من شارع الى شارع ، ومن درب الى آخر ، فادابها كلها عريضة نظيفة ، غرست على طرفيها الاشجار منذ نشأتها .. تحت إشراف البلدية ، التي يقدر عدد موظفيها بموظفي دولة جبارة .

ولقد مررنا ببعض الدور ، فكان الاستاذ يشير الى وحدات منها قائلاً : هذه هدية البلدية الى الفنانة فلانة ، وهي الآن ترفه عن الجنود في الميدان الفلاني .. ! وتلك هدية للعلامة فلان تقديراً لجهوده العلمية ، وغيرها هبة للموسيقار علان .. وهكذا .. !

ولن ترى من وسائل النقل في شوارع تل أبيب (تراموايات) ولا (طنابز) أو عربات (كارو) أو خيولا وحميراً لتركبوها ، لن تشاهد (جمالاً) تسير على الرصيف ، مع المحترمين من بنى آدم . بل تبصر (باصات) تتجه الى كل أطراف المدينة . فلا يتيه الترام هنا ، أو تجيد (سنكته) عن شريطه ، او تتغير أوقاته ، أو يتعطل ، وتحمل الناس ثقله وسماجته وبطأه .. وجل ما هنالك حركة دائمة منظمة ، تؤديها (باصات) أنيقة ، ذات طبقة واحدة ، أو طبقتين ، لم نشهد مثلها من قبل ، إلا في دور السينما . حتى لقد شاء صاحبنا ان يجرب إحداها ، غير هياب ولا وجل ، فما كاد يضع قدمه على السلم ، حتى تصور انه وضعها على أولى درجات الجنة ، فقد سعد في إثر حسناء عارية الساقين ، يشعشع من تحت ثوبها شمس وأقمار .. وفجأة رأيناه يعود القهقري ، ويتلمس جلده ؛ فقد خشي ان يتدهور الباص إذ لم يجد في طبقته العليا سائناً .. فمن يسوقه إذن ؟ الشياطين ؟ ولم يدر أن السائق الظريف في الطبقة الاولى ، وهكذا هبط وقد فشل فشلاً ذريعاً يتحدث عنه الركبان ..

وأخيراً وصلنا الى (حديقة الحيوانات) ، أو كما يسمونها (جان لحيوت)

فأسرعنا بدخولها، لمشاهدة غرائب وعجائب البر والبحر، وهي كما بدا لنا ما زالت صغيرة فقيرة في دور التكوين. ! فالحيوانات حبيسة في أقفاصها وحجراتها، وقد كتب على كل قفص أسماؤها باللغات الثلاث أو الأربعة: العبرية، والانكليزية، والعربية، والفرنسية.. وهناك أقفاص الأخرية والواق، والحمام والكنار، والبيغاء وطيور (جاوا)، وما إلى ذلك من صنوف الطير وألوانه.. وعن كتب منها تشاهد الدببة الفارسية والهندية، وهي بنية اللون، أو سوداء دامسة.. وثمة سباع، ولبؤات، وأشبال، إلى جانب نمور، وفهود، تقضم جميعها لحم البقر وعظامه، كما يقضم أحدنا (كعب الغزال) .. أو (حلي سنونك) .. وتكثر أقفاص القرود المتنوعة المختلفة وهي تصيح وتزقزق لتلتهم كل ما يلقي إليها من الفواكه، والمواخ، حتى أعقاب السكر..! أما الأرناب، وبنات آوى، وفأر المسك والجرايع والرول والقواضم وآكلة اللحوم، فلا يحصرها عد أو ذهن..! وليس أجمل من بقر الوحش، والوعل والبجع والطيور المائية، وهي تصول وتجول، برقابها الطويلة الرفيعة، أو بقرونها المتفرعة المتشابكة.. وتكثر العقبان والنسور، وجوارح الطير، فوق الأغصان، وهي فخورة مزهوة كملوك الطير، وسلاطين الجو.. أما السلاحف البحرية والبرية، وذلك التمساح الهائل، فانها تقزز النفس، وتبعث فيها شيئاً من الرهبة والتعجب. وقبل أن نبارح الحديقة، شاهدنا قاعة الأسماك الصغيرة، وهي قبو واسع، أنيرت خزائنه البلورية، المحفورة في جوف الجدران، ترتع فيها الأسماك من كل صنف ولون، ويتجدد هواؤها، ويتلطف ماؤها، بواسطة نفاثات الهواء الداخلية... وتجد فيها أصغر أنواع أسماك (الشيلي) أوسيلان، أو الحرابي البحرية والسرطانات.. وأخيراً أبصرنا مجموعة الأفاعي والثعابين، من أصدقاء والدتنا المرحومة حواء، وبقربها حاخام كريم، يرمقها شذراً، وكأنه يردد أمامها ما وعدها به الرب: على بطنك تسعين، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك...

صمالم في كل صمان

عاد صاحبنا إلى الفندق، وراح يفتش في دفتر مذكراته، عن صديقة أو صديق

يكون له نعم الهادي ، ونعم الدليل ، في هذه المدينة التي لا يجوز أن يعيش فيها
الانسان بلا رفيق .. وسرعان ما عثر على ما يتبغي من صديقة و صديق ، وها هو يتجه
معها الى أقرب (بار — مقهى) على شاطئ البحر ، في مدينة الربيع ..
وما كدنا نجلس ، حتى ناديا بعض صديقاتها وأصدقائهما في المقهى المذكور ،
وكانوا خليطاً من الاوروبيين والشرقيات والشرقيين ، اجتمعوا حول مائدتنا
فعرفاهم بنا ، وكانت ورطة ..! فنحن لا نعرف سوى الفرنسية والعربية ، وكان لسان
الجميع عبرية فصحي ولغات اخرى .. ولولا أولئك التفرد ، الدمشقيون والدمشقيات ،
لضعنا في جو من الكتابة والخذلان ...

وخطرت أمامنا (الكرسون) غلامة المقهى ، التي سمع صاحبنا أن أجرها
الشهري يبلغ السبعين جنيهاً — على ذمة الراوي — وقد ارتدت ثوباً شفافاً يعلو
الركبتين ، ووضعت (مريولا) فيه أزهار وأطياف ، ووصفت شعرها حتى لتحسبها
تمضي الى حفلة لانتقاء ملكات الجمال ، أو لموعده أحمر يهب صاحبنا في سبيله عشر
سنوات من عمره .. وكان على شفيتها جمرة ، وفي خديها وردة ، وفي صوتها إغراء ،
وفي سيرها اختيال وتثن ؛ وعلى جانبها الأيسر جعبة فيها النقود ، حتى اذا انعطفت
نحوك ، اهتز نهداها الرجراجان ، ذات اليمين وذات الشمال ، ورنت نقودها ، فأرتك
الاغراء فنوناً ، مما يحتم حضور مضيخات الاطفاء ..! ثم تطلب إليك ما تشتهي من
شراب ، فتبلي أنته الطلب مسرعاً صاغراً مستسهماً ، رامياً لها السيوف والاعتراس ..!
ولا تحسبن هذه (الكرسون) فريدة دهرها ، ووحيدة زمانها ، في هذا
المقهى .. لا ، بل إن مثيلاتها موجودات أينما سرت ، وفي أي (بار) دخلت ...
فانك دوماً تجد نفس النماذج ، ولكن عليك أيضاً أن تضع يدك على جيبيك ، حيثما
توجهت ، لتكون نعم السفير بنقل النقود ..! ولقد تحلقنا حول مائدة يوحى خوانها
بالنظافة ، فوقها زهرية تفص برائع الورد ، بينما كانت الفرقة الموسيقية تعزف بين
الحين والحين ، قطعاً غنائية أو راقصة ، علوية ساحرة . وإذا كنا لم نزر أوروبا ،
فقد حدثونا بأن ما نشاهده الآن قد لا نعر عليه حتى في أفخم عواصمها ومدائنها ..

وظفق القوم يتحدثون ، والحديث ذو شجون ، فيستعيدون ذكريات دمشق ،
ورياضها وغوطتها ، ويترجمون ذلك الى العبريات الغريبات .. والله يا دمشق ، كم تركت
في قلوب عشاقك ، من ذكريات لا تفي ، ومن صدى لا يذوي على محرّ الدهر ! ..
وهل يسكت السائحان المغامران في هذا الجمع الحاشد من (المتصهينين) المتطرفين
الغلاة .. والخبثاء ..؟ أم ينتهزان الفرصة لالقاء ذرة من البارود في قلوبهم فتنتثر
الاحاديث ، وتقذف الاسرار ، وتقك عقد اللسان ،؟ وهذا ما كان ، بل وما ينبغي
أن يكون !. وفي ذلك الجو الساحر ، بين الغواني والفتيان ، صدرت آراء صهيونية
سافرة مكشوفة تلففتها أذنا الضيفين الكريمين بكل ترحيب . .

امرأة تحدث عن العنصر الصهيوني

وتحدثت فتاة بلغة فرنسية ، تضع نظارة زرقاء ، لتخفي بها شيئاً من صغر تينك
العينين ، ولتعطيها بعض الجمال المرموق قالت : كان هتلر — ولأول مرة نسمع اسمه
في فلسطين — يقول : إن اليهود في ألمانيا ، ليسوا سوى ضيف كريم قدمته لي
يد الديموقراطية .. « ثم سكنت ، فاتجهت إليها العيون والاسماع .. وتابعت : وقد
كان الديكتاتور (غول) العنصر اليهودي ، يعرف ما يريد من مغزى الجملة هذه ،
فقد سبق له أن قرر كيف يتخلص من ذلك الضيف الكريم ، ما دامت فلسطين
الموعودة تنتظره !. ولست أدري أية مجزرة كبرى ستحدث لو لم تكن هنا فلسطين .؟
إن كبش الفداء ، الذي جعله منا هتلر ، لتخفيف سخطه على الحلفاء ، كما
تفعل كل دولة رأسمالية ، أو فاشية أحياناً ، كان عنصراً فعالاً في شحذ الهمة للتشبث
بأرض إسرائيل .. وإن الهمجية العنصرية المناققة وحدها ، هي التي خلقت مشكلة
فلسطين . وليس مستطاعاً اليوم ، أن يرجع اليهود ، الى ظلمات (الجيتو) ، وليس
بالمستطاع أيضاً أن يتحملوا المذابح كل حين !. لقد كان (هتلر) يؤمن بالعنصرية
الجرمانية ، كآله معبود ، كما يؤمن الكثير منا بصفاء العرق ، فلم تستطع ساعتئذ ألمانيا
تحمل عنصريين صافيين !. فنحن — شعب الله المختار — .. هي فكرة ، أنا لا أميل الى
التمسك بها ، ولكنني كصهيونية مثقفة ، آمل العيش براحة في وطن تربطني به

أواصر الروح والذكوري والعنصرية اليهودية...
ثم أمسكت بجريدة عبرية ، ولعلها — دافار — تقلبها حيناً ، ونثنيها أخرى ،
وتناولت سيكارة من أحد الرفاق ، أشعلتها بهدوء ، وتؤدة ، وقد ران على الجميع
صمت ، حتى لكأنهم في مقبرة... وليس ذلك السكوت بغريب ، فالناس دوماً يتكلمون
هنالك همساً ، كما ليس غريباً ، أن نسمع كثيراً لتكلمهم قليلاً ، فهدفنا : إملأ الجعبة
قدر ما نستطيع !.

غير أن صاحبنا حيد — علم الله — أن يظهر بلاغته وثقافته ، فاعتدل في جلسته
وتهمياً ، وكاد أن يصيح مزججراً ، لولا شيء من هيبة المكان ، ولولا أن بين الجمع من
القاتنات ما يسيل لمن لعاب الزاهد ، أو ترقص لسحرهن حواجب العابد ؛
فلطف من لهجته وقال : ولكن.. ولكن يا حضرة الأنسة : إن مفهوم العنصر
— منطقياً — مبهم وغامض جداً ، لأنه يتكيف دوماً حسب علم (الاتولوجيا)
ورجاله ، أو تبعاً لاساسة المغرضين ، كالنازيين مثلاً !. فلو قصدت بالعنصر ، أولئك
الناس الذين انحدروا منذ آلاف السنين الى اليوم ، وقد صفا دمهم من كل لون خليط ،
فهو خطأ فاحش ، وتفكير مترع بالخيال ، لوجود ما يسميه الفلاسفة والمثقفون ،
(استحالة تاريخية) ؛ أما اذا شئت بذلك جماعة معينة ، لهم لونهم ، وشكلهم ،
ومزاجهم الخاص ، فربما يحتمل الأمر النقاش .

وهنا أخذ يلتفت يمينه ويسرة ليتأكد من وجودي الى جانبه أشد أزره ، ولو
بايماءة رأس أو غمزة عين ، فقد كنت الوحيد الذي يوافقه على بياض ، في كل ما
يقول ، فتابع : إن الواقع والحقيقة يجعلان كلمة العنصر المتفوق أو الممتاز ، كما يرتي
المغالون من رجالكم ، كلمة لا وزن لها من الناحية العلمية والمنطقية ، فليس هنالك
عنصر منحط ولا متفوق ؛ لأن العناصر لا تثبت أو تستمر مع طول الأجيال من
هذه الوجهة !..

إن مدرسة (هتار - ستريخر) لم تستطع إبادة ماركس ، وفرويد ، وأنشتاين ،
من صفحات التاريخ ، كما أن مدرستكم المفرطة — المقدسة — بيولوجياً ، لم تستطع
محق الأمم الاخرى وسحق رجالها البارزين !..

ثم ازدرد ريقه وعلى أثره — حمداً لله — تقدمت (الكارسون) الناعمة
بالأسيس ، شرابنا المفتخر ، فأسرع كل يأخذ كأسه ، ليردها بيضاء من غير سوء ؛
ولم ينبس أحد من الجماعة ، سوى الفتاة اللعوب ، صاحبة العوينات ؛ فقد كانت
أكثر الجميع ثقافة واطلاعاً . . . وكانها دائرة المعارف الافرنسية . . . قالت : والآن
نستطيع أن نتفاهم يا عزيزي . . . ولكننا سنبدأ حديثاً أطرف مما بدأنا به منذهنية . .
سأحدثك عن نواح يهودية من اختصاصي ، وذلك حينما سنخرج الى التجول على
المساحل . . . وهمس ساعتئذ صاحبنا في أذن أحد الجالسين : ما هو اختصاص حضرة
الآنسة . ؟ فأجاب : إنها الاستاذة . . . مدرسة الاجتماعيات ، في مدارس تل أبيب
الثانوية ، ومن الاعضاء العاملات في (الهاجانا) ، فسكت صاحبنا وتقاص ، وقرر
أن ينجو بجلده ، تاركاً أمره الى الله . . . فلم يكن هو مؤرخاً ولا عالماً اجتماعياً من
رجال هذا (البازار) . . . فتحمل الصدمة المزلزلة وهم بالانصراف . . . غير أنني
أسعفته بالمواد المشجعة من السفسطات التي يتقنها المغامرون ومن لف لفهم ، فتحمس
وعزم على الوقوف في وجه العاصفة مهما كلفه الأمر ، وذلك خير له وأبقى ! .

كانت الساعة تدق العاشرة ، عندما غادرنا المقهى ، وسرنا على الشاطيء مثنى
مثنى ، تاركين المكان يتلألاً بالانوار ، وتملاء جوه رنات الموسيقى والضحك ،
وأصوات الغناء ، كأنما قرر زواره وسماره ، أن يعيشوا ليلة لا غد لها . . .

سرنا على الشاطيء حيث يحلو السمر ، في ذلك الوقت الليليف من الليل ، وحيث
تكثر الهمسات تحت الظلال ، وعند كل شجرة أو جدار أو جسر أو نفق . ! وهناك ،
اقترب صاحبنا من الفتاة ، وسألها بعد أن حاذى كتفها : نحن لا زلنا على الوعد ؛
فحدثينا يا آنستي — غير مأموزة — عما تعرفينه عن النهضة العلمية اليهودية ، المرافقة
للصهيونية الحديثة . . . ثم لمس ساعتئذ كتفها العاجي ، متحسناً لهما كان يحسبه طرياً ،
فاذا به من لحوم (الموضة) قد أهلكه (الريحيم) حتى تركه بشرة وعصباً وعظماً !
فابتسمت وقالت بدلال مقبول رغم كل شيء . . .

سؤالك واسع ، وجوابه أوسع ، غير أنني سألخصه ، فاستمع إلي :

وهنا التفتُّ الى الوراء ، فرأيت القوم وكل واحد منهم يخاصر صاحبه ، فلم يبق هنالك من رواد العلم والمعرفة ، سوانا نحن الثلاثة . . ولكم تحرق صاحبنا على حظه ، وندب بخته ، لآءن الاستاذة لم تكن جميلة كما يريد حضرة ؛ ولعل العلم لا يجتمع مع الجمال في صعيد واحد . . قالت :

كانت آمال اليهود ، في القرن التاسع عشر ، وأواخر القرن الثامن عشر تقريباً ، تنحصر في التخلص من الارهاق والضغط؛ ولقد تخلصوا مبدئياً في فرنسا عقب الثورة الكبرى من أسوار الجيتو الحقيمة ، فكان من أثر ذلك فيهم ، أن هاجت حميتهم الثقافية ، ونمت فيهم فكرة البعث اليهودي ، وهو ما نسميه نحن بالـ (هسكالا) أي ما معناه التنوير . . وكان ذلك في بولونيا وألمانيا وروسيا وغيرها ؛ مما حدا بأرباب هذه النهضة ، الى فصل ثقافتهم العصرية عن الدين ، فمزجوها بروح علمية وعقلية ، مناسبة للعصر ، حتى أنها باعدت بينهم وبين الحنين الى أرض يعقوب في فلسطين . !
وكان رائد هذه الروح مبادئ الثورة المذكورة الثلاثة ، وهي الحرية والمساواة والاخاء ، ذلك أنهم كانوا يعتقدون بانتهاء المسألة اليهودية ، بعد انبثاق نور الحرية الفرنسية وأن كبش الفداء الأزلي سيمحق اسمه من سفر التاريخ وأدمغة الاجيال . !
غير أن الواقع سفه رأيهم ، وقضى على تفاؤلهم ، بعد عدة مذابح وتعديات ، على ذلك اليهودي التائه اليأس نفسه ، حتى تطور الأمر بعدئذ بهم نحو الصهيونية المعاصرة . !
وكانت هذه الحركة ، وليدة التحول الدولي أيضاً نحو الاستعمار . ! وقد طالت مدة هذا الانعكاس سنوات مديدة ، فالبدور بدأت تنتج سويقاتها وجذيراتها ، منذ أن لقحت في التحالف المقدس عقب الحرب (النابولونية) . فقد ظل الأوروبيون وما لبثوا ، يضعون الشعب اليهودي في المؤخرة ، رغم المساهمة الفعالة ، التي قام بها في الحركات التحريرية حتى عام ١٨٤٨ . الى أن قال أحد الألمان اليهود ولعله (موئز هيس) : إن الشعب اليهودي ، سيظل غريباً ، بعيداً عن الاحترام ، ما دام يترك ذكرياته ، في الصف الأخير أو الثاني من مطامعه . ! واذا كانت هنالك بعض الحقوق لليهود ، فانما هم توصلوا اليها ، بدافع الانسانية والرحمة لا بدافع الحق . !

ومندئذ ، والحركات تثرى في سبيل خلق أرض جديدة ، ووطن جديد، لنمو
العبرية اليهودية ، والتبوغ الاسرائيلي ، ولا شك أنكما تعرفان نهاية هذا التطور ،
وانتقال الفكرة الى حيز الواقع السياسي ؛ أي من عام ٩١٤ — ٩١٨ وخاصة بعد
وعد بلفور .!

وبالرغم من وطنية هذه الاثني الصادقة، ونضوجها الفكري ، فان خيلاء المرأة
ظلت تعبر عن نفسها في كل حركة من حركاتها ؛ فقد كانت كل ساعة ، تلمس ثوبها،
وتصفف شعرها ، وتتحمسه ، أو تعطي بعض النظرات الناعسة الحيري ، إلى
السامعين العربيين .! ولقد طال الحديث بين أخذ ورد وهمسات وراءنا ناعمات ؛ وإني
لأعترف مخلصاً ، ان الأستاذة المحترمة ، رغم حديثها السياسي العلمي ، ورغم الجد
الذي تظاهر به صاحبنا أمامنا ، فقد استطاع ببراعة يحسد عليها ، أن ينال منها بعض
الهمسات ، التي يعتبرها بريئة، وإن كانت قريبة من النهدين المتحجرين ، ومن صهيونية
دون الوسط جمالا .! فهو يعتقد بوجوب هذه الالطاف ، والهدايا ، من شاب عربي
خداع ، لينال الحديث دوماً مع الغواني من القلب ، بعد (جبران الخاطر) والاحسان
للمسكينات من بنات حواء .!

ومع كل تلك الرقة والنعومة التي أبدتها العالم الغلبان ، فان الحديث ، كاد يتطور
الى صخب ، عندما وضعت السياسة والعروبة أصبعها .! فحاولنا ما استطعنا تحويل دفته،
وتكلمنا عن الساحل الثائر في ذلك الحين ؛ وكان القمر ينزوي خلف
الابنية الشاهقة ، فبتنا في ظلام دامس ، وكانت الساعة تقارب الثانية عشرة ، حين
ودعنا الانسة المغالية الصهيونية ؛ ومن بعيد لبعيد ، صاح صاحبنا بالمنزوين والمنزويات ،
تحت الأشجار والنزوايا .. شالوم .. شالوم ..



شفاييم . . . أرض التلال . . .

لم نعد كم ساعة نعمت فيها عيوننا بالكري ، ولكننا نعرف اننا استيقظنا كغصن رطيب ، في تمام الخامسة صباحاً ، فارتدينا (مايو هاتنا) ، وهبطنا عراة من الفندق ، كما هبط غيرنا من الرجال والنساء ، وسرنا كما خلقنا الله ، في شارع الكورنيش .
ها نحن بين أمواج البحر الهائج ، مع جموع الاهلين ، الذين أقبلوا منذ الصباح الباكر ، — وقبل أن يؤموا مخازنهم ومحلاتهم — نتم بالسياحة ، وهي متعة لا تفوقها متعة عند سكان الشواطئ .. وكانت ساعة صارت فيها جسومنا أمواد البحر وأثباجه ، بين الأطباء العائمة ، والغواني الغائصة ، وفي جو كله سحر وفتنة !
وما إن نشطت أعصابنا وعضلاتنا ، حتى عدنا مسرعين لنتطي أول سيارة ، تقصد مستعمرة (شفاييم) . وهل ينسى صاحبنا أنه خرج من البحر ، دون أن يغتسل بالماء العذب ، فأبصره في الشارع العام ، جذان يسقي الاشجار ، ويغسل أوراقها بخرطوم مائه ، فدعاه الى (دوشه) المجاني ، وكانت دقائق ، وقف فيها صاحبنا ، تحت خرطوم غزير المياه ، بين قهقهات المارات ، وتوابل نكات العابرين الفكهة .؟
وهل هو في نظر الجميع ، إلا صهيوني عريق في الاقتصاد والكسب .؟
سار السائحان عاريين في الطرق ، إلا من (مايو ه) ، أصغر من عقل الجاهل ، أو رزق الفقير .. ولا تحسبن المارات والمارين ، قتلوها بالنظرات الساحرة ، و (تبويات) الوجوه ، المشمزة الثائرة ، على الفضيلة والاخلاق .. أبدأ ، لم يلاحظ ذلك على الناس .. فلعل حريره ورأيه وعمله .. ولاتنه عن خلق وتأتي مثله !

نشاط بعث على الارض

كانت الطريق الى (شفاييم) مترعة الجانبين بمزارع الموز ، وأشجار الصنوبر ،

و (بيارات) البرتقال ، وأنواع الحمضيات . ومما يلفت النظر ، تلك التافورات اللولبية ، التي تسقي الأشجار ، مهملت ، وتغسل أوراقها ، فترى أوراق شجيرات الموز والبرتقال ، تتلاءم أخضراء نظيفة ، تحت أشعة الشمس المشرقة . وعلى طول الطريق تلوح المستعمرات المثالية الصهيونية ؛ دون أن تبصر قرية عربية واحدة . . . فهل أحدث الصهيو نيون شبكة طرقهم ، بعيدة عن أراضي العرب ، لتصل بين مستعمراتهم ، فلا تنالها أيدي أعدائهم بسوء ، من قطع أو تخريب ، إذا ماجد الجدُّ وحمي الوطيس ، أم أنهم أجلوا العرب عن ديارهم ، في هذه الربوع ، فلم يبق لهم أثر .؟ إنما نحن نعتقد بالشيئين معاً ؛ فالصهيو نيون تدايرهم الجهنمية اللعينة في الاستعمار ، والاطمئنان الى مستقبل الأيام والمفاجآت . . . أوليس درهم وقاية خير من قنطار علاج .؟

كانت العلامة البارزة والمدالة على قيام المستعمرة ، خزانات هائلة مرتفعة مدهونة بالبياض تملاء بمحركات تدفع الماء من أعماق الأعوار ، الى أعلى الطبقات ، ليستطاع توزيعه على سائر أجزاء الأرض ، سواء علت أو انخفضت . وهكذا فإن فقدان الأنهار لم يحل مانعاً دون قيام المستعمرات والجنان ؛ فليس هنالك أنهار قط بل آبار ؛ ومتى وجد الماء وجدت الحياة . فالخزانات أول عمل يقوم في المستعمرة ؛ وهي الخلية الأولى في القرية المستحدثة .! وهنا تذكر صاحبنا آلاف آلاف (الدونمات) من الأراضي الزراعية الخصبة ، على ضفاف الفرات والعاصي والخابور ، مهملة إهمالاً زرياً ، يبعث على الأسف .! فهل يقول إن ماء الخابور ، لا يروي على ضفتيه ، إلا مسافات يتراوح عمقها بين عشرة وعشرين متراً . . . بينما المياه تسيل غزيرة تقطع السهول والقفار .؟

أيها الماء كيف تجري سراعاً وحوالك قاحلات البوادي .!

لو سقيننا بك الجبوب شتاءً لحصدنا النضار يوم الحصاد .!

أجل ، لقد تذكر صاحبنا ساعتئذ ، أنه قطع في غابر الأيام ، سبعمئة كيلومتر من دمشق الى القامشلي ، فنصيبين ، دون أن يجد في طريقه أرضاً مزروعة ، تتجاوز ثلاثين كيلو متراً طويلاً .! فهل هذا شأن أمة تطالب بحقها تحت الشمس . . . وهل هذا شأن أمة تتطلب الحياة والنجاح ، وشبابها يطرقون أبواب الوظائف ، يتسكعون

لزيد وعمرو، أو يدفعون اشتراقات شهرية (آبونه) في المقاهي؟! بينما هنالك في
بطن الثرى كنوز، وكنوز عذراء، لم تمسها يد إنس ولا جان، تنتظر من يشق
الأرض، ويحيي الموات ..

ألا لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني، فقد علمتم أن السماء
لا تمطر ذهباً ولا فضة، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .. فهل من مجيب؟
هاهي ذي السيارة تقف في (شفايم)، وها نحن نغادرها، الى باحة رملة،
تحفها بيوت المستعمرة البيضاء، وحدائقها الخضراء. ولم نكد نخطو بضع خطوات،
حتى خف العمال من كل جانب، بألبستهم الملوثة بآثار العمل، ينظرون الى من
تحمليهم السيارة؛ وسرعان ما اكتشف صاحبنا قدماء طلابه وطالباته، وقد طفح
البشر على وجوههم لمراه، فأسرغوا بنا الى حجراتهم الخاصة، لنستريح من
وعناء السفر ..

كان الوقت ظهراً، وقد جلجل ناقوس ضخم يؤذن بالطعام. فدعانا الطلاب
لتناوله، فسألناهم: ألا يجب الاستئذان من مدير المستعمرة؟! فأجابوا بصوت واحد:
لا، لا .. كلنا هنا مدير، وكلنا راع، ومسؤول .. وبدهي أن مستعمرتنا، ليست
مفتوحة الأبواب للعاطلين المتشردين المتسولين، ولن تكون هدفاً للمحتالين
(النصايين)؛ ولكننا نحترم الضيوف، ونكرم الزائرين. وخاصة من نثق بأدبهم
وأخلاقهم. ولعل صديقي كادت تصم أذناه في طريقه الى المطعم، لكثرة أسئلتهم
عن أهلهم وإخوانهم ودمشقهم وأشواقهم وذكرياتهم .. إنهم يرغبون في رؤية
دمشق دونما عودة، بعد أن تقرر مصيرهم هنا في هذه المستعمرة كصهيونيين
مستعمرين، عن طواعية واختيار، وبعد تفكير واقتناع!.

كان المطعم قاعة واسعة، ولكنها لا تتسع دفعة واحدة، لسكان المستعمرة البالغ
عددهم، أكثر من سبعمئة نفس، ولذا فهم يتناوبون على دفعتين أو ثلاث .. أما
أدوات المطعم فكلها من الألمنيوم، وهي نظيفة مرتبة على الموائد بنظام. غير أن
الماء - حياة الإنسان - ما زال كما نعهده مفقوداً، وهم يستعيضون

عنه بالشاي الساخن ، مع قطع السكر التي توضع في الفم قبل ارتشافه ، تطبيقاً
لآخر نظريات علم الاقتصاد .! وكان الطعام مؤلفاً يودئ من أكباد البقر وطحائها ،
مقلية مع البصل واللحم والدهن ، وبجانبا (البرغل) وحساء الخضر . ويقدم هذا
الطعام الى كافة سكان المستعمرة السليمين دون استثناء ؛ فيتناولون أربع وجبات
يومية ؛ أما المرضى فيتناولون ست وجبات ، أو كما يشير الطبيب ..

هذا ولن ينسى صاحبنا ، قطعة من اللحم البقري الصلبة ، لم ترضخ لتوسلات
شوكته ، أو تشفق على زفراته ، أو ترثي لعصافير بطنه ، بل ظلت رافعة رأسها
بكبرياء لا تلين ، كـ بعض أثرياء الحرب المعروفين ، أو أدياء العلم ، وأنصاف العلماء
الجاهلين .. وأخيراً وبعد صولات وجولات في ميدان الصحن ، وحركات التفافية
بارعة ، استجابت لتوسلاته ، واسلست القياد ، فأسرع يد حرجها في حلقه كحبة
من (الاسبرين) .. وفي هذه الأثناء ، أقبل استاذ الطلاب ، وهو بولوني يتكلم
الفرنسية بطلاقة ، فقد موه البناء ، وجلس بجانبنا ، يشار كنا الطعام ، ويبيد ضروب
اللاطف والعطف ، ويتمنى مرافقتنا في زيارة المستعمرة ، لولا كثرة أشغاله واعماله
الشاقة ..

غزل في معركة انتخابية

ونادي مناد يدعو فتيات (الكيوتس) وفتيانه ، لحضور الانتخابات العامة التي
تجري بمناسبة دخول العام العبري الجديد ، لانتخاب اللجان ، والاشخاص الذين
يناط بهم أمر تنظيم المستعمرة ، والاشراف على شؤونها .. فدعينا كضيوف شرف!
وكانت حجرة الاجتماع أشبه بفصل مدرسي ، نصدت على اطرافه الموائد ،
وجلس الجميع اليها ، بعضهم بلباس (المايوه) فقط ، والآخرون بسر اويل قصيرة
جداً ؛ أما الفتيات ، فكن يرتدين طراً لباس (الكيوتسيات) التقليدي ، سروالا
قصيراً مزموماً حتى نهاية الفخذ ، حيث تبدو سوق ذابت فيها أشعة الشمس ،
وتتكور نهود خلف القمصان ، تنادي بحقها في الحياة ..

جلس أستاذهم البولوني الى مائدة صغيرة ، يدير الجلسات ، ويوجه المناقشات ،
ويسجل الاصوات ، وكان جدول الاعمال يتألف من : بث الشكوى ، والاقتراحات ،
الجديدة ، وتوزيع الاعمال ، وانتخاب اللجان ..
وما قرئت أسماء الحاضرين والحاضرات ، حتى احتدمت المناقشات ، وعنف
الصراخ بين الفتيات والفتيان. وبدأ الشغب واللعب والمزاح ، حتى لقد قال لي صديقي
هامساً : (قاضي الولاد شنأ حالو) !. ورغم أن الاستاذ حازم ، طويل الأناة ،
لا يوجه كلمة جارحة الى أحد الطلاب ، فقد انتهز أحدهم الفرصة ، وهو دمشقي ،
— ابن حلال — ووضع ضفدعة صغيرة على الارض ، جعلت تدنو من قدم الاستاذ
وهي تقفز ، والجميع ينظرون اليها لاهين عن الانتخاب ، باقتسامات مكبوتة ولغظ
صارخ !. وهنالك غلام كان يشاكس فتاة ويداعبها.. فوخزت رفيقي أنه الى ذلك ،
فحرك عينيه نحوها ، فاذا بها سمراء ، فيها كل ما في الشرق من سحر وسر ، تنضح
من عينيها خمرة بابل ، ومن شفيتها تتمات ، لو ترجمت الى لغة سدنة الجمال لكان معناها
تعال وقبلني !.

كان الفتى يداعبها ، ويدعو الى انتخابها ، وهي تتضرج هياجاً ، وشهوة سافرة..
ولا نعلم إن كان في هذه الاساليب ، رشوات ووعود ، أم أنها انتخابات نزيهة .. !
وكانت المرشحة تدل على الفتى ، وتشمخ غراماً ، وتهوراً صادراً عن غريزة الاثني
في دور المراهقة !.

كل هذه المناورات الانتخابية دعت صاحبنا أن يبرز الى الوجود ، ولو نال بعض
المتاعب ؛ فلم يسكن بوسعه ان يتجاهل شفتين توحيان بالقبل ، ونهوداً صلبة ساحرة ،
تصرخ مذعورة تطلب الحماية والوصاية والانتداب !. فانتقل محتجاً بضيق المقعد الى
جانباها !. وقد حدثني فيما بعد ، عن انتصاراته الهائلة في ميدان المعركة ، وأنه اصطدم
مرات ثلاثاً ، بصدرها العامر ، بمرفقه دون عمد — أو عن تصميم — ولعن الله
الشیطان !. وكانت رفيقتها بجانبها ، في شبه نهم جامع الى الرجل ، رغم كثرة
المراهقين في المستعمرة ، وقد وجدت فيه بضاعة جديدة ، فأعطته من عينيها ما ينتظره

من وعود لاجل غير مسمى .! وكان للقوم — كما يزعم صاحبنا — بعض العذر في هذه الاباحية السافرة البارزة .! فهؤلاء فتيات غضات ، بلغت إحداهن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرها ، دون خطيب أو زوج ، وهؤلاء هم شبان وفتيان لهم مثل هذه السن والجسم والقلب ، وجميعهم يعيشون معاً ، ليلاً نهاراً ، حفاة عراة ، تحت أشعة الشمس القوية ، وفي عمل منشط فعال ؛ في الحقل ، وفي المعمل ، وفي الحجرات .. وفي البحر .! فكيف يمكن لأمثالهم وأمثالهن ، أن لا يحظوا ببعضهم بعضاً ، ولو على سبيل التسلية والمزاح ..!!

واستمرت الجلسة بعض الساعة ، وكانت النتيجة أن اتخبت فتاة ، جلب طعام المرضى ، وفقى لتفتيش النظافة ومراقبة المعلولين ، وأخرى لتقدير الاذون والاجازات ومحاسب وخازن وأعضاء لملاحظة الاتجاهات الثقافية والمطالعة ، وفتيات لتنظيم الحفلات .

البحر نسوان (بعضها)

وما كادت الجلسة تنتهي ، حتى دعينا الى زيارة البحر ، الذي يبعد كيلومترين عن (شفائيم) ، فجلبوا لنا (مايوهات) ؛ وها نحن في طريقنا الى الشاطئ ، في موكب من الفتيان والفتيات .. وما هي إلا أمتار من المستعمرة ، حتى خف صاحبنا الى شجيرات التين ، حيث تجري غادته الملهمة الموعودة ، وسار الى جانبها ، فأوشك أن يلتصق بها وهو يحادثها ؛ ولعله ود ان يكون ثوباً من ثيابها ، تستر به عريتها اللذيذة عن الاعين الجشعة الفضولية .! ولا عجب من ذكائه النادر ، فهو أستاذ ماهر ، في نبش الكنوز والالغاز من صدور الغواني ؛ فقد اكتشف في هذه الجولة مع (الجبوبة) ، أنها عراقية بغدادية ، ومن الاراضي الحارة ، فقراً على مسامعها ما قاله امرؤ القيس منذ قديم الزمان : أجاتنا إنا غريبان ههنا .. فنظرت اليه نظرة حيرى وكأنها تقول : وكل غريب للغريب نسيب ..

كان أكثر السابحين والسابحات من العرب (الصهاينة) ، يجرون حفاة على

الكثبان المتوهجة اللاذعة ، المترعة بالشوك ، دون أن يعثروا أو يقفوا هنيهة ، كما
نقف نحن ، لانتزاع الشوك من الاقدام ، فقد اعتادوا في كل يوم ، وفي كل فصل ،
أن يذهبوا الى البحر ، من نفس الطريق ، لينعموا برياضة محبوبة لطيفة .. وقبل أن
نشرف على البحر ، دخلنا غابة من التين ، عشنا فيها تقطف الثمار ، ونملاء البطون
والافواه ، من كل ما هو لذيذ مبهج !.

وكان منظر البحر فريداً في نوعه ، لم تقع أعيننا على مثله من قبل !.
تحميل أيها القاريء كثنائاً عالية من الرمال الحمراء ، بارتفاع ثلاثمئة متر تقريباً ،
تحدّر شاقولياً ، مع بعض الصخور الرملية ، نحو الشاطئ المذهب المتألق .. وليس
ثمة طريق ، سوى منحدر رملي ضيق متعرج جداً ، كانت تغوص فيه أرجلنا حتى
الركب !. وفي أعلى التلال الشاهقة ، بقرات ترعى على شفا الهاوية ، قرب شجيرات
التين المطلة على الجرف تماماً ، الى جانب قرية بعيدة عربية تشرف على اليم ..! وأما
رمال الشاطئ ، فهي نظيفة ناعمة حمراء ، يغسلها البحر منذ ألوف السنين .. ومن
بعيد ، كان الأفق يبدو مغرباً ، حيث تتصل السماء بالماء الأزرق اللازوردي ، ولا
يفصل اليم عن أرجوان الرمال ، سوى صخور بنية عابسة ، وأشباج من الموج الناصعة
تشور مع البحر ، لترسم شريطاً أبيض متعرجاً فوق الرمال الرطبة !.

وبدأ الغانيات يرقصن كجنيات البحر ، والماء يقبل أقدامهن ، وقد تحلقن
حلقات تحت شمس صافية ، وفوق أرض كالعسجد ، وأمام بحر مائج بلون البنفسج ،
وكثيراً ما تركن رقصهن الايقاعي ، وارتعن كيفما اتفق في الماء ، وشعرهن
ينساب على أكتافهن ، أو يتهدل وينوس في الهواء ، وهن يقفزن ويطفين مرة ،
ويرسبن أخرى ، وقهقهاتهن تغلب هدير الأمواج .

جلسنا على الشاطئ ، وافترشنا الرمال ، والموج يضرب أفتيتنا ؛ ونسينا أفكارنا
العامة ، ومهمتنا (الصحفية) فترة ، ونحن نلهو برسم القدود ، والنهود على الرمل ..
فلكم كومناها تلالاً ، تمثل السابحات ، وكم غمرتنا نشوة علوية أنستنا الدنيا وهمومها !.
ولم يغظ صاحبنا سوى اثنين فرامع اثنين الى مكان بعيد .. خلف الصخور !.

وكأنهم يلعبون (التغمية) ، وغابوا عن أبصارنا ، ثم بدوا بعد مدة طويلة .!
فلم فر هؤلاء الخبيثاء الى ذلك المكان السحيق .؟ هل راحوا يلعبون نداء
الجسد أو القلب .. و وراء الصخور .. وفي منأى عن العيون .؟ ربما .! فالغذاء الدسم ،
والرياضة ، والشمس والعري ، هي قنابل ذرية ، ننسف أقوى حصون الفضيلة
والطهارة في تلك الربوع .! ولا عجب إذن ، إن قل المتزوجون والمتزوجات ، وكثير
العزب والعوازب ..

عدنا وماء البحر المالح على أجسامنا لم يجف ، وقصدنا لساعتنا الحمام .. والحمامات
هنالك قسمان ، قسم للرجال وقسم للنساء ؛ وليس للرجال أن يزوروا الاناث ، أما
إذا شئت أنتي ، أن تغتسل في حمام الرجال ، فلفرط أولى بالخسارة ..!
لقد كانت تلك الساعة في الحمام ، تاريخية لا تنسى .. فقد دخل صاحبنا
— بالمايوه — فرأى العيون ترمقه ، وتقيسه طولاً وعرضاً ، فأراد أن يرمقهم ايضاً
وأن يكيّل لهم الصاع صاعين ، فارتد بصره حسيراً كليلاً .! ذلك انه شاهد ، ويا
لهول ما شاهد .! لقد رأى القوم كما خلقهم الله بعوراتهم وعريهم ، فانعقد لسانه
من الدهشة ، وما أكثر ما ينعقد لسانه لأقل سبب .. ولكنه لم يفقد ذكاه ومواهبه ،
لان الحماسة عاودته ، وهاجمه الفهم دفعة واحدة ، فأسرع دون تفكير أو تعاليل ،
يخلع (المايوه) ؛ ولعله شجعتني ايضاً على الظهور بمظهر الاب المحترم (آدم)
— عليه السلام — ائلاً نكون هدفاً لسهام الناقدين ، ومنالاً لتعصبيهم ، وقليل منهم
من يعرف هويتنا تماماً ، — كاسلام عرب — . ثم نعمنا بـ (دوش) لن ننسأه على
مر الايام ، لانه راح أقصوصة الندوات ، وسمّر الرفاق (النكاتين) .!

كتاب مفتوح تجب قراءته

عدنا بعد تعب ورياضة واستحمام ، نلذ بوجبة ثالثة ، ونكثر من الزبد والحلو أيما
إكثار ، استعداداً لجولة واسعة في أنحاء (الكيبوتس) . ولقد لفت نظرنا هذه
المرّة دخول الكهرباء في كل شيء .. دوماً وأبداً .! فكأن الصهيونية ، تريد كهربة

جميع مرافق الحياة في (الكيوتسات) ؛ وما ذلك بغريب عنهم .. فانهم يتقلون الى فلسطين كل ما في الغرب من علم وفكر وعمل .. فالكهرباء هي وجه القرن العشرين المشرق ، ولعل حضارة أمة من الامم اليوم ، تقاس بمقدار تغلغل الكهرباء في حياتها ومرافقها ..

هوذا المطبخ ، وجميع آلاته تدار وتعمل بالكهرباء ، غير انها تجري على مقياس أوسع بما رأيناه في (شفيا) ولو كان الاتقان والنظافة هنا ، أقل ظهوراً وتقشياً من هنالك ، وذلك لاتساع العمل والحركة والنفوس في هذه الديار ، ولأن (شفيا) ليست مستعمرة بالمعنى المفهوم ، بل هي مدرسة لانتاج الشباب العامل بصورة سريعة منظمة .. وأغلب آلات الغسيل ، من صنع (تل أبيب) وكلها تدار بالكهرباء أيضاً ، فتضع العاملة المختصة الماء والصودا والصابون المبثور بمقدار مقنن ، ثم تدير الآلة ساعة واحدة ، وهي تتسع لما يعادل (٢٥) كغ من الثياب .. ولها دورات ثلاث باتجاه ، ثم دورتان باتجاه معاكس ، وثمة آلة لهصص (الغسيل) مؤلفة من وعاء أسطوانتي كبير مثقوب الجدران ، يدور حول محور مرتبط بالآلة متحركة ، ويحيط بهذا الوعاء، وعاء آخر ينتهي من أسفله بصنبور؛ فاذا دار المحرك ، دار الوعاء الداخلي ، فانطلقت قطع القماش الى محيط الوعاء ، بتأثير القوة النابذة فيها ، وعندئذ يتطاير الماء ذرات ، تتجمع في الاناء الخارجي ، ثم تسيل من الصنبور ..!

ويلى ذلك ، حجرات رفء الملابس وترميمها ورقعها وخباطتها وكيها ، فترى قسماً منها لألبسة المراهقين العرب ، وقسماً للأطفال ، وآخر للبنات ، وغيره للاغراب من غير العرب .. وترى الى جانب هذه الحجرات ، معامل النجارة الخاصة بصنع لوازم المستعمرة الخشبية ، فتؤمن مطالبها من أسرة ومقاعد ، وأخشاب بناء وأبواب وغيرها على أكمل وجه ..

وهنالك معمل ، يصنعون فيه نوعاً خاصاً من الأحذية للزراع ، لا تدق فيه المسامير الحديدية ، بل تستبدل بمسامير خشبية وخيوط .. ولعل هذا النوع مما يوافق الحياة الريفية موافقة تامة فلا يفنى ولا يبلى .. وتذكر صاحبنا عندئذ ، قرويات أرباض

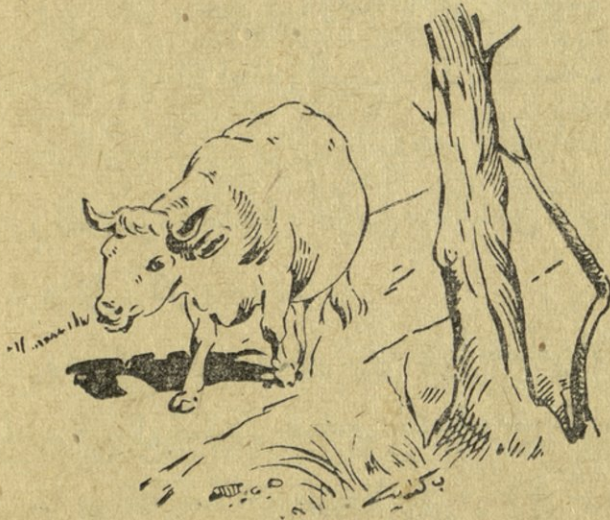
دمشق ، حينما يهبطن المدينة فيخلعن أحذيتين لثلاً تهرأ في الطريق ، ولأن الطريق نفسها أنظف من دورهن ، عدا أن جلودهن تجدد دوماً بلا ثمن ، أما الأحذية فتجديدها يتطلب الثمن المضمون !.

ولقد كانت أعمال البناء ، قائمة على قدم وساق كالعادة دوماً ، ذلك أن المستعمرة في اتساع مستمر ، لا تقف عند حد ، فكما استولوا على قطعة من الارض ، أصلحوها وأحيوها ثم قتشوا عن غيرها ، ولذا فالبناؤون يعملون طيلة الايام بصب القوالب الاسمنتية المفرغة ، ليستطيعوا بناء حجرة في ساعات معدودات . . . فلقد يصل المستعمرون الى الارض صباحاً ، فترى في المساء قرية كاملة ظهرت للوجود ، أما أبنيتهم هناك فهي مريحة وصحية وعملية ..

وانتقلنا في أرجاء المستعمرة ، فشهدنا خمرة الدواجن وأقفاصها ، فيها البط والاوز والدجاج ، وقد أنشئت أقفاصها بطريقة تمكن من أخذ (السرقين) ، وذلك بجعل أرض القفص من شريط تمتد تحته ألواح واسعة متحركة ، يسحبونها حينما يريدون ، ويجمعون من فوقها السرقين المتراكم .. ذلك السماد الطبيعي الغني ..

ثم زرنا الاسطبل ، فوجدناه أقل ترتيباً مما شاهدناه في (شفيا) ؛ غير أنه لا يقل نظافة. وكذلك مكان الاستحلاب ، ففيه مفرزة يدوية ، وأوعية معدنية نظيفة .. وهناك مكان خاص بالعجول ، ولكل عجل اسمه الذي ينادى به ، وقد شاهدنا

الى جانب كل ذلك حجرة خاصة
بثور ضخمة يدعى (ثشرشل)
— كذا — أنسانا منظره ثور
(شفيا) ، وتلاصق حجراته
حجرة ثور آخر أضخم منه
يدعى (بودا) .. وهما مخصصان
للانسال) والقيام بشئون
الحريم !.. ولعل خصيتي أحدهما



البيضاوين ، تجعل الرائي ينشط الى ذكر أجراس الفضة المتألقة ، بالنسبة اسواد
جلد الثور الدامس ونظافته .! ثم سرنا لمتع البصر بحريم الثورين : البقرات
العزيزات ، وكان اسم كل واحدة منهن فوقها ، فهذه هي (هيلانة) ، وتلك هي
(تيكفا) ، وهذه (دينا) ..

وتحلب البقرة هناك ، ثلاث مرات في اليوم ، وفي كل مرة تدر ما لا يقل عن
سبعة لترات أو ثمانية من الحليب . وتقدم اسطبلات البقر حسب السن والنوع ...
فهناك نوع يقتمى لحايه فقط ، ونوع للحمه ، ونوع للجرب والاعمال .! ولبعض
البقر الحلوب عندهم أنساب طويلة عريضة .! فمنها الارستقراطي الاصيل بشهادات
رسمية ، ومنها المجهول الوضع .. ولعل النظام الارستقراطي ، أو البورجوازي لحق
طبقة الحيوان اليوم أيضاً .!

وأعجب من كل ذلك — وليسمع سكان الأرياف — أنهم جعلوا مكاناً خاصاً للسفاد
بين البقر .. فتدخل البقرة في مكان محدد بالأنايب الحديدية الضخمة ، فتحجز فيه ،
وتربط من رقبتها ، عدا مؤخرتها النائثة عن المكان ، مستعدة لمقدم الزوج السعيد ،
ولا فرق هنا بين (تشرشل) أو (بودا) إذ يجب أن لا يخيب رجاء اصحابه في عملية
الالاقاح ؛ غير انه يجب ان لا ننسى أيضاً بأن مكان الزوج الطيب أوسع مما للبقرة ،
بالنسبة لضخامته ولتقتضيات الفن . ، فكأن إطارها ضمن إطار الزوج العتيد .!
وأخيراً ، هاكم معاطن الإبل ولا شيء فيها يستحق الذكر والاعجاب ..

وعندما وصلنا أقصى المستعمرة ، وقف الجمع أمام مقبرتها خاشعين خاضعين ،
فهني عندهم — كما حدثونا — رمز العمل المتواصل ، والكدح المخلص .! فهنا يرقد
من قضاوا في سبيل الواجب ، ممن هجروا بلادهم ، وهبطوا أرض الميعاد ، وعملوا في
الأرض المحبوبة ، التي ضمتهم إليها في النهاية ؛ واحتوتهم في جوفها آمنين .. واقد
قالوا : إن أكثر من مات في أوائل تأسيس المستعمرة كانت ميتته بسبب فتك
الحيات ، ولدغات الثعابين ، والتعرض للاعصاب .!

وكان الى جانب المقبرة ، منحلة فنية ؛ وهي أول ما شاهدناه من أمثالها في

المستعمرات .. ففيها مئة وستون خلية مصنوعة من الخشب والتوتياء . بذوق فنان ،
وتوصية عالم !. وأمام المنحلة جام من البلور ، فيه نماذج من الخلايا ، ومقادير من
العسل والشمع والنخاريب . ويصفي العسل بجوار المنحلة ، في غرف خاصة مبنية
بالاسمنت المسلح ، ولا يحتاجون في إخراج العسل الى دخان أو غيره لطرد النحل ،
وإنما هم يضعون في أصل الخلية رفوفاً ذات شبك وأطر ، يتجمع عليها العسل والشمع ،
ويكفي أن تسحب هذه الاطر ليُجنى ما تراكم فوقها ، ثم ترجع الى أمكنتها ..!

وحدثنا أخدم بقوله : إنهم مستعدون لتقديم العسل ، بمذاق مختلف الطعم
والنكهة ، فإذا شئت عسلاً ، ذاطعم وردي ، أو صعترى ، أو (يوسفي) ، فمعليك
إلا أن تضع الخلايا ، أمام حديقة ذلك النوع ، المرجو من الزهر !. لأن النحل
يتغذى منه ، فلو امتص رحيق الزنبق ، أو البنفسج ، فإن عسله يصبح ذا عبق
زنبقي أو بنفسيجي !.

وللمرة الاولى بدأنا نتجول في (بيارة) أو (پارديس) . فقد كانت الاشجار
قليلة الارتفاع ، خضراء الأوراق ، لا تعثر فيها ، على أغصان ذابلة يابسة ، أو ورفات
ذاوية ، وإنما هي في خطوط مستقيمة هندسية ، تسقى بواسطة النوافر اللولبية حيناً ،
وبأنابيب ضخمة من الاسمنت المستور تحت التراب ، حيناً آخر . . . وكان الماء
— عندما فجره أمامنا — يتدفق منها ، بقدر وافر ، دون ان يضيع منه شيء ، في
الاءخاديد التي تندر هناك !.

وفي هذه (البيارة) — ولعل الاسم مأخوذ من بئر ، نسبة الى الآبار التي شقها
ابراهيم باشا المصري — من الحوامض ما يدعو الى الاعجاب . . فرغم أن الثمر لم
ينضج بعد ، فإنه كان كبير الحجم ، جميل الشكل . وإنك لتجد فيها الليمون ،
والكريفون ، واليوسف ، والفلانسيا . . وكل نوع في قسم من الأرض على حدة ،
للعناية به حسب خواصه . . .

ولم نر في أرض (البيارة) حشائش طفيلية ، لأن القوم يحرقونها مع الأرض
دوماً ، فتصبح أسمدة طبيعية ممتازة . ولا بد لك من ان ترى حول كل بيارة ، سوراً

من أشجار السرو ، يحدق بها ، ليكسر من حدة العواصف ، وبقي الأشجار من كل سوء .

أرختي الليل سدوله علينا ، ونحن بين أشجار البرتقال والليمون . . . فعدنا وفي نفوسنا جوع ، لم ندر من تفسيره سوى أن نكيفه ونحوه الى جوع البطون ، لننسى قليلا ألم الغيرة ، والنقد ، والشعور بالنقص . . . فدخلنا المطعم . . . ولاحظ صاحبنا أن هنالك امرأة رومانية ، أيستمتها الحياة ، في هذه المستعمرة — كغيرها من الرومانيات — فبدأ على سبيلها ، شحوب وكهد وقنوط . . . فكانت تشرب الشاي ، الساخن الخفيف ، دونما سكر ، — كالعادة — ثم تمضغ معه (مرملاد) السفرجل ، والحزن يزداد على محياها ، كلما أوغلت في الشراب . . .

وهكذا استطاع صاحبنا ان يكتشف ثغرة جديدة ، في حياة الصهيونية . . . فها هي واحدة من عشرات الآلاف تجرع غصص الآلام ، وتشمئز ، ويبدو من محياها أنها تتعغي شيئاً . . . إن سكان المستعمرة ، ليسوا سواء في البهجة والانشراح ، ولن يحيا الانسان بالخبز وحده ، وإنما هنالك قيم معنوية ، يلتصقونها في هذه الربوع فلا يقعون لها على أثر ، فهل يعنى ذلك ، أن بعضهم يريد العودة الى المدن ، وحياة المدن .؟ أم أنه يتمنى العودة الى وطنه وبلاده ، ولا يجد عن ذلك بديلاً .؟ سؤال عجيب ، ستجيب عليه السطور . . .!



الهستدروت قوة

— فجارها أيتها العربي —

أخبرنا بعضهم ، أنهم سيعرضون الليلة ، شريطاً سينمائياً في المستعمرة ، فلنستعد لحضوره .. فهناك سينما متنقلة ، جواله ، بين المستعمرات ، تعرض الافلام ، دون أجر أو ثمن .. وقد تمر بهم أيضاً ، فرق تمثيلية ، تضم أشهر الفنانين والفنانات من بني صهيون ، لترفيه عن السكان ، وتشجيع فيهم ، جواً من السرور والحبور ، يستعيدون به نشاطهم وقوتهم ، للنضال والعمل ، في هذه الاكريف النائية .. وقد يستدعون أحياناً بعض الفرق الرياضية والبلهوانية ، فلا يتركون مظهرأ من مظاهر الترفيه والتسلية ، مما يوجد في المدن إلا وأتوا به ، لئلا يعيشوا في عزلة عن العالم ، وهم بهذا العمل يفتلون آثار المدينة ومعالمها الى المستعمرة ، فلا تقطع صلتهم بها ولا يبتئسون !.

فهل سمعت أيها القارئ ، أن قرية من قرانا تزورها السينما ، أو فرق التمثيل والرياضة .؟ وهل تحسب أن الأمر تافه لا قيمة له .؟ لا .. لا .. إياك وأن تظن ذلك ، حتى لا أتهمك بالرجعية والتقهر ؛ فان تأثير السينما في العصر الحديث ، هو فوق الجدل ، والتمثيل مدرسة الشعب ، والرياضة خالقة الابطال !.

ولقد قادنا الطلاب ، أو بالحري عمال المستعمرة الشباب ، من العرب الصهيونيين ، الى شخصية من شخصياتهم المسؤولة ، ورجالهم العاملين ، لتحدث اليه ، ريثما يحين وقت عرض الشريط ..

وكان شاباً دمث الطباع ، لين الجانب ، على درجة كبيرة من الثقافة والاطلاع ؛ يتقن ثلاث أو أربع لغات حية بينها العربية !.

وجلسنا نسمّر وإياه ، في شرفة تُطل على الحدائق والبيوت ، فاذا بآرائه ، صدئي
لآراء زملائه الآخرين ، في المستعمرات ، وتعبّر عن الصهيونية وأهدافها بأجلى بيان ..
واتهزنا الفرصة المناسبة ، وانهلنا عليه بفيض من الأسئلة عن حياة المستعمرة ،
وإدارة شؤونها وعلاقتها بالدولة ؛ فما ضن علينا بما تحوي جعبته من المعلومات ،
فقال : إن لكل (كيبوتس) لجنة إدارية خاصة ، تنتخب سنوياً على درجة واحدة ،
يشترك في ذلك الإناث والذكور . أما عدد أعضائها فيكون حسب ضرورة الأعمال
المطلوب إنجازها ، وبنسبة السكان ؛ على أن لا يقل عمر العضو عن الثامنة عشرة ،
وتبدأ اللجنة أعمالها في رأس كل سنة عبرية .

إن كل (كيبوتس) — مستعمرة — هي مسجلة رسمياً لدى الحكومة ، باسم
(جمعية تعاونية زراعية) . ولكل منها ، أمين صندوق ، ومأمور أشغال وتنظيم .
أما المسئول رسمياً تجاه الحكومة عن كل ما يحدث في المستعمرة ، من ولادات ، أو
وفيات ، أو حوادث .. فيدعى (مسكير) أو المختار ... وهذا هو الذي يتولى دفع
الضرائب الى الحكومة ، عن المجموع دفعة واحدة حسب تقدير أولي الامر . فكأن
كل فرد منهم مساهم في إنماء المستعمرة .. والمال هو للجمعية .. فمن شاء أن يغادر
(الكيبوتس) فليغادره دون أن يأخذ شيئاً ، وأما من أصبح عاجزاً فتجري عليه
النفقة ... !

والمستعمرة حق التملك ، بصفتها شخصية معنوية ؛ وعندما تؤسس تسجل في
دوائر الحكومة ، ويداع أمرها في الصحف ، ويعلن عن يفوض بالتوقيع عنها ،
والتعاقد باسمها ، فكأنه المدير المسئول في الشركات التضامنية أو المساهمة التجارية .
وإن (المستدروت) تسعف المستعمرات بتأمين حاجاتها ومطالبيها ، لانها تملك
الكثير من العناصر الفعالة في هذا السبيل .! فهي تتدخل في كل شيء ، ومن يشترك
في الغنم يصبه الغرم .! وعلى هذا فهي تصادق على موازنة كل مستعمرة ، وتقدم لها
المشورة في زيادة الحاصلات والانتاج ، وترسل من لديها دون سابق إخبار ، كل
أربعة أشهر مفتشاً ليدقق حساباتها ، ويراقب الدخل والخرج .! أما الانتاج فغالباً

ما يستهلك في المستعمرة ذاتها ، وأما الفائض عن الحاجة ، فثمة جمعيات خاصة
كمؤسسة (تنوفا) مثلا تعنى ببيع المحاصيل الزراعية . . . وبهذه الطريقة تمتنع المضاربات
والمشاكسات ، وتسهل على كل مستعمرة معاملاتهما ؛ ولا يبقى الفلاح تحت رحمة التاجر . .
وهنا همس رفيفي بصوت مرتفع قليلا : ليت تجار (سوق الهال) عندنا يعرفون
ذلك ، أو ليتنا نسعف الفلاح بعشر المؤسسات ، أمثال (تنوفا) وغيرها .؟ ثم
تابع المحدث :

أما ما يحتاجه (الكيوتس) فيؤمن من شركة خاصة . ترتبط كذلك بالمستدروت ،
تسمى (هاماشير) . . فهي تقدم المواد الاولية ، وكل ما يلزم المستعمرة من
رؤوس أموال ، حتى إذا ما ربحت أرباحاً طارئة ، أعادت توزيعها على المستهلكة
من المستعمرات ؛ وليس في ذلك إضاعة وقت ما ، أو مساومات باطلة . . . وحسابات
لا يعلم فحواها إلا الله . ! وكل ذلك تشرف عليه (المستدروت) كما تشرف على
مطالب المستعمرة الصحية ، فتؤمن لها الاطباء الجوالين ، وأطباء الاسنان ، والبيطرة ،
والمهندسين . . أما واجب المستعمرة هنا ، فهو أن تدفع لقاء هذه الخدمات مبلغاً معيناً
من المال . . .

ثم سكت المحدث ، والطلاب يرمقونه باجلال واحترام . فسألناه عن هذا
(المستدروت) الذي يتدخل في كل شأن من شؤون المستعمرات ، والذي تردد
ذكره أكثر من مرة في حديثه ، فأخرج سيجارة وأشعلها ، وجعل يعب منها
بصورة متواصلة ، لعله يستجمع نقاط بحته ، ثم قال :

مضى على (المستدروت) خمسة وعشرون عاماً ، منذ نشأتها في (تل أبيب) ،
عام ١٩٢٠ . وأنا أعتقد ، بأنها أعظم منظمة اجتماعية للعمال في الشرق الادنى كله . .
ولقد كان تقدمها نتيجة لعوامل خارجية مختلفة ، ولمساع مستمرة ذات هدف معين ،
يعنى به الشعب اليهودي . وهي تقوم اليوم بتحقيق غايات قومية خاصة ، وخدمات
فلسطينية عامة ، كما أنها ذات اعتبار دولي باهر باشتراكها في الاتحاد الدولي العام
لنقابات العمال الكائن في لندن ! . .

وقد بلغ عدد أعضائها في عام ١٩٢٥ : (١٥٢,٥٠٠) عضو أي ٧٥ ٪ من
جميع عمال اليهود في البلاد . وكانت خلال هذه الحرب ، تشمل زيادة على ما ذكر
(٢٥٠٠٠) عضو ! .

إن في فلسطين (١٤٥) قرية زراعية صهيونية ، ينتمي جميع من فيها الى
(المهستدروت) ، ويبلغ عددهم نحو (٥٠٠٠٠) نسمة . وقد أنشأت خلال هذه
الحرب أيضاً (٤٨) قرية جديدة ..! ويشغل نحو خمسة آلاف عامل وعاملة في
المشاريع الصناعية ، التابعة للعمال وللمهستدروت ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة .
أما هذه المشاريع ، فأكثرها منظم على طريقة شركات تعاونية .

هذا وقد أنشأت (المهستدروت) شركة خاصة تدعى (كور) ؛ وذلك لإدارة
هذه المعامل والإشراف عليها . ولا ضرب لكم مثلاً عن اهتمام (المهستدروت)
بالعمال ومصالحهم .. فقد أضربت خلال الحرب نحو (٥٠٠) اضراب ، اشترك
فيها ما لا يقل عن (٢٥) ألف عامل وعاملة ، في سبيل العمال ورفع مستواهم المعاشي .
ولذا فنحن نفخر بها ، وهي تفخر أيضاً بما تقوم به من المساعدات المتبادلة ، وذلك
بتضامن أعضائها ، ضد الأمراض والبطالة وغيرها ! . حتى أنهم يدفعون لورثة العامل
المتوفي خمسين جنيهاً كتعويض رسمي سنوي ..

وللمهستدروت .. صندوق تدعوه بصندوق المرضى ، وقد اتسع كثيراً ! وأسست
له فروع عدة في أطراف البلاد جمعاء ، حتى أصبح يمتلك اليوم ثلاثة مستشفيات
كبيرة ، ومصحات عديدة للنقاهة والاستراحة ، وإن لمحة واحدة تلقى على مشفى
(بيلينسون) التابع للصندوق المذكور ، تذكر بنبايات هوليوود ، وحداثيق
لوكسمبورج ، وغابات بولونيا في باريس ! ..

ولكل مشترك الحق في العلاج الطبي الكامل ، ولكل من بلغ الستين من العمر
معاش شهري ؛ يدعى معاش الشيخوخة .. ويدفع العمال ومؤسساتهم نحو ٨٣ ٪
من نفقات (صندوق المرضى) أي ما يعادل ٦ ٪ من أجره العامل ، يدفعها اشتراكاً
شهرياً ؛ أما المرأة فتدفع قليلاً من أجرها لقسم النساء ! . هذا وقد بلغت موازنة هذا

الصندوق عام ١٩٤٥ مقدار (١,٣٧٠,٠٠٠) جنيه فلسطيني . وكان دخل صندوق البطالة في السنة الاخيرة نحو (٢,٠٠٠,٠٠٠) ج ف .! ومن جملة الاعمال ذات العلاقة بالمساعدة المتبادلة أيضاً ، صناديق (الاقراض والتوفير) وعددها عشرون صندوقاً ، وتضم نحو (٢٨) ألف عضو ؛ أما الرأسمال الذاتي لها فهو : (١٦٠,٠٠٠) ج ف .! وعندما رأى الرجل ، أمارات الاستغراب ، والانتباه الشديد ، تبدو على وجهينا تشجع ولذ له الحديث فمضى قائلاً :

وقد تدهشون اذا قلت لكم ، بأن بين منظمات (المهستدروت) شركة للتأمين تدعى (هَسَنَه) ، وأن عدد (بوالص) أسهمها التي صدرت حتى اليوم هو : (١٣٤٤٢) بوليصيه وقيمتها (٢,٨٠٧,٠٠٠) ج ف .! ثم رشف سيجارته وتابع : وتقوم (المهستدروت) بمشاريع هائلة ، في سبيل إسكان العمال ... إذ يستطيع العامل والموظف الحصول على مساكن صحية رخيصة كل حين . فقد أعدت شركة (شيكون) المهستدرومية ، مساحة من الارض ، تكفي لاسكان (١٣٠,٠٠٠) عائلة ...!! وستبني الشركة أيضاً في هذه السنة وما يليها (١٦٥٠) منزلاً ، سيكلف بناؤها مليون جنيه فلسطيني .!

أما بنك العمال ، الذي يمنح القروض المشاريع فقط ، — لا الافراد — فان رأسماله الذاتي ، يزيد على (٣٠٠) ألف جنيه فلسطيني ، وتنفيد ودائعه على المليونين من الجنيهات . وعلى هذا يمكنني القول بأن المشاريع العمالية ، مدينة للبنك المذكور الآن ، بما يزيد على مليون جنيه فلسطيني ، منه الثمان للقرى الزراعية العمالية ، وأكثر من مئة ألف جنيه فلسطيني للشركات التعاونية ، وصناديق الاقراض .. وهناك شركة (نير) . وهدفها مساعدة القرى الزراعية ، وذلك بأن تمنحها القروض ، على سبيل توسيع الزراعة بشتى الوسائل . كتنظيم الري ورفع مستواه الفني ، وإنشاء مخازن للغلال ، ومشاريع التبريد ، وأحواض السمك .! أما رأسمال هذه الشركة ، فيبلغ (٨٠٠) ألف جنيه فلسطيني . ومن البدهي أن الفائدة لهذه الشركة هي أقل مما تتقاضاه المصارف العادية ، حتى نفس مصرف العمال ..

وهناك شركة أخرى للمستدروت، خاصة بالمقاومات الكبرى تدعى (سوليل بونيه) أنجزت أثناء الحرب، في فلسطين والبلاد المجاورة، أعمالاً لا تقل قيمتها عن مليوني جنيه فلسطيني. أما فروعها الصناعية، فقد أنجزت أعمالاً تقدر بـ (٨٠٠) ألف جنيه فلسطيني ..

تعب المحدث من حديثه، وتنهّد، ثمّ قدم لنا بضع سجائر، اعتذرنا عن تناولها لعدم اعتياد التدخين .. واستراح قليلاً، بينما قال أحد التلاميذ من العمال: إن للمستدروت دائرة خاصة بالمقاومات الزراعية فقط، وتدعى (ياخين) .. لأن الحركة التعاونية (المستدروتية) واسعة جداً وكثيرة الفروع .. فهي تشمل شركات الإنتاج، والاستهلاك، والاقتراض، والنقل، وغير ذلك .. فمثلاً شركة (تنوفا) الزراعية التعاونية التي ذكرها (الرفيق) - وأشار هنا إلى الرجل - باعت من الحاصلات في السنة المنصرمة ما ثمنه خمسة ملايين جنيه فلسطيني تقريباً؛ كما باعت شركة (همشير) الزراعية الاستهلاكية محصولاتاً لعضائها، بما يقدر بثلاثة ملايين جنيه فلسطيني؛ وهذه الشركة مشاريع صناعية مختلفة، يشتغل فيها مئات عديدة من العمال؛ حتى لقد ساهمت فعلاً بشراء معمل (شيمن) بنصف قيمته ..! وهنا افترتغر محدثنا الأول، فكأنه سرّاً لثقافة العامل الصغير، فجعل يرت على كتفه باسماء، ثمّ قال بعد أن أشار على التلميذ بالصمت:

وفي المستدروت نحو (٧٠) ألف عضوة، ولها دائرة خاصة للعناية بالعاملة وشؤونها، كما تعنى بالشباب العامل - حتى السن الثامنة عشرة - المنظم في نقابة تشمل (١٣) ألف فتى وفتاة؛ وتقوم المستدروت بمشاريع علمية وثقافية واسعة ... فليها (٢٠٧) حدائق الاطفال، و (١٣٥) مدرسة ابتدائية تضم نحو (٢١٠٠٠) تلميذ وتلميذة، . وجلها من طراز مدرسة كيبوتس «جبع» من حيث البناء والهندسة، حتى ليحسبها الرائي دار (أوبرا) تحيط بها أشجار السرو والاكوكاليبتوس من كل جهة .. وثمة دار المعلمين والمعلمات الخاصة بالمستدروت أيضاً، وعدد من المدارس الثانوية والفنية من صناعية وزراعية .. كمدرسة الصناعة (ماكس فاين) للاحداث

ومدرسة الزراعة لتدريب الفتيات في (تل أبيب) . . وكلها تعتبر نماذج حديثة
للمدارس بصورة عامة .

وهكذا فأتت تريان : أن من أهم نقاط القوى فينا ، أننا نعمل دوماً في سبيل
المستقبل ، لا الحاضر فقط . . إن كل طفل عندنا ، تتعهد مربيات مختصات بالحضانة ،
وتسليم ستة أطفال الى امرأة تعنى بهم ، خير ألف مرة من انشغال أمهاتهم الست بهم . !
فنحن نرسل خمساً منهن الى العمل ، لنترك الاطفال للمرأة السادسة . . وهذا غاية
الاقتصاد في الجهود البشرية واستغلالها . ! وعند المساء ، وبعد العمل ، يستطيع
الأبوان ، أن يحملا أطفالهما الى العيش العائلي . واذ بلغ الطفل سنتين ، أرسل الى
رياض الاطفال ، ولا عمل له هنا ، سوى اللعب والغناء والرقص في الهواء الطلق .
ويمكث في هاته الرياض حتى الخامسة من عمره ، ثم يدخل بعدئذ مدرسة (الكيوتس)
الابتدائية . . ! أما برامج التعليم عندنا ، فهي لا تختلف عن المواد المدرسية في دور
الحكومة والمعارف ، غير أننا نترق في أساليب التدريس ومناهج التعليم . . فنحن
نقسم الساعات اليومية الى مادة أو مادتين من الدروس . ذلك أننا ندرس مثلاً القراءة
والحساب بصورة مستمرة ، أما التاريخ والجغرافيا وغيرها من الدروس ، فنسير بها
على طريقة دورية ؛ فندرس التاريخ وحده ، حتى تنتهي مادته المقررة ، لكل فصل
على حدة ؛ ثم ننتقل الى الجغرافيا ، وهكذا دواليك . . ولقد أثمرت عندنا هذه
الطريقة ثمرتها ، وآتت أكلها ، ونحن عنها راضون . ؟ وأكثرت المستعمرات ترسل
أبناءها الموهوبين بعد إتمام دراستهم الابتدائية الى المدارس الثانوية في (تل أبيب) فيلاحظ
المشرفون على المستعمرة الطلاب ، ويدرسون مواهبهم وميولهم ، للاستفادة منها ولو
كانت تلك الموهبة لا تفيد (الكيوتس) مباشرة ، كأن يكون الميل الى الموسيقى
أو الرسم ، لاننا نستفيد عندئذ من ذلك بصورة غير مباشرة . . وتتم الدراسة في
الجامعة العبرية لمن أراد وكان مستحقاً للانفاق عليه . . !

والتعليم عندنا بسيط التناسول قوي الهدف . . إذ أن غايته إيجاد رأس مرتب
للعمل الصناعي والزراعي فقط ، ليكون أداة صالحة للتفكير والانتاج . ! فالعلوم التي

تفيد الطالب في آيات أيامه ، وتجعله مواطناً نافعاً شريفاً ، هي تلك العلوم التي يهضمها
ويتحملها دماغه حقاً بصورة ملائمة .! فليس القصد من المدرسة حشو ذهن الطالب
بمالذ وطاب للكبار الهرمين من أنواع التفكير والثقافة .! فهمس بي صاحبي قائلاً :
لقد ظلت الحال في سورية تجري أمداً طويلاً على طريقة (حشو الذهن) الاستعمارية ،
وما زالت كذلك وإن اختلف العرض ، وأصبح الشكل غير الشكل ، والترتيب
غير الترتيب .! وما ذاك الخطأ الناجم إلا عن الاعمال الارتجالية التي تحمل
مسئولياتها رجل واحد ، أو رجال غير أكفاء لكثرة ما يحملون من أعمال .. وعاد
المحدث يقول :

أما الشهادات التي يتناولها الطالب ، عقب انتهاء تحصيله ، فهي شهادات بسيطة لا
زخرف فيها ولا طلاء ، حتى ولا ورق صقيل ؛ ولو أسعفك الحظ وشاهدتها ، لضحكت ،
كما ضحك بالأمس ، حاجي بابا أصفهاني ، حين زار (لندن) وأبصر الانكليز . .
فهي بضع كلمات تشير الى أن الطالب قد أنهى دراسته واختصاصه ، مع التوقيع
والتاريخ ، على الآلة الكاتبة .. فالمدرسة والعلوم لم تخلق لمنح الشهادات ، بل لخلق
جيل من المواطنين الواعين ، جدير الحياة ..

وعدا ذلك ، فقد أوجدت (الهستدروت) ، مدارس ليلية ، لتوفير التعليم في المدن
للعمال الاعميين أو أنصاف المتعلمين ، ممن لم يكملوا دراستهم بسبب نقص الوسائل المادية
لديهم أو لسبب آخر ؛ كما أنها أوجدت دائرة خاصة لتثقيف البالغين بواسطة المحاضرين
الجوالين في البلاد ، وبواسطة الجوقات الموسيقية والمسرحية . وقد تدعو (الهستدروت)
أحياناً فريقاً من العمال للاستماع الى محاضرات معينة طيلة يوم كامل ، أو يومين أو
اسبوع فأكثر . كما تصدر كراسات في شتى المواضيع . وللهستدروت جريدة يومية
تدعى (دافار) وهي أكبر صحيفة في فلسطين سعة وانتشاراً ومادة ؛ كما أنها تصدر
مجلة اسبوعية خاصة بالاولاد . وثمة كثير من المنظمات (الهستدروتية) تقوم باصدار
نشرات ومجلات يومية وأسبوعية وشهرية .. وهناك فرع لتعليم اللغة العبرية للهاجرين
الجدد من العمال ؛ ولقد كان عدد طلابه في السنة الاخيرة (٤٠٠٠) تليد وتليدة .

وكذلك نحاول تفهم العرب ودراسة لغتهم ؛ فاللغة العربية تدرس في جميع المدارس اليهودية ، والوكالة نفسها تمنح المكافآت والجوائز للمدارس التي تتفوق في تدريس العربية ، ونعلم الكبار عادات العرب وتقاليدهم وقوانينهم ؛ بينما لا توجد مدرسة عربية واحدة تدرس اللغة العبرية . .

وهناك دائرة تدعى (عم عوييد) أي شعب عامل . وهي تختص بتأليف الكتب ونشر التراجم ؛ وقد نشرت في السنة الاخيرة ، نحو مئة كتاب اختص بعضها بالنشء الجديد .

ولعلكم سمعتم بالفرق التمثيلية للعمال المدعاة (أوهل) .؟ فقد نشأت هذه الفرق بمساعدة المستدروت ، فقامت بدورها حق قيام ، ولا عجب من ذلك طالما أنها تتمتع بمستوى رفيع في ميدان التمثيل . . أما مواضعها فلا تخرج عن المواضيع العمالية العامة اليهودية !.

ولا تكتفي (المستدروت) بالتربية المعنوية للشعب اليهودي ، بل تعنى أيضاً بالتربية البدنية . ولذا فقد أنشأت جمعية رياضية ذات فروع عدة في البلاد ، تحت اسم (هبوعل) أي : العامل . وهذه الجمعية توشك أن تصبح أكبر جمعية من هذا النوع في فلسطين ، فتشمل فروع الاحداث ، وتعنى بكافة أنواع الرياضة البدنية . وللمستدروت عناية خاصة بالسياحة والترفيه عن الشعب العامل اليهودي . فلها دائرة لتعزيد السياحة والتزهة في أطراف البلاد لتنشيط الحال المعنوية والجسمية لدى العمال . . ورغم أن الحرب قد قيدت من هذه الحركة ، فإن ثلاثة آلاف عامل وعاملة ، اشتركوا في السنة المنصرمة ، في نزعات نظمها هذه الدائرة . .

وهنا ، اعتدل المحدث في جلسته ، وكأنه يريد أن يبدي أمراً جلالاً فقال : إن المستدروت تؤيد (اتحاد عمال فلسطين) في مساعيه لرفع شأن عمال العرب ، بواسطة (الدائرة العربية القائمة) كأحد فروع اللجنة التنفيذية للمستدروت . وإن الاتحاد المذكور ، يعد في طليعة الجمعيات ، لتنظيم العمال العرب ، في ميادين شتى ؛ وغايته التنظيم المهني البحت ! . .

وتصدر المستدروت صحيفة عربية تدعى (حقيقة الامر) لتظهر غايتها للعرب
وأعمالها .. ولكي تتكون عندكم فكرة عن نمو (المستدروت) ، ومدى قوتها
التنظيمية ، يكفي أن أذكر لكم مبلغ (الرسوم الموحدة) التي دفعها الاعضاء في
هذه السنة ، لصندوق المستدروت .! فقد بلغت (١,٢٦٥,٠٠٠) جف .! وهنا
قال صاحبنا : بيد أن الظروف السابقة لم تكشف عن نوايا الصهيونية التي تدعوها
وتزعمون أنها في صالح العرب ؛ كما تقول عن تأييدكم لرفع شأن العامل العربي .. فان
هذا القول يخالف الواقع تماماً .. و.. فقاطعه السيد .. في حديثه وقال :

لا ، لا .. أبداً ، إن هذه القوة التنظيمية العظيمة ، مستعدة لمديها للعامل
العربي وإرشاده ، فقد أنشأت عام ١٩٣٤ (عصبة عمال فلسطين) التي تضم بعض
العمال العرب والارمن ، ولهذه العصبة تسعة فروع ضمت حوالي (٢٥٠٠) عامل ؛
لهم حق الامتياز في العلاج المجاني ، وصندوق الاخاء ، وهي تحت إشراف (مجلس
عمال حيفا) التابع للمستدروت .

إن أعمالنا في المستدروت تهدف الى ايجاد مجتمع جديد في فلسطين ، يقوم على
قواعد عمالية اشتراكية ، بواسطة كفاح الطبقات من جهة ، ثم بواسطة المشاريع
العمالية البحتة من جهة اخرى .!

هل بمعنى الخنزير بين العرب واليهود ..؟

قال صاحبي: ولكن.. ربما كان مستحيلا على أي عربي ، أن يعتبر (المستدروت)
مخلصة للعرب ، أو تعمل لصالح العرب وعمالهم ؛ فان صكوك التعهد التي يوقعها
المستعمرون الصهيونيون (للكارن كايمت) أو (للكارن هايسود) ، بعدم تشغيل
أي عامل عربي في المستعمرات الزراعية ، هي حجة على سوء نية الصهيونية ، كما أن
الاعتداءات الكثيرة ، التي تقوم بها الحاميات الصهيونية ، على كل عامل عربي ،
يعمل عند يهودي ، هي أشهر من أن ندلك عليها ؛ وعلى هذا يرى العرب كافة ، أن
المستدروت ليست سوى أداة استعمارية صهيونية ، توجه سهامها الى قلب العامل العربي .!

إنها ترفع العامل الصهيوني على بطالة العامل العربي ، وتضحى هذا الأخير في سبيل سعادة الاول .. فسكت الرجل شارداً ذاهلاً ، ثم تابع حديثه فقال :

أنا لا أعتقد بوجود هذا العداء بيننا ، بل اني أوقن بأن عدم التفاهم الموقت

بيننا ، إنما هو ناشئ عن اختلاف وجهتي النظر للقضية الفلسطينية لكل من الفريقين !

إن جهل كل منا الآخر ، وأورثه عدم الثقة به ، ومن هنا نجحت المشاكل المستعصية

خلال خمسة وعشرين عاماً .. فالعرب يعتقدون ان اليهود غرباء متطفلون !! واليهود

يعتقدون أنهم أصحاب حق مستند الى وثائق دولية ، واعترافات صريحة وتاريخ !!

وأنا كيهودي صهيوني ، أؤمن بأنه لا بد من مرور جيل كامل على فلسطين ، كي

يتغير التفكير عند كلا الطرفين ، ليستطيع الجميع أن يعيشوا اخواناً !

وهنا سعل سعالاً شديداً ، وصمت هنيهة يستعيد راحته ثم قال :

إن إخراج اليهود أو العرب من أرض الميعاد ، أمر مستحيل قطعاً ، وفي

اختلافهما الشديد ، وتناحرهما المستمر ، فائدة لقوة نائمة ، يستطيع كل انسان إدراكها .

فقاطعه صديقي قائلاً : ولكن هذه القوة النائمة ، هي صديقة الصيونييين ، وهي التي

وعدتهم بالوطن القومي ، وساعدتهم في هجرتهم وتسربهم غير المشروع الى فلسطين !

فابتسم الرجل وتابع : إن انكلترا هي صديقة مصلحتها دوماً ، كما علمتنا

وما عرف التاريخ البشري أمة ، أشد أنانية من هؤلاء القوم .. فكل الحلول التي

عرضتها منذ بدء المشكلة حتى اليوم ، هي مسكنات مؤقتة ، ولهم أن تسموها أقراص

(كالمين) قوية مهدئة لآعصاب الطرفين . ولقد مر عليها في الهند ثلاثمائة سنة وما

زالت تسعى لايجاد الحلول ، تلك الحلول التي تنطوي في الغالب على خمائر الفتن ،

والاختلافات المستقبلية .. ثم تهدو شرع يقول بلهجة حادة .. إن سندانكلترا الوحيد ،

هو الزمن . ! والزمن كما يقول (جيبون) مؤرخهم الانكليزي المشهور :

كفيل بقرض هذه العالم !

وقبهه محدثنا بصوت عال وعالج الفكرة بقوله : فالمسألة الفلسطينية إذن ليست

بين اليهود والعرب ، ولو كانت بينها فقط ، لحلت منذ أمد طويل ؛ وذلك بحسن

التفاهم ، وتقريب وجهات النظر .! غير أنها قضية بينها معاً وبين انكلترا . . الدولة
المتدبة الشرعية .!

فليرفع الانتداب مرة واحدة عن فلسطين — ولو ساءت هذه الفكرة بعض
الصهيونيين الغلاة — ولتروا كيف نتفاهم .!!

فقلت له : ولكن العناصر الصهيونية الكبرى ، لها أقوال كثيرة في تمضيد
الانتداب وبقائه ، وهذا أمر مشهور عنهم .! قال : إنما أنا أعبر عن رأي الخاص
الآن ، وهو رأي يتبناه الكثيرون . . ثم عرج على فكرة سمعناها كثيراً من أفواه
الصهيونيين ، وتدل دلالة واضحة على أطعهم المستقبل .

إن اليهود اليوم ، يؤلفون ثلث سكان فلسطين ؛ وفي أوروبا ما لا يقل عن مليون
ونصف المليون من المشردين المضطهدين ؛ وإن بذور الجرمانية والنازية ، ما زالت
متغلغلة في قلوب الناس هناك ، أفليس من الواجب الانساني ، أن نجد لهم مأوى ،
ولقضيتهم حلاً . .؟ وهل يمكن قبول هذا العدد الضخم في فلسطين .؟ فقلنا : لا . .
أبداً . . إن العرب لن يقبلوا يهودياً واحداً جديداً ، وإن في أمريكا ، وأستراليا ،
وجنوب افريقيا لمتسعاً من الأرض لهؤلاء المتشردين .! فليتعدوا عن فلسطين والله
معهم .! فضحك وقال : ولكن الأرض تتسع لكثير من عباد الله ، وإن فلسطين
مقدسة في أنظار اليهود لا يبغيون عنها حولا ، فهي مصدر الوحي ، ومنبت الدين ،
ومسقط رأس الانبياء ، ومستقر الهيكل . . وهي زراعية قبل كل شيء ، ومناسبة
لأهوائهم وغرائزهم وروحهم .!

إن اليهودي عاش قروناً في أوروبا دون أن ينجح في الزراعة واستعمار الأرض ،
بيتا نراه متألق النجم ، في فلاحه الأرض في فلسطين .! فلم ذلك .؟ إنه يعمل هنا
بروحه وإيمانه ، فيحرق الأرض بشغاف قلبه ، وحنايا صدره ، ويسقيها بدمه ، إن
أعوزته المياه . . وإن سهول بيسان وسارونة تكفي جميع يهود العالم ، دون أن
يتردد عربي واحد من أرضه .! ولستم تكثرون الأراضي البور في فلسطين ، وهي اليوم
خالية دونما عامل أو زارع . . نحن لا نبغي سوى الأراضي المتروكة العاطلة الرديئة . .

سوى تلك التي يهملها العرب ، ولا ينتفعون بها ، أو لا يجدون سبيلا الى إصلاحها ،
بالجهود المبعثرة التي لا تغني ولا تسمن من جوع .. فهي أراض بحاجة الى مال وعلم
وتضحية ، مما لا يتوفر عندكم !. وأذكر أن أراضي بئر السبع هي خير ما يمكن
الاجوء اليه في هذا السبيل ، فهي ذات مساحة تبلغ نصف مساحة فلسطين . فيها
خمسة ملايين (دونم) صالحة للزراعة ، بينما لا يتجاوز عدد سكانها السبعين ألف
نسمة .. وهنا سألناه :

ومن أين تأتون لها بالماء .؟ فأجاب : إنما نحن مستعدون لايجاده ، فمهندسو
الري عندنا ، يحملون عصا سحرية ، كعصا نبيهم موسى ، يضربون بها الأرض ،
فتتفجر الينابيع .! ونحن اذا لم نعثر على المياه ، فلدينا مشروع كبير جداً ، قد
يكلفنا الملايين من الجنيهات الفلسطينية ؛ وهو أننا نود جلب المياه في سواق وقتوات
من الأنهر الشمالية في فلسطين .! وهذا المشروع كفيل بأن يروي هذه الاراضي ،
ويقلبها الى جنات وارفة الظلال عامرة بما لا يقل عن مليون يهودي .! واذا علمنا
ان كل فلاح ، هو بحاجة الى شخصين اثنين ، يعملان من أجله في المدينة ، نستطيع
عندئذ أن نتخيل ازدهار المدن ونمو الحركة الصناعية التجارية في فلسطين .!
إن نصف مليون يهودي جاؤوا فلسطين في مدة ربع قرن ، فخلقوا ما ترونه من
نهضة ، فكيف تغدو الحال لو وافاها مليون ونصف المليون أيضاً .؟!
ولكن ، لمر ماذا يصيب الانكليز من جراء ذلك ؟

إن انكلترا تخشى فقدان فلسطين من يدها اذا قويت وقدرت .. وان استقلال
فلسطين معناه ضياع نقطة (استراتيجية) هامة من حوزة بريطانيا ، التي خرجت
من حرب كادت تعصف بها ، فراحت الآن تبذل جهد الجبارة ، لتثبت أقدامها في
مرا كزها السابقة ؛ فلا يمكن إذن أن يفتش الانكليز عن حل ملائم قط .! فاليوم
انتداب ، وغداً وصاية .. وكل ذلك باسم حماية طريق الهند ، والاحتفاظ بالاستراتيجيات
والمطارات والموانئ ومصافي البترول والدفاع عن قناة السويس .!
إن نظرة واحدة إلى مؤسسات انكلترا الحربية ، والتحصينات الساحلية ،

والمطارات الفلسطينية ؛ كافية للدلالة على أنهم لن يخرجوا من فلسطين .! لائنها في
نظرهم مركز لتموين ممتاز ، وحصن هائل ، وخط دفاعي كبير .! رغم ان من
يملك ترعة السويس ، لا يني دفاعه بجانبها تماماً في عصر الطائرات والقنابل والصواريخ ..
بل يتعد عنها بقدر يسمح له بالترصد لكل مهاجم .!

وهكذا كان يتدفق الرجل في حديثه ودفاعه عن بني جلدته .. بينما كانت كل
جارحة تنطق في وجهه وتهتز معلنة إخلاصه لصهيونيته واعتداده بها . ويكفي أن
نذكر للقارىء بأنه نسي سيجارته بيده حتى أحرقت أصابعه دون أن يعب منها
رشفة واحدة .!

ولولا أن عرض (الفيلم) السينمائي قد حان ، لظل يحدثنا حتى مطلع الفجر ..
نهضنا أخيراً لرؤية العرض ، وقد أطل الهلال على حديقة واسعة بشكل مدرج ،
نضدت فيها المقاعد والكراسي ، ونصبت في صدرها شاشة بيضاء مثبتة ، وتراص
القوم من كل زوجين اثنين على مقاعدهم ، وحل لهم السمر تحت أشعة القمر في
انتظار (الشريط) ..

أنا ساهر والكون نام ..

كان موضوع الرواية لطيفاً جداً ، بعيداً عن الخلاعة والمجون ؛ وربما كان ذلك
مقصوداً ، لتقريبه من ذوق الشباب والفتيات ، وابعادهم عن المثيرات ، من روايات
الحب والمغامرات ؛ فهم كما يقول المثل : (من غير دف بيرقصوا) .. ولذا فان
أكثر الأفلام التي تعرض في المستعمرات هو أخلاقي بالدرجة الاولى ، ليلائم الفتيان
والفتيات والمراهقين على السواء ، خشية النتائج السيئة ، والعواقب الوخيمة . . غير
أن هذا لم يمنع بعضهم من اختلاس فترات ، يتوارى خلالها القمر خلف الغيوم ،
ليمعنوا في العناق الحاد ، والقبلات الرقاق . . ولقد شاء مضيفنا أن يبرر مسلك القوم ،
فعزا ذلك الى الأزواج وحدهم ، لا العشاق المعاميد .!

وما كاد الشريط ينتهي ، حتى شكرنا الجميع ، وتمنينا لهم لذيذ الاحلام ؛

وهرعنا بأنفسنا الى النوم ؛ وهنا ، أقول ما قاله بشار من قبلي :

لم يطل ليلى ولكن لم أتمم ...

ودون أن أتمم البيت .. فان صاحبنا المحترم ، لم يكد يمتلك ناصية الوسادة ، ويعتطي صهوة الفراش ، حتى غرق في سبات عميق ، وبدأ شخيره يرتفع على جميع الاوزان والالخان .! وأقسم أنك لن تجد لغطيظه مثيلاً .! فأين هو من هدير الطائرات ذات المحركات الاربعة ، وخرير الشلالات ، وزفير الراكين .؟ أين هو من طلقات المدافع ، ودق الطبول ، وصفارات الانذار ، وجلاجل الاخطار .؟ إنها طراً دون شخيره وغطيظه .! وسأذكر ما حيت أني حاولت إيقاظه ، لعـله يقطع شخيره ، فلم يستيقظ ؛ وعبثاً نهرتة ووخزته ، فلم يسمع .. (فزعوطت) فلم يشعر .! وأخيراً جررتة من قدميه ، ومن يديه دون أن يفيق .! فتركته عندئذ مكرهاً .. ولله الامر من قبل ومن بعد .. فقد خفت أن يسقط عن سريره ، فتسجل مراصد العالم القريبة والبعيدة ، اهتزازات تدل على حدوث زلزال مريع ، أو أن يحدث له ما يزعجه ويفجعه في لذيذ أحلامه .!

أما (البق) فقد كاد يهلكني ، رغم أنهم وضعونا في سرر نظيفة لا غبار عليها ، وأنهم يدهنون الغرف كل شهرين مرة بالكس والجص .. ولكن البق على ما يظهر يحب التقليد ، فقد استعمر الفرش القشية والاسرة ، وراح يبني فيها ممتلكاته ومزارعه ، على غرار أسياده الصهيونيين ، والتابع تابع .. ولا يفصل في الحكم ..

وأصبح الصباح فهرع صاحبنا الى الحمام المهرد ، حيث يبدو المستحمون ، ومن شاءت من المستحمت ، كما خلقهم الله ، حفاة عراة ؛ ثم انتقلنا الى المطعم ، لنزرد بيضاً مسلوفاً وزبدة و (مرملاد) السفرجل ، وشاياً وخبزاً ..

وأخيراً ، ، ودعنا الجميع ، وعدنا الى (تل أبيب) يرافقتنا في السيارة فئة من سكان (شفايم) نالوا إجازاتهن السنوية ، وهم الآن ذاهبون ، يقضونها في الساحل ، أو في الجبال ، أو يحيون في المدن الصاخبة ، ليستمتعوا عما حرموه من متع المدينة ، ومباهج الحضارة ، في قراهم النائبة ..

بتاح تيكفا

أبجئة الورد والبنفسج

هيا إلى (بتاح تيكفا) أو (ملبس) كما سماها العرب ، ولو كان الاسم العبري قد غلب عليها ؛ فهل بين الأسماء أيضاً (بقاء الاصلح) ؟ أو أن (داروين) الطيب الذكر ، حشر أنفه في هذا الصدود ؟ الله أعلم !.

وفي (بتاح تيكفا) أي — عتبة الأمل — مستعمرة من نوع جديد ، حقيق بالتدبر والنظر ، تدعى (ميشيك بو علاوت) تلك التي أوصانا جميع من شاهدناهم بزيارتها ، لتكون فكرة صحيحة ، عن حياة المستعمرات واتجاهها ومستقبلها !.

فبما إليها .. ولو أنه كتب علينا الانتقال ، من سيارة الى اخرى ، دون أن نذوق للراحة طعماً ، ففي سبيل (الصحافة) التي نتعشقها دون أن نتسبب اليها ، وفي سبيل خدمة العرب والعلم ، يهون كل شيء .. ولا فضل لنا في ذلك ، فعلى الشباب أن يضعوا ولو لبنة صغيرة في صرح أوطانهم !. وحذار أن تستحي من فعل القليل ، فالحرمان والعدم أقل منه . ولو أن الشباب في انكلترا وأميركا وروسيا ، لم يركبوا الاخطار ، ولم يغوصوا في البحار ، ولم يطووا القفار ، لما استطاعوا التغلب على عدوهم المساكر الخطر !. فالعزلة والحمول والانطواء على النفس ، تعابير بالية يجب أن تطوى من سجل اللغة العربية ، ويستبدل بها النشاط والمغامرة والكفاح ، ويومئذ يفرح المؤمنون !.

وما إن ركبنا (باصاً) من محطة (ايجد) الكبرى ، حتى سأل صاحبنا مغناجة ، فيها طيبة الملائكة وذكاء الشياطين ، كانت بجانبه ، تميل مع السيارة وتثنى مع التواءات الطريق .. سألها عن محطة (بتاح تيكفا) .. فأجابته : انظرني في أية محطة

سأزل ، وانزل في المحطة التي قبلها .! ثم صمتت فأدرك بفهمه الغزير تلك الحركة
الالتفافية من الغادة ، وكانت قهقهة ناعمة كادت تتلاصق فيها الأصدود ، وتدغدغ
النهود . . ولولا أنه كان يعرف حق المعرفة نكات العبريات في أمور الغزل ، وأن
لهن معدات عوض القلوب ، وأنهن يؤثرن رؤية عاشقتهن العربي بغير ساق على أن
يرين مخفظتهن خالية من دراهمه . . لولا كل ذلك ، لغامر مغامرة أخرى مع الغادة ،
يضيفها الى الألوف من غرامياته ، رغم الاعتقاد الجازم ببعث القلبين الهائمين كما يبعد
القطبان الأرضيان عن بعضهما . .

وهبطنا أرض القرية التي تقوم عن كشب منها المستعمرة المقصودة ؛ ففوجيء
صاحبنا بمشاهد مزعجة ؛ هتف بي مسرعاً على أثرها ، وهو يدلني على علم رأيناه
للمرة الأولى يتأرجح في الهواء . . وكان — كما شاء الحدس — العلم الصهيوني ،
وهو يتألف من خطين أزرقين جانبيين ، على أرض بيضاء ، في وسطها نجمة هي ترس
داود أو ما يسميه العامة عندنا (خاتم سايمان) .!

ولقد علمنا فيما بعد ، أن هذا الترس المؤلف من مثلث مزدوج ، يرمز الى أن
مدينة داود (القدس) قامت قديماً على ثلاث تلال ، يحيط بها ثلاثة أودية ؛ وإلى أن
بني إسرائيل ينقسمون الى أقسام ثلاثة : الشعب ، واللاويين والكهنة . وقد اقترح
هذا العلم ، زعيمهم الاء كبر (هرتسل) في أحد مؤتمراتهم السبعة عشر . .

وبعد سوالات عديدة للمارات والمارين ، بلغة سمها إن شئت : كوكتيل لغات . .
وهي من ابتكارات صاحبنا واختراعاته ، وحقوق النشر والاقتباس محفوظه له ؛ ذلك
أنها تتألف من مزيج العبرية ببعض الانكليزية والعربية ، والهيوغرافية أحياناً على
أكبر الظن . . يجمع كل ذلك ثوب مبرقش من الفرنسية ؛ أقول بعد سوالات
جملة ، ومساعدة العناية الالهية ، استطاع أن يبلغ سؤله . . .

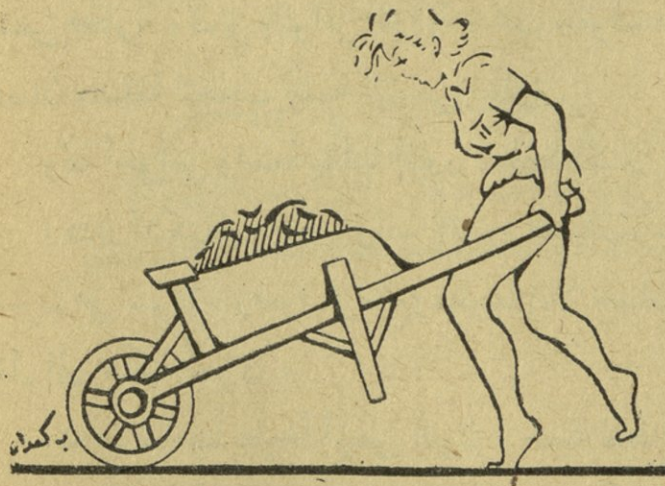
وكم رضي عن الحظ ، ودعاه بالخير والبركة ؛ وحسن الختام ، فقد كان خير
عون لنا ومسعف في رحلتنا ؛ فان القوم كانوا يحسبوننا غالباً من سلالة العم شالوم . .
لباسنا الخاكي القصير ، وبشرتنا السمراء ؛ وقبعاتنا الفلين . . وعندما كنا نفحهم

بجملنا العبرية ليجيب بكل اتران : إن ساداتنا الحاخامين في دمشق ، يهتمون بتعليمنا
سور الصلاة ، والمزامير والتراتيل ، دون أن نفقه لها معنى ، ولو أنهم لقنونا لغتنا
المقدسة ، لما كان في الامكان أبدع مما كان ..

ولقد أخبرونا بأن هذه المستعمرة هي خاصة بالفتيات .. فما سر ذلك يا ترى ؟
ونحن لم نعهد في القوم الطهارة والعفاف .؟ فهل ثابوا الى رشدهم ، وراحوا
يقومون بتجارب أخلاقية جديدة ، شعارهم فيها لا مساس .؟ أم أنهم يسرون اليوم
على مذهب السادة الرهبان ، لعل فيه خلاصاً لنفوسهم ، ومناعة لاجسادهم ، بعد أن
باعوا الفضيلة طيلة القرون ولو بالتجزئة في مخادعهم .؟

ولكن ، فلندخل حمى الاعداء ، ولو أن دونه خرط القتاد . فهل نحن أوهى
عزيمة من ابن أبي ربيعة ، واضرابه من أجدادنا المغامرين الميامين ، تغمدهم الله
برحمته .؟ لا .. لا ..! نحن نستطيع اليوم ما استطاعوه بالأمس ، نحن أحفادهم
لجماً ودماً ، نختال بشجاعة الفرسان ، وكبرياء الملوك ..

وراعنا سرب من المها ، في جمال غايات ألف ليلة وليلة ، كاشفات السوق ،
بارزات النهود ، مشمرات عن السواعد ، مصففات الشعور ، يحملن أدواتهن
الزراعية ، لحفر الأرض ، وسقي الزرع وقطف الأزهار والورود .



وصافح أسماعنا
صوت رخيم رقيق ، فيه
شوق وفيه حنين ، يزيد
في حلاوته أنه ممزوج
بنغمة عذبة ، هي نغمة
الحياء والحجل .. وإذا
بتلميذة من تلميذات
صاحبنا ، تقبل مسرعة

لتحييه مؤهلة مرحبة ، بأدب واحترام ، دون أن تصدق عينها ، فيما تريان ؛ فهل هي

في حلم .؟ وإلا فكيف يهبط عربي من الشام هذا الحصن الحصين ، بل هذا العرين
الذي تحاماه الأسود .؟ ولكنها حقاً أمام أستاذها القديم ، الذي شاء أن يبرهن على
وجوده ، فاحتواها بين ذراعيه ، وعجم عودها بقبلة . . وما أحلى اللقاء . . بعد
طول افتراق !..

وراحت تنادي أترابها الشاميات : ايفون ، استير ، ليلى ، فيفي .. فأسرعن
يلبين النداء ، كأن هنالك حدثاً جليلاً . . وأسرع صاحبنا يضم الجميع ، ويرد على أسئلة
الجميع ، الزاخرة بالشوق والحنين ، ويمسح الغبار عن الذكريات السعيدة ، وفي
الوجه إشراق وسرور . .

ولقد طفنا بأرجاء المستعمرة ، فاذا بها من طراز جديد ، لم نسمع بمثله من قبل .
فهي خاصة بزراعة الورود والأزهار ؛ وهذه الزراعة رابحة جداً ، إذا علمنا أن
الوردة الواحدة من إنتاج هذه المزرعة تباع في تل أبيب بخمسة قروش فلسطينية . .
والقوم هناك يرون في الزهور حاجة ضرورية ، كحاجتهم الى الخبز الذي يتعاونونه
كل نهار ، ويعتقدون أنه لا يجوز أن تخلو مائدة في الدار من إناء تزينه الأزهار
والرياحين . .

ولقد تفتنوا في شتلها وغرسها وتحويلها . فهناك أنواع لا تحصى من الزهور في
أصص فخارية ، تسقى بالموافر اللولبية ، تحت سقوف من أخصاص خشبية ، تغطيها
أغصان متسلقة لتحجب أشعة الشمس الحارة .

وثمة أحواض واسعة يغطيها البلور ، لحفظ الشتل في الشتاء . .
وهناك أمكنة خاصة بزراعة البذور ، مغطاة بالزجاج ، ريثما تنمو ، حتى اذا
استوت على سوقها ، رفعوا الزجاج وغطوها (بالأخصاص) . وبعد أن تنمو وترعرع
تنقل الى أمكنة أخرى .

وشاهد صاحبنا بطيخاً أبيض اللون ، حسبه لذيذ الطعم ، يطفيء الظمأ في الحر
الشديد ؛ فلما علم أنه خاص بالبقرة ، يدر لبنهن ، ويكثر لحمهن ، خاب فأله ، وكان
كأبستاني الذي يزرع الورود فتنت له ضفادع ؛ ثم مررنا بخمسة الدجاج ، فكان

رجاء حار من مرافقاتنا بأن لا ندنو منها ، لانها مصابة بمرض سار ، هن في صدد
معالجته ، والطبيب البيطري يشرف عليها كل يوم . وعندهن مذود البقر فيه خمس
وثلاثون بقرة ، يعتنين بها أشد العناية ، ولا غرابة في ذلك ، فالأثني تتقن هذه
الاعمال كما ثبت أكثر من الذكور ، ولم نعثر في المستعمرة إلا على رجل واحد ،
هو مهندس زراعي .

وتتعلم البنات في المستعمرة عدا الأسياب الزراعية ، فن الطهي ، لمدة ثلاثة
أشهر ، والغسيل لثلاثة أحر ، والكي ورفء الملابس ، ولهن عطلة ثلاثة أيام في الشهر ،
وأسبوعان في السنة . أما الدراسة فهي باللغة العبرية ، ومدتها سنتان ونصف ، تحمل
الخريجة بعدها شهادتها ، وتمضي الى مستعمرة ، لتعمل فيها .

ولقد طفقنا بغرف الدرس ، والراحة والمهاجع ، فكانت كلها تم عن نظافة واعتناء
زائدين . أما صالة الطعام فهي من أجمل ما شاهدناه حتى الآن في المستعمرات .
فجدرانها من البورسلين ، وموائدها أنيقة تتألق بالدهان ؛ وتناثر بثريات كهربائية ،
ولعل ذلك عائد لحداثة بنائها . فقد أفرغ فيها مهندسوها منتهى ما وصل اليه ففهم
الحديث ، وإبداعهم ؛ ولولا أنها خصصت بالبنات فقط ، لاشبهت (سفيا) بترتيبها
وهدونها . أما عمرها فلا يتجاوز العشرين عاماً . . .



برلمان في الخيال

تلك العجوز جامعة على ركبتيها العاريتين، في مؤسسة (ميشيك بوعلوت)

طانت

مستعمرة الزهور ، تشذب وردة مريضة ، وتبعد عنها الأوراق الجافة ثم تجمعها على شكل كومة .. وكان الى جانبها زائر صهيوني ، لا أغالي اذا قلت بأن الصهيونية المسلحة تمثل في وجهه ، و (بلطجية) عصابة (شتيرن) أعطته ٧٥٪ من شرها الخمام !. فان فكيمه الريضين ، وأذنيه المتأرجحتين كأيدي السلال ، وعينييه المستديرتين الصغيرتين ، اللتين تنفثان المكر والذكاء ، كانت تؤكداً لنا أن هذا الرجل من (محاسيب) نظرية (لومبروز) في الاجرام ، ومن أقبح صهيون، وعباد الهيكل ، ونادبي الحظ في ربوع العالم !.

ولعل الشرير خدع بزبي صاحبنا ، وحبذ مصادقتنا ، فدعانا الى مقعده المؤلف من صعيد الارض ، وبعض العشب ، قرب العجوز الهادئة الجامدة ، وكأنها لم تر إنساناً يقرب منها !.

وكاد صاحبي أوكدنا أن نستر هويتنا — كالعادة — لولا أن أقبلت إحدى البنيات من تليذاته القديمات ، فعرفت الرجل بنا ، وقامت مقام المترجم الحاذق ، — رغم اطلاع الرجل على العربية — فأربد وجهه لاختفاؤه في فراسة الاشخاص ، وقد حسبنا من أبناء عشيرته ، واذا به يرانا عرباً .. وعرباً — مفتحين — يعملون ما لا يحلم به هو وقومه، فيجوسون الديار، يتفهمون الصهيونيين ويسبرون الاغوار !. خاب فأل الرجل دون أن ينهزم ؛ ولكنه فاجأنا بعربية محطمة من بضائع (تل أبيب) ..

— كيف ترون المسكان ؟ وهل يعنى العرب بالزهور . ؟

فأجابنا : إن العرب في غنى عن الزهور والرياحين ، فقراهم عامرة بها

منذ خلقها الله ، غير أنهم يعملون اليوم ، في رفع مستوى القرية العربية من ناحية
الزراعة والتعمير والتنظيم .. ويرون الحياة جهاداً متواصلاً ؛ لأنهم مهددون في
رزقهم وبيتهم وأرضهم وغدهم وذريتهم ؛ إنهم يعملون أطفالهم أنهم اذا شبوا ، فقد لا
يجدون لأنفسهم ديناراً .. ولا حديث لهم من شبان وشيب إلا الثبات في الارض ،
والدفاع عن البيوت والحرمات ، ولو أدى ذلك الى قتال يكون من ورائه الفناء ..
فأين هم من الزهور والرياحين . ؟ إن همهم الوحيد ذلك الوضع السياسي الحاضر
العجيب الغريب ؛ وإن الاعمال الزراعية والتجارية والصناعية طراً ، إنما تنجح بالاستقرار
السياسي وهو ما حرموه .. فأجاب الرجل : لا .. لا .. هذا قول فيه كثير من الخطأ !
فلو فرض أن الانكليز لم يترحز حوا عن فلسطين ، ولن يترحز حوا ، فهل يظل العرب
بعيدين عن الحركات الاقتصادية والزراعية والعلمية ؟ — فقاطعته : دعنا من هذه
المقارنات والمحاورات ، فكل من الفريقين يناضل ، وسيكون البقاء للأصلح . غير
أنه ينبغي على كافة اليهود ، مهادنة العرب والاخلاص لهم ، فمهما تكاثرتهم فهم يحيطون
بكم كالسوار .. فأغبر وجهه وقال :

نحن نعرف هذه الحقيقة دون أن نئس ، ولن نحارب العرب أبداً ، لأننا بحاجة
الى النفوس والأيدي العاملة ! أوتدري أن البلاد تقاس اليوم بانتاجها الاقتصادي ،
وقدرتها الثقافية الفكرية ، لا بعددها وتعدادها . ؟ لم تعد يد الانسان في الحروب
الحديثة ، كل شيء في الكسب ؛ ولكن المادة الاولى فيها هي الفكر والعلم ..
فاذا كان الناس قديماً يخضعون لقاعدة « جاهد لا تجمع » فثقافة اليوم « فكر لا تهلك »
وهذا ! ثم نفخ في الهواء ، يعني أن العرب يملكون (صقراً) من هذه البضاعة !
فأجبت : ربما يكون في هذا القول بعض الحقيقة ، لو دامت الحال على ما هي
عليه ؛ غير أن فلسطين لن تبقى في وضعها السياسي الحالي ، بل ستمتع باستقلال قوي
وحكومة عربية وطيدة ! وبعده ، يمكنكم على ما أعتقد أن تفتشوا عن ظلال هذه
الأفكار تحت الحكم العربي ! إن اليهود لم يسعدوا في حياتهم وتاريخهم كما سعدوا
تحت حكم العرب .. وفي اسبانيا المسامة أبرع مثال .. واذا ما استقلت فلسطين ، فلن

يكون هنالك صهيوني وعربي بل فرد فلسطيني فحسب... إن بذور الصهيونية هي التي سممت
أفكاركم، رغم أنها ما زالت من حواشي السراب والخيال.. فقال بغضب يشوبه ضبط
شديد لانفعالات النفس: إنك تتكلم عن الاستقلال كما تحسب دراهمك في محفظتك...!
إن استقلال فلسطين، شاق جداً بالنسبة لانكثرا واليهود كافة... لانه سينجلي عن
(برلمان) للعرب؛ وسيكون من أهدافه محق الصهيونية وسحق الوطن القومي
من الوجود..!

وكان متحمساً جداً، يكاد يلاكم..! أما العجوز فكانت تؤمن على قوله بهز درأسها
وبالتفاته الينا بين الفينة والفينة، وغمزة ناعمة للبنية، توثيقاً للقول الحق..! وكدنا
نفجر من غلاظة الرجل وحماسته... وأخيراً فح كالأفعى الظمأى وقال:
ألا ترى أن النظام الحاضر يستند الى المادة (٢٢) من صك جمعية الامم، التي
عهدت الى انكثرا بالانتداب على فلسطين، لتنهض بالشعب، وتسهل إنشاء الوطن
القومي..! ولذلك فلن تنتهي إذن مهمة الدولة البريطانية، ما دامت النهضة لم تتحقق،
والوطن اليهودي لم يعزز بعد أو يتم...!

ثم نطقت العجوز لأول مرة. وقد نزعت غصناً جافاً من شجيراتنا... تمت
في جملة طويلة بالعبرية فسرتها لنا الفتاة، وضحك على أثرها الصهيوني ضحكة
صفراء... قالت:

ولذا فان العرب، عندما يطالبون بانشاء دولة مستقلة، وإزالة الانتداب، فطلبهم
سابق لأوانه..! قال صديقي: نحن نعلم أن انكثرا تماطل وتعد، دون أن تفي بشيء
للعرب أو للصهيونيين، وهي تعلم حق العلم، أن اتفاق العرب واليهود على الاستقلال،
معناه نزع يدها عن فلسطين، وهي في نظرها مركز (استراتيجي) هام، ظهرت
أهميته حقاً في هذه الحرب..! إنها مع أنصارها تحاول دوماً تفسير صكوك الانتداب،
ومعاهدة لوزان في صالح المستعمر... وفحوى هذا التفسير، ان الامة البريطانية،
ستساعد على الحكم الذاتي؛ ولا يعني ذلك إنشاء البرلمان، ولكنه يعني دفع البلد
الى الازدهار والرقى وتوسيع المؤسسات القومية، ريثما تصل الى الاستقلال... فهل

حال العرب الاقتصادية والثقافية الآن كافية لإنشاء برلمان؟ قد تقولون ويقول
رؤسائكم، إن الأثرية الساحقة من العرب، فقيرة جاهلة مغمورة بالخرافات
والتعصبات الدينية والميل إلى القسوة والسلب، ولذا فهي تحتاج قبل الاستقلال إلى
تهذيب مدني طويل. ولكن هذا الرأي فيه خطأ فاحش، وتعمية ضالة.. فأى بلد
لا يوجد فيه فقراء، وأي صقع لا يضم بين جدرانها وبيوتها جهلاء متعصبين؟ إن
الثورات السابقة، ليست سوى أعمال دفاعية شريفة، قام بها العرب مقابل أعمالهم
الانتقامية، ومعاملتهم الشاذة لهم؛ وإن يوجب ذلك بقاء الانتداب.. لأن هذا
النظام غلّ يمنع العرب من التقدم، ويحجز مثقفهم عن نشاطهم في رفع المستوى
الاجتماعي والاقتصادي... إن بين العرب طبقة مثقفة كبيرة وغير متطرفة،
وهي ناضجة سياسياً واجتماعياً، ستصل عاجلاً أو آجلاً، رغم كل العقبات
إلى استقلال فلسطين السياسي، وإلغاء وعد بلفور.. فأسرع الرجل يقاطع:
وستصرون طبعاً على مقاطعة الصهيونية، تنفيذاً لأغراضكم السياسية.. فقلت: بكل
تأكيد.. فنحن نعتقد أن هذه الوسيلة هامة جداً، إذا نفذت بحذافيرها، وخاصة إذا لم
تنقطع الهجرة أو يرجع الصهيوينيون إلى رشدهم، ولا أقول اليهود، لأن بين اليهود
من يخالف آراء الصهيونية بالأهداف والمبادئ والصلات مع العرب.. فأجاب الرجل
وهو يكاد يتمزق غيظاً: إن إيجاد البرلمان معناه معاكسة مصالح انكلترا ذاتها،
والسير مع الميول المتطرفة في الشرق الأدنى، ونحن لا نوافق على برلمان عربي
ونناهضه بكل قوانا.. فقال صديقي: ولم؟ أوليست فلسطين مثل سورية والعراق
وشرق الأردن والحجاز؟ وكلها مستقلة تقريباً، رغم التشابه في الثقافة والوضع
الاقتصادي والاجتماعي..! فضحك قائلاً:

لا سبيل إلى المقارنة أبداً.. فهنا توجد مهمة سياسة هامة: هي إنشاء وطن
قومي لليهود..! وزفر صاحبي زفرة حزى، وأراد النهوض، ولكن العجز، دعتنا
إلى البقاء بنظرة ماكرة.. ولعل البنية المترجمة التي تجاس قبالتنا تماماً كانت سبباً
من أسباب بقائنا لسماع الحديث.. فقد تراخت فوق العشب وحلت أزرار قميصها عن

صدرها لشدة الحر ، فظهر طرفاً ثديها المدورين الناتئين . ! وكانت كلما انثت أو
تحركت ، أطل برعم وردى من فوهة القميص . ! أما الساقان النحاسيتان فهما
ظاهرتان للعيان على أي حال شأن بنات (الكيوتس) .. والمرء مفطور على
نبش الكنوز ، والاطلاع على المكنون ، فقبعنا على العشب الأخضر تحت الخميطة ،
نتأمل النهود التي أهلكت من قبلنا العشاق من عاد وثمود .. نسمع الرجل يتحدث
ونجيبه بما يثير أعصابه ، مستمدين القوة من تيار الصدر العامر . !

قال الصهيوني العتيد : إن سكان فلسطين اليهود ، لا يرضون عن إيجاد برلمان ،
كما أن يهود العالم يناهضونه ويعا كسونه ؛ وطالما نقف نحن هذا الموقف ، فلا
مجلس هناك . ولو يقرر العرب عدم الاعتداء ، لجاز لنا أن نفكر بذلك ، لأن
البرلمان سيؤجج نار الاختلافات بيننا وبينهم ؛ ولهذا فالمجلس القومي اليهودي
يرفض هذه الفكرة .. فضحكت من هذا التعصب والمغالاة ، وبناء الحلول على
أسس تجعل التفاهم مستحيلاً . ! وقد قدم المحدث أصحاب الرأي المسموع في فلسطين
الى أربع جماعات هي :

١ - بريطانيا العظمى ، ٢ - يهود العالم ، ٣ - يهود فلسطين ، ٤ - عرب
فلسطين . . ولم يأت في بال ابن إسرائيل ، عرب العالم ومسامو العالم ، في الاقطار
الآخري . ! فهل سها عن خاطره ذلك ، أم تغاضى عنه ، لبعث الاطمئنان في نفسه ،
كحيلة لا شعورية على توثيق الأمل والاستبشار بالمستقبل . ! وكما يقول : إن كل
برلمان يرجى إنشاؤه ، يجب أن يستند الى موافقة هذه العناصر الأربعة . .

وقد حدثنا الرجل أيضاً ، وهو على ما يظهر متفهم حقاً لصك الانتداب ، والقضية
اليهودية من أولها الى آخرها ، من وجهة نظر واحدة طبعاً ، كغيره من الصهيونيين
المغالين .. بأن المادة الرابعة من الصك المذكور ، تعترف بالحقوق الفلسطينية
ليهود العالم بأجمعهم ، بصورة غير مباشرة ، وذلك عن طريق اعترافها بالوكالة اليهودية . !
قال : ولا يغربن عن البال ، أن الوكالة تتمتع باختصاصين هامين : أولهما تعاونها
مع الحكومة على كل ما يؤثر في إنشاء الوطن القومي اليهودي ، فتقوم بكل تدبير

يؤمن تعاون يهود العالم في سبيل إنشاء الوطن القومي المذكور. ! وثانيها أنها تتعاون مع الحكومة أيضاً على كل ماله صلة بمصالح السكان اليهود في فلسطين ، وتشترك في ترقية البلاد بصورة عامة تحت إشراف وسيطرة الحكومة . !

وهنا ، قال له صاحبي : إنك تشير الى مساهمة الوكالة بترقية البلاد الفلسطينية كافة ، وتشمل بذلك العرب .. أليس كذلك ؟ ولكن هل أفاد العرب مما ساهمت به الوكالة حقاً .. أم كانت الفائدة لليهود فقط . ؟

فابتسم الصهيوني وقال : نعم ، لقد أفاد العرب من نشاط الوكالة في كثير من الامور : كالصحة والتعليم والرقي التجاري والصناعي . !

فأجابه صاحبي : إن قولك هذا هو المغالطة بعينها .. فأني مساهمة لكم في تعليم العرب أو صحتهم . ، نعم ، إن نسبة التعليم ارتفعت حقاً في البلاد ، غير أن هذه الظاهرة مشتركة في كافة بلاد الشرق ، وذلك بمساعدة الحكومات المختلفة في هذه السبيل ، وإن مساهمتكم الصحية المزعومة ، أمر زائف تماماً .. ففي عام (١٩٤٠) — كما ينص الملخص الاحصائي المنشور عام (١٩٤١) — تردد على مستشفيات اليهود (٦٥٥،١٧٥) شخصاً لم يكن بينهم أكثر من (٢٠٣٨) عربياً ، أي بنسبة الثلث . / . ! أما التعليم فلا يمكن أن تقبل مدارسكم جماعة العرب مطلقاً . ! حتى أن السير (إيلي خضوري) اليهودي العراقي ، عندما ترك في وصيته الانسانية مبلغاً كبيراً ، للتعليم الزراعي العام في فلسطين ، وأنشأت الحكومة طبق رغبته مدرسة عربية الى جانب أخرى يهودية ، هجتم وملا تم الدنيا صراخاً واحتجاجاً ، ولم تسكت صحيفة صهيونية عن ذلك ، بل نددت بعمل الحكومة وعنفت بالقول والنقد . ! فأني مساهمة هذه ، وأية مساعدة أو فائدة . ؟ وعاد الصهيوني المتحمس يتابع رأيه : إن الاعتراف للوكالة اليهودية ، بحق التعاون مع الحكومة ، والمساهمة في تقدم البلاد ، هو ذو معنى عميق ، يمكن تلخيصه بالاعتراف بحق مجموع الشعب اليهودي العالمي ، في الاشتراك بالاعمال التشريعية والادارية في فلسطين . . وهاكم آخر المادة الرابعة توضح اختصاص الوكالة فتقول : (. وتساعد وتشترك في ترقية البلاد) وليس ثمة ما

هو أكثر مراناً من هذه الجملة وأسهل للمط والتأويل !!
إن سكان فلسطين يتألفون من ٦٦ ٪ عرباً و ٣٣ ٪ يهوداً . وهذا يدعو
لأن تكون النسبة العددية في البرلمان المنشود موافقة للعرب أكثر من موافقتها
لنا ! غير أن الوكالة التي تمثل يهود العالم ، تغدو على هذا التقدير مهملة ، لا يعبأ بها
أحد ، رغم أنها تمثل عشرة ملايين نسمة من اليهود ! ونحن نعتقد أن تمثيلها في البرلمان
من أمثمن غاياتنا وأحباها .. ولذلك يجب أن يتألف البرلمان كما يلي :

١ - من ممثلي الوكالة اليهودية عن العالم اليهودي

٢ - من اليهود الساكنين حالياً في فلسطين

٣ - من السلطة المنتدبة

٤ - من السكان العرب وكل من هو غير يهودي

فإذا كان لكل (٢٥) ألفاً من السكان نائب يمثلهم ، فإن المجلس سيتشكل إذن
من (٢٤) نائباً يهودياً فلسطينياً و (٤٨) عربياً فلسطينياً وما لا يقل عن (١٠٠) نائب
يمثل الوكالة اليهودية ! ولو جعل لكل (١٠٠) ألف نسمة نائب ، فإن المجلس
سيتألف أيضاً من أكثرية يهودية ! . وهنا ، افتر ثغر العجوز عن ضحكة مرحة
متفائلة ، فكأنها تسبح دقيقة واحدة مع رفيقها (الحيسوب) في حلم و وهم و خيال لذيذ ..
حتى لقد قل صاحبي : والكنك - على طريقتك - نسيت عرب العالم ومسلمي العالم
أيضاً ، الذين تمثلهم الجامعة العربية . . كما تعلم ، وفيكم كفاية . . فعبست
العجوز ، وبدا اللؤم على الرجل فقال : وإذا قلت بأنه لا يحق لعرب سكان البلاد أن
ينتخب نائباً فأقول :

إن وضعية البلاد ، ليست نهائية من حيث السكان ، فما زال هنالك يهود كثيرون
في ترحال إليها .. ولذا فقد يجب أن يمثل هؤلاء ولو سلفاً ، لأن وضع البلاد الشاذ ،
يستدعي طرازاً انتخابياً خاصاً ! .

إن حق الشعب اليهودي في انتخاب ممثليه بواسطة الوكالة ، أمر لا يمكن رفضه
أو نبذه ؛ لأن ملايين اليهود مرتبطون بها اقتصادياً وروحياً وسياسياً ! . وإذا كان

كل حق عام يستدعي الاعتراف بالحقوق الخاصة ، الناجمة عنه ، فاننا لا نتمكن من الاعتراف بالوطن القومي لليهود دون برلمان يمثل هذا الوطن !.

إن عدم وجود يهود المهجر في فلسطين ، هو غيبة طبيعية ، لا روحية ولا سياسية ولا مالية .! لانهم يصدقون الاموال على صناديق الوكالة في كل عام ؛ وإن أحدهم يشتري زجاجة الشمبانيا في حفلة التبرع لفلسطين ، بليون دولار أمريكي ، وهو جذلان فرح بتأدية الواجب المقدس !.

إن النظام الانتخابي القانوني ، يجري عادة في بلد تسود فيه المساواة الطبقة والفكرية والعنصرية .. أما هنا ، فيوجد كفتان مختلفتان .. فهناك جهل وعلم ، وفقير وثراء ، فثلث السكان اليهود ، يدفعون مقداراً من الضرائب هو أكثر مما يدفعه الثلثان الآخرا ، رغم أنهم لا يستفيدون من التعليم والصحة والاسعاف الاجتماعي وما هو محتم أن يستفيدة أناس لهم قدرتهم التجارية ، الذين يضعون رؤوس أموالهم الهائلة ، فينتعش بسببها كافة سكان فلسطين كما تنتعش خزانة الدولة . مع أن هناك قاعدة اقتصادية سياسية بسيطة ، تقول : إن الذي في يده ميزانية الدولة في يده مصيرها .. .

أما من الوجهة العلمية ، فإن إنتاج اليهود العلمي يتفوق كثيراً عما للعرب من إنتاج .. فقد صدر عام (١٩٢٦ - ١٩٢٧) الدراسي في فلسطين ، ٣٦٨ كتاباً منها ٣٠٧ كتب عبرية و ١٧ كتاباً عربياً .. وفي عام (١٩٢٨ - ١٩٢٩) صدر ٤٠٩ كتب منها ٣٤٩ كتاباً عبرياً و ١٩ كتاباً عربياً .. وفي نفس السنة ، كان يوجد ٤٣ جريدة ومجلة عبرية ، وست جرائد ومجلات عربية .. .

أما المشاريع الزراعية الصهيونية ، وتربية المواشي ، والصناعة فتفوق أيضاً مشاريع العرب ؛ فهناك محطاتنا التجريبية الزراعية ، ومعاهد بستور ، والمدارس الزراعية والمستشفيات والجامعة والمدرسة التكنيكية في حيفا ، ومدارسنا المسلكية ، ومدرسة الفيزياء في (بيزاليل) .. كل ذلك يساهم اليهود فيه أكثر من العرب !.

ولذلك ، فاننا كيهود متعلمين ، نلح بأن يكون عدد النواب ، لا بنسبة السكان ،

بل بنسبة قواهم الفكرية والمادية .! فبرلمان يضع العناصر النشيطة العاملة الغنية ،
تحت حكم أكثرية جاهلة ، هو برلمان يخالف صكوك الانتداب ، ورسالة بريطانيا
المنتدبة ، وإرادة الشعوب اليهودية في إنشاء الوطن القومي .!
وعلى هذا .. فنحن — وهنا التفتت العجوز والفتاة ، وقالت معه بصوت
واحد : نحن نرى أن يستمر الحكم البريطاني نفسه اذا لم نستطع خلق الدولة اليهودية..

لقد عرضت حكومة الانتداب ، في مناسبات عدة ، تأليف مجلس
تشريعي في فلسطين . وكان نصيده الرفض القاطع من الشعب العربي الـأبي .
لان المجلس سيقام حتما لتنفيذ سياسة الوطن القومي اليهودي ، التي يستنكرها العرب ،
أما وأن الأئمة لم تعترف في يوم من أيام جهادها على الانتداب ، ولم تقر بوعد بلفور ،
وكان من مقتضيات رفض الاصل أن ترفض الفرع ، فلا عجب اذا رفض كل مشروع
لمجلس تشريعي . . .

والعرب إذ يطلبون حقهم في التشريع ، لا يريدون أن يغمطوا حقوق اليهود
الذين يساكنونهم ؛ وانهم يريدون أن يتمتعوا بحقوقهم لانهم أكثرية ساحقة
في العدد والمصلحة ، وباعتبار أنهم وعدوا وعوداً صريحة ، وباعتبار أن عهد جامعة
الأمم يخولهم ذلك ، مع حفظ حق اليهود الوطنيين في الاشتراك معهم في الإدارة
والتشريع حسب نسبتهم .

أما أن يحشر في المجلس العتيد ، يهود العالم ، الذين يتهمون بحقوق عامة وخاصة
في بلادهم ، ولهم ممثلون في برلمان كل بلد يحيون فيه ، فأمر لا يقره عقل ، ولا
يقول به منطق .

إن عرب فلسطين ، يطلبون أن يعيشوا أحراراً في دنيا الأحرار ، وهم ليسوا
أقل نضجاً في السياسة والعلم والاقتصاد من اخوانهم في البلاد العربية المجاورة ، ولم
يقترفوا إثماً ليتحملوا تبعات تعهدات غيرهم ، فليكن هدف الجميع ، جلاء قوات الاحتلال
عن الأراضي المقدسة وإعلان فلسطين حكومة مستقلة ، وعندئذ يعود الحق الى
نصابه ، وتطمئن القلوب ، ويخيم السلم على هذا الجزء العزيز من العالم .

البنان . . . في جبهات برهبر

ولا تحسبن (برهبر) هذه ، هي ذلك المضيق الجبلي الذي كان في يوم من الايام حديث الدنيا ، وشاغل الناس ، لدى كل اجتماع يعقده دكتاتورا أوروبا ، هتلر وموسوليني .؟ لا . . بل هي مستعمرة من أرباض (تل أبيب) ، تعد في طليعة كبريات المستعمرات ، التي تعزبها الصهيونية ، والتي خطت خطوات فساح في مضمار الرقي ، ومعارض التقدم . . ولقد أوصانا كل من لاقيناهم بزيارتها ، لان رؤيتها تغني عن كثير . ويمكن للقارئ أن يتصور عظمتها ، اذا علم أن عدد سكانها يربو على الالوف والمائتين . . وأنها بعد سبعة عشر عاماً من عمرها السعيد ، غدت مركزاً زراعياً وصناعياً ، يشار اليه بالبنان .

فهيما إليها للناس جانبا جديداً من أسرار النجاح الصهيوني . . وفي سبيل العلم وخدمة الاوطان ، وفضح أسرار الاعداء ، يهون كل عناء . .

امتطينا (باصاً) من محطة (إيجد) الكبرى . وما كادت السيارة تحرك ، حتى شرع صاحبنا يفتش عن صيد ، يكون له متعة الرحلة ، فعثر على شاب يهودى مصري الاقامة ، فرنسي الجنسية يحمل في جعبته دليلاً أخضر ، وكتاباً مقدساً ، ومصورات مختلفة ، ترشده في رحلته الميمونه . واذا كان (كل غريب للغريب نسيب) ، فقد جمعنا الغربية ، وألفت بين قلوبنا غاية الاطلاع . . غير أن غاية السيد المصري ، لم تكن البحث والدراسة ، بل هو قانع من الغنيمة بالاياب ، وبالنظر ، والنظر وحده ؛ فتراه يجوب أنحاء فلسطين كموظف في أحد المصارف يقضي إجازته . ورغم مصوراته المختلفة ، ودليله الاخضر ، وكتابه الديني ، كان كشاعرنا المتنبئ في شعب بوان : غريب الوجه واليد واللسان . . فلم يبد عليه أنه يفقه شيئاً مما رآه ، وكان جل اعتماده علينا ، دون مناقشة أو سؤال ، وعجب صاحبنا أشد العجب من ضخامة جثته ، التي

لا تتناسب مع ضالة ثقافته التي علاها الغبار ، لتطاول العهد ، وعدم الاستعمال ..

تقوم (جبهات بره نر) على رابية عالية تشرف على البحر ، وتطل على محطة (اللد) الكبرى . ومطارها الفسيح ، في رقعة رحبة ، تكتنفها الحدائق والبساتين . ولعل هذه المستعمرة تشمل كل ما رأيناه في المستعمرات الاخرى ، اللهم إلا أن الكمية في كل شيء أوفر وأغزر ، وذلك تبعاً لحاجة السكان ، الكثيري العدد ، واتساع الرقعة وازدهار المستعمرة .

وأول ما يفاجئك مشفى الاطفال ، فهو مغنى يقوم على ذروة الرابية ؛ يتلوى أمامه الوديان ، وتنسط في الافق البعيد سهول لا يتبينها النظر ، وهو مطي داخلاً وخارجاً بالدهان الأبيض اللامع ؛ والمرضات يتنقلن بين أرجائه ، كملائكة الرحمة ، وقد انتقين من أجمل الفتيات شكلاً ، وأدمهن جانباً ، وهن يتشحنن بالبياض ، ويضعن على قبعاتهن (خاتم سليمان) بلون أزرق . وكان المشفى هادئاً لا تسمع فيه نأمة ، وراء نوافذه وأبوابه الخضراء ، ذات المناخل . وهناك حمام للجنسين بجزائمه ومشاجبه العديدة . وثمة المناشف والمرايا والصابون ، للحلاقة أو التجميل ..

مدارس ومعلمة

وشاهدنا حديقة للرضع ، وقد وضع كل منهم - أو منهن - في قفص أو إطار ، يعنى به مربيات خاصات ، بينما تعمل أمهاتهم في الحقل أو الممهل ، أو شؤون أخرى ، وكان الوقت ظهراً ، حيث شرعن يقدمن اليهن الغداء ؛ فطلبت المربيات منا إرجاء زيارة هؤلاء الاطفال ريثما يتناولون طعامهم ، خشية أن يلتفتوا الينا ، ويشغلهم شاغل ، فيلهيهم عن شأنهم ، وتشرد قابليتهم المرتجاة ..

وثمة حديقة أطفال ، ومدرسة ابتدائية فيها إحدى عشرة شعبة ، صفوفها نظيفة جداً ، وفيها أحدث وسائل الايضاح . ولعلها تفوق في ترتيبها ما شاهدناه في (شفيا) ؛ ولو قارنا بها ما نعرف من مدارسنا في دمشق ، لكانت كالمقارنة بين رأس الدبوس ، ورأس الرجاء الصالح ..

وأخيراً رأينا للمرة الأولى في المستعمرات . مدرسة ثانوية ، وان تكون هذه المدرسة يتيمة الدهر ، وخريدة العصر ؛ بينما لا يوجد في سائر النثرى العربية طراً في فلسطين ، مدرسة واحدة ثانوية . وفي هذه المدرسة من ساحات الالعاب والاجهزة الرياضية ما يبيض لها أسود وجوه خلق الله ! .

وقدمنا مرافقونا الى أستاذة ألمانية ، تتقن الفرنسية إقناً مدهشاً .. وهي لطيفة جذابة أكثر منها فاتنة ؛ وعليها سمة المعلمات الرصينات الأنقيات ؛ فلا ملابس مرصوفة تترجم عن العجيزة والمدورات ، ولا نهود رافعة أنفها الى السماء . ولا ألوان قوس (قزح) على سحنة غريبة كوجوه (الكرنقال) ، بل كل ما في الامر شعر مرجل ، ووجه طبيعي ، ونظافة ظاهرة تدعو التلميذات أن يقتفين أثرها .. وما أقل المعلمات اللواتي يجوز اقتفاء آثارهن ! .

ولقد أعطتنا معلومات كثيرة سمعنا مثلها في المستعمرات الاخرى ، وأضافت : إن على فتياتنا أن يتن صنة من الصنائع أو فرعاً من الزراعة ، بالإضافة الى ما يتعلمنه من فنون الطهي ، والخباطة ، فغاية الفتاة عندنا أن تكون أمماً في البيت ، وعاملة واعية في الحقل أو المصنع . ونحن نفخر بأن الائمة تكاد تكون مفقودة تماماً ؛ وسيأتي يوم على فلسطين ، لا ترى فيه يهودياً جاهلاً ؛ فالعلم فرض على الجميع ، وعلى كل طالب أن يحترف حرفة ، كما يقضي بذلك ديننا ، لعقيدتنا أن الانسان لا يكون فاضلاً إلا بالعمل ..

قالت ذلك دون تكلف أو اهتمام ، تماماً كما تقول لصاحبك : عم صباحاً فهل سمعت فتياتنا ذلك ، وهاجرن بعقولهن الى منطقة فكرية طيبة المناخ ، خصبة الاقليم ، ليخلتن لنا جيلاً بيدلنا من بعد يأسنا أملاً ، ويفتح أمامنا آفاق المستقبل بسامة .؟ وهل سمع شباننا أن قيمة كل امرئ ما يحسنه ، وأنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالعمل المنتج الخالص لوجه الله والوطن ! .

وأضافت أستاذتنا المحدثه : إن برنامجنا الدرسي في سائر المستعمرات واحد ، علوم نظرية بجانبها تطبيقات عمالية ؛ ونحن نقبل التحاق أطفال المدن بمدارس

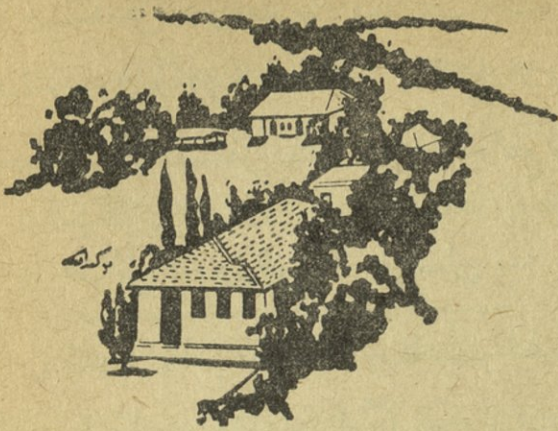
مستعمراتنا ، نظير أجور مقررة ، أما من أرسلوا من قبل الجمعيات الخاصة فهم
معفون من كل رسم . . .

ولم يسمع تاريخ فلسطين بعد ، أن طفلاً يهودياً ذهب إلى مدرسة أجنبية ؛
فالكل يعضون إلى مدارسنا المستقلة ، السائرة على النظام الذي تقرره شعبة المعارف
في الوكالة الصهيونية ، فإن برامجنا تبث في أطفالنا روح الصهيونية ومبادئها وغاياتها.
وشكرنا هذه الاستاذة الفاضلة على علمها الغزير ، وغادرنا حماها ، ونحن نذكر
أنصاف المواطنين ، الذين كانوا يزجون أبناء الأمة ، طائعين مختارين في المدارس
الأجنبية الأفرنسية لتخلق لنا جيلاً هو حرب على وطنه ، عدو لدينه ، شعوبي
إزاء قوميته . . .

معامل وأبنية

وصلنا معملاً ضخماً هائلاً . فإذا هو معمل (الكونسروة) . والحق نقول إنه
عظيم فخيم ، ممتلئ بالآلات والأدوات المنسقة تنسيقاً بديعاً ، ففيه أجهزة لتنظيف
الآوعية والزجاجات والقوارير ، وأخرى لصنع الأواني القصديرية أو لها وإغلاقها ،
وآلات العصير والبخار ، وبراميل ضخمة للمنتوجات من مربيات ومشروبات ومخللات
وخلالين هائلة ، وقدور عديدة للطهي .. ورأينا أنبار السكر ، والأقوية الفسيحة ،
والمواقد البخارية ، كل ذلك ذكرنا بمعمل دمشق للكنسروة ، زاده الله اتساعاً
وازدهاراً . . . وفي المستعمرة ، خمة تشتمل على ما ينيف على (٢٠) ألف دجاجة
منتقاة من خير الاجناس ، وهي سليمة من كل مرض . وعن كذب منها ، اسطبلات
فيها مئة وخمسون بقرة ، متعددة الاجناس والأنواع . . .

وكان مما لدا لنا مشاهدته ، رؤيتهم يبنون أبنية حديثة ، عوضاً عن القديمة ، التي
أصبحت لا تلائم رقي المستعمرة ، ولا تفي بازدياد السكان . ومما يلفت النظر تلك
السطوح المائلة المصنوعة من قرميد اسمتي خاص . أما الغرف فكانت متلاصقة ،
غير أن كل دار مستقلة عن الأخرى .



ولقد زرنا بعد استئذان، مسكن
امرأة هنغارية نصف، كزجاجة عطر
فارغة، لم يبق منها إلا آثارها، فاذا
بفسحة صغيرة كالشرفة أمام المدخل،
بجانبيها خزانة لوضع الأحذية، وبعض
المون التي تنشر روائح لا يستحسن
انبعاثها داخل الحجرة؛ والمسكن

نفسه يتألف من غرفة واحدة أنيقة، كأنها صنعت للضحك والهدوء، تجمع الشرائط
الصحية؛ يزين جدرانها صورتان فنيتان، تمثل إحداهما بزوغ الفجر، وأخرهما:
الطفولة البريئة؛ وكلاهما ينم عن ذوق مهذب مرهف. والغرفة ناصعة البياض،
يستر أرضها سجادة صغيرة، وعلى نوافذها وقسم من بابها مناخل من شريط أخضر
اللون. وأثاثها يتألف من سرير يتحول نهائياً إلى مقعد واسع مريح، بجانبه (طريزة)
يعلوها مصباح كهربائي، وفي الزاوية خزانة صغيرة وكرسي وطاولة فوقها زهرية.
وسائر الدور على هذا الترتيب البديع، مع اختلاف في الاتساع، بحسب عدد
أفراد العائلة! وعليها كلها مساحة النظارة ومظهر النظافة والوجاهة، وقد نسقت
صفوفها، ورتبت هندستها، وحبأها العلم بنور الكهرباء.

وفي هذه المستعمرة الغنية صالات للموسيقا والحفلات والتمثيل، وحجرة للاذاعة.
وأذن الظهر فدعينا للغداء، فوجدنا المطعم ممتازاً يشرف على مناظر غاية
في الروعة والجمال، وهو صالة فسيحة جداً؛ والطعام يوزع في عربات مطاطية
العجلات ليس لها صوت؛ فيها رفوف من أنابيب حديدية، نضدت فوقها الصحاف
وألوان الطعام. والطهي هنا، كما هو في سائر المستعمرات، أوروبي الطريقة وموافق
لتعاليم الموسوية. وقد قدموا لنا بطاطس وأرزاً حلواً، وحساءً من العجين المحفف
والحبوب، وكان شراب (الآسيس) يبذل للحاضرين بكرم عجيب. ولعل وجود
معمل الكونسروة يبرر هذا التصرف الشاذ، وبالأجمال فن الطعام كان فاخراً، بسبب

ثراء المستعمرة وازدهارها ؛ فكما نمت واتسعت وازداد انتاجها ، ارتفع مستوى الحياة فيها . . . ولما كان السكان كلهم متكافئين متضامين في العمل ، فانهم يرون من مصلحتهم أن يضاعفوا بذل الجهود ، ليرتفع مستوى المعيشة .

حداائق ... وزهور ... ومصانع ...

غادرنا المطعم ، ويمينا وجهنا شطر الحدائق والحقول ، لنلمس لمس اليد تقدم القوم الزراعي . فشاهدنا البركة الكبرى التي تروي المساحات الواسعة وتؤمن مطالب المستعمرة . وكانت محرقاتها الضخمة ، تعمل لنضح المياه من أعماق الارض . وكم تمنى صاحبنا أن ينعم بجولة سباحة في هذه البركة ، وهو ابن بردى وتورا ويزيد . لولا أنه تناول طعامه منذ قليل ، ويحرص على تطبيق القواعد الصحية حرصه على تطبيق الوصايا العشر . وحول هذه البركة ، الى مسافات لا يحدها البصر ، حدائق الخضار ، وكروم الدوالي ، وأشجار الفواكه والحضيات ، ومن بعيد ، كانت ترن أصوات العاملات والفلاحين الذين يخدمون الارض ، فيهبونها نفوسهم الغالية . وسرنا تحت الأشجار المتشابكة ، حيث حفيف الاوراق ، تحت سماء صافية الأديم ، وممرات شدبتها يد العمال من أعشابها الطفيلية ؛ والنوافر اللولبية تدور وتدور ، كالدر اويش في حفلات رمضان ، ولكم أصابنا من رشاشها ، وورداذ مائها المتناثر فوق الاشجار ، والخضار والأزهار ، فرطب وجوهنا وصدورنا ، في ذلك الجو القائظ .

واجتزنا ممراً ، كأنه من نماذج جنان الخلود ؛ على جانبيه جدران من المرجان ، شدبت بانتظام ، تضم خمائل في وسطها نوافر ، وعلى جوانبها أزهار ، وفي زواياها مقاعد لاستراحة الزارعين والعاملين . وكما تجد في المدن الكبرى حدائق يلوذ بها الانسان من مشاغل الحياة اليومية ، كذلك تجد في هذه المستعمرة تلك الممرات وهاتيئ الحدائق ، التي تقوم على تنظيمها وخدمتها فلاحات ممن تعرفهن وسبق لنا ذكرهن ، كاشفات السوق ، ناهدات الأثناء . . .

وكانت خاتمة المطاف أمام معنى فسيح الأركان ، شاهق الجدران ، نوافذه

ألا إن المصايف ثروات طبيعية ، إن أحسن استغلالها ، درت على البلاد أموالاً
وفيرة ، ورفعت من سمعتها ، وورقت من طابع أهلها ، وكانت معيناً لا ينضب من
الخيرات والبركات ... فمتقدم الاوطان وتقفز ، بل تخطو نحو الاجماد خطوات
الفراسخ والاميال ..!

وتحت شجرة صنوبر ، مثقلة بأثمارها ، استلقت حسناء فائنة ، فيها كثير من
حرارة جو فلسطين ، ومن الجاذبية الجنسية ما لو قسم على أهل بلدة ضخمة لكفت
شبانها أجمعين ؛ فلم ندر من أين هبطت .؟ هل فرت من جنان رضوان ، أو حدائق
فينوس .؟ لقد كانت ذات شعر أشقر ، ذهبي ، مسترسل الذوائب ، معقوص الجملة ،
وعيون فيها سحر هاروت وماروت ، متسعة زرقاء صافية ، كماء البحر ... وكأنها
لفرط جمالها تصيح : أنا هنا ...



جلست على كرسيها ، وكأنها تتمدد على أريكة من ريش ، ورفعت بين يديها
كتاباً تظاهرت بمطالعة ، فنتأ نهذان يتفجران حيوية ، ولفت برجليها ، فبدت
ساقها وكأنها أرض متعطشة لم تشرب منذ جيل كامل .؟ وثوبها الربيعي الشفاف
المزدان بالورود والأزاهير ، تلهو به الريح ، فيكشف عن أنوار تبدد دياجير الظلام ..

وتحت أفياء الصنوبر ، وخلال أنامل النسمات ، التي تعبت بالأوراق الابرية ، فتحدثت
وسوسات وهمسات ، كانت الحسناء عن الجميع لاهية غير مباينة . . . واذا صح أن
النظرات تحيي الموتى ، فان نظرة واحدة من هذه المفتان ، تحيي قلب الميت وتبعثه
من جديد . ولما كان صاحبنا ينظر الى الحسان بعيون الشعراء ، لا بعيون العشاق ،
فقد استرد إلهامه المفقود ، وراح يتغزل بذلك الجمال الإلهي ، بقصائد مستكون له خير
زاد في لياليه العجاف ...



الصهيونية

«مكنا يفهم الصهيونيون قضيتهم، فاليك أيها العربي حديث يهودي قح ، دون تعاليق»

ان هواء فلسطين يهب الحكمة ، وسكانها أفضل نعمة ...

كذلك بدأ مراقبنا المصري حديثه عن الصهيونية ، بعد أن استدرجناه إلى الكلام ، فالتفت يقول، وقد تزود بنظرة خاطفة، مثقلة بالشهوات من وجه الحسنة : ليست الصهيونية يا أعزائي ديناً ، ولم ينتحلها جميع يهود العالم ، ليذودوا عن حياتها.. بل هي حركة سياسية ترمي إلى عزل الشعب اليهودي عن غيره من الشعوب، وجعل فلسطين وطناً قومياً جغرافياً دولياً ..

وهي وليدة البؤس والشقاء والآلام ، ليس بينها وبين ديانة موسى أي سبب . فمنذ فجر التاريخ ، ما برحت الأمة اليهودية تعاني الأمرين ، ففراعنة مصر سخروا اليهود في بناء إهراماتهم ومعابدهم ، والكلدانيون سبواهم فانتشرت أشلاؤهم في فيافي الصحراء ، والرومانيون دمروا مملكتهم فسالت دماؤهم أنهاراً ، وتفرقت جموعهم أيدي سباً . وفي العصور الوسطى نعتوهم بأسفل الألقاب ونظروا اليهم شراً ، فعاشوا خلف أسوار الجيتو ، في أزقة ضيقة وبيوت عشت فيها الشقاء ، منبوذين محتقرين ، محرومين من أكثر الحقوق . فأصبح اليهودي لا تقبل شهادته على المسيحي ، وحرموا مناصب الدولة ، ولم يؤذن لهم بتجنب الأطعمة التي يحرم دينهم أكلها ، ومنعوا من الختان تحت طائلة العذاب الشديد ، وصودرت أموالهم ، ومزقت كتبهم الدينية ، وبذل المستطاع للتفريق بين الرجل وامرأته والسيد وعبيده ؛ وكانوا يدونون أسماءهم في سجلات ، ويستعرضونهم كما تستعرض المشاة ، ويتهمونهم بذبذب أبناء النصارى وأكل لحوم الأدميين .! وأما حظهم من العامة فكان أدعى إلى الشفقة ، لأن نجاحهم في أعمالهم التجارية ، كان باعثاً على الحسد والانتقام في ظل التعصب

الديني ، ولم يكن أسهل على أمراء ذلك الزمان إذا احتاجوا الى النقود من أن يصادروا أموال اليهود المقيمين في بلادهم ، ويتركوهم يشتغلون في جمع أموال أخرى ، فإذا تم جمعها لديهم أعادوا الكرة عليهم فأخذوها منهم . ولقد منعهم الشرع من زيارة الكاهن ، دون دعوة منه ؛ لكن هذا الكاهن لم يكن يستغني عن أنسجة هذا اليهودي ، ليصنع منها ثوبه الكهنوتي ، ولا عن مصنوعاته ليأخذ منها آنية للكنيسة وأدواتها .!

ومضت القرون ، وتلاأت تباشير العصور الحاضرة فإذا (بفولتير) الملقب بزعيم الحرية ورسول الرحمة ، يرمي اليهود بنال الطعن والامتهان ، مؤكداً أن تلك الأمة أسفل الاخلاق ...! وحمل عليهم (أدوار درومون) في صحيفته (فرنسا اليهودية) ؛ فهم في زعمه قوم لا هدف لهم سوى تكديس الأموال ، يؤلفون دولة ضمن دولة ، ويحنون دوماً الى أفق وطنهم الأصلي ، ويأبون الاندماج في تربة حضنتهم ، ويكرهون الامتزاج بأمة ترعرعوا بين ظهرانيها . وجاء الطاغية (هتلر) بكتابه (كفاحي) فبلغ السيل الزبي ، فصودرت الاموال ، واعدمت الانفس ، وأجلى السكان بالملايين ، لا عن ألمانيا وحدها ، بل عن كثير من الدول . فتجددت آلام اليهود ، وذاقوا مرارة العري والجوع والنفي والتشريد ، فارتموا في أحضان الصهيونية يتطلعون وفي القلب حارقة ، الى فلسطين ، وطنهم الاول ، وملجئهم الحصين .!

وهذا يهوذا الحلوي الانداسي ، صاحب القصائد الخالدة المدعاة (بالصهيونيات) والتي تعبر عن رغبة جامحة الى أرض فلسطين ، ينشج منذ شباب الدهر على الهيكل المهديم ، وعبودية اليهود ، وفقدان روابي صهيون ، فيقول : « إن الشعب اليهودي رغم اضطهاده ، فهو حيثما حل ، كالب بالنسبة الى البشر ، ياتي الآلام ولكننا نظل حياً . »
وإن تقاسس اليهود عن النهوض منذ القديم ، لالعودة الى أرض فلسطين ، فلاعتقادهم بأن الآلهة ستؤدهم حتما اليها . ألم يقل الانبياء : « عاندا أرد سبي خيام يعقوب ، وأرحم مساكينه ، وتبنى المدينة على تلها ، والقصر يسكن على عادته » ؛ ألم يقولوا : « ويبنون مدناً خربة ، ويسكنون ويفرسون كروماً ، ويشربون خمرها ... »

ولن يقلعوا من أرضهم التي أعطيتهم ؟» أو « سترجعكم شعوب الأرض الى صهيون ،
وتعودون كالحمام الى وكناتها .. »

تلك هي لمحة خاطفة لتاريخ اليهود ، تريكم دماءهم تخضب أعتاب التاريخ ، وآلامهم
تستدعي الرحمة والحنان . « فاليهودي ميت بين الأحياء ، غريب بين المواطنين ،
متشرد بين الحضرة ، مستجد بين الأغنياء ، وطنه الغربية ، ووحدته التفكك
وسلاحه الخنوع . » ثم زفر مجدنا الصهيوني زفرة حري وتابع :

وهكذا قضى اليهود أجيالا في مثل هذا الحال ، مضطهدين مكروهين مظلومين ؛
لكنهم حافظوا على جامعهم الجنسية والدينية . وهذا غريب في نواميس الاجتماع .
لأن الأمة التي تقضي مئات من السنين مشتتة مضطهدة مظلومة ، لا دولة تحميها ،
ولا جند ينصرونها ، قد حكم عليها بالزوال . أما اليهود فكانوا في أثناء هذه النوائب ،
لا يزدادون إلا رسوخاً في الجنسية وثباتاً في الاعتقاد . وهو سر من أسرار تاريخهم
حار العلماء في تعليقه ، إن دل على شيء فانه يدل على قوة في عنصرهم ، تساعدهم على
احتمال المشاق ، واستنباط طرق الكسب التي لا توجد في سواهم

فالصهيونية إذن ، ليست وليدة الامس القريب ، بل رسخت أصولها في بطون
التاريخ ، على أنها لم تبرز سافرة إلا في شخص الدكتور (تيودور هرتسل) ، الذي
ولد في هنغاريا ، وترعرع في حارات لندن الضيقة الفقيرة ، فطبعته نفسه بطابع
البؤس ، ونزعت الى إصلاح الشعوب ؛ وخدمه لسان ذرب وقلم فياض ، فأودع
أمانيه هذه في كتابه : (ربيع البؤس) ، الذي اخترق فيه نظره الحجب ، فخرت
ساجداً أمام عالم الغد ، عالم الحرية والمساواة ، والعدالة .. ثم انتقل الى باريس يرسل
الصحف النمساوية ، وفي هذه الاثناء حصلت مسألة (دريفوس) ، وسمع الفرنسيين
يهتفون بسقوط اليهود ، فقال : « أيهتف الفرنسيون بسقوط أمتي في عاصمة النور ،
وهم المشهورون بالحرية . » فثارت ثأرته ، وأكب على تاريخ اليهودية ، لينحاز الى
مبادئ أسلافه بضرورة إنشاء وطن لليهود يقيمهم العثرات ، وتشجذ فيه همهم ،
فيظهرون للملاء قوة إدراكهم وعظيم إنتاجهم ، ثم أصدر كتاباً يتقدغيرة وحماسة

عنوانه : (الدولة اليهودية) بدأه بقوله : « إن الانتمستم - ضد السامية - خطر لا يهدد اليهود فحسب ، بل العالم بأسره ، وهي في نمو مستمر ، ولن يستطيع اليهود الامتزاج مع من حولهم ، لأن الامتزاج لا يتحقق دون الزواج المتبادل .. ومن السخف انكار المشكلة اليهودية ، فهي موجودة حيثما وجد مجتمع يهودي ، واذا فقدت من مكان ، جاءت عن طريق المهاجرين اليهود .. فمن الضروري استملاك أرض يقيمون فيها مجتمعاً لهم .. »

ولذا لم يقترح هرتسل أن تكون فلسطين مهجراً لليهود .. بل اختار الجمهورية الفضية (الارجنتين)؛ ولما كان ينبغي رضا جماهير اليهود، وخاصة رجال الكنيسة ، نظراً للشعور الديني في الشعب اليهودي ، فقد اقتنع أخيراً بوجود كون فلسطين وطناً قومياً لتحصل الموافقة بالاجماع ..

وفي عام ١٨٩٧ عقد أول مؤتمر صهيوني ، في مدينة (بال) - كما اقترح هرتسل - فتباحث كبار قادة الفكر اليهودي وأغنياء إسرائيل ، واقترحوا عدة أمور تمت فيما بعد، منها :

- ١ - تعاليم اللغة العبرية ، وآدابها ، وانشاء مدرسة كبرى في يافا أو القدس .
- ٢ - إنشاء مدارس عامة لتعليم اللغة العبرية في كل حي يهودي ، وتأليف لجنة خاصة للآداب اليهودية .
- ٣ - إنشاء صندوق توفير يهودي ، لتأمين القاعدة المتفق عليها وهي إيجاد وطن للشعب اليهودي في فلسطين ، مضمون ضماناً شرعياً ودولياً .
- ٤ - تحقيق الأغراض الآتية :
 - أ . - ترقية الزراعة والتجارة اليهود في فلسطين .
 - ب . - تحالف اليهود تحالفاً محلياً أو عمومياً حسب قوانين بلادهم .
 - ج . - تقوية الشعور اليهودي .
 - د . - بذل المساعي الأدبية للحصول على المنح الضرورية لضمان الغرض المنشود ؛ وعينوا في المؤتمر الثاني جمعية استعمارية خاصة ، كان غرضها توسيع نطاق الاستعمار

شريطة الحصول على رضا الحكومة العثمانية .

وفي المؤتمرات أوضحوا معنى الثقافة ، وأنها لا تغاير العقيدة اليهودية ، وقد اقترح بعضهم حينئذ استعمار قبرص ، فرفض الاقتراح بالأغلبية .. وبعد المؤتمر الرابع قابل هر تسل السلطان عبد الحميد ، الذي ماطل وساوّم وراوغ ، ولقب هر تسل (سليمان عصره) وأوصى به خيراً بابه العالي . ثم قابل مع وفد يهودي امبراطور ألمانيا (غايوم) في القدس ، فأجابهم « بأن المساعي التي ترقى زراعة فلسطين ، وتنفع الدولة العثمانية مع احترام سيادتها هي فائزة بارتياحه ورضاه .. »

ثم فاز بمقابلة وزير الامبراطور الروسي ، فناقش وأقنع ، وغالب فغلب .. وأخيراً ، طلب من السلطان بعد مقابلة ثانية ، أن تمنح الحكومة العثمانية اليهود مقداراً واسعاً من الحكم البلدي الذاتي ؛ فيدفع اليهود مبلغاً معلوماً من المال لقاء هذا الامتياز . وحارل ان يقنع السلطان بتمام اخلاص الصهيونيين ؛ وحيثه أنهم يعملون علانية وليس في الخفاء ، وأنهم يقاومون كل حركة استعمارية ، تعنى بادخال اليهود تدريجياً الى فلسطين ، خلافاً لرغائب السلطة الحاكمة ، لأن اليهود عنصر خاضع للقوانين مجتهد . . واستوى محدثنا في مقدمه لينال بعض الراحة وقال :

غير أن الدولة العثمانية شعرت بخطر الصهيونية ، فمنعت مهاجري اليهود من البقاء في فلسطين أكثر من ثلاثة أشهر رغم احتجاج ايطاليا وأمريكا .!

وقد اقترح الانكليز على (هر تسل) ، استعمار العريش أو شرق أفريقيا ، فأبى ذلك قائلاً : « إن شرق افريقيا ليست صهيون ، ولن تكونها . » وقال ماكس نوردو : « لو اتخذنا شرق أفريقيا وطناً ، لتعذر علينا إلا أن نكون في دار غربة .! »

وقد أصدروا في مؤتمرهم السابع القرار الآتي : يعلن المؤتمر الصهيوني السابع ، بأن الهيئة الصهيونية ، ثابتة لا تتحول عن قاعدة مؤتمر (بال) الاول ، وهي إحياء وطن لليهود في فلسطين ، على أن يؤمن تأميناً شرعياً ويعترف به اعترافاً علنياً . ويرفض كوسيلة ، كل استعمار خارج فلسطين ، والأراضي المجاورة .

وقد قرر كذلك ، تطبيقاً للحركتين الادارية والسياسية وتقويتها :

١) الاكتشاف والتنقيب عن الآثار .

٢) ترويج الزراعة والصناعة على خير المبادئ الديمقراطية الممكنة .

٣) تحسين الحالة الاقتصادية والتربوية ، وتنظيم شؤون يهود فلسطين بواسطة

الحصول على نهضة فكرية جديدة ..

٤) الحصول على الامتيازات .

إن المؤتمر يرفض كل استعمار مجرد عن الغرض المنشود ، وغير مشترك

بالعواطف والبذل ، وذلك بطرق مصغرة ، اذا كان غير منطبق على الفقرة الاولى

من برنامج مؤتمر (بال) .. وعلت وجه اليهودي سبحانه من الحزن ، ثم قال :

وفي ٣ تموز ١٩٠٤ لفظ (هرتسل) أنفاسه الاخيرة، وقضى شهيد الغاية

الصهيونية ، وربما كان السياسي الوحيد، الذي كرس حياته لخدمة قومه ، واستطاع

أن يقوم بما لم يستطعه فرد أو جماعة، في سبيل إعلاء شأن الغاية وتثبيتها؛ فوحد كلمة

العاملين على اختلاف مذاهبهم ، ونقل المسألة اليهودية ، من مسألة خيرية زراعية ،

الى قضية اقتصادية سياسية . ولقد ساعده على نشر دعايته الطيب الفيلسوف الألماني

(ماكس نوردو) ، وشاعر لندن (اسرائيل زنجويل) ، فلا عجب اذا

نظر اليه العالم اليهودي نظرة احترام وإجلال وتقديس، فهو الذي رفع لواء الصهيونية

عالمياً ، وناضل في توطيد ما يدعيه حقه ، فكان بيانه سحراً ، أرهف ضعاف العزائم ،

ونداؤه إلهاماً أصاخ اليه اليهود ، فغدت جملتهم الماثورة : «وغداً الى القدس» بسالة

علوية ودعاءً حاراً يحدوهم الى الجد والعمل ، بلوغ الأمل ..

وتنادوا من كل البقاع والامصار ، يدون يد المساعدة للنازحين الى فلسطين ،

ويفيضون عليهم بالعطاء دون حساب ، مؤسسين الجمعيات والمصارف لابتياح الارض

على ضفاف الاردن ، بأبهر الأثمان . فبذل الاموال بسخاء المثير الكبير البارون

(ادمون روتشيلد) ، وساعدتهم معنوياً كبار رجال السياسة والأدب كالشاعر

(فيكتور هوجو) ، فنمت في أرض فلسطين المستعمرات الصهيونية ، وكانت

أولها : بتاح تيكفا ، أي عتبة الأمل .. وغدت بعض بقاعها جنات وارفة الظلال ،

تُوج بالسكان ، وتكتسي بالأشجار والأزهار ، كما كست تِل أيب رمال المتوسط ،
حلة تمدن وازدهار قشبية . .

على أنه منذ وفاة (هرتسل) ، حتى نشوب الحرب الكبرى ، كانت القضية في
دور التمهيد ، لفقدان الزعيم الكفء ، حتى ظهر (وايزمن) ، الاستاذ في جامعة
مانشستر ، على مسرح السياسة . فبعد أن اندلعت نيران الحرب ، وأصبح العالم المتمدن
يخشى انكسار الحلفاء ، وقد صاروا إلى ضئك معنوي ، وحاجة مالية قصوى ؛
عرفت الصهيونية هذه الحقيقة المؤلمة ، وانتهزت هذه الفرصة النادرة ، فتمحازت
بكل قواها تشد أزر الحلفاء ، وتقدم لهم أجل الخدم وأنفع المساعدات . وبذل
علمائها في سبيل نصرتهم ، دمهم وما لهم ونتاج عبقريتهم ، فأوجد (وايزمن) متفجرات
هائلة ، كان لتأثيرها العجيب أثر رهيب في تغيير مجرى الحرب ؛ كما انه اخترع لهم
الكمات الواقية ، غداة استعمال الالمان الغازات السامة .

وعندما صرح المستر (ايكويث) رئيس الوزارة البريطانية ، عقب دخول
تركيا الحرب : «إن ناقوس جنازة تركيا قد دق لا في أوروبا فقط ، بل وفي آسيا
أيضاً» ، ابتهجت نفوس اليهود ، وعادت آمالهم تنتعش ، فقابل (وايزمن) ، (لويد
جورج) بحضور (هيربرت صموئيل) وعرض عليه ما ينبغي من مكافآت لاختراعاته ،
فطلب أن تصبح فلسطين وطناً قومياً لليهود ، وأجيب الي سؤله ؛ ثم اجتمع باللورد
(بلفور) فسأله عن سبب رفض الصهيونيين أن يرحلوا إلى افريقيا الشرقية ، فكان
رد (وايزمن) أن سأله : هل تقبل باريس بدلا من لندن ، فقال : ولكن لندن
بلدي ، وعندها أجاب وايزمن : وكذلك القدس . . !

فارتاح بلفور لهذا الرد ، ووعد وايزمن بكل تشجيع .

وفي اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٧ ، عقب دخول حجاجنا
الانكليز القدس ، أرسل اللورد (بلفور) كتاباً سرياً إلى اللورد (روتشيلد) ،
تلك الوثيقة التي استنكرها العرب في جميع أقطارهم ، وما زالوا يمورون من أجلها
ساخطين ، متوعدين ، مهديين ، وهذا نصها :

عزيرى اللورد روٲشيلد

« يسرنى جءاً أن أبلغكم بالنباة عن حكومة جلالة الملك ، بأن حكومة جلالاته تنظر بعين العطف ، الى إنشاء وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين . وتبذل كل ما فى وسعها لتحقيق هذه الغاية، ولا حاجة الى التذيه أنه لن يعمل شىء يضر بالحقوق الدينية والمدنية لغير اليهود فى فلسطين ، أو يضر بما لليهود من الحقوق والمقام السياسى فى غيرها من البلدان الاخرى . »

وقد ظل هذا الوعد الغامض مكتوماً عن العرب عموماً ، والشعب الفلسطينى خصوصاً حتى سنة ١٩١٨ . وعزا اللورد (بلفور) غموضه على الصورة المذكورة قصداً ، ليتسنى لليهود أن يعملوا فى سبيل مستقبلهم كما يريدون ، وجهر بأنه يجهل أن فلسطين بلد يسكنه العرب ، وتوهم أن خروج الاتراك منها سيتركها دون سكان.. وقد نال هذا الوعد المشؤوم عطف مؤتمر (سان ريمو) سنة ١٩٢٠ ، وثبتته جمعية الاأم فى الرابع والعشرين من تموز ١٩٢٢ فى المادة الرابعة من صك الانتداب ، كما أقره الكونفرس الأمريكى فى ٣٠ حزيران من السنة نفسها فى وثيقة نصها :

« ولما كان للشعب اليهودى إيمان ، منذ عدة قرون ، بإنشاء وطنه القديم ، الذى كان دائماً يحن اليه ، وإذ يتحم أن يكون بوسعه — استناداً الى نتائج الحرب العالمية ، والدور الهام الذى لعبه فيها — بعث نفسه وإنشاء وطنه القومى فى أرض جدوده .. فقد قرر مجلس الشيوخ ومجلس نواب أميركا ، أن تجبذ الولايات المتحدة إنشاء وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين . »

وكان هذا الاعتراف لليهود ، بإنشاء وطن قومى ، فوزاً للقضية الصهيونية عظيماً ، واعتبر زعمائنا، أن إنشاء الوطن دىن على الاأم ، وليس هبة ، لما أتوه من خدمات ، فوجب على تلك الدول المنتصرة ، أن تعيد لليهود وطنهم القديم . . . كما أعادت للبولنديين والنمنديين .. وطن أجدادهم ..

وعندئذ شمخت أنوف اليهود ، وأعلن قادتنا أن فلسطين يهودية كما أن انكلترا انكلزنية ؛ وأخذت الحكومة تصطبغ بالصبغة اليهودية ، حتى أن أول مفوض

سامي كان صهيونياً وهو : هربرت صموئيل . . .
ولم يقف العرب ازاء نامكتوفي الايدي .. فكانت تنشب الثورات كل حين وحين ،
وترسل لجان التحقيق ، حتى بلغت سبع عشرة .. وكانت آخرها اللجنة التي أعلن
عن تأليفها المستر (بيغن) في بيانه في تشرين ١٩٤٥ ، والتي لم تنته من أعمالها بعد
والتي تدل القرائن كلها أنها لن ترضى أحد المتخاصمين . . .
وهنا سكت محدثنا المصري ، فشكرناه على ما أجاد وأفاد ؛ وكان بوق السيارة
ينادي المسافرين ، حين ودعنا المكان ، وغيدة الحسان ، لنعود ككرة أخرى الى
مدينة الربيع . . .

أبها العربي

لقد استمعت الى حديث صهيوني مؤمن بقصيته، وهي باطلة أمام الله ، والتاريخ ،
والناس أجمعين . . .

ولقد رأيت كم جاهد قادتهم ، وبذل أثرياً وهم ، في سبيل نجاح الحركة . فلم
يتوان مفكروهم ، ولا تقاعس عامتهم ، عن السير قدماً رغم العقبات الكأداء . . .
فما أحرانا نحن ، وحقنا صراح أبلج ، أن نلم الشعب ، ونوحد الصفوف ، ونهيب
البرامج ، كما فعلوا في مؤتمراتهم السبعة عشر ، وما وضعوا فيها من خطط ، كانت
خير نواة لاستعمار أرضك ، ووطنك المقدس . . .



عودة الى تل أبيب

غار

صاحبنا إلى تل أبيب ، ووقف في محطة (إيجد) الكبرى ، يتنفس

باجهاد وإعياء ، بعد انتقالات متواصلة بين المستعمرات ؛ راح ينظر الى المحطة ، لا تمتلئ مرة ، إلا لتفرغ ، ولا تفرغ إلا لتمتلئ ككرة أخرى ؛ صفوف بشرية لا تنتهي كصفوف النمل ، وحركة غير عادية لم يألفها من قبل ، أمواج بشرية متلاطمة متتابعة ، تزخر بالنشاط والحيوية .

ولقد تذكر أنه وقف في ساحة الشهداء بدمشق مرات ، وفي ساحة البرج بيروت مراراً ، وهما ساحتان محترمتان لهما بعض الميزات والمزايا ولا شك ، ولكنه لم يشهد قط مثل هذه الطوفانات البشرية ، وهذه الكثافة الجديرة بالنظر والاعتبار .! وكان الوقت مساء الجمعة ، وغداً سيكون السبت ، يوم العيد الرسمي للعاصمة الصهيونية .. ولذا فقد ازداد النشاط ، وشرع الأهليون يستقبلون سبتهم ، بمظاهر الاجلال والاحترام . لقد عملوا ستة أيام بذلوا فيها جهودهم ونكروهم ونشاطهم ، فليستريحوا نهار السبت ، وهو اليوم الذي استراح فيه ربهم من عناء صنع هذا العالم ، ككرة الشقاء والنبلاء وأفانين العذاب ...

وطن ما وطن ..

وقبع صاحبنا مستنداً الى حاجز من حواجز المحطة ، يروي باصرتيه بهذه الصور المتحركة الحية ، لينقلها ناطقة الى اخوانه العرب ، أنى كانوا ، فلعل فيها ما يحفز الى التفكير والعمل ، ومجاراتة قافلة الاحياء ، واليقظة بعد سبات طويل ، ونوم لا شك عميق .! وابتاع شطيرة من تلك الحوانيت الصغيرة القائمة في بناء المحطة ، وراح يلتهمها بحماسة ، وهو أكثر ما يكون شوقاً الى (طاحونة مخل) تذكره بيهود الربوة ، وجنينة أم الخمسة ، وبستان النعنع .!

وكانت المحطة محشراً دنيوياً ، من طراز لا يفر فيه المرء من أخيه ، وأمه
وأبيه ، وصاحبه وبنيه .. فقد التقى صاحبنا ببعض تلميذاته وتلاميذه ممن رأهم في
(شفيا) و (شفيايم) ، ومن ساكني (تل أبيب) نفسها ، فسر لمرآهم ، وهش
وبش ، وسألهم عن صحتهم العزيزة المرتجاة .. فالاناث في زينة العيد لا بلباس العمل :
الشعور مصففة تلعب بالعطور ، والنهود بارزة من القمصان المشقوقة الصدور ،
والخصور نحيلة ضامرة ، والافخاذ مسترسلة تحت السراويل الزرقاء القصيرة ، التي
غدت رمزاً مسجلاً لساكنات (الكيبوتس) . وفي يد كل واحدة منهم أو على
ظهرها ، جعبة فيها ما تحتاجه المسافرة ويصلح من شأنها . وكان رفاقنا لا يقلون
عنهن أناقة وهنداماً .

لقد جاؤوا (تل أبيب) لقضاء عطلة الاسبوع ، وليلطفوا أوار قلوبهم ، ويرطبوا
اعصابهم الدافئة ، ولينجوا الجسد راحته والفكر إجازته . وهل في العالم لذة أمتع
من الراحة بعد عمل متعب منتج؟ إنها الوسادة اللينة ، التي لا تضارعها وسائل الحسان ..
ولو رأى عزول واش أستاذنا الكبير مع طالباته وطلابه ، وعلى وجوههم أمارات
السرور والانشراح ، لحسب الجميع يتبادلون أحاديث الهوى والغرام ، ويتجادبون
أسباب الغزل والهيام ؛ فالابتسامات كاسحة ، والنكات تندفق مقبلة مبهجة ، وقد
يحمّر لها جبين الغواني ، وتتورد خدودهن . وعنده بهن صغيرات ، واليوم أصبحن
شابات يافعات ، نضجن وترعرعن ، وشاع من أعينهن سحر الانوثة وقتنها ، وأصبحن
يدركن مرامي الكلام ، ويترجمن نظرات العيون ، وهو اجسب النفس ، وخطرات
الفؤاد ..

ومن سخرية الأقدار ، أن الناس كلهم لم يوهبوا سلطان السيطرة على العواطف
الثائرة ، ولا يستطيعون كبح جماحها ، أو كبتها ، فتبدو بارزة على صفحات وجوههم
وفئات لسانهم ، وهي مرآة نفوسهم ..

ورغم أن صاحبنا هجر التعليم منذ أمد بعيد ، فإن وجدانه المسلمي ما زال
عامراً ضخماً ، وهو لا زال يحسب نفسه يلقي درساً في القضيلة والاخلاق ، على

تلميذاته وتلاميذه، الذين وجدوا فيه الأب الفاضل، والأخ المحترم، فبادلته حباً
محب، وتقديراً بتقدير، وغداً كزوجة قيصر، فوق الشبهات ..
ولن يكون كما أرجف صديقه، يهواهن كأخوته على دين كسري، ويتامظ
لو ذاق هذا اللحم البشري الغض، الذي يشتهي مثله !
وليت الذي بيني وبينك عامر وبين العالمين خراب

على بلراج تل أبيب ..

كان (اليام) على حد تعبير العبريين (وهو اليم أي البحر) هائجاً صاخباً بعد
ظهر ذلك اليوم .. و (اليام) سرير مغرٍ لاذٍ للصغامين، من أنصار الشيطان،
والجمال .. على السواة ..! وإن من يزور (تل أبيب) ولا يسبح يوم السبت في
(بلاجها) الفاتن، فقد أضاع متعة هيات أن تعوض .. لقد كانت أمواجه في
فوران وغليان، كنفوس السابحات والسابحين .. ولكن .. فليزجر ما شاء، فلن
تلين قناة الجمهور اللاهي العابت، وإنما ستزيد جموعه فرحاً ومرحاً ونشاطاً ..
فهل تخيلت الحشر في رقعة لا تتجاوز الكيلومترين طولاً والخمسين متراً عرضاً،
وقد خرج الناس حفاة عراة، لا ليتطلبوا من الله رحمة وغفراناً، بل لينشدوا من
الشاطي لهواً وغزلاً وافتناناً .. نعم ..! اذا تخيلت ذلك، فاعلم أن القوم هنا في
حشر .. غير أنهم لا يدعون الله، بل يطلبون لنات الحياة الدنيا، بالانطلاق من
قيود المجتمع، ويسرون على مبدأ ساعة لربك، وأخرى لقلبك، والدنيا زوال ..!
على ذلك البلاج الذي يتيه الصهيونية بانشائه، وتعدده مفخرة من مفاخرها ..
على تلك الرمال الذهبية الناعمة، التي كانت بالامس القريب صخوراً جرداء قاحلة؛
وتحت سماء صافية، كميون العذارى، وأمام البحر الذي لا يستقر له قرار، امتدت
مئات الكراسي الطويلة، واضطجع عليها السابحات والسابحون، كباراً وصغاراً،
إنثاً وذكوراً، يتأملون الافق البعيد، والموج يصارع البشر، أو يقرؤون الصحف،
أو يستسامون الى الغزل السافر المكشوف .. حيث لا يسألك عابر سبيل، ما أنت

بحواء من الفاعلين .؟ فلقد ترى كرسيين مثلاًصقين ، جاس عليها محبان غارقان في
نجوى الهوى ، فاذا الشفاه تتقارب، والخور تتجارب ، والأيدي تتشابه ، والآهات
تتصاعد .. ويفرق العاشقان ، في جحيم من القبل .. وجارها بجانبها ، لا يعيرها
التفاته ، ولا ينغص عليها الخلوة ، ولا يحلق بهما ، أو يقول : إحم ، أو (إخص)
على شرفك .. ولقد يتدحرجان على الرمل، تحت الكرسيين ، فتدنو ساق من ساق،
و صدور من نهود ، وتاتف الأيدي، وتطرح كؤوس الهوى .. والبحر يقور ووشور،
وبين طياته وناياه يطفرف القوم في خايط من إناث وذكور .. يقفزون لاهين لاعبين
لا يودعون موجة إلا ليستقبلوا أخرى ..

سامح الله تلك الايام ، فقد أنمتنا سباحات (قل أيدى) مهمتها الى حين .! أولئك
السباحات اللواتي كم أردن أرواحاً، و (دهورن) قلوباً ، وهن يخطرن (بمايوهاتهن)
الملتصقة بمجسومهن البضة ، تلك التي تترجم عن كل تقاطيع الجسد المغربي الفاتن ،
وتثير أحاسيس أشد الناس تعلقاً بأهداب الفضيلة ، وذيول الدين .!

وتدحرج صاحبنا على الرمال ، يطلب مؤثلاً يعصمه من موج الفتنة الطاغية ،
وراح يتلو ما تيسر من أوراد ورق وتعاويد ، لئلا تقع في غرامياته فتاة منكودة
الحظ ساذجة ، أو (تشربك) بجائله زوجة مخلصه، فينسف عشاها العائلي وحياتها
الهادية ؛ لا .. لا .. لن يرضى أن يكون سبباً للخراب والدمار ، فوجدانه في هذه
الامور تقي طاهر، فهو يتظاهر بنفوره من الهيفوات والشقرواوت، ولو كانت الواحدة
منهن بتقول للقمر : غيب ...

مغامرة ... ولحوم طرية ...

ولقد أبصر صاحبنا إحدى السباحات ، ووصفها بعد أن حشا فمه بقسم غموس
قائلاً : إنها أتي ، بنت حواء ، إنها أتي وكفى .. وكانت تتلوى بجانب (فيحل) على
رملة حمراء ، وكانها إحدى عرائس البحر ؛ والعيون والقلوب ترافق حركاتها ،
وتعابير وجهها ، أما جسمها البرونزي ، فكان كتمثال مقدود ، بيد (ميكيل آنج)
أو أحد نحاتي الاغريق ..

وكان صاحبنا يسمع غنجها وفحيحها وتمالكها على عشيقها المفتون . . ولولا العيب والحياء ، إن كان عندهما بقية منهما ، لفعلا الفحشاء أمام سمع الناس وبصرهم أجمعين . . والعياذ بالله . .

وحاول أن يبصق كما يفعل ذلك غالباً ، علامة على اشمئزازه واستيائه ، لانتهاك الحرمات والفضائل ، ولكن ريقه كان ناضباً ، فلم يستطع ؛ ودل ذلك على غضبه المنعكس عن شهوات مكبوتة ، كالكثيرين من أدعياء الاخلاق وأنصار الفضيلة . ! ثم انفرجت أسارير وجهه ، وجحظت عيناه . ! فماذا جرى ؟

ففي هذا البلد الغريب ، وبعد طول غياب ، أبصر كأعباً عرفها طالبة من تليذاته ، عرفها في دمشق بقوامها العادل ، وغصنها المياس ، وخصرها اللدن ، ومحياها الاسيوي العريق النبيل ، لقد رآها بأم عينه ، عليها ورقة تين من طراز حديث تستر بها عورتها ، وقد رفعت ثديها بحمالة ، فانتصبا وأي انتصاب . ! رآها تخطر على الرمال ، وقد بدت كل مفاتها وإغرائها ، فتذكر أياماً مضت ، حينما كانت في حجرة الدرس ، تستر كل ملامت من اللحم المحرم . . واذا ما سهت — وقلما تسهو — عن إخفاء المنطقة المحظورة ، فانها سرعان ما تتبين ذلك ، أو تكاد ، فتخف إلى إسدال الثوب ، وشد (المربول) . . وكثيراً ما كان يردد آتئذ في سويداء فؤاده : لا تغطي عني هذا اللحم الهضيب ، ولا تتكفي مؤنة الستر ، فان ساقاً تخفينها اليوم ، لسوف يراها المئات في الغد ، فلم يعرف عن بني جلدتك من آل صهيون منذ أقدم العصور سوى العيب والتزوات . !

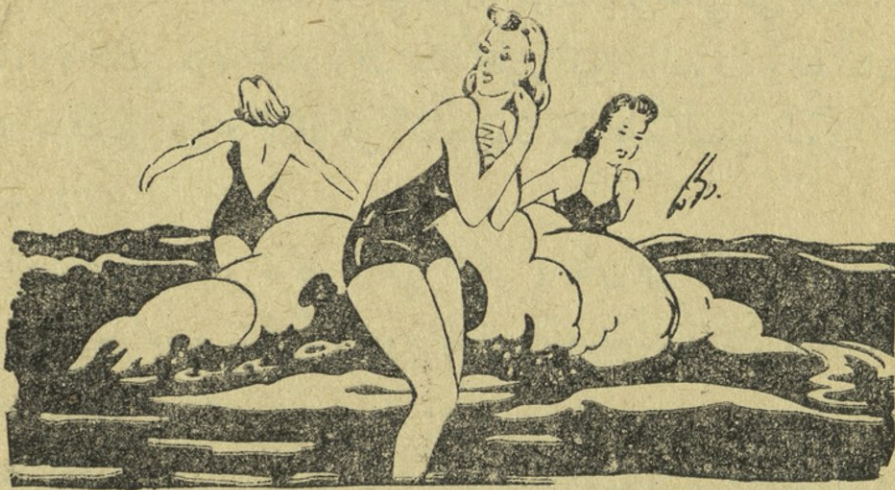
وها هي ذي تحقق نبوءته على شاطئ البحر ، فأين هي الآن من إخفاء ما انكشف وستر ما انفضح . ؟ أبدأ لن تعود أيام الدراسة ، فجسمها الآن أمامه آلاف غيره ، أزهى من حلم ، وأطيب من أمل . .

وأقد شاهدته الهيفاء ، فارتبكت قليلاً ، بحكم العادة ، وأخفت (روح) شفيتها ، كما تخفي الفتاة أول خطاب غرامي تلقته من ابن الجيران . ! وعلت حمرة الخجل ، ورد خديها ، ولكنه ما لبث أن ألقد الموقف بسلام حار ، ونكتة عابرة ،

وسؤال عن الصحة والعمل، مما أزال موقف التلميذة الرينة، أمام الاستاذ الفاضل..
وعادت اليها مفاتن أنوثتها وإغرائها، وتآلت بينها بيرين الحيوية، وهما هو ذا
يدعوها الى غطسة في مياه البحر، خشية الوقوف تحت أشعة الشمس المحرقة..

أغنام للطربي ..

سارت الحسناء بجانب صاحبتنا، فكدت أصيح : ضجوا فالحوت ينتلع القمر ..
سارت وكأنها (غنمة) بين يدي ذئب كاسر ؛ وكنت أتأمل ذلك المحترم ، التقي
التقي ، وأكاد أتميز غيظاً بعد أن أهملني على (البلاج)، ووحيداً ؛ وكنت ممن لا يقبلون
الهزيمة بسرعة، فأسرعت أحشر نفسي بينها حشراً، حتى لفنا البحر بأواجه وأثواجه.
وكانت ساعة ، يستطيع فيها صاحبتنا أن يتيه على أقرانه ، ويزعم بحماسة أنه سبح
مع غادة ، وغطس بجانب مفتان . أو لسنا في بلد تطبق فيه آخر الاختراعات
والاكتشافات .. ومن بديهياتهم الرياضية المشهورة ، ولعلها تعزى الى عالمهم المشهور
(آنشتين) : واحد زائد واحد يساويان صفراً ، أما واحد وواحدة فيساويان
واحد ، وأكثر من واحد أحياناً !..



وودع صاحبتنا غادته ، وشكر لها طيب سعيها وكرم وفائها ، لتلتحق بأبيها
وأخيها وذويها الدمشقيين ، الذين نسوا الشام والأوطان في سبيل صهيون !..

لقد كان الازدحام على هذا الشاطئ لا يعبر عنه (الكذب) البليغ؛ فأنى
نظرت رأيت أجساماً بشرية، وبينما التفت تحسس لحوماً وشحوماً، فالسيقان تنط،
والريق يشط، واللحم يרט، والرؤوس تغط، والاسعار هنا متهودة؛ والبيع
بالجملة والمفرق، مع تزييلات هائلة لأفراد الجيش الخليف، وطلاب المدارس، والعمال
ممن يحملون البطاقات الشخصية، أصلية كانت أو مزورة ..

وراح صاحبنا يبحث عن صيد جديد، فأبصر سرب طباء يلعبن الكرة على
الرمال؛ ولا يقذفنها مرة، إلا لترتج نهود، وتمتز سوق، وتعصف بقلبه العواصف.
فأي مرح هذا، وأي انطلاق؟ أبدأ لن ترى هناك ميئوساً مقطب الجبين، أو حزناً
مزور الحاجبين، فلا سارير ضاحكة مستيشرة، والقهقهات تملو على موج البحر؛
وكل في تسلياتهم يسبحون ..!

ولا تحسبن الشاطئ كله زاخراً بالحسان الغيد، والرعبوبات الأمليد، وأن
كل ما فيه جمال وصبا .. لا .. لا ..! فلوجه الأمانة العامية، وإبراء الذمة نقول:
إن هناك العجائز ذوات اللحوم المترهلة، والمايوهات المسخسخة البايخة، والوجوه المجمدة
التي تذكرك بحيال الحبشة، والشعور المصبوغة المفضوحة. تلك الوجوه التي ليس
فيها سحر حلال أو حرام .. ولكننا لن نتحدث عنهن كرمياً وحفاظاً، وإن نسعى
اليهن؛ أو ايس الطيبات للطيبين .. والمكربات لله ..؟

ولفت نظره بنت عشر وثلاث، كما قال الطيب الذكر (بشار)، تخطر بحبالها،
وتدل بمدوراتها، على لغة الصحافي التائه، لا هداة الله، وقد انتعلت حذاءً من
(الفاين) عالي الكعبين، أحمر الجلد، فاستطالت قامتها، ونشأت أردافها، وبرز برعما
نهديها، وشمخا، وكانت تستر شعرها العسجدي بقبعة حمراء، فاقع لونها تسر
الناظرين. وكانت العيون، التي شربت حتى ارتوت، تكاد تبلعها وتقيسها من تحت
لفوق ومن فوق لـ... تحت...! فبحاق فيها كما يقتضي المقام، وحوقل، واستعاذ بالله،
وقرأ آية الكرسي سبع مرات، فقد جشي على ايمانه، وكاد يفلت من عقاله، بعد
أن شاهد عرياً وإباحية يحمر لها وجوه البحارة أنفسهم. لقد رأى جمالا سافراً لا

أثر العكياح فيه ، وشاهد رمالاً متوهجة ، وشباباً وثاباً ، وحرارة كاسحة ونفوساً
هائجة مرحة عاطلة في سببها وعيدها وراحتها ، تنتهز اللذات باسم الرياضة والسباحة
والفن ، دون أن تعلم بأن الانسان اذا اتصلت به هذه الاسباب ، وتملكته تلك الحرية
ثارت بهيمته ، واستيقظت أحلامه وشهواته ، وعاد الى سيرة الابتدائي الاول ،
ومرتبه الحيوانية .. ولولا أني أغرقت صاحبنا بسيل من الاحتجاجات والمهاجمات ،
خوفاً على منطقة ايمانه البكر ، العامرة بالدين القويم ، لما قام عن الرمال ، وما
ترك ذلك الشاطيء الطويل العريض ، الغني بضروب الحسن والجمال ، حتى يدركه
الليل . فلقد علم أن البلاج مفتوح ليلاً ، وهو ملاذ آمن للعشاق ، ولأصحاب
الخلوات ، يشن فيها المتحاربان المتشابكان هجوماتها ، على الواقف ، بدون اللجوء
الى الخنادق ، أو مرا كز الاستحكامات . فكم شهدت تلك الرمال تحت نجوم الليل ،
وأثناء غيابها ، من ليال حمراء ، وتهيدات وزفرات ، وقبل وعناق ؛ كم شهدت من
صبوات ونزوات والبحر تهدر أمواجه ، والقمر يرسل أضواءه ، والمارة في الشارع
المجاور ، يسرون لاهين ولا يعبؤون ؛ يتركون العشاق والفساق يجتمعون ويركعون
ويسجدون ، ويقطفون زهرات الحياة ، قبل أن يزوي الشباب ، فيحل الندم ،
ولات ساعة مندم ...

فيا قارئ العزيز :

إذا سمعت أن شابات وشباناً من اليهود ، ذهبوا الى فلسطين ولم يعودوا ، وإذا
اتصل بك أن هنالك من العرب من يسافر عشرين مرة في السنة الى فلسطين ، باسم
العلم والسياحة ، أو الكسب والتجارة ، وإذا علمت أن هنالك من يقضي أيامه على
أحر من الجمر ، بانتظار رؤية فلسطين ؛ فاذكر أن في بلاج (تل أبيب) سحراً
يجذب النفوس ، وجمالاً يأسر القلوب ، وامتعاً هيئات أن تنضب ، وفتيات صهيونيات
من كل جنس ونوع ، يبدن من الاغراء فنوناً ، ومن الاباحية السافرة ضروباً ؛
مبدؤهن الغاية تبرر الوسطة ، آلين على أنفسهن جمع المال من أي سبيل ، ولو كان
بيع اللذات على البلاجات ، وفوق الرمال ، وفي هدأة الليل البهيم !

في سوارع تل أبيب .

خرجنا من البحر تملين بنشوة الجمال ، وقصدنا شوارع المدينة ، نتمتع أعيناً
ظمأى الى الحسن والحضارة ، أعيناً يقظة الى اصطیاد كل طريف جديد ، يزيد في
المعلومات ، ويوسع أفق الاطلاع ، ويكشف آفاقاً جديدة من الحياة الصهيونية .
خرجنا الى شارع القصور ، ولك أن تسميه بشارع الجنان والخور العين ،
شارع الحدائق الفناء والازاهير والرواء . . .

والقوم منتشرون في كل جانب . فهذا مساء السبت ، وغداً اسبوع العمل ، وما
راحة تمنحها لجسدنا وعقلنا بالوقت الضائع المفقود . . .

وسيدكر صاحبنا ما عاش ، رئيساً قديماً له ، يحسب أن قيمة الموظف ، ومقياس
نشاطه ، وتفانيه في الخدمة ، ومعيار كفاءته ، هو بعدم استعماله إجازاته . وإذا
كانت القوانين تمنح الموظفين إجازة شهر ، فهي لم تمنحهم ذلك إلا اذا أصابهم مرض ،
أو فقدوا عزيزاً ، أو نزلت بهم المصائب . أما الاجازة لقضاؤها في المصائب ، وعلى
شواطئ البحر ، فهي تدبير لا يليق بكرامة الموظف التزيه الحريص على المصلحة
العامه ؛ وسيدكر صاحبنا ، والاسى يحز فؤاده ، أن رئيسه هذا ، لا رد الله غربته ،
قضى أربعين سنة في خدمة الحكومة ، ولم يستعمل أثناءها إجازاته ؛ اللهم عفوك ،
إلا مرة واحدة ، لمدة سبعة أيام ، وذلك حين زواجه الميمون ، أي حين بلغ الخامسة
والخمسين وأصحاب العقول بألف خير . . .

ولو أن هذا الرئيس آلة جامدة ، لاستراح في غضون أربعين سنة ، ولكنه
العمل ، والوظيفة ، والسلطان ، بل العقل الانكشاري الهمايوني الحميدي ، الذي ابتليت
به هذه البلاد ، والذي لم تجن منه سوى انعدام الثقة بين رئيس ومرؤوس ، ولم
تحصد منه سوى الضغائن والاحقاد والفرار من المسؤولية ؛ تلك النتائج التي كانت
لها أسوأ العواقب في جهاز حكومة تسعى جاهدة لتتبوأ مركزاً ممتازاً تحت الشمس . . .
كان القوم في عيد . . . وهم يحسنون استعمال ساعات الراحة ؛ يذهبون الى
الأرياف ، والى الملاعب والمسابع ، والملاهي ، ودور السينما ، يستعيدون نشاطهم ،

ويتهيئون لأُسبوعهم المقبل ، وفي ذلك تجديد للقوى ، واستقبال لآليات الايام ،
بالأمل ، والسرور ، والمرح ، والتفاؤل الشديد ..

وكان صائدو الصور يتجولون بالآلاتهم هنا وهناك ، في حركة ونشاط ؛ مما
دعانا الى تسجيل هذه الرحلة في صورة حية . تتجلى فيها أشكال العجول الحنيدة
على مصاطب المرعى ، كما كان يقول شيخنا المرحوم (المبارك) .. واقعد ووقت على
على مرتفع في حديقة ، وبجاني صاحبنا بقامته المديدة الضخمة ، يسبح رأسه في قبعة
عريضة واسعة من الفلين .. ووقف المصور بوضع مسرحي يغلق عيناً ويفتح أخرى ،
ويثني رجلا ويميل رأساً ، ثم أشار الينا بالتريث والهدوء ، وبابتسامة صغيرة ؛ وما
هي إلا لحظة الطرف حتى سلمنا بطاقة كتب عليها بالعبرية والانكليزية ما لم نفهمه ،
فشده صاحبنا ، وحسب (الراجل) يسخر منا ، وكاد يضع يده على جنبه ، يفتش
عن خنجر يطعن به من أهان الشرف الرفيع ، لولا أن فهم المصور التبيه المراد ،
وأنقذ الموقف بلباقة ، وبدله من مشهد درامي الى موقف مضحك ، باعلامنا أن
البطاقة هي عنوانه لا صورتنا الكريمة ، وما علمنا سوى الحضور غداة الغد لنستلمها ،
بعد دفع الاجرة حالا. فهز صاحبنا رأسه علامة استحسان ، بينما كانت عيناه تبجلقان
في فتاة يعرفها ، تمنى لو رآها قبل دقائق ، لتبعث في النفوس الحرارة ، وتجمع الشمل ،
وتكون نعم الكاخ ، بين الشاطر والمشطور !.

لم نر في حياتنا زحماً منتظماً كالذي شاهدناه في تلك الليلة . واذا علمت أن
الرصيف في شارع (اللّمني) ، وهو الشارع الرئيسي في تل أبيب ، اذا علمت أن
الرصيف ، بعرض شارع من شوارعنا الضخمة التي نعتز بها ، وشاهدت تلك الامواج
البشرية المتراسة المتتابعة ، أدركت أي زحام شاهدناه في المدينة التي لا تنام .! أجل ،
كان زحماً منتظماً من اليمين ومن اليسار ، فلا سيارة تدهس ، ولا رجل (يزعوط)
ولا سائر يدفعك دون أن يعتذر ، ولا مجنون عار يركض في الطرقات ، ولا شجار
ولا خصام ، ولا بصاق هنا وهناك ، ولا مغازلات بريئة أو جانية ؛ وإنما هي طرق
نظيفة ، يشتهي المرء أن يجلس فيها ، مع بعض أفراد العائلة المؤلفة من عاتكة

وأم حسين وأم سحلول وأولادها ، كما يجلسن في الصيف على أرصفة شارع بغداد ،
وعلى جوانب السبع بحرات ، ليمتعن بعشاء شهبي من (المجدرة) و (طواحين الخلل)
يقضمونها بأسنان حادة ، لا عمل لها سوى القضم والمضغ ، ولا شيء سوى ذلك .
وكانت سائر المحلات مغلقة ، إلا من باعة المرطبات والحلويات . فترى أمامها صفوفاً
لا تنتهي من الزبائن ، كل ينتظر دوره ؛ ولو كان للباعة آلاف السواعد ، لعجزوا
عن تلبية مطالب الراغبين في الشراء ؛ فما على العاملين إلا تقديم البضاعة دون توقف ،
وما على الباعة سوى قبض النقود . وامل القوم هناك يجنون الأرباح ، والكنهم
يعرفون كيف يصرفون . وفي ذلك لذة هيئات أن يدركها من يعيش في فقر خوفاً
من الفقر .!

ولن تجد في الشوارع ماء تلجأ إليه إذا أصابك الظمأ ، فصناير الفيحة مفقودة ،
لكن ماء الصودا المثلج مبذول ، فادفع واشرب ، وحيًا الله دمشق وماءها . !
وأمام هاتيك المخازن المغلقة ، ترى الألواح البلورية الهائلة ، المستوية حيناً ،
والمعقوفة أحياناً ، وراء الشباك الحديدية ، وقد نضدت في واجهاتها البضائع المختلفة ،
من قبل اختصاصي فنان ، يتجاوز أجره راتب موظف ضخيم في دوائرننا . والكهرباء
تشع منها ، فتزيدها بهاء وجمالاً . وهل من عين آثمة تروم سرقة أو أذى .؟ لم نشعر
بذلك قط ، ولم يحدث .؟ وهل يخرب الإنسان بيته بيديه .؟

وانظر الى تلك الاعلانات الموضوعة داخل إطارات زجاجية في الجدران ، وقد
قال صاحبنا حين رآها : تالله لو أن هذه الاعلانات موضوعة في مدينتنا ، لما رأت
النوريوماؤيلية ، ولحطمها أول طفل يشاهدها ، إن لم تكن أول مظاهرة تمر بها .
وهل ينسى صاحبنا كم من ألواح زجاجية حطمت في الاضرابات ، وكم من (يافطات)
غدت أترأ بعد عين ، بفعل فتية لا في العير ، ولا في النفير ، دأبهم إلقاء الفوضى
والتخريب ، دون رادع أو زاجر .!

وكانت أمام صالات السينما صفوف لا تنتهي ، أو (ذبول) كما يسمونها ، خليطة
من ذكور وإناث ؛ وكبار وصغار ، لا يجرمون أنفسهم متعة السينما ، ولو مرة في

الاسبوع . . . والمطاعم والمقاهي ، الغارقة في فيض من الانوار ، تستقبل زبائنها من أصناف الناس (الأوادم) الآتين في أبهى زينة ولباس ، وهدوء عميق ؛ يجلسون ليستمتعوا بالطمأنينة والدعة ، دون أن تسمع أصوات النادل (تلعلع) واحد بريء ، تنين شاي ، ثلاثة كسما ، ولا أصوات اللاعبين ، شيش بيش ، طرق طراق . . . ذكور وإناث حول موائد ، خوانها ذولون منعش ، وأحاديثهم خافتة ، تتزج بابتسامات تم عن سرور نفسي ، وازان واعتدال ؛ هذا يقرأ ، وذاك يتأمل صامتاً ساكناً ، وهنا وهناك يتحاق القوم ، ويتحدثون في حدود الأدب ، فلا تسمع إلا همساً ، ولعل الفضل الأكبر في ذلك يعود الى بروز المرأة في مجتمعاتهم ، فتهذب أذواقهم وتصل نفوسهم ! .

والمقاهي تكتظ بالخدامات ؛ والحوانيت تزخر بالبائعات الناعمات .. فكل امرأة عندهم تعمل ، وكل فتاة تشتغل ، حتى كادوا يسرفون في ادعاءاتهم بأنهم أصبحوا أكثر من العرب عدداً ، لأن نساءهم يعملن ، ونساء العرب لا يكلفن بغير تدبير المنزل ، والاكل والثرثرة ! .

فهناك تعمل الفتيات الاملودات في الملاهي والمطاعم والحوانيت ، نهيات الى كل شيء إلا الثرثرة في غير حينها ، يتكلمن أكثر من لغة ، إلا العربية ؛ وإن من يعرف العبرية في هاتيك الربوع ، ومن يتقن عادات القوم وتقائدهم ، يفز بكل ما يتنى من عمل ، وريح ، وعلاقات وصلات ، ولحوم ساخنة ، وأجسام دسمة ، ووجوه نيرة لذيدة . . .

ومما يلفت النظر يوم السبت ، وخلال الاعياد ، خلو الشوارع من باصات اليهود ، فهي لا تعمل ، لان سائقها بشر ، وبحاجة الى الراحة كغيرهم تماماً ؛ فليس من العدل أن يعملوا دون استراحة ، ولو كان في عملهم جني الأرباح الطائلة لشركة (إيجد) ، وهم خير من يعرف الاستغلال والاستثمار . فهل سمع عمالنا وتجارنا ورؤساؤنا ذلك ؟ ؛ إني أتمنى مخلصاً لو أن رئيس صاحبنا الذي قضى أربعين عاماً في عمل متواصل ، دون إجازة ، أن يحضر الى تل أبيب ، ايشاهد كيف تعيش

مخلوقات الله ، وكيف تقدر الكرامة الانسانية ، وكيف يتضاعف الانتاج اذا نال
الفكر والجسم حظهما من الراحة ...

هيا نتسكع في سوارع تل أبيب .

لا تكاد الساعة تدق الثامنة ، حتى ترى الحوانيت والمخازن والمحلات التجارية ،
ودور الصناعة تفتح أبوابها . وينتشر القوم في كل مكان يطلبون الرزق ، ويتفرغون
العمل ، فدب الحركة في مدينة الربيع ، وتفيض بالنشاط والحرارة ..
ومما يلفت النظر ، هو اندفاع الاهلين الى الشراء والبذل . فلا تعجب اداريت
حوانيت الحدائين مثلاً ، وأصحابها لا يهدؤون ساعة ، يلبون طلبات الزبائن التي لا
تنقطع . فالقوم يتقنون جني المال ، ويحسنون صرفه ... وتلك لذة لا يعرفها إلا
المجربون ...

والآن ، نعال ندخل حانوتاً من هذه الحوانيت الضخمة التي تحتوي آلاف
الاصناف ...

ودخل مخزناً تلاءمت على أبوابه الانوار ، ونسقت فيه البضائع تنسيقاً بديعاً ،
وظهرت آثار النظافة والترتيب في كل زاوية من زواياه .
وانحنت غيداء أمام الزبونين الكريمين قائلة : (بيفا كاشاه) أي تفضل بلغة
اسرائيل ؛ وهن صاحبنا رأسه بالسلام ، وشرعت تخاطبه بلغة عبرية فيها سحر
هاروت وماروت ، فعلمت عيناه بشفتيها الحمراء ، عساه يجد تفسيراً لكلماتها .
ولما ألقى سلاح العجز ، رجاها أن تتكلم بالفرنسية التي يفهمها ؛ فاندفعت تتحدث
بلهجة باريسية ، تلتغ بالراء ، وراحت تعرض بضائعها .

فطلب صاحبنا صابون (كوزموتيك) ؛ فدهشت للاسم ، وهل هو مواد
متفجرة ، أم قنابل من نوع جديد ؛ ولكنه طمأنها الى أنه ينفع في رفع الشاربين ،
فتغدوان كذني هر ، أو (غيدون) دراجة ، فاعتذرت لعدم وجود هذا الصنف .
فسألها عن حاملة نهود ، فارتسم على وجهها ألف إشارة استفهام ، فما حاجتنا الى هذه

البضاعة المزجاة؟ ولكنها صهيونية بائعة تعرف جلب وجذب الزبائن ، ولو كانوا في أقصى المريح . . .

فاستفهمت عن قياسها ؛ ونظر صاحبنا اليها دون شعور ، و صوب باصرتيه نحو مكان ما في صدرها ، ثم استراح ، وعلى شفتيه ابتسامة مكبوتة ، فسألته عما به ؟ فهمس : وفي النفس حاجات .! ثم قال : أظن أن قياسها . . يناسبك . . ضعني من فضلك واحدة على صدرك ، لآرى لونها وشكلها وحجمها . . فاحمر وجهها ، وسألت صاحبنا بعد أن لبث الطلب : والآن خبرني : أمتزوج أنت أم عزب ؟ فقال : إني لم أعثر على نصفي الآخر ، ولم أعم ديني بعد ، أما رفيقي هذا ، فهو متزوج ، وله أولاد ، فانها لت بسيل من الايضاحات ، لم لم يتزوج ؟ فأكد لها أنه ينتظر عودة الحياة التجارية ، وتسهيل المواصلات ، وينتظر عروس أحلامه البولونية . . فقالت بعد أن تأكد لها أنه يهودي صميم : إبق هنا ، ولا تغادر فلسطين ، إن أرض الميعاد بحاجة الى أبنائها ، فدعاها لزيارة دمشق فقالت : لن أستطيع . . فلا يجوز لنا ترك وطننا لنذهب الى بلاد (الغويم) الكفار ، الى سوريا مثلا ، لنصرف أموالنا . فليات الينا الأجانب ، وايسرفوا أموالهم ، لنجمعها في بناء الوطن . إن الوكالة تحظر علينا مغادرة فلسطين للسياحة ، لتبقى الاموال هنا ، فتتكاثر ، وتنمو المشاريع ، ويزدهر الوطن . فأمن دون مناقشة ، على كل كلمة من كلماتها ، وأكد لها أنه في دمشق . لا يشتري حاجة واحدة إلا من أبناء ملتة ، وأنه داعية صهيونية ؛ فأكبرت فيه هذا النبيل وهذا الاندفاع . .

وسألته ، كما سأله كثير غيرها ، لم لا يتقن العبرية ، بينما يتكلم الفرنسية كأحد أبناء السين . فأنبأها أنهم لا يهتمون في دمشق كثيراً في تعليم العبرية ، بل يقنعون بسور الصلاة ، ويهتمون بالفرنسية ، لغة المدرسة والشارع والبيت . . .

وهكذا ما دخل حانوتاً إلا ووجد من يحسن الفرنسية ، كما يحسن كل لغة من لغات العالم ، وما دخل حانوتاً إلا وقاده الحديث الى البقاء في فلسطين ، وعدم العودة ، ليجد الخطيبة المرتجاة . ولعله لم يحتم حديثاً إلا بدعوة البائعة الظريفة الى قضاء سهرة ،

تذهب الحزن عن هذين العبدین الفقیرین اللذین خدعت بهما كثيرات من بنات
صهيون . . .

واندفاع البائعات في إرضاء الزبائن مما يضرب به الأمثال . واذا كنت في شك
من أن اليهود أمة تحسن حساب الدوائق ، والقيام بالمشاريع المالية والتجارية ،
فشرف تل أبيب ، وسترى عجباً . . .

فلن تقف البائعة مكشوفة اليدين ، غير مبالية ، ما دامت ستتقاضى أجرها
آخر النهار . لا .! بل تراها في حركة دأمة ، مندفعة في اخلاص وشهامة يحسدها
عليها كثير من موظفينا الخدامين . . . تنثر أمامك البضائع دون تعب أو كلل ،
وتدافع عنها دفاع محام يعتقد بأحقية قضيته ، وتستدعي كل زميلة لها لتتفاهم وإياك
باللغة التي تختارها ، وتقدم اليك كل التسهيلات ، مع ظرف فيه إغراء وفتون . . . وفي
سبيل الأرباح ، يهون كل شيء . . .

والقوم هنالك يحترمون قوانين الحكومة . . .

ووزارة الاعاشة ، إن كان ثمة وزارة ، محترمة الجانب . فالتسعيرة الاجبارية
مطبقة على العين والرأس ، والويل للمتلاعبين ، ولخالفى أوامر الحكومة . فلاهوادة ،
ولا وساطة (أبوفلان) أو التاجر العلاني من الشركة الثلاثية أو السباعية . . .
وفي كل المخازن ، في جميع المدن والقرى ، من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب ،
ترى البضائع تعلوها بطاقات جميلة ، كتب عليها السعر الموحد (أوتيليتي) وهكذا
استراح البائع ، والمستهلك ، ولم ترتفع أسعار الحاجيات ، في سوق سوداء أو ظلماء . .
وتذكر صاحبنا وزارة الاعاشة في سوريا ، وكيف كانت وزارة إمارة ، وتشليح ،
ونهب ومورد عذب ، لتنمية خزينة الدولة ، حتى غدت سوريا ثاني بلاد العالم
بعد طهران ، في الغلاء . . . وضجت من ذلك الارض والسماء . . .

ودخل مخزناً ، وابتاع حوائج كثيرة ، ثم طلب زوجين من الجوارب ، فاعتذرت
البائعة ، لان قوانين الدولة لا تسمح للمستهلك إلا بمجرب واحد . ولما أعلفها
أن الحكومة لا تراها الآن ، وأنه اشترى أشياء كثيرة ؛ رفضت الطلب ثانية ؛ لكنه

وجد للمسألة حلاً ، بأن يجعل زوجه له وآخر لصديقه ، فاحتملت الحيل على مريض ،
لأنها شعرت بالاحتياج على القانون .

وسأل صاحبنا أحد الباعة عن بلده ، وعن سبب هجرته ، فأجاب : ألمانيا ..
ثم أشار الى عنقه ، علامة جبل المشنقة ، أو سكنين الجلاد . ثم قال : هتلر .. فما
كاد يلفظ الكلمة حتى صرخ صاحبنا بملء شذقيه : (بوز) أي فليسط بلغة العبران .
فسر البائع لهذه المجاملة الطيبة ، وأرسل لاسم هتلر فيضاً من اللعنات ، وتنزيلاً
خاصاً في الاسعار !!

ووقف يستمع الى نغمات هاوٍ من هواة الموسيقى ، وقد عاق (نوطته) على
مشجب أمامه وراح يعزف بكبانه . فحيا فيه تلك الروح الفنية ، التي أبت إلا أن
تجلى في الشوارع وعلى أرصفة الطريق ، لتطرب الناس أجمعين ..
وقطع تأمله فتاة تدنو وتضع أمام الموسيقى قطعة نقدية ؛ فلم عندئذ أن هذا
العازف ليس سوى شحاذ ، يستجدي الأء كف عن طريق فنه ، فذكر صاحبنا
شحاذي الشام المشوهين أو المجانين ، ممن يملؤون الطرقات ويصرخون بأصواتهم
المزعجة ، ويشوهون جمال المدينة ، والحكومة عنهم لاهية . وأيقن أن هذا الشحاذ
قد ارتفع بالمهنة الى أسمى مراتب الكمال ؛ فنذب حـظ شحاذي دمشق ، الذين لم
يصلوا الى هذه الدرجة من رقي المهنة .. فتخيل لو أن شحاذينا اقتبسوا طريقة هذا
الشحاذ ، وشرعوا يطبقون آخر ما وصل اليه الاختراع والاكتشاف في جذب
أء كف المحسنين . فهذه تدق (الدربكة) وذلك (النابي) وتلك (القانون) الى آخر ما
يشتهون ؛ أمّا يطالبهم المارة آئذ أن يعودوا الى ألحانهم القديمة لينجوا من فنه البليد .؟
واجتاز صاحبنا شوارع تل أبيب ، في رأء الضحى ، وفي الأصيل ، وفي المساء ،
وزار معالمها ، ومباهجها ، فلمس لمس اليد كيف تنشأ مدينة في خمس وعشرين سنة ،
تضاهي أعظم العواصم ، وتباهي أكبر المدن ، بنظامها ونطاقها ونشاطها ، واهتمام
المسؤولين بها ، حتى أصبحت جديرة بلقب عاصمة الصهيونيين .. .

في طريق القدس

هيا

إلى البلد المقدس ، الى أورشليم ، مدينة السلام ، المدينة التي أجمع على تقديمها أهل ديانات الأرض الكبرى الثلاث ؛ ففيها معبد سليمان ، رمز أمجاد اليهود ، وفيها قبر السيد المسيح ، مخلص وفادي اخواننا المسيحيين ، وفيها المسجد الأقصى ، الذي أسرى اليه سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم !.

هذه هي القدس التي طالما بذلت في سبيلها دماء ، منذ بختنصر ، الى طيطس ، الى الفرسان الصليبيين ، الى صلاح الدين وحطين ، الى اللاتني والعرب الميامين ، الى الطغمة الباغية من الصهيونيين ..

تحت كل حجر من أحجارها ذكرى ، وفي كل بقعة من بقاعها جاس الانبياء والرسل والمصطفون ..

فيا بيت المقدس ، يا أورشليم ، أنف التي تغنت بك التوراة ، وشدا بذكرك الانجيل ، وذكرك القرآن ، وجملك مباركة ، على مر الدهر والسنين ..
أجل .. لم نكد نهبط فلسطين ، ونسمع بذكر الاردن وطبريا ، والناصره والخليل ، وبيت لحم وأورشليم ، حتى عاودتنا ذكريات خلدات ، ذكريات رجالات التاريخ ، رجالات الاديان الذين فتحوا عيون المشرقين على نور الايمان ، فوهبوا الديانات السماوية الخالدة الى الغرب الذي هوى الى أودية الضلالات السخيفة ، عندما تنكر للتعالم وتنكب عنها ، وكان من الضالين ..

واليوم نمضي ، بل ترتفع ، بل نتشرف بترايك يا بيت المقدس ، يامن لك في قلب كل يهودي ونصراني ومسلم المسكان المرموق ، نتشرف بك ، وتخامرنا فكرة واحدة طغت وهيمت على مشاعرنا وهي : كيف يجرؤ باغ أن يطأ أرضك ، وكيف يقوى فاسق على دوس ثراك ، وكيف يمكن أن ترتكب الفاحشة في ربوعك ، وأنت أنت ، أم الديانات ، ومعاملة القبائل والشعوب ..؟

إليك تشد الرحال ، ومحج الحجيج ، أنت يامن يتمنى ملايين البشر أن يكحلوا
عيونهم برؤيتك ، ويحظوا بذراع من ثراك ، ليوارثهم في رحابك آمين . .
ولئن بدأت بعد أمنك خوفاً ، وبعدهدوءك اضطراباً ، فما هي إلا سحابة صيف
سوف تنقشع ، وكل أجل الى كتاب ، والله مع الصابرين . .

كانت جموع غفيرة من المسافرين ، تنتظر ساعة الذهاب الى القدس ، من محطة
(ايجد) الكبرى في مدينة الربيع ، وكان العسكريون يقدمون على المدنيين ، وما
بقي من الركب فسواسية . ولو كنت واقفاً على نار الغضا ، لما سمحوا لك بالتقدم
عن دور رفيقك ، وظلم في السوية عدل في الرعية . وسيدكر صاحبنا حيناً من
عيون اليهود ، تقدم من كوة قطع التذاكر مخالفاً الاعراف والعادات ، دون انتظار
دوره ، فرده بائع التذاكر رداً جميلاً ، مما اضطره أن يقف في آخر الذيل ، ولا
ماءك أقيمت ، ولا هنك أقيمت . .

حملتنا سيارة باص واسعة ، ذات رفوف للامتعة ، وسيور جلدية يستند اليها
الانسان في المنعطفات ، وقد جلس كل راكب في مقعد مريح ، لا يحتاج فيه الى
أن يكون محصوراً ، مكبوساً مقوس الرجلين . .

ومما يلفت النظر ، عدم مشاهدة المفتشين في الباصات الصهيونية ، فهم يكتبون
غالباً بتفتيشها قبل رحيلها ، أو يقنعون بدمية السائق وأمانته . واذا اتفق وصعد
مفتش وطلب منك بطاقتك ، فانما يخاطبك بكل أدب واحترام ، الشيء الذي كنا
نتمناه سارياً في الباصات العربية . . وكذلك ، فان لباس السائقين ومفتشهم متشابهة
ورسمية ، بقبعة من الخاكي خاصة ، تحمل شارة (ايجد) . . ولن ترى أسرع منهم
في قبض الدراهم وخزنها في تلك الاسطوانات ذات القعر النابض . . ولا يستغرب
هذا الشيء من أهله . .

وجلس بجاني جندي بادني السلام والكلام ، وكان لي نعم الرفيق . فهو
يهودي يوناني التحق بقوات الحلفاء ، وحارب في البلقان وشمال أفريقيا وإيطاليا ،

وانتهى به المطاف في فلسطين ، حيث أهله وذووه ، فاختر هذه الديار وطناً له .
وهكذا تجري هجرة خفية جسارة قوامها الجنود والقواد ، يدخلون البلاد باسم
الحق والقانون ، حتى اذا انتهت خدمتهم ظلوا فيها آمنين ، وكانوا خير دعامة لرجال
الجيش الصهيوني المتيد . . .

وبجانب صاحبنا ، مجندة من مجندات صهيون ، كانت له نعم الجليس الظريف ،
الى البلد العتيق . وقد سألتها عن المعارك التي خاضتها ، ففهمت منه الاشارة ؛ وهل
معاركها سوى تلك الهجمات اليلامية ، والانتقال من فراش الى فراش ، ومن ضمة الى
شمة ، لتنال أوسمتها ودرجاتها بمجدارة واستحقاق ؟ .

وكانت السيارة تنهب الارض نهياً ، ونحن في أحلامنا لاهون ، وهي تصعد في
جبال تشبه جبال لبنان ، وقد هب النسيم عليلاً منعشاً ، كأننا بين عالية وبجمدون ،
وعلى جانبي الطريق أشجار الفاكبة ، من العنب والتين والخوخ وسائر الاثمار . . .
وأشرفنا على القدس ، فاذا هي جائمة فوق مرتفعات جبلية ، حولها أودية شهيرة
في التاريخ ، ويحيط بها جبال أسماؤها على كل لسان . . .

قدس شريف ، أفنرم .

لم يكد صاحبنا يهبط من سيارته ، حتى أسرع يتساع أحدث مصور للقدس
الشريف . وسرعان ما وقع على بعينه ، واذا به ينشره في عرض الطريق ، كسائح
أمريكي وصل حديثاً الى الشرق ، بسر واله التصوير ، وقيصه المفتوح الصدر ،
المشمر الكين ، وبعته الخالدة الفضفاضة ، التي سبيت لنا ألف مشكلة وورطة .
والتجأ الى أقرب بائع مشاجات ، ليفحص مصنوعات القوم . وهل تفوق مثيلاتها في
دمشق ، مطعم العالم ، التي تفوق مداخن مطابخها مداخن معامل (كروب)
و (ستين) مجتمعين . واطمأن قليلاً الى نفسه ، ثم نشر خارطته أمامه . ولكنه
اصطدم بأعظم عقبة ، ألا وهي جهل الجهات . نعم ، إن الخارطة لو واضحة جداً ،
ولكن في أي زاوية هو منها ، وما هو اتجاهه ؟ وهرع الى شباب قريه يسألهم مستفهاً ،

فَعَجِبُوا مِنْهُ ، وَمَنْ خَارِطْتَهُ ، فَلِمَ يَحْمِلُهَا إِذَا كَانَ يَجْهَلُ اسْتِعْمَالَهَا . عَلَى أَنْ أَحَدَ
أَوْلَادِ الْحَلَالِ ، الَّذِينَ لَا يَخْلُو مِنْهُمْ مَكَانَ ، أُرْشَدَ إِلَى سَوْئِهِ . وَأَنْبَأَهُ أَنَّهُ فِي شَارِعِ
يَافَا ، أَمَامَ شَارِعِ مَامِيلِيَا . وَلَكِنْ مَا هِيَ مَامِيلِيَا هَذِهِ ؟ أَهِيَ بِنْتُ أُخْتِ أَمِيلِيَا وَفِيكْتُورِيَا
أَمْ أَنَّهَا مِنْ فَصِيلَةِ اللُّوبِيَا وَالْفَاوُولِيَا . ؟ وَوَقَفَ أَمَامَ سَيِّدَةٍ ، حَيَاهَا كَمَا يَقْتَضِي الْمَقَامُ ،
وَسَأَلَهَا عَنْ مَامِيلِيَا ، فَأَنْبَأَتْهُ أَنَّهَا مَأْمَنُ اللَّهِ . فَشَكَرَهَا ، وَحَوَقَلَ ، وَرَجَعَ إِلَى اللَّهِ . .
وَاتَّجَهَ نَحْوَ الْمَدِينَةِ الْقَدِيمَةِ ، لِيَقِفَ قَائِلًا أَمَامَ أَسْوَارِهَا ، كَمَا وَقَفَ وَرَكَعَ أَمَامَهَا
قَبْلَهُ الْآلَافُ خَاشِعِينَ . .

بَيْنَ بَابِ الْخَلِيلِ وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى .

وَقَفَ بِيَابِ الْخَلِيلِ ، أَحَدَ أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ الثَّمَانِيَةِ الَّتِي لَا زَالَ بَعْضُهَا مَقْفَلًا مِنْذُ
أَجْيَالٍ . وَقَفَ مَطَاطِيءَ الرَّأْسِ ، خَاشِعًا يَتَأَمَّلُ نَقُوشَهُ الْعَلِيَا وَقَدْ كَتَبَ عَلَيْهَا :
« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَمْرٌ بِأَنْشَاءِ هَذِهِ السُّورِ الْمُبَارَكِ ، مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمَلِكِ
الْأَعْظَمِ ، وَالْخَاقَانَ الْأَكْرَمِ ، مَالِكِ الرُّومِ وَالْعَجَمِ ، السُّلْطَانَ سُلَيْمَانَ بْنِ سُلَيْمِ خَانَ ،
خَلَدَ اللَّهُ مَلِكُهُ ، بِتَارِيخِ ٩٤٥ هـ مِنْ الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا أَلْفِ تَحِيَّةٍ وَسَلَامٍ . »
وَفِي الْجِدَارِ الدَّاخِلِيِّ كَتَبَ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللَّهِ » . وَمِنْ هُنَا جَاءَتْ
تَسْمِيَةُ الْبَابِ ، بِبَابِ الْخَلِيلِ . وَكَانَ خَلْفَ الْبَابِ وَالسُّورِ ، خَنْدَقٌ سَحِيقٌ ، كَمَا
سَفَحَتْ عَلَى جَنْبَاتِهِ دِمَاءٌ ، وَبُرَّتْ أذْرَعٌ ، وَقَطَعَتْ أَعْنَاقٌ ، وَكَمَا تَخَضَّبَتْ أَرْضُهُ بِجَنَاحِ
العرب والفرنجة على السواء . .

وَكَانَ الْمَمْرُ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ضَيْقًا جَدًّا ، وَأَرْضُهُ مَرْصُوفَةٌ بِالْحِجَارَةِ عَلَى
طَرِيقَةِ التَّرْصِيفِ فِي الْعَصْرِ الْخَالِيَةِ ، تَهَيَّطَ مِثَالُ الدَّرَجَاتِ الَّتِي يَقُومُ عَلَى جَانِبِهَا
أَسْوَاقُ الْخَضِرِ وَاللَّحُومِ وَالْعَطَارَةِ .

وَلَمْ نَكُنْ نَهَيَّطُ تِلْكَ الْأُزُقَةَ ، بِزِينَةِ الْمَعْبُودِ ، حَتَّى أَوْقَفْنَا شَرَطِيَّانَ ، أَحَدَهُمَا
فَلَسْطِينِي وَالثَّانِيَّ انْكَلِيزِي ؛ خَاطَبَانَا بِالْانْكَلِيزِيَّةِ ، وَبَرَفَعَ الْيَدَ ، بِمَا مَعْنَاهُ مَمْنُوعُ الْمُرُورِ .
وَكَانَتْهَا حَسْبَانَا يَهُودِيِّينَ ، وَارْهَابِيِّينَ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ ، نَمَضِي إِلَى الْمَبْكِيِّ لِنَنْدُبَ عِزًّا زَائِلًا

ومجدداً سالفاً .. ولما أفهمناها بلسان عربي مبين ، وبتلاوة بعض الآيات الكريمة ،
أنا عربيان مسلمان سوربان ، سمحنا بالمرور ، بعد أن أوسعنا نظراً وفحماً وتدقيقاً ..
ولقد تكررت هذه الحادثة عند كل مفترق ، وفي رأس كل زقاق ..

وكانت قبعة صاحبنا تخلق لنا ألف مأزق . فاذا رأنا السكان حسبونا أغراباً ؛
وإذا أبصرنا المترجمون ، خلونا سياحاً ، فهافتوا علينا ، ولا تخاص منهم إلا بتلاوة
المعلقات العشر ، والآيات المنزلات ؛ وإذا رأنا الشرطيون حسبونا يهوداً ، فلا خلاص
إلا بمعاملات قرطاسية مزعجة وطويلة ..

وأخيراً كان الحل الوحيد لذلك ، أن أودع صاحبنا قبعته ولو إلى حين ...
وأخشى ما كان يخشاه ، أن يضيع معالم المستودع ، فيعود بقبعة حنين ..
وكانت الطريق على الجازين غاصة بالفلاحات ، يعرضن تينهن وعنبهن وثمارهن ،
وما زلنا في انحدار على الادراج العريضة حيناً والضيقة أحياناً ، بين الحوانيت
المتواضعة المتنوعة ، في طريق باب السلسلة ، حيث يزدهم باعة الفخار ، والساعاتية
والخياطون والبدلون ، وتطل على الجانين شرفات قديمة من العهد الاسلامي ، ربما
كانت لقصور الارستقراطيين النبلاء ، والتجار الاغنياء ، فيها أحجار منقوشة جميلة ،
و (شعريات) تذكرنا بقصص ألف ليلة وليلة ، حيث الغادات يستترن خلفها ،
بجمرهن الحمراء والبنفسجية ، ومماصمن المملوءة بالدمالج والاساور ، فيبرزن
مناديلهن أحياناً من وراء حجاب ، لبعض العشاق المتيمين ، كقمر الزمان وشركان ..
حتى وصلنا المكتبة الخالدية ، وبجانها ممر ضيق عتيق ، هو طريق المبكي .

المبكي

والمبكي حائط حجارته ضخمة ، يتصل بسور الحرم من خارجه ، ويعتقد اليهود
أنه جزء من هيكل سليمان . فيقفون عنده يبكون مجدم الغابر ، ويندبون ملكهم
المفقود .. وطول هذا الحائط نحو خمسين متراً ، وفي الصف الاسفل من أحجاره
تسعة أحجار ضخمة بينها حجر في الشمال ، ربما قارب طوله خمسة أمتار ونصف المتر

وعرضه ثلاثة أمتار ونصف أيضاً ، . وفوق هذا الصف خمسة عشر صفاً حجارتها أصغر من غيرها ، وعلى هذه الاحجار كتابات بالفحم أو الحفر باللغة العبرانية ، أكثرها أسماء بعض الزوار ، وبين شقوقها أوراق وخرق تعبر عن استرحاماتهم الدينية للآله . وفي جانب الحائط شموع وقناديل وصندوق من الزنك ، له أبواب زجاجية ، تدخل منها الزيوت والشموع ، وتغمر فيها القناديل لتشتعل القناديل ، وثمة طست ووعاء ماء ؛ ولا يجوز لليهود أن يجلبوا معهم للصلاة سوى ما ذكر ، وذلك حسب قرار لجنة البراق ؛ كما لا يجوز لهم وضع ستائر أو حواجز على الجدار أو الرصيف لفصل النساء عن الرجال ، أو لغاية أخرى .
وتوجد من جهة ساحة الحرم حجرة دخل بعضها في حائط المبكى ، يقال لها مربط البراق ، ائمة الاسراء ، كما تروي التقاليد الاسلامية ؛ لذا فقد سمي المبكى بالبراق أيضاً . .



ولعل الخشوع ساور صاحبنا عندما رأى المبكى . . خشوع من نوع شاذ يمتد على التفكير رغم أنه يدعو البعض الى الضحك .
فبنا عشرات من اليهود رجالا ونساء بين واقف وقاعد، وقد علا ضجيجهم وارتفعت أصواتهم بالبكاء ، وفيهم من يقرأ دعاء ، أو يتلو آية ، أو يندب بصوت عال ، حتى أن بعضهم من تشجج نشيج التكلبي من فرط البكاء ، وهي مولية وجهها نحو حجر من تلك الاحجار تكاد تبلله بدموعها .

فهل يبكي اليهود أسفاً على المجد الزائل ، والسلطان الأفل ، كما يزعمون ، أم أن الامر لا يعدو الحادث النفسي الخاص نحو مريض أو فقيد . فاذا ما ذكره أحدهم ، أو صلى من أجله ، أو طلب له الشفاء ، تفجرت الدموع من مآقيه ، كما تفعل الثاقل اذا شهدت مآتماً ، فتذكر مصيبتها ، ولو مضت عليها السنون ؟

أم أن رجال الدين ، وطبقة الرعاع يقرونون الشعور بما هو محسوس كالبكاء ، مبالغة في تدينهم وإغراقاً في عبادتهم ، فيقلد الواحد الآخر ، بحكم قانون (ريبو) وتحصل المناحة الكبرى ؟

ولئن صح أنهم سيكون مجدداً ضائعاً ، فإن لليهود إذن شعائر جنسية لامثيل لها .. فاذا كان هؤلاء الباكون ، وجلهم من البسطاء الشعبيين ، لهم مثل هذا الشعور السياسي أو الاجتماعي ، فكيف بالطبقة الراقية المتعلمة ؟

بعد مرور آلاف السنين على تهديم المعبد ، يقفون هنا ، نائمون باكين ، ينشدون الاناشيد ، ويندبون الهيكل وخرابه ، وما تهدم من جدرانه ، وما ضاع من عزه ، واحترق من جواهره ، وما أصاب كهانه من الذل ، وما نال الشعب من السبي والتشريد ، ويستنزلون الرحمة على صهيون ، ويتوسلون إلى الله أن ينجيهم مما هم فيه ، ويعيد اليهم ملكهم في اورشليم ..

وقفنا نتأمل الباكين ، وهياكل البوايس تمر أمامنا ، يحملون بنادقهم سريعة الطلقات ، ويستعدون لكل حادث مفاجئ ، فذكرنا اضطرابات ١٠٤ آب ١٩٢٨ ، يوم قام الصهيونيون في تل أبيب بمظاهرات صاحبة ، حملوا فيها أعلاماً موشحة بالسواد ، هاتفين : الحائط حائطنا ، وعار على الحكومة .. ثم تجدد المظاهرات في اليوم التالي في القدس ، ويفرس العلم الصهيوني في جدار المبكي ، وينشد المحتشدون نشيد (هاتيكفا) ويطلبون نزع الجدار والرصيف من ملكية المساكين . فينهض المساكين في الغد ، بمظاهرات اخرى ، رداً على اليهود ، ويصلون الى الحائط ، ويقبلون منضدة الشماس اليهودي ، ويخرجون من شقوق الجدار استرحامات اليهود ويحرقونها .. ثم نسمع من وراء الغيب :

والبراق الشريف يهتف يا طه فتبكي الرمال في سيناء

لم تمت أمة أريقت دماها في سبيل الحرية الحمراء ..

ثم شاهد اليهود كرة أخرى أمامنا ، وقد أمسكوا التوراة واتجهوا الى هذا الجدار يصلون ويدعون ، بأصوات أبحه ، خشنة ، متنافرة ، مختلطة بالدمدمة والتسييح .. كأنهم يحتفلون بيوم ٩ آب ذكرى خراب الهيكل من قبل (طيطس) ، قبل آلاف السنين ...

وأي يهودي أفئاق ، طاف الأرض ، ثم حطت به الرحال في فلسطين ، يقف أمام المبكى ، وهو رمز أمجاده ، ولا يفيض قلبه خشوعاً وحماسة ، ليعود الى تلك الايام ، أيام العز والسلطان ؟ إن اليهود لا يستمدون من هذا الجدار قوة وإيماناً ، وإنهم ليلتجئون اليه كلما تنكر لهم الزمان .. ولكن .. وتقديرون .. فتضحك الاقدار !
أقد قال السيد المسيح لذلك اليهودي ، الذي منعه ظل جداره ، وهو مجهود ، وقرى داره ، وهو جائع : ستظل تائباً في الارض حتى أعود .. !

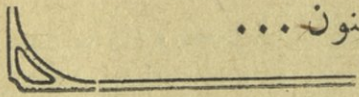
وجاء القرآن ، فتوعد اليهودي الأفئاق بأجلى بيان : « وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وبأثوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .. »

فليصل اليهودي ما شاء بجدار مبكاه ، وليرغ رأسه بغباره وأحجاره ، وليسكب أنهار الدموع ، وليشعل القناديل ، وليحرق البخور ، وليستجد عواطف الخافقين ؛ فان لعنة الله ، ودعوة السيد المسيح ، لا تزالان تحرقان قدميه ، ولن يقر له قرار ، حتى يدخل الجمل في سم الخياط ..

أبها العربي

عندما كنا نجتاز طرق القدس القديمة ، ونشاهد اخواننا العرب ، وبقاء ما كان على ما كان ، وتذكر الصهيونيين ونهصتهم الجبارة ، تمنينا أن يستفيد اخواننا

العرب أجمل وأبرع ما عند اليهود ، وأن يتحركوا بسرعة ، ليلحقوا عدائي الصهيونية
لان الأخذ بما يأخذ به أعداؤهم واجب لامعدى عنه ، لتتسنى المقاومة المجدية ..
كنا نتمنى أن يكون أهلنا العرب ، دنيا جديدة في القدس القديمة ، تضاف
الى حماسهم ومروءتهم ، فتشكل صرحاً هيبات أن تناله القنابل الذرية .. كنا
نتمنى دماً جديداً في شرايينهم ليكتسحوا به هؤلاء البكائين حول الهيكل ، النادين
حظهم وبؤسهم ، وهم أعدى أعداء العرب ، وأجشع الرأسمالين والمستعمرين ..
وإن اكتشف العلم (البنيسيلين) وما هو أقوى منه لقتل أشد
الجرائم خطراً ، فإن البنيسيلين العربي الذي سيقضي على جرثومة الصهيوني ، حثالة
الشعوب ، ومبعث الفتن ، هو الاتحاد والتضامن ، والنظام والابداع ، وتحميد
المبادئ والغايات ، وتفضيل المصالح العامة على الشهوات الخاصة ، والعمل المتواصل ،
تعضده القوة ، ويمده المال ، وعندئذ يفرح المؤمنون ...



في المسجد الأقصى ..

فادرنا المبكى ميممين وجوهنا شطر المسجد الأقصى ، عن طريق باب السلسلة؛
فأبصرنا باباً من طراز عجيب نفيس ، يمثل أبواب المساجد القديمة خير تمثيل؛ وفوقه
مئذنة ، تشرف على المبكى ، وتلقى عليه آناء الليل وأطراف النهار دروساً لتنتهي ،
بأن العزة لله ولرسوله ، وللمؤمنين ، وبأن ما كان أساسه على الرمال فزائل ، وما
كان أساسه على الباطل فمهدوم ..

ها هو ذا المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ، قبلة الاسلام الاولى ، ومعراج
سيد الرسل ، بساحته الفسيحة الارحاء وبحيرة وضوئه ، وسبيل مائه ، تنسجم فيه
عبقريات الشرق الفنية بنقوشه وألوانه ، وبلاط قيشانية ، ونوافذه ، وقبابه ، تزخر فيها
الآيات القرآنية المسطورة على القاشاني الملون بكل ضروب الفن والجمال ..
ودخلنا الحرم من باب الصخرة المرمر في عهد السلطان سليم ، واحتوانا ساعتئذ

ذلك الجو الرهيب ، من الخشوع والايان ، والسكينة والهدوء العميق .
فبنا ، وفي هذا المكان ، عرج سيد الاكوان ، محمد صلى الله عليه وسلم .
ولتبارك صخرة وطئها ، وإني أكاد أشم أريج المسك يتضوع منها ، بعد أربعة عشر قرناً .
فسر أيها الزائر ، واستلهم الرحمة والغفران ، واطلب من الله النصر للمسلمين ،
وجمع شمل العرب ، فهذا مكان يستجاب فيه الدعاء .

وقبة الحرم ترتكز على أربع دعائم ضخمة ، بين كل دعامة وأخرى ، ثلاثة
أعمدة ، فوقها أقواس مزخرفة بالفسيفساء ، الذي لا زال يحتفظ برويقه وبهائه رغم
كثرة الليالي ، ومرور القرون ، مما أسبغ على المسجد جمالا رائعا ..

وقال دليلنا يشرح ألوان الأعمدة ، والدعائم الملونة ، وهو يلصقها بيده ، فنجاريه
تجيباً وتقليداً ، حتى نكاد نعفر وجوهنا بغبارها : هذا لون يسمونه «شحيم بلحم» ،
أي البصطرمة» ؛ وعجبنا لهذا التشبيه ، الذي أجاد فيه وأفاد ، فكأنه حسبنا من
سكان جبل قاف ، أو جزائر الواق الواق ، فانتقى تعبيراته من قاموس فنه الرخيص ؛
ولم يترك صاحبنا النكتة تفر من يديه ، فجعل يجري على نفس الأسلوب ويقول بكل
جد واتزان : « الله .. الله .. يا سيدنا الشيخ .. والله شيء بروح القلب .. شو
هالا عمدة .. الله أعلم أنه رفعها الفداوية أيام الصلطان الملك الظاهر ، والدعائم عمرها
الجن أيام سيدنا سليمان .. إيه .. الله ينور ألبنا بالايان .. ولا يحرمنا زيارة
الشفيع .. يا سيدي .. »

وهنا وقف وجهاً لوجه مع الشيخ ، وقال له بحركة مسرحية : « الله بدو يعز
دينو .. الله كريم .. الخير في وفي أمي الى يوم القيامة .. والله ما نحنا إلا في روضة
من رياض الجنة .. الله يحسن الخاتمة .. »

فسر المطوف جذلاً ، ونادى صديقاً له معتماً ، ليقدمه اليينا ، نحن أبناء دمشق
المحروسة ، كنانة الله في أرضه ..

وتشرف الرجلان بالشباب الصالح .. وراحا يشرحان بأسهاب عن السجاد الفاخر
الذي قدم هدية من لدن خليفة المسلمين ، السلطان عبد الحميد ..

والصخرة المشهورة محاطة باطار مرتفع من الخشب المزخرف ، ولونها يميل الى
الصفرة . ووقف شيخ الجامع بجوارها يقول : « هنا مكان قدم النبي ، حينما هبط ؛
فمسح صاحبنا وجهه وذقنه بالغبار تبركا . . . وهذه زجاجة فيها شعرة من شعرات
الرسول . . . » وسواء صدق الخبر ، أم لم يصدق ، فقد لمس صاحبنا الزجاجة ، ثم
أجرى أصابعه على عينيه . . . وإنما الاعمال بالنيات !..

وتحت الصخرة مباشرة ، مصلى سليمان ، وخلوة داود و ابراهيم ، عليهم جميعاً
أفضل الصلاة والسلام ، وهناك موضع توسده النبي ، وآخر مكان عروجه . . .
وأقسم صاحبنا للدليل المحترم ، بعد أن تأمل ملياً في زخارف الفسيفساء التي لا
توصف ، وفي القاشاني وهو آية الآيات في الابداع ، أن الحرم شيء (يجنن) بغناه ،
وجماله . . .

لكن المزعج في هذا المسجد ، هو خلوه من الكهرباء ؛ فلا زال يضاء بالشموع .
وما ضر القوم لو أفادوا من هذا الاختراع العصري البديع النظيف ، وهو لا يخالف
الدين وتعاليمه ، فيزداد المسجد نوراً على نور ، وبهاء ورواقاً ؟ ونحن نرجو مخلصين أن
ينظر القائمون على شؤون المسجد في هذا الاقتراح بعين الاعتبار ، وفي ذلك خدمة
لدين الله ، ورفع من شأن العروبة .

وقصدنا جامع عمر ، وهو في صعيد واحد والمسجد الاقصى ؛ وفي صحته بركة
ماء للوضوء ، سرنا منها تلك الكراسي الحجرية التي يسكن اليها المتوضئون ؛ وفيه
أشجار سرو وعفص باسقة ؛ وهو سطح لقبو هائل ، تتجمع فيه مياه المطر ، ويفيد
منها الناس في الشرب والوضوء ، وهو ماءً عذباً فراتاً .

وقد جدد المسجد ، ورمم بناؤه ، بمساعي جلالة ملك مصر ، فاروق الاول ،
والمجلس الاسلامي الاعلى ، بعد أن كاد يوشك على الانهيار بكامله . وقد جلبت
أعمدته الرخامية من أوروبا ؛ وفيه فسيفساء جميلة ؛ وقيل لنا بأن منبره الخشبي مصنوع
دونما مسامير حديدية ، وهو هدية السلطان صلاح الدين الايوبي ؛ صممه حميد بن
ظافر ، وصنعه وحفره سليمان بن معالي ، وهو من خشب الأرز .

ويطل الجامع على جبل الزيتون ، وجبل المكبر ، حيث قدم الخليفة عمر ،
وكان ينتظره البطريك (صوفرونيوس) وحاشيته ، وفيه بقايا أعمدة رومانية قد
كسرت أجزاءها ، لتشويه الحيوانات المنحوتة عليها ، من سبع وطيور ، وفيه مقام
زكريا ، ومحرابه ..

هـباً الى كنيسة القيامة .

خرج صاحبنا من المسجد الاقصى ، وجامع عمر ، وقد ازداد ايماناً ، ورسخ
عقيدة ، بمستقبل العروبة والاسلام .
وما كان يزعجه غير هذا السروال القصير الذي جملة قبة انظار المصلين في
بيوت الله ، وسوى تلك القبعة التي أودعها وخشي ألا يهتدي الى مستودعها .
ولولا آيات بينات ردها أمام كل مطوف ، تذكر بحادثة الاسراء ، وعز
المسلمين ، وذل المشركين ، ولولا ان سباه الرزين ، وحافظته الجبارة ، تنقذ المواقف
الشائكة كل حين ، لما اكتشف هويته أحد ، ولحسبوه ورفيقه من المناققين
الكافرين ..

خرج من المسجد ، ونشر بين يديه كعادته مصور المدينة ، وجعل يدرس
الخطط والتفاصيل لزيارة معالم المدينة المقدسة ، ولولم ترقق عصافير بطنه بأنعام
دونها أنعام أم كلثوم ، لما غادر المكان الى يوم الدين .
تناول غداءه في المدينة التي باركها الانبياء ، فكانت مشرق الهدى والسلام ؛
ومهبط الوحي والالهام ، مجتلي عين موسى ، ومسرح قلب عيسى ، ومسرى روح محمد ،
كما يقول استاذنا الزيات .

وقد ذكر لساعته موعداً ضربه لصديق تعرف اليه في (باث كلیم) حيفا ،
يسكن المرحلة السادسة ، فأسرع يحث الخطا ؛ ويمر في تلك الدروب التي سار فيها
السيد المسيح ، له المجد .

وقبل أن يتحدث ، ويفتح فمه ببعض التفاصيل ، يجب أن يسجل هذه الحقيقة ،

ويعلن على رؤوس الاشهاد أنه ناقل أمين للصور والاخبار ، وأنه لا زال مساماً حنبلياً ، ولا شيء أكثر من ذلك ..

وبعد هذا الاعلان ، هيا الى المراحل الأربع عشرة ، التي سار فيها المسيح ، يحمل صليبه على ظهره ؛ حتى اذا بلغ المرحلة السادسة جاءت (جوليا) ، السيدة الرومانية ، وكان الشوك قد آدمى وجهه ، فمسحته بمنديل ، فانطبع الوجه بدمائه عليه ، وهو محفوظ في دار آثار روما ، مع بقايا الصليب الخشي ..

وهبطنا الحجرة التي كانت تقيم بها جوليا هذه ، والتي سميت بعدئذ (فيرونيكا) وشاهدنا بثرها ، وبجانها تماثيل تصور الحادث تماماً خير تمثيل . فما هو ذا الجندي الروماني (لونيغينوس) يقود السيد المسيح ويمسكه ، والسيد يحمل صليبه على كتفه ، وقد كبابه ، والدماء تسيل غزيرة من وجهه .. وها هي فيرونيكا قادمة تحمل المنديل ؛ ووراء الجميع سمعان الكردي ، يساعد المصلوب ؛ في حمل الصليب ، منذ المرحلة الخامسة ..

وها هي ذي كنيسة القيامة ، أو القمامة ، او القبر المقدس .. وهي بناء قديم ضخم يقع في منتصف المدينة ، مع ميل قليل نحو الشمال والغرب ، وقد اشتهرت هذه الكنيسة وزادت أهميتها ، لوجود قبر المسيح فيها ، ويسمى بالقبر المقدس . والعلماء مختلفون في هل هو قبر المسيح حقيقة ؟ أي المكان الذي قبر فيه بعد صلبه كما تروي الأناجيل ؟ أما العامة فيعتقدون بما ورثوه عن آباءهم ، والباحثون لا زالوا في اختلافاتهم ، وكل بما لديهم فرجون .

وكنيسة القيامة بناء كبير مؤلف من القبر المقدس وعدة كنائس ومصليات ومزارات وغيرها ، لسائر الطوائف المسيحية . وفي الواجهة باب يدخل منه الى الكنيسة ، عليه نقوش رومانية وعربية ؛ والغريب ، أجل الغريب ، أن مفتاح الكنيسة يقبض عليه مسلم من (آل البنيسي) ، وهو تقليد فرضه عمر بن الخطاب ، للحؤول دون اصطدام الكهنة بعضهم ببعض ؛ وهم ينتمون الى عدة طوائف ، وكل طائفة تروم الاستئثار بالمفتاح ، وليس هنالك غير من يدعي لنفسه حصة الأسد . وأول شيء يقابل الداخل ، حجر مستطيل طوله سبع أقدام وعرضه قدمان ،

لونه أصفر ضارب للحمرة ، يسمى حجر الدهن أو المسح ، يُقال إن جسد المسيح وضع عليه وحنطه (نيقوديموس) وعلى مسافة قليلة منه ، حجر آخر ، يقال إن النساء وقفن عنده وقت التحنيط ؛ وتمشى الى اليسار ، نحو بقعة مستديرة في وسطها بناء عال فوقه قبة قطرها (٦٥) قدماً . ويحتوي على القبر المقدس . واجهته متجهة نحو الشرق مقابل الكنيسة الخاصة بالروم الارثوذكس ، التي فيها عرشان كبيران ، أحدهما للبطريك الانطاكي ، والآخر للبطريك الأورشليمي ، وفي وسطها مكان يعتقدون أنه مركز العالم ، أو نصف الدنيا ، وعلم الجغرافيا في ألف خير . . . وإذا تأملت واجهة القبر أدهشك كثرة ما فيها من أدوات التكريم والتعظيم ، كالفناديل والمصابيح الذهبية ، والشموع الضخمة ؛ والرايات المقدسة ، والصور عليها الحلي من الذهب والفضة ، تلاءم الواجهة الى أعلاها . وفي أسفل الواجهة مدخل الضريح ، وقد علق في سقفه ثلاثة وأربعون قنديلا من الذهب ، أربعة منها للاقباط والباقي مقسوم بين الطوائف الأخرى على السواء . وعلى جدران تلك الحجرة نقوش تمثل بعض حركات المسيح ، وكل منها لطائفة من الطوائف المشتركة في هذا المكان . وفي الحجرة تتلى الصلاة كل يوم ، وهو أقدس مكان في كنيسة القيامة . ولذلك اتفقت الطوائف المسيحية على الاجترار من قربه ، أو الحصول على مكان يمكن أبناء كل طائفة من الوقوف فيه ، عند الاحتفال بانثاق النور في يوم سبت النور . والنور في ذلك اليوم يخرج للناس من كوة في جدار القبر ، فيقتبسون منه بشموع أعدوها في أيديهم ؛ فإذا أضيئت تبركوا بلمبيها ، فيدنونها من وجوههم أو ثيابهم على نسبة إيمانهم وصحة اعتقادهم . ولقد قيل لنا ، إن الحجاج الروسيين قديماً كانوا من أكثر الناس إيماناً . فيتقدم أحدهم ، ويده شمعاً أو شمعات ، يديها من النور الخارج من الكوة ، فإذا أضاءت أدار لحيها حول وجهه ، وأدخلها تحت ثيابه ، وهو لا يخشى احتراقاً . . .

ولنشاهد الآن تمثال العذراء مريم . . وهو محلي بالجواهر النادرة ، ومحفوظ في صندوق زجاجي ، فلم يجتمع الجمال الجسد ، مع الحلي الثمينة ، كما اجتمعت هنا . .

وتتمنى أن تشاهد كل حجر وكل زخرفة ، لولا أن البناء قديم ، وقد خشي انهياره ، فقامت مصلحة الآثار بتركيب الدعائم الخشبية ليستند اليها البناء وقبته ، بغية الاحتفاظ بهذه الدرر الثمينة ، التي أراقت أوروبا في سبيلها الدماء ، وباسمها أعلنت الحروب الصليبية ، لطخة العار في جبين الشعوب الأوروبية الى يوم الدين ..

وللكنيسة أقسام لسائر الطوائف ، فهذا جناح الكاثوليك ، وفيه الحجر الذي عذب عليه المسيح ، وذاك جناح اللاتين ، حيث تمثل الهيكل حالات الصلب المختلفة .. وهالك جناح اليونان الارثوذكس ، وفيه سجن المسيح . وهكذا سائر الامكنة ، لكل طائفة بقعة منها ؛ ولا يسمح لطائفة أن تتعدى حدودها . ومن تجاسر على ذلك منعه جاره المعتدى عليه . وكثيراً ما كان يحدث الخصام قديماً ، وتعطل لغة الكلام ، ليحل محلها العصي والخناجر .. وقد يتضاربون بها . فاذا مست الكنيسة جزءاً من موقف الجار نهبه ، فاذا لم يدعن منعه بالقوة . كأن تنظيف المكان ، يجعل للمنظف حقاً في تملكه ، من قبيل وضع اليد ..

ولعل الزائر لا يستطيع إدراك عظمة هذه الكنيسة ، وما فيها من آثار باهرة خالدة ، إلا بالاطلاع الواسع على تاريخ النصرانية ، وأيامها الاولى ، وعندئذ يدرك روعة ما يراه ، ويصل كل حدث بحديث ..

وادي ستي مريم

خرجنا من باب السباط ، وهو الباب الذي دخل منه عمر بن الخطاب القدس ، قبالة جبل الزيتون ، أو جبل الطور ، أو كما يسمونه تديناً جبل النور . حيث صعد منه عيسى عليه السلام الى السماء ، وحيث تقع كنيسة الجثمانية ، وكنائس أخرى ، وأديرة وقبور الانبياء ..

وإنك لتشاهد كنيسة الروس من بعيد ، مهندسة بنائها، وغريب قبابها وصلبانها، حتى تخيل لساعتك موسكو وامينغراد ، تفرع فيها النواقيس بتوقيع موسيقي خاص ، اشتهر به الروس منذ عهد القيصرية .

وهرعنا الى هذه الكنيسة ، ونحن نسرح أبصارنا عن بعد ، فنشاهد أسوار
المدينة وبيوتها ، ونشرف على أبنيتها فنراها واضحة جليلة ، بمآذن الحرم، وقباب
الكنائس ، ومنازة جمعية الشبان المسيحيين . . ولا بد لمن يزور القدس ، أن يصعد
جبل النور ويشرف منه على هاتيك الروائع . .

ولقد مررنا بكنيسة الجسمانية ، حيث صلى المسيح آخر صلاته قبيل الصلب ،
وهي مشتركة بين كافة الطوائف، فيها صخرة الاحتضار ، تير فيها الشموع ، وتحيط
بها النسور والطيور تمثيلا للملائكة الأطهار ؛ وسقفها قباب تختص كل أمة بواحدة
منها . فهذه لايطاليا ، وتلك لانكلترا، وسبحان من جمع البشر في صعيد واحد، ولو
اختلفت بينهم المذاهب والنزعات . .

ولقد بنيت هذه الكنيسة على أقاض كنيسة قديمة اخرى ، لم يبق من آثارها
سوى تلك الفسيفساء الحجرية التي تزين بعض أقسام الارض . .

وثمة لوحات زيتية بمحجم الجدار ، رسمها فنانون بولونيون ، تمثل إحداها (يهودا
الاسخريوطي) يبيع السيد المسيح بدرهيمات معدودات ، ويتجلى على وجه (يهودا) الجشع
والاثرة والمكر؛ وهنالك لوحة تمثل اليهودي نفسه يساوم على الثمن ، بشح وحرص .
وثمة لوحة مهداة من الأمة الهنغارية ، تمثل السيد المسيح يصلي صلته الأخيرة . .
ولا شك في أن ريشة رسامها أبدعت أيما إبداع ، يذكرنا بآثار ميكيل آنج
ورفايل وفناني النهضة . .

وكانت الكنيسة الروسية هادئة صامته ، صمت السهول الروسية تحت غطاء
الثلج . . ولئن كانت الأبنية تعبر عن الأذواق والأخلاق ، فإن بناء هذه الكنيسة
يعبر بأجلى بيان عن الخلق الروسي الصامت الرصين . . فلم تكن الراهبات فيها
يلتفتن الى زائر ، لانهن يصلين بلباس الحداد ، وهن يرتان بأنغام موسيقية روسية،
فيها خشوع واطمئنان . .

ولعل أروع ما شاهدناه من الآثار الفنية الدينية ، التي تزخر بها كنائس
القدس ، هي التماثيل الملونة في كنيسة الأمل . فكان أحد المواقف يمثل حادثة

بيلاطس ، وهو يغسل يديه بالماء ، علامة البراءة ، ويقول : « إن الرجل بريء — يقصد السيد المسيح — ولا سبيل لادانته ؛ إني أشهد أنه لم يقترف ذنباً ، ومن الظلم الحكم عليه عليه بالموت ، ولقد حكمت عليه تحت تأثير الضغط والاكراه . . . لأن اليهود ألحوا عليّ بذلك ، وهددوني بقيصر . . . » وتكاد الاشخاص تنطق وتكلم . . . وفي الكنيسة عينها تماثيل صنعها فنانون ايطاليون ، لم نر لها مثيلاً . . . فكان بعضها يمثل (ماريو حنا) يغطي عيني العذراء ، أملاً تشاهد ابنها يقضى عليه بالموت ، وتصحبها مريم المجدلية ، وقد ارتسم الذعر على وجهها وحركاتها ، الى جانب جمال التقاطيع ، وتضاعيف الثياب الملونة ، الملاصقة للجسم ، فتم عن مفاتنه ؛ كما برز جلياً ذلك الحنان والخوف على وجه العذراء ، خوف الأم على وحيدها ، والذعر من الموقف الرهيب ، وهي ترى حياة ابنها بين شفقي القاضي . . . أما اليأس والحزن ، فقد ارتسما بجلاهما على تقاطيع سحنة يوحنا . . .

منارة جمعية الشبان المسيحيين . . .

قصدنا دار جمعية الشبان المسيحيين (واي . م . سي . اي) ، فشهدنا حديثتها البديعة الصنع والترتيب والتنسيق . . . وولجنا ردهاتها الفسيحة الهادئة ، فهنا صالة نامة ، وهناك مطعم (بوفيه) ، وهذه مكتبة عامرة للمطالعة ، وتلك غرف التسليمية ، وحجرات نوم الزائرين ، وغرف الاستقبال والحفلات . . . وهل يزور صاحبنا الدار ، ولا يصعد برجها العالي ، ذا المصعد الكهربائي ، وسامها الضيق اللوحي الذي تقدر درجاته بالمئتين وست درجات . . .

صعدنا المنارة ، والاجراس تقررع بالكهرباء ، فتصدر أنغاماً موسيقية وأحساناً رتيبة ، حتى اذا وصلنا القمة ، كادت الروح تبلغ الخلقوم وتجد لنفسها أقرب طريق الى السماء . . . وصاحبنا مصاب بمرض الفراغ ، ويخشى الخلاء كما تخاف الاطفال من العفاريت ، فوقف خلف المتفرجين ، في الصف الخامس ، لانه لم يكن هنالك صف سادس ، وأخشى ما يخشاه أن يقرأ اسمه في صحف الغد ، في عمود الوفيات ؛

وأشرف على المدينة الخالدة ؛ فرأى أمامه فندق الملك داود والمسجد الأقصى ،
وكنيسة القيامة ودار المندوب السامي تهجع فوق قمة زمردية خضراء ، وآلاف
الابنية الحديثة والقديمة ، ووراء الجميع يتبختر جبل الطور ، ووادي ستي مريم ،
ووادي قدرون والرباب ويهوشافط . . .

والمنارة أربع شرفات تطل كل واحدة على جهة من جهات القدس . وأمام
الواقف في كل شرفة ، لوحة نحاسية هي مصور ناطق لما أمامك من المناظر ،
ناتئة مأسوسة ، زحمت بأرقام كتب بجانبها اسم كل بقعة . فما عليك إلا أن تتأمل
المدينة قدر ما تسمح الشرفة ، فتعين البناء ، ثم تنظر صورته في اللوحة ، وتقرأ
رقمه في الهامش ، فتدرك معالم المدينة المقدسة دون دليل .

وهبطنا السلم ، بينما انهمك صاحبنا في عد الدرجات التي اختلفت بين الخشب
والحديد والحجر ، وهو يقرأ المعوذتين وآية الكرسي ، ويرجو الله أن يكون خير
الساترين

ولكن الذي أقلقه ، وأثار مراحل غضبه ، رؤيته خطيبة مع خطيبها ، أو لعلها
عاشقة مع عشيقها ، سبقانا الى النزول ، وكأنهما وجدا خلوة صحيحة في هذه المنارة
الشاهقة ، تدعو الى القبل وغير القبل ، من رقيق الدعابة ، وناعم الضم والعناق . . .
ولولا مفاجأتنا ، لالتصق جسم بحجم ، وساق بساق . . فكاد يسلك سبيل أولاد
(الحارة) بالانتصار الى الشرف الرفيع ، غير أنه خشي أن يحدث ما لا تحمد عقباه .
فتكلم عقله بصوت أعلى من قلبه ، وكفى الله المومنين القتال . .

الوظائف اليهودية : حكومة ضمن حكومة

في بقعة من أجمل بقاع القدس ، وفي ملتقى شارع الملك جورج الخامس وطريق
الكيرين كايتمت ، تقوم الوكالة اليهودية ، دماغ الصهيونية المفكر ورأسها المدير . . .
ولن تغرينا أبنيتها العديدة الحديثة ، بقدر ما يهمننا من يقوم على شؤونها ، فهنا
حكومة منظمة ، بدواؤها ومؤسساتها وبرامجها وميزانياتها وموظفيها . ولو سمينا كل

دائرة من دوائرها بوزارة ، لرأينا وزارات الداخلية والخارجية ، والمالية والدفاع ،
والمهاجرة والاستعمار ، والزراعة والصناعة ، والصحة المعارف ، والاقتصاد والشؤون
الاجتماعية ، ووراء الجميع جيش من الخبراء في كل فرع من فروع المعرفة .
والوكالة اليهودية ، شخصية معنوية خلقتها الحقوق الدولية ، حين نصت عليها
المادة (٤) من صك الانتداب على فلسطين بقولها :

« ويعترف بهيئة يهودية صالحة ، كهيئة عمومية ، لتشير وتعاون في ادارة
فلسطين ، في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية ، وغير ذلك ، مما يؤثر في إنشاء
الوطن القومي اليهودي ، ومصالح السكان اليهود في فلسطين ؛ وتساعد وتشترك في
ترقية البلاد ، تحت سيطرة حكومتها دائماً . »

« ويعترف بأن الجمعية الصهيونية ، هي هذه الهيئة المنصوص عليها فيما تقدم ،
ما دامت الدولة المنتدبة ترى أن نظامها وتأليفها يجعلانها لائقة صالحة لهذا الغرض ،
وعلى الجمعية الصهيونية أن تتخذ ما يلزم من التدابير ، بعد استشارة الحكومة البريطانية ،
للحصول على معونة جميع اليهود ، الذين يبغون المساعدة في إنشاء الوطن القومي
اليهودي . »

وهكذا فليست الوكالة حزباً كما نفهم من معنى الاحزاب ، بل مجموعة من
الشخصيات اليهودية في جميع أنحاء العالم ، تنتخبها الهيئات اليهودية مرة كل سنتين
في مؤتمر عام ، لتتحدث باسمها وتهتم بشؤون اليهود عامة ويهود فلسطين خاصة .
ولم تنص المادة الرابعة الآتية على تشكيلات الوكالة ، بل ترك أمرها الى اليهود
أنفسهم الذين وضعوا دستوراً ثم عدلوه عام ١٩٢٩ ، فأصبحت تتألف من أعضاء
متساوين من الصهيونيين وغير الصهيونيين ؛ على أنه يجب أن يكون رئيس الهيئة
الصهيونية رئيس الوكالة .

واقسامها ثلاثة : المجلس الاستشاري ، واللجنة الادارية ، والهيئة التنفيذية .
فالمجلس الاستشاري هو الهيئة العليا في الوكالة ، يجتمع كل سنتين في دورات
عادية ، ليضع تصميم السياسة التي تهجها الصهيونية ؛ والمجلس هو الذي ينتخب اللجنة

الإدارية والتنفيذية؛ وله مقر في القدس وآخر في لندن. وللوكالة موازنة سنوية ضخمة، بلغت العام الماضي (٤) ملايين جنيه جمعت من التبرعات النظامية لمصارف (الكيرن هيسود)، لتنفق على الهجرة والمعارف والإدارة.

ومن صريح المادة الرابعة تجلّي لنا اختصاصات الوكالة:

فهي تمثل الشعب اليهودي أمام الدولة المنتدبة لغايات محدودة؛ ولا تستطيع قانوناً تمثيله إلا فيما يتعلق بإنشاء الوطن القومي، كما أنها لا تستطيع تمثيله أمام الدول الأخرى، ورغم شخصيتها الحقوقية فلا قيمة لها إلا أمام الدولة المنتدبة وعصبة الأمم سابقاً.

والوكالة ثانياً، ليست سوى هيئة استشارية، والحكومة المنتدبة غير مكلفة بالأخذ برأيها، رغم أنها تستشيرها في كل ماله مساس بالوطن القومي. والظواهر كلها تؤيد أنها لا تقوم بعمل ما دون استشارتها.

وأخيراً ليس للوكالة حق التدخل في الإدارة. وهذه القضية هي التي أثارتها اللجنة العربية العليا سابقاً، وممثل الفاتيكان، حينما فسرا المادة الرابعة: «تشير وتعاون في إدارة فلسطين، وتساعد وتشارك في ترقية البلاد» فأجابت السلطة أن الوكالة لم تحاول ولن تحاول الاشتراك في الحكم.

والمواد ٦ - ١١ من صك الانتداب تشرح مهمة الوكالة: من إنشاء وطن قومي وتسهيل قضايا الهجرة، والاستعمار، واستثمار البلاد.

على أن هذه الوكالة هي دون أدنى ريب حكومة ضمن حكومة. فهي التي تنظم ترحيل المهريين من اليهود، من بلدان أوروبا؛ ثم تنظم حشدهم في مرافئ إيطاليا أو اليونان، ثم تستأجر السفن أو تشتريها لنقل هؤلاء المهريين، ثم تقوم باستقبال شحنات هذه السفن في فلسطين وتوزيعها على المستعمرات والمصانع..

ولا نكاد نسمع قضية تهريب، أو أعمالاً إرهابية، إلا ونرى وجهه الوكالة اليهودية يطل من بعيد أو قريب، حتى ضج العالم المتمدن من فعالها، ولم يألُ عرب فلسطين جهداً في طلب إلغائها.

في حالة واحدة قامت الحكومة فحلت اللجنة العربية العليا السابقة ، مع أنه لم يكن لتلك الهيئة أية صلة بالحادثة المذكورة . فما بال الحوادث الرهيبة المتوالية لا تدفع بالحكومة فتحل هذه الوكالة ؟ وما بالها لا تغل يدها عن كل تدير وهي التي تشاهد كل يوم من فعالها عجباً ؟

لقد استأثرت هذه الوكالة بكل نفوذ ، واستولى اليهود بواسطتها على كثير من المناصب العالية ، بحيث استطاعت في مدى أعوام قليلة ، الاستئثار بسياسة البلاد ، ومرافقها الاقتصادية .

وإذا كانت الفقرة الثانية من المادة (٤) تقول : « يعترف بأن الجمعية الصهيونية هي هذه الهيئة المنصوص عليها ، ما دامت الدولة المنتدبة ترى أن نظامها وتأليفها يجعلانها صالحة ولائقة لهذا الغرض . » أجل ! ما دامت صالحة ولائقة لهذا الغرض ! فكيف نفهم صلاحها ولياقتها وهي التي تدبر المؤامرات من وراء ستار ، وتدير حركات المنظمات الارهابية ، ولا تساعد الحكومة بأي عمل للحد من نشاطها .. فلم تساهم أو تتعاون مع الحكومة في قمع الارهاب ، لاعتقادها أنها تهدف الى نفس الغاية التي يهدف اليها الارهابيون ، وهي إنشاء وطن قومي . إن الواقع والمنطق والحق تقول مجتمعة : حلوا هذه الوكالة ، فهي أصل البلاء ورأس الشقاء .

على أن الحكومة المنتدبة ، شعرت منذ أمد بعيد ، بأعمال الوكالة وتجاوزها صلاحياتها، لذا عرضت على عرب فلسطين تأسيس وكالة عربية، فرفضوا الاقتراح بكل إباء ، لأنه يخدم مصالح بريطانيا واليهود ، أكثر مما يخدم مصالح العرب . أضف الى ذلك أن الوكالة اليهودية معترف بها دولياً ، وهي تمثل يهود العالم ، أما الوكالة العربية فسيخلقها قانون محلي ، ولا تمثل سوى عرب فلسطين .

وهكذا ولد المشروع ميتاً ، وظلت الوكالة اليهودية تعيث في الأرض فساداً ..

في فترق النجوم ..

وكان الأقدار أبت إلا أن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن ...

فقد اخترنا لإقامتنا في القدس ، بعد طول تفكير ، فندقاً عربياً .! غير أن صاحبه على ما بدا لنا يحفظ حقوقه عن ظهر قلب ، ويجهل كل واجباته ، مما دعانا الى مغادرته في ذلك الليل البهيم ، غير مأسوف عليه ، لفتش عن فندق آخر . . . ولولا مساعدة شرطي شهرم من أصل دمشق ، والدم كما يقولون (بيحن) لا قمنا على أكبر الظن في فندق النجوم ، نفتش الغبراء ، وناثخف الزرقاء .. وأخيراً، حطت رحلتنا في فندق عليه سياء عزيز قوم ذل ، تديره صهيونية روسية ، استقبلتنا بحذر شديد ، بعد أن شاهدتنا نرتدي ألبسة الخاكي ؛ فحسبنا جنوداً فارين من ثكناتهم ، وإيواء الجنود عندها ممنوع . ولما شرحنا لها بكل لغة ممكنة هويتنا ، دخل الايمان قلبها ، واستقبلتنا مع فتياتها المغناجات ، بكل ترحاب . . . وراح صاحبنا يقدم نفسه بالتهويش اليهودي فلم ينس هويته الصهيونية في هذا الفندق ، كما لم ينس ان يفسر لفتياته خبر (دمشقيته) التي تهتم أشد الاهتمام بالوطن الموعود ، وأنه ورفيقه من جند صاحبة الجلالة ، الصحافة العبرية .. مما جعل القوم يهيمون به كحارب فدائي في كتائب إسرائيل . . . وما ذلك إلا لينعم بنهود صلبة .. وشفاه طرية .!

وما كاد يستقر به المقام حتى راعه عبق الغانيات ؛ فقد كانت أنفاسهن العطرة تملأ المكان ، وتسكر جوارحه ، وتشرح صدره ، وتسعد قلبه ؛ فشرع يستخدم كل مواهبه في رمي الشباك ، وهو يعلم أن أقصر الطرق هو الخط المستقيم ، وليس الغزل عنده لماً وغمزاً ، ونكشاً وتاميحاً ، بل يكفي أن تتقدم غير هيب وتقول: شالوم .. وبناء عليه ، وعليه البناء ، فقد اختار مقعده بجوار عبرية في عينيها عبث بري ، وفي وجهها طلاوة وجمال ، وفي ابتسامتها سحر ودلال ؛ وبدأ الفصل الاول من الرواية ، بينما كانت أنعام الراديو تصب كؤوساً من الهوى ، وتحرك في الحاضرين والحاضرات اشتها الرقص ، وتدفعهم الى ضم الخصور ، وهصر الصدور ، ولثم الثغور .. وهكذا بدله الله بفندقه المهجور ، فندقاً يستظل ليلاليه خالداً في دنيا المغامرات ، الى يوم (ويخلق ما لا تعلمون) . . .

هيا الى الخليل

لم

يكذ الفجر يبسم عن أسنانه البيضاء ، حتى أسرع وأوقف صاحبنا الذي لا زال يحلم بعذارى صهيون ، ويهذي في الحلم ، بكلمات منتقاة من قاموس الحب الرخيص .. ولولا أنني رششت على وجهه إبريق الماء الفخاري ، لما استيقظ ، ولظل يجتر أسماء راشيل وإيلي .. ويتلمظ كأنه يأكل قطعة من (راحة الحلقة) .. ولم يغادر عاشقنا (البورتاتيف) الفندق ، حتى استأذن من (إيلي) فإرساء ليلته ، لرحلة صحافية باسم جريدته الخيالية ، وأسرع يحث الخطا نحو باب الخليل ! فاهم معي الى الخليل .. الى (حبرون) بلد الرجولة والبطولة والشجاعة .. هلم معي الى معقل من معاقل العروبة والاسلام ، البلد الذي لم يدنس ترابه صهيوني قط .. بعد أن حرمت أرضه عليه ، فظل يرمقه من بعيد دون أن يستطيع دنواً .. ولقد حاول الصهيونيون ذلك ، ولكن غضبة الخليليين الأشاوس ، ردت شذاذ الآفاق وحثالة البشر على أعقابهم ، بعد ما أنزلوا من صياصيمهم ، وهدمت ديارهم ، وشردت نساءهم وأطفالهم .. ولئن عجبت كيف لا تسير باصاتهم الى الخليل ، أو نابلس ، وهي التي تجوب كل مكان ، فأدرك الآن السبب ، وإن فيه عبرة لأولى الألباب .. وما كدنا نضع أقدامنا في (باصنا) العربي ، حتى جرى باسم الله ، ويكاد الراكبون يجلس بعضهم في أحضان بعض ، من شدة الازدحام ..

وبإشارة من صاحبنا (الخبير) بطبائع البشر ، لم نحلق ذقوننا ، إكراماً لعيون الرحلة الميمونة .. فلعل الأهين يحسبوننا من (المتوكلين) ولو بصورة مشوشة .. فقد كان إسبال الذقن من طرقة وأساليبه أحياناً .. يرى فيه أسلوباً ناجحاً للغش والخداع .. وخاصة في فحوص الفقه والاوقاف ، والفرائض والاحكام الشرعية قديماً في معهد الحقوق .. فكانت ترسم على وجهه أمارات الزهد . فينال علامة

فيها كرم وجود من أساتذته الفقهاء...! أوليست الذقون تجارة رابحة في هذه الايام...!

وجلس صاحبنا بجوار محام قدسي ، وجلست بجوار فلاح خليلي ..
ولعل المحامي أوجس شراً من صاحبنا ؛ رغم أنه لا يحمل قبعته اليوم .. فلم
ندر لذلك سبباً .. فهل رأى أنياب الصهيونية الزرقاء، في ثياب الشورت ، وانحسار
الرأس .. فاتخذ موقف الحيطه والحذر.؟ فهذا شاب حليق، ذو سرول قصير ، فلا
شك أنه من أولاد إسحق ويعقوب .! ولعل الرجل المحامي أراد أن يسخر من
صاحبنا ، فشرع يتلو آيات الجهاد ، وما وعد الله به المشركين ؛ ثم تحدث عن موقف
الاسلام من اليهود الذين يقتلون الانبياء بدون حق ؛ ولكن عندما صحح صاحبنا
للفقيه الكبير بعض أخطائه القرآنية ، اعتدل الرجل في جلسته ، وابتسم ابتسامة
زائفة ، بعد أن أيقن أنه أمام مسلم عربي ، لا شبهة في ايمانه وعروبه .!
وتبدلت اللهجة ، وسارت المعركة في طريق معا كسة ؛ فراح المحامي يمتدح صاحبنا
بعد التعرف به ، ويشيد بمحاسن الشام ، التي قضى فيها شطراً من حياته ، أيام
(اصطمبول) وحرب (السفربرك) ؛ ورغم ثقافته المفروضة ، واطلاعه بحكم
مهنته ، كان يمثل دور النعامة أمام الصياد ؛ فما سمع منه صاحبنا سوى مديح العرب ،
وتنديد باليهود ، دون أن يذكر شيئاً عن قصور الاولين ، وعدم مجاراتهم الآخرين ؛
متجاهلاً تخاذلهم وتفرقهم وجهل آثريائهم وتقاعسهم عن نصره قضيتهم ..

وعندما اجتزنا الأماكن الاثرية : بيت راحيل ، وأم يعقوب ، ومقام النبي
يونس ، وبرك سليمان ، ومقام الخضر ، شرع صاحبي الخليلي يتلو على مسامعي أخبار
بلدته ، ويعترف بتأخر العرب عن مجارة عدوهم ، ويدعو الله أن يكشف هذه
الغمة عن الاسلام والمسلمين ، ثم يعود بالذاكرة الى أيام السلطان عبد الحميد ،
وحكم — العصملي — حين كانت كلمة الاسلام هي العليا ، ويترحم على السلطان ،
أيام (المزيكة) و (السلامك) ويؤوب راجعاً من جولته قائلاً بكل بساطه : الله
ينصر السلطان ، ويعز الاسلام ..

وإن من يسمعه يقارن بسذاجة بين القرية الصهيونية والقرية العربية ، لتمتلي

نفسه حسرة ، فهو يمس الفرق الواسع ، دون أن يعرف سبيل الخلاص ؛ وينتظر
من يأخذ بيده من المصلحين الفعالين ، فلا يجدهم ، فيرتمي في أحضان لا حول ولا
قوة إلا بالله . . .

وخرج الينا في الطريق مفتش البطاقات ، وقد عقف شاربيه ، وشمر عن
ساعدين موشومين بالأزرق ، حيث يمثل الرسم أفعى وخنجرأ يقطر دماً . . . وجعل
يطالبنا بالبطاقات ويشاجر القوم ، ويتحداهم ، حتى خشينا على أنفسنا ما لا تحمد عقباه ،
فانكشنا في مقاعدنا نرجو الخلاص والسلامة . . .

وما كادت السيارة تصل الخليل ، وتقف ، حتى سدت الطريق أمامنا ، فلا
هبوط ولا نزول . . . فقد أحاطت جمهرة غفيرة من المنتظرين المسافرين بالسيارة ،
وأصدوا بابها ، ونوافذها ؛ وكل يتبغي الصعود ، بكل ما أوتي من قوة وبأس ،
ولسكنهم وركل . . . فلام يصعدون ، ولا نحن نقوى على النزول . . . وتعالى الصراخ والهتاف ،
والسباب والشتائم ، والعييد الفقراء ، ونحن منهم ، ينتظرون الفرج من رب الارباب . . .
وظل الجميع على هذه الحالة ، دقائق معدودة ، حسبناها ساعات طويلة ، حتى حصلت
المعجزة ، واندفع الراكبون كجلمود صخر حطه السيل من عل . . .

لا عذر اليوم للفوضويين . . . واذا كانت الحكمة تنشد أني وجدت ،
وأمام اخواننا الخليليين ، كل نهار نماذج حية من التنظيم الصهيوني ، ومن تلك
(الذيول) التي لا تنتهي ؛ فمن الظلم الجائر ، والجهل الفادح ، أن تستمر هذه المهازل ،
ولا نجد لها رادعاً وزاجراً . إن في التنظيم راحة واكتساب وقت ، للسائق ،
والمفتش ، والركاب ، وبرهاناً جلياً على أن هذه الامة المناضلة جديرة بالحياة
والاستقلال ، وأن تتبوأ مكانها الممتاز بين شعوب الأرض . . .

ويمنا وجهنا شطر المدينة ، التي تشبه القدس القديمة بدرونها وأبنيتها وحوانيتها
قاصدين أشهر مكان فيها وهو مسجدتها . . .

وطول المسجد (١٩٧) قدماً وعرضه (١١١) قدماً ، وحوله سور ضخيم يشبه سور هيكل سليمان ، وهو مبني بالاحجار الضخمة ، حتى أن بعضها ينيف طوله على سبعة أمتار ونصف . وأصله من بناء اليهود وصار قبل الاسلام كنيسة ، ثم جعله المسلمون جامعاً . . . وراعنا كثرة المتسولين على درجات مدخله . وأول ما يفاجئك داخل الجامع لوحة نقش فيها تخليداً لذكرى ترميمه وتجديده :

عبد الحميد له المآثر محمد وإليه مسعى الخير دوماً يسند
إن تسالني عن ظل عصر أرخني قل ظله عبد الحميد الأجد

على أن قسماً آخر من دعائمه ونوافذه ، رسم من جديد بنفقة عزيز مصر فاروق
الاول حفظه الله وأدامه . . .

والجامع قائم فوق مغارة سميت (المكيفة) أو (محمرا) كما جاء في التوراة ، وقد اشتراها سيدنا ابراهيم الخليل من الحثيين ليدفن فيها زوجته (سارة) ؛ ودخولها ممنوع حتى على المسلمين ، وقديماً كان لا يؤذن في رؤيتها إلا بفرمان خاص من السلطان . وقد صدر مثل هذا الفرمان سنة ١٨٦٢ لولي عهد انكلترا ، لما زار تلك السنة بلدة الخليل . . .

أما القبور فكان وضعها في الغار متسلسلاً ؛ فهذا قبر ابراهيم ، وإزاءه قبر سارة امرأته ، وهنا قبر اسحق وأمامه قبر رفقته زوجته . وثمة قبر يعقوب وبجانبه قبر لائقه امرأته . وبجناح خاص قبر سيدنا يوسف ، على الجميع أتم الصلاة وأفضل التسليم . ولكل قبر حجرة قائمة بنفسها ، لها باب من قضبان الحديد مطلية بالفضة ؛ وفي وسطها مزار كالتقبة ، على شكل الاضرحة في المزارات الاعتيادية ، وكلها مكسو بالديباج المطرز بالآيات والكتابات والنقوش الجميلة .

ولكل ضريح وصف خاص وعليه نقش خاص وكتابة خاصة ، تدل على اسم المدفون فيه . فعلى ضريح يعقوب كتب : « هذا قبر يعقوب النبي عليه السلام » وعلى قبر لائقه « هذا قبر سيدتنا لائقة رضي الله عنها ، زوجة النبي يعقوب عليه السلام » وعلى حاشية غطاء قبر يوسف وشي بالعربية فيه آيات قرآنية تتعلق بيوسف .

وأمام القبور أواني البخور وشمعدانات مطلية بالفضة . وقد كتب على لوحة
أمام الضريح الخليلي آيات خمسة هذا مطلعها :

عظماً خليل الله أرجو نظرة أرقى بها العلياء في الدارين ..

وعلى جدران المسجد آيات قرآنية منحوتة في الرخام ، أو مسطورة على القيشاني .
وشاهدنا لوحتين بخط وزير الأفغان الطباطبائي في إحداها بعد بسم الله الرحمن الرحيم :
« واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار » وفي الثانية :
وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث » . ومنبر الجامع كما قيل لنا
من أقدم منابر العالم الإسلامي . مصنوع من خشب الجوز التركي ، وعمره (٩٠٠)
سنة تقريباً ؛ أنشئ في عهد المستنصر بالله الفاطمي ليوضع في عسقلان ، فنقله السلطان
صلاح الدين الأيوبي إلى الخليل . وتقوشه تتألف من زخارف فاطمية بارزة ، متقنة
الصنع ، مترعة بالأشكال الهندسية بين مخمسات ومسدسات ؛ وبجانب المنبر محراب
مصنوع من الفسيفساء المذهبة الملونة ، تؤلف في مجموعها تقوشاً عربية ترجع إلى عهد
الملك قلاوون . وثمة لوحة بخط يوناني قديم من زمن (جوستينيان) ، فيها ذكر إبراهيم
ودعاء لمن بنى البناء ، ولوحة أخرى بأسماء سبعة من العمال الذين رفعوا السقف
وعقوده في القرن الرابع الميلادي ، عهد الملكة هيلانة ، أم قسطنطين .

ويبين مدخل أضرحة الآباء البطارقة ، والباب الخارجي للمسجد ، باب يعود
لأيام سليمان بن عبد الملك وهو حاجز منيع ..

وقد يصل اليهودي إلى مدخل رواق الجامع ، حيث الدرج الحجري ، ولا
يستطيع أن يتحده ، ليزور بطاركته إبراهيم وإسحق ويعقوب ، وأزواجهم ؛ وإن
قلبه ليفيض حسرة ، وكبده تتشقق ، طلباً للزيارة ، ولكن دون ذلك أهوال ..
فما عليه إلا الوقوف خارج الجامع ، كما يقف بجدار المبكى ، خارج جامع المسجد
الأقصى يندب هيكل سليمان ، وأجداد إسرائيل !

في بيت لحم

« في بيت لحم ، ولد المسيح ، كانت صغيرة ، صارت كبيرة »

تلك هي المعزوفة التي عاودت صاحبنا وهو يهبط السيارة في الطريق ، بين الخليل والقدس ، ليسلك ذلك الدرب المشرق الباسم الى بيت لحم .
عاودته تلك المعزوفة ، التي طالما سمعها كل سنة ، أثناء تروده على بيوت الله ،
ليشهد حفلة ميلاد السيد المسيح ، له المجد .

واليوم ، ما كان خيالاً أصبح حقيقة ، وها هو ذا وجهاً لوجه أمام القرية التي شهدت ميلاد كلمة الله ، عيسى بن مريم ، والتي تقع فيها أقدم كنيسة في العالم ، كنيسة المهد ، التي بندها عام (٣٢٩) القديسة هيلانة ، فاستحقت شكر الاجيال ، وأصبحت بين الخالدات والخالدين . .

وما كدنا نخني خضوعاً لنجتاز الباب الضيق لهذه الكنيسة الفخيمة ، حتى واجهنا أربعة وأربعون عموداً من المرمر ، المشرب بالحمرة ، قائمة على صفين متقابلين متوازيين ، يرتكز عليها السقف بسطحيه المائتين . وفي الاواسط ، وبين الاعمدة ، تتدلى سلاسل طويلة ، تحمل مصابيح نحاسية صفراء ، كانت تستعمل للاضاءة في سابقات الايام .

والبناء روماني قديم ، تستر جدرانها العالية الفسيفساء ؛ وفي أقسامها العليا صور قديمة يعاوها الغبار ، تمثل القديسين ، كما أن على الاعمدة صوراً ملونة أخرى ، تمثل حياة المسيح وحوادثه المختلفة ، يكاد يعفو الزمان عليها لقدمها . وتحت كل صورة كتابة يونانية تشرح المال .

ولن يستطيع قلمنا العاجز أن يصور التحف الثمينة ، والآثار الرائعة في هذه الكنيسة . فيها هي صورة العذراء مريم بذراعيها من فضة ، وهي هدية بيت لحم

للكنيسة ، وفوقها جثمان السيد المسيح مصنوع من العاج ، فوق قماش من المخمل ؛
وأما المذبح فهو من خشب محفور مذهب مزر كش ، تضيئه الشموع ، وتحف به
الشمعدانات العظيمة ؛ وفي كل جانب صور كبيرة ثمينة رائعة ، للسيد المسيح أو
أمه ، أو القديسين .

ووضع على طرفي المذبح كتاب مقدس ، مفتوح على اللحن الثالث في السحر ،
جاء فيه : « ما دمت متغربة يا نفسي ، فتوبي ، فان التراب في القبر لا يسبح ، ومن
الذنوب لا ينقذ . »

ورحم الله حجه الاسلام الغزالي القائل : طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون
إلا لله « ونحن قصدنا الزيارة ، وتأمل الآثار ، فاذا بنا أمام حن صوفي ، تهتزله
النفس خشوعاً ، ويهيمن على الاحساس ، وينتقل بنا الى عوالم علوية . !
« ما دمت متغربة يا نفسي .. »

جعل صاحبنا يردد ذلك بصوت فيه رنة موسيقية ، فأعجب به سادن الهيكل ،
فاحتق بنا ، وحسبنا من كبار المتدينين المتعصبين لدين السيد المسيح ، وكادت
تغورق عيناه ، وصاحبنا يفسر له الكلمات .. فاللهم إيماناً كإيمان العجايز ..
ثم دخلنا سرداباً كبيراً تحت الكنيسة ، برفقة عائلة عربية ، تتألف من أم
تم تقاطيعها عن جمال كان فاتناً ، وبصحبتها ابنتها ، وابنة نجيمة وضع لها صاحبنا حالا
علامة (٦) من عشرة في مقياس الجمال ، تقديراً واستحساناً . !

دخلنا السرداب ، فوجدنا في كل مغارة ذكرى خالدة لم يقو الجديان على
محوها ؛ فالتماثيل الرائعة منشورة هنا وهناك ، والصور بارزة ، والجمامات البلورية
تغطي الجدران . ولن ترى العين أجمل من تلك الصورة التي تمثل العذراء ورضيعها ،
وهي مصنوعة من الصدف .. أو تلك الصورة القائمة في مغارة الاطفال تخليداً
لذكراهم ، عندما قتلهم الرومان فيها .. فترى اليهم على الجدران بالفسيفساء الحجرية
الملونة ، وتكاد تنطق . ! فلا تغيب عنك الظلال ، ولا خصلات الشعر الدقيقة ، حتى
ولا ذلك الفرع المتجلي في وجوه الاطفال ، وتلك القسوة الجامحة في وجوه

الطفءة . . كلها كانت بارزة ممثلة أجلى تمثيل . .

وشاهدنا تلك السجادة الكبيرة الأثرية ، غير قابلة للاحتراق ، التي أهداها
عاهل فرنسا لويس الرابع عشر .! وفي أرض المغارة نجم من الفضة عليه نقش
باللاتينية مفاده ميلاد المسيح . وفي جدار تلك المغارة كوة ، عليها آثار نقوش
بالفسيفساء تدل على أن هذا المكان كان مزيناً زينة باهرة في أيام قسطنطين . وله احترام
عند المسلمين . ومقابل تلك الكوة باب صغير ينزل منه بثلاث درجات الى المدود
الذي وضع فيه المسيح عند ولادته . لكن المدود نفسه غير ظاهر ، لانهم كسوه
بالرخام الابيض في أسفله ، وبالاسمر في صدره ؛ ووضعوا فيه تمثالا من شمع يمثل
الطفل يسوع . وبجانب المغارة مكان يريدون به موقف الجوس لما جاؤوا ليسجدوا .
ثم قصدنا مغارة الحليب وهي خارج الكنيسة الكبرى ، برفقة العائلة العربية وسرب
من الجنود الزوج الذين لم يصلوا مكاناً إلا وخرروا فيه سجداً . وكننا ندخل
على أثرهم ، فننعم بالرؤية ، ويغرمون الحساب .

وفوق الباب الخارجي للمغارة ، نافذة بلورية يبدو فيها تمثال العذراء ، وعلى
رأسها تاج ، وأمامها زهرية ، وقد كتب على يمينها بالعربية ، مع الترجمة اللاتينية :
« أعطنا الرحمة الكاملة . » وعلى يسارها : « واذا ملاك الرب تراءى ليوسف
في الحلم قائلاً : قم ، وخذ الصبي وأمه ، واهرب الى مصر ، وكن هناك حتى أقول لك ،
فان هيرودوس مزعم أن يطلب الصبي . » وعلى الباب كتب : « أظهر لي ذاتك أمماً لنا . »
وفي داخل المغارة ، فوجئنا بمنظر يمثل مار يوسف مع العذراء وابنها ، وبمنظر
آخر يمثل الطفل يسوع وهو يرضع .

وغادرنا الكنيسة لنزور حوانيت البلدة ، ومصانع الآثار الصدفية ، والخشبية ،
التي اشتهرت بها بيت لحم ، فعدت موارد طيبة لها من جيوب السائحين . .
وهل ينسى الانسان أزياء النساء في بيت لحم . ؟ وهي أزياء فريدة في بابها ؛
فيها جمال الشرق وسحره وألوانه . . فترى المرأة وقد وضعت على رأسها طربوشاً
طويلاً سترته بقماش ملون ، فأحاطته كما تحيط عنقها بالأطواق والنقود الفضية ،



وارتدت ألبسة زاهية طويلة فضفاضة؛
تسير فنسمع رنيناً مؤنساً في تلك الطرقات
المشرقة النظيفة ، في البلدة التي حظيت
بمولد السيد المسيح صلوات الله عليه
وسلامه ..

وقصدنا (الباص) برفقة العائلة
الكريمة ، التي طاب لها الجو بصحبتنا
في تلك الربوع ، فرأت مناظر ما كانت
تتاح لها لولانا ، ونعمت بشروح هيبات
أن تطلع عليها لولا صاحبنا .

ولعل العائلة الكريمة وجدت فينا
شابين ممتلئين حماسة لدين الله ، يفيضان
عليها المعلومات الجامعة المانعة عن

المصلوب ودعوته ورسائله .. ولقد تجلت ، علم الله ، مهارة صاحبنا بأجلى معانيها؛
فما كنت تسمع منه سوى التراتيل الكنسية ، والتعابير الكهنوتية ، التي لا تدري
من أين يكتشفها . حتى أن المرأة سألتنا عن مذهبنا قائلة: «أنتم روم أم كاثوليك؟»
فأجاب بدون انزعاج: «لا ، بل كاثوليك لاتين ..» وصمت ، ثم غير دفة الحديث ..
ولقد أغراها صاحبنا بزعمه أنا نزور البقاع الطاهرة ، باسم العلم والفضيلة والدين ،
لتأليف كتاب عن أيام النصرانية الأولى ، يأمل له الذيوع والشيوع ، في مشارق
الأرض ومغاربها . ولعل هذه الام الطيبة ، وجدت فينا صيداً ثميناً لابنتها العذراء ،
فدعتنا بحرارة لزيارتها في حيفا .. لعل الجو هنالك ملائم ليكون أحدنا نصف
ابنتها الآخر ، ومتمماً لدينها وديناها .

وعدنا وقد بدا الكمد على محيا الفتاة ، أسفاً على هذا اللقاء الخاطف ، والوداع

العاجل ؛ على أن صاحبنا لم تلن قناته ، ولم يسلس قياده ، وهو من يحتفظ بحقيته
بستين خصلة من الشعر مختلفة الألوان ، اجترتها يد المحبة من رؤوس الحسان ؛
فقنع من الغنيمة بالاياب ومن الوداع بنظرات لو ترجمت الى لغة المحيين لكانت :
سنأتي ، وانتظري ..

وعاد صاحبنا الى فندقه ، يفتش عن رفيقات الليل ، من بنات صهيون ، وليغفر
الله له ، فقد جعل بيني وبينهن حاجزاً من فولاذ ؛ فقد أخبرهن بأني (محصن) على
لغة بعض الفقهاء ؛ وقضى برفقتهم لو حده ساعات ؛ ستكون له خير ذكر في
آيات الايام ، كالزهرة النضيرة التي توضع بين صفحات الكتاب ، ثم يعثر بها
صاحبها فيما بعد ، فيجدها مهمشة ذابلة ، ولكنها محتفظة بأريجها القديم ..



الميت يحيا . . .

من لم يقصد البحر الميت في فلسطين ، فكأنه لم ير شيئاً من النشاط الصهيوني الصناعي . ولئن سمي بالأمس البحر الميت ، فلك أن تسميه اليوم بحر الحياة والحركة .! فعلى ضفافه ، قام أروع مشروع صهيوني ، بعد مشروع كهرباء فلسطين ؛ فأفاد الصهيونيون منه دون العرب ، فوائد حمة ، في المال والعمل والنفوذ الاقتصادي .

تلك هي الاسباب الموجبة التي تدرع بها صاحبنا لننعم بهذه الرحلة . فقصدنا منذ الصباح الباكر محطة سيارات (ايجد) . . . وراعنا فتيات يحطن أباهن ، دون بكاء أو عويل ؛ رغم أن الامارات كلها ، كانت تدل على أنه مسافر الى بلد بعيد ، ولعله سيمتطي الطائرة ، من مطار (خالبا) القائم على ضفاف البحر الميت .! كنا نظن أن النحيب سيمتعالى ، والزفرات ستتصاعد ، وستشد الاثواب ، وتقطع الأزرار ، عند الفراق ، لئلا يسافر الاب الرؤوف ، وإظهاراً لألوان الحنان الشرقي . . . لا ! لم يحدث شيء من ذلك ، وليس سبب هذا الصبر ، أن العواطف البشرية ، نضبت من قلوب القوم ، ولكن الحقيقة ، هي أن مفاهيم الحياة ، تغير ما نفهمه ونشعر به . . .

فقد اضطر ابن اسرائيل طيلة العصور ، الى الحل والترحال ، فلا يكاد يلتقي عصا التسيار في مكان ، حتى يغادره الى آخر ، ومبدؤه في ذلك : وطنك حيث عمالك وربحك . . . ولا يهمله أبداً ، أن يكون الاب في تل أبيب ، والابن في طبريا ، والبنات في (هونولولو) ، واختها في أميركا .! وفي سابقات الايام ، كان يشاهد صاحبنا في دمشق ، أطفالا كالزهر ، إناناً وذكوراً ، يرسلهم آبائهم وأمهاتهم ، الى المستعمرات الصهيونية في فلسطين ، ولما تجاوز أحدهم العقد الاول من حياته ، والاهلون

صابرون كأنه لم ينلهم من فراقهم مكروه...!
نعم ، لقد شاهد الفتيات ، يحطن أباهن ، وفي يد كل واحدة منديل ، يضغطن
عليه بكل يدهن ، حتى اذا حم الفراق ، أقبلن بكل هدوء ، فقبلن الاب بعدمصافحته ،
دون نجيب ، ودون ملء الدنيا ، صراخاً وعويلاً ..!

وسارت السيارة ، في الساعة المحددة تماماً كالعادة ، واطمأن كل راكب الى
نفسه ، في مقعده المريح . وللمرة الاولى ، جرت الرياح بما لم يشته صاحبنا المحترم .!
فلقد قدر لنفسه ، أن تكون الطريق بين القدس والبحر الميت ، خالية خاوية ، فما
عليه جناح ، اذا اعتزل الناس في آخر السيارة ، واستسلم الى رقاد لذيذ ، يفي به
بعض ديونه ، من النوم الفات ، في الليالي السابقة الحمراء ، مع غايات الفندق الرعايب ..

وقد جمع الله السفتين

وجلست بجاني هيفاء رومانية ، كانت عيناها تقولان : أنا الحب ، وشفتاها أنا
الشباب ، ووجودها أنا السعادة . وفي شعرها الذهبي ، سحر حلال ، وإغراء
يعغظ القلوب والا كباد .! أما صاحبنا ، فقد قبعت بجانبه ، امرأة موفورة الشحم ،
مترهلة اللحم ، كأنها برميل ضخم من الثياب الوسخة ، والوجه الوضع الحقير ،
هذا اذا قسمنا الوجوه ، الى جميل ودميم ووضع ، وهو أحط الدرجات ، في سلم
المقاييس الهوليوودية ، لانه يجمع خبثاً الى جانب الدمامة .. نعم ، كانت جارته
— والشهادة لله — عجوزاً درديساً ، ذات ذؤابتين طويلتين ، تنهيان بخروق ملونة ؛
وأمامها كيس مفعم بأنواع الماء كولات ، يسعف صاحبته المحجرة ، التي لم يكف فيها
عن المضغ والقضم ، طوال الطريق .. وجعل صاحبنا ينقل طرفه بين الحسناء
الرومانية جرتي ، والدميمة المقدسية جارته ، ويستعيد بالله ويحوقل ، ثم يعوود
فيهتف بي ، من قعر السيارة ، بلهجتة الشامية : « وين .. خوي » .؟ — تخفيفاً
لأنني وتلطيفاً — فأجيبه : « رزقكم في السماء .! » فيقول ساخطاً متبرماً : إن الله مع
الصابرين ! ثم يهوي برأسه على حاجز أمامه ، ويستسلم الى بضع دقائق من النوم المضطرب .

وإذا كان الشاعر يقول : ما إن ندمت على سكوتي مرة .. فاني قائل : ولقد ندمت على السكوت مراراً .. ومكره أخوك لا بطل .! فما كنت أفهم لغة جارتى الرومانية ولا العبرية ، ولا تفقه هي فرنسيتي المهشمة ، أو عربيتي الفصحى .! فظللت صامتاً وسفيرنا العيون . ومن باب التحدث بنعم الله ، فقد كان يزدحم الجسبان ، رغم الفصل الحار ، بفضل التواءات الطريق وانحناءاته ، كما صبت السيارة ، ومالت وانعطفت ؛ فيث الصامتان ما تضطرم به جوانحهما ، من أشواق وشهوات مكبوتة ؛ حتى أن صاحبي بصر بي وأنا في موقفى الدقيق ، فصاح شامتاً : « قل إنما الاعمال بالنيات .! وبجواتيمها » فابتلع كلماته على مضض ..

تروات عربية في أيريهودية

لم تكن غايقتنا ، زيارة البحر الميت ، والتمتع بمياهه ، بل كان هدفنا الأسمى ، زيارة المعامل القائمة على جوانبه .. والبحر الميت أخذود انهدامي ، لا يقل عمره عن (٣٠) ألف سنة ؛ أي انه حسب علم الجيولوجيا المحترم ، من آثار الدور الانهدامي الثالث . ويتصل بحيرتي الحولة وطبريا ، بواسطة نهر الاردن ، الذي ينحدر حتى ينتهي عند البحر الميت ، بعمق (٢٥٩٢) قدماً عن سطح البحر . وهو أعظم انخفاض في العالم كله . أما سطح الماء فينخفض عن سطح البحر نحو (١٣٠٠) قدم .! وطول هذا البحر (٤٩) ميلاً وعرضه (١٠) أميال ؛ وبما أن الحر شديد هناك ، وما يغذي البحر من الانهار قليل لا يتجاوز نهر الاردن ، فانه يمعن في التبخر المستمر ، منذ آلاف السنين ؛ حتى أصبح ثلثه الآن أملاحاً متكاثفة ؛ إذ يتبخر منه كل يوم ستة ملايين طن من الماء ، الذي يترك في الأغوار املاحاً تقدر بـ (١٣٠٠) مليون طن . وملح الطعام هو حجم المقدار في هذه المياه ، حتى أنهم ليستخرجون سبعة أطنان منه ، ازاء كل طن من البوتاس ، وأما سائر الأملاح الفرعية ، التي تستخرج بعد ذلك ، فهي كثيرة : كالفوسفات ، والصود الكاوي ، وغاز الكلورين ، وكلور حمض الماء ، وعدة مركبات صودية ..

وبالاجمال ، فان في هذا البحر كنزاً رائعاً لا تقل قيمته عن (٢٤٠) ألف مليون جنيهه !.

ولم تفت أقطاب الصهيونية ، هذه الثروة الهائلة ، فأدخلوها في برنامجهم الصناعي الكبير . وما حانت سنة ١٩٢٣ حتى تم الاتفاق ، بين وكلاء التاج للمستعمرات البريطانية ، بالنيابة عن حكومتي فلسطين وشرق الاردن ، وبين (نوفومسكي) و (تولوخ) على شروط استثمار البحر الميت . فتأسست شركة من أجل ذلك ، باسم (شركة البوتاس الفلسطينية المحدودة الضمان) . ومدة امتيازها (٧٥) عاماً ؛ وليس لها خلالها أن تتنازل عن الامتياز أو تؤجره ، أو تتصرف فيه على وجه آخر ، دون موافقة الحكومة ؛ كما أنه ليس لها أن تمتلك ما تجده من الذهب ، والمعادن الثمينة ، والآثار القديمة ، والزيوت المعدنية النفيسة !.

وقد ضمن اليهود بحصولهم على هذا الامتياز ، زيادة هجرتهم الى فلسطين ؛ وإكثار شعبهم ، عدا وضعهم يدهم على أعظم ثروة فعلية في البلاد !. وترى الى هذه المعامل ، قائمة على ضفاف البحر ، وفوق مياهه ، مبانيها الفخمة ، ومداخنها التي تقذف الدخان القاتم ، في سماء لم تعكرها في خاليات القرون ، قزبات الدخان الأذكن !. وكانت المعامل محروسة من جميع جهاتها ، كمنطقة حربية ، لا يسمح لاحد بزيارتها ما لم ينل رخصة رسمية من ادارة الشركة في القدس . . . ولعل ذلك ، هو ما زهد صاحبنا في زيارتها ، فرضي من الغنيمة بالاياب . فما كادت السيارات تقف ، حتى أسرع الى الحمامات القائمة بجوار مستعمرة (خاليا) على ضفاف البحيرة ، يحتال بجسمه الضخم ، أمام الجنس اللطيف ، ناسياً أن بني آدم ، ليسوا جميعاً ممن يقال لهم يا نحيف القوام !.

وفي المستعمرة محطة للطيران المائي ، وفندق عصري ممتاز ، وبار ومطعم ومياه عذبة ، وأحواض أزهار ، وأشجار باسقات . . مما يدعو الى تداعي الأفكار في المعلومات الجغرافية الخاطئة القائلة : بأن البحر الميت ، لا تعيش فيه الاسماك ، ولا تنبت على ضفافه النباتات . . فقد وجد صاحبنا أن نصف الشطر الاول من التعريف

صحيح ، والشطر الثاني خطأ صراح . . فعلى ضفاف البحيرة برك تربي فيها الاسماك ،
وهي على قيد أشجار من الماء المر العلقمي .! ورغم أن هذه الاشجار والأزهار
قليلة ، فهي صفة عادلة للعلم الجامد . فكم تمنى أن يأتي مؤلفو كتب الجغرافيا التجارية
ليتحققوا من صحة اكتشافاته الهائلة .!

بهاء بلخ ، رموع التماسيح

لعل زيارة بحيرة لوط أو البحر الميت ، لم تبد لنا جميلة مفيدة ، لو لم نتعرف الى
ذلك اليهودي العراقي الدميم . . لقد كان متوطناً فلسطين مع زوجته وأولاده ، وهو
رجل ثرثار جداً ، استطاع بلسانه السليط ، أن يملاء فراغ (الباص) طوال الطريق ،
صراخاً ولعلعة مزعجة .!

كان يملك ٩٥ / . من القبح الرجعي القديم ، وست أسنان سوداء ، وصلعة
مضيئة لامعة ، وحنجرة قوية من نحاس .! أما زوجته ، فكانت ذات وجه ، يحمل
كافة الألوان الطبيعية الستة ، مع زوائد و (بوارز) من بطن منتفخ ، الى عجيزة
غليظة ، وجبهة عالية .! كل ذلك جعل لحديثه الطريف ، صبغة حارة مزعجة . .
بيد أن الطريق القائظ ، دفعنا الى التسلي بسماعه ، يثرثر مع جاراته (البغداديات)
والبيروتيات ، والأمر كيات اللواتي جئن يستحمنن للاستشفاء .

وعندما صعد من البحيرة ، وقد دهن جسمه بطينها ، جلس مع صاحبنا على
الحصباء تحت الشمس اللاذعة ، يستمتعان بحديث جذبي (قتاره) سريعاً . . فدنوت
لاتقهم الكلام الساخن الباكي .!

ومط شفته كقطعة من (السكاوتشوك) ، وتداع وهو يدلك صدره . . ولست
أدري ، من أين له هذه المعلومات الخصبية ، عن الصهيونية وأنبائها وتاريخها .؟ فهل
جمعها من المصادر المختلفة المملوءة بها مكاتبهم ، أم أنها نسخة أصلية ، يوزعها قادة
صهيون على شعب اسرائيل ، لتكون ذات شكل واحد ، وروح واحدة ، في الدفاع
والبكاء والاستخذاء .!؟

قال شيلوخ — وقد سميته كذلك ، لاني رسمت له صورة في نفسي ، لا تبعد عن
هيئة ذلك المرابي الاول ، بسحنته وثعلبته الثقيلة المعقوتة — :

إن القرون العديدة المنصرمة ، لم تزد اليهود إلا إيماناً بحقيقته راهنة ، وهي أن
ديار الغربية ، ديار عذاب ؛ وأن القرن العشرين ، قرن العلم والنور ، قد برهن بجلاء ،
على أن اليهود ، سيبقون أبد الدهر ، كبش الفداء ، أمام كافة الشعوب ، ما داموا
بعيدين عن وطن قومي ، يعيشون فيه أحراراً مجتمعين ، تحوّلهم السكينة والطمأنينة . !
إن عشرين سنة خلت في أوروبا ، كانت كافية ، لتلقن الشعب اليهودي ، درساً
لن ينساه ، لما حوته من ضروب النفي والنهب والمذابح والمقاطعة . . .

ولعل هذا العصر المرعب ، المترع بالارزاء ، هو العصر الوحيد ، الذي انطوى
على أعظم حادث في تاريخ اليهودية ؛ ألا وهو اعتراف العالم المتمدن ، بحركة
الصهيونية الرسمية ، وذلك باعلان وعد بلفور ، لانشاء الوطن القومي ، وتفويض
انكلترا من قبل جمعية الامم ، بتحقيق الاهداف التي جاهد اليهود في سبيلها . !

وضحك هنا ، قبل أن يفتح فمه قائلاً : إن نتائج كل حرب ، هي سيئة بمحذاتها ،
على الغالب والمغلوب ، غير أنها ستكون أسوأ بكثير من ذلك على اليهود . ! لانهم
أقلية في كل شعب . . . إنهم يعتبرون دوماً في رأس القائمة ، يحملون أوزار غيرهم
وشرورهم . وليس أسهل حينئذ من مصادرة أموالهم وأراضيهم ، فينبهون ويطردون
ويشردون بلا شفقة ولا رحمة . . . في كل زمان ، وتحت كل كوكب . . .

لقد كان اليهود في المجتمع الاقطاعي ، وسيطاً تجارياً بين الاسلام وأوروبا ؛ ولم
يتأخروا قط عن مناصرة الصليبيين وتمويلهم ؛ فتمتعوا انشاء ذلك ، بحماية الملوك
والامراء ، ونالوا امتيازات هامة ، كما كانوا في ظل الاسكندر والرومان . ! وعندما
حصل الصراع بين الأرقاء والاسياد ، وبين البورجوازية الناشئة الحديثة والنبلاء ،
تدهور النظام الاقطاعي عندئذ ، ولجأ رجاله الى كبش الفداء ، ليحولوا سحق
الجمهير الثائرة الناقمة على اليهود . ولم يجد هؤلاء بدءاً من الفرار الى أواسط أوروبا
والاناضول . ! واليهودي بطبيعته ، وبتحكم الظروف فيه ، صار أريباً ذكياً ، يلين

مع العاصفة الهوجاء ، دون أن ينكسر . . . فلم يفن اليهود ، رغم الحوادث المذكورة
والمذابح ، بل التجؤوا عقب انهيار النظام الاقطاعي ، الى الرأسمالية ، التي اعتقدوا
بأنها ستنجيهم وتحررهم من الضغط ، لان البورجوازية شعرت بفائدتهم حينئذ
وقيمة مساعدتهم . . .

أجل ، لقد تحول فقراء اليهود ، وصغار تجارهم ، الى عمال تدريجياً ، حتى نمت
الصناعة الكبرى ، ونمت الرأسمالية اليهودية معها . وهذا هو ما يفسر حركات
الهجرة من الشرق الى الغرب ، وأقصد بذلك الهجرة من روسيا الى الولايات
المتحدة . . . حيث الحقوق السياسية كانت متوفرة للسكان ، وخاصة لليهود ، مما
يجعلنا نفهم سر التقدم ، وعمالية الرأسمالية الصناعية الحرة . . .

ولا بد هنا من الانتقال حسب التسلسل الواقعي ، الى مرحلة الرأسمالية
الاحتكارية .! فان نمو الرأسمالية ، جعل الدول تنحو نحو الاستعمار ، وتقسم العالم
أسواقاً لها . . . وعلى هذا اندلعت نيران الحروب ، وانفصل عقب حرب (١٩١٤)
النظام الاشتراكي عن الرأسمالية ، وانتشرت البطالة ، وتصعد على أثرها النظام
الرأسمالي . . .

لقد حصل صراع بين (البروايتاريا) والبورجوازية . . . صراع مكاني ، وصراع
عالمي .! حتى بين البورجوازيين أنفسهم . . . ومقابل ذلك نشب الصراع بين
المستعمرات والمستعمرين من الدول . . . وفي كل ذلك ، كانت تنصب القنمة على
الكبش الطريد ، الذي يختفي غالباً وراء المال منقذ اسرائيل . . .

وهنا ، صرخ شيلوخ ، منادياً صديقة له : راشيل . . . راشيل . . .
ثم كلها بعبريته الرنانة المدوية ، وجعل يقهقه .! فأقبلت تسعى اليه ، باسمه
حتى جلست معنا ، فعرفنا بنا ، وكأنه أفهمها أننا يهود لا صهيونيون . . . وعندما
رآنا ذابلين ، ننتظر وصل ما انقطع من البحث قال : إن ضمانة الشرف والحياة والمال ،
تقوم في الشعب المنظم ، ولن يكون هنالك شعب منظم دون أرض ، كما أنه لن تكون
هنالك إدارة حرة فوق الارض ، اذا لم يكن الشعب هو سيدها ومالكها .! فلا

حرية ولا كرامة ولا سلام لشعب ، لا وطن له .! فالوطن هو الصلة الوحيدة ،
للمو المستمر الهادي ، والتقدم المطرد . . . ولكم نال اليهود بسيدته ، طوال عشرين
قرناً ، من حرمان وعذاب .! إن جميع خدام قضيتنا ، يرون أن عصرنا ، هو خير
العصور لانشاء هذا الوطن .!

ثم بدأ يحول طبعته ، الى صبغة مسرحية ، وقد أصاب سحنته ما يشبه الزلزال .!
قل . . . لي . . . بالله . . . أليس من أكبر الخدمات الانسانية ، التي تقدمها
البشرية لهذه الملايين المبعثرة في أربعة أركان الدنيا ، هو أن تعطف على قضيتنا ؟!
نحن لا نريد سوى وطن روحي سياسي قانوني ، تحميه إرادة الشعوب المهذبة ،
التي أيده . . . وشرع شيلوخ يحلم . . . إن عدد اليهود في العالم اليوم (١٧ ؟) مليوناً
تقريباً ، وإن لهم من المقومات الفكرية والروحية والمادية ، ما يؤهلهم لحماية هذا
الوطن المنشود . . . وخير مثال لهم : أولئك المستعمرون الحاليون . . . وإن وجود
مليون يهودي مبدئياً في فلسطين ، ينشئ رقبة الجسر ، والقاعدة المالية والسياسية
الهامة ليهود العالم ، وليس بعيداً ذلك اليوم الذي يبلغ فيه عدد اليهود (٣٠) مليوناً
من الانفس العاملة . إن فلسطين والشرق العربي وسورية ولبنان والعراق ، وأكثرها
مناطق صحراوية خالية خاوية ، يمكننا أن نعتبرها ، مجالاً حيويّاً لنا . . . فهي إذن ،
خير ملاذ لعشرين مليوناً من اليهود .!

ولم تتركنا زوجه هادئين نستمتع اليه ، فقد أضرت مع (راشيل) ، على أن
يذهبها معه الى السباحة ، فاعتذر لنا بصوت رفيع رنان ، وأسرع يقفز على الحصباء
كالقنفذ تتبعه (راشيل) .! وسار في أثرها صاحبنا ، وتركني وحيداً مرة اخرى .!
رحت أتأمل هذه الاجسام البشرية أممي ، بعضها جميل ، وأغلبها دميم . . .
ذلك أن من يزور البحر الميت ، غالباً ما هو مريض ، أو عجوز ، يسعى لتقوية
عضلاته وجسمه ، بما في الأمواه من أملاح معدنية .! ولقد اكتشف صاحبنا ،
أن ماء البحر كثيف ، لدرجة تكفيه أن يلقى جسمه فيه ليطفو ، دون أن يبدي حراكاً .
ولكن ، حذار من دخول الماء الى عينيك ، فانك لن تقوى على احتمال الآلام الشديدة .

استلقى المغامر الرفيق على الماء وراح يقوم بحركات ماهرة لبقية ، جعلته يساب
بين المستحبات ، كغواصة تعود الى قواعدها . . . وكان يقف أحياناً ، أمام جسم
غض مقبول فيسأل صاحبه: هل تلاقين من ملوحة الماء ما ألاقيه؟ ويكون الجواب ،
بالإيجاب دائماً! ولقد أبصر عجوزه الدرديس ، مستقيمة على حصباء الشاطئ ، في
عمق لا يزيد عن ربع المتر ، وهي تحسب نفسها في المحيط الهادي ، تسبح فتحرك
زعانفها كالضفادع ، ولا يكاد ربع المتر هذا ، يستر أكمة ظهرها المحدودب! وشاهد
أيضاً سرباً من الفتيات ، يذهبن الى مكان قصي ، ليطلين أجسامهن بذلك الطلاء
الازرق المذكور ؛ فيتألقن تحت أشعة الشمس ، كتأثيل نحاسية ، في معابد هندية .!
وشاقته هذه العملية ، وخاصة بين الغيداوات ، فراح يخطر على الحصباء ، ثم يغوص
في البحيرة ، مفتشاً عن ذلك الصباغ المدعى بـ (تخمة الماء) . . . وما هو إلا تعامل
المواد الكيميائية مع التراب . . . ولا يختلف في قوامه عن المرهم ؛ وهم يزعمون أنه
يشفي من الامراض الجلدية والعصبية . . .

وهنا ، لم يتردد في طلي جسمه كله ، حتى الوجه واليدين والاذنين ، لا لعلمه
الأكيد ، بنفع الطلاء ، — وهو أمر مشكوك فيه — بل لانه علاج مجاني ، ولانه
لا يقل ذكاءً واقتصاداً عن أولئك المدهونين والمدهونات ، من قمة رأسهم حتى
أخص أقدامهم . . . غير أن عقدة العقد ، هي كيف يطلي أعلى ظهره . . . ولم يقف
هنا طويلاً امتثالاً لقاعدة : لا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس ، فما هي إلا أزمة
عابرة . . . ولن يعيى ذكاؤه الأمل عن حل لها .! والواقع أنه ما كاد يطلي جسمه ،
حتى هرول نحو أقرب آنسة منه ، كستنائية الشعر ، زنجية اللون طلاء ؛ تقدم
منها متأدياً متطوعاً لوجه الله — لا للشيطان — قائلاً بعد الخنساء صغيرة : اسمحي لي
أن أضع نفسي تحت تصرفك . . . فالضرورة وهي أستاذ الأدب واللباقة — كما يقول
الفلاسفة — برغمني على مساعدة الفاتنات في دهن ظهورهن .! فلم ترفض طلبه ،
بل أدارت له ظهرها ، بعد أن رفعت حاملة النهود ، وتركت له جسمها اللدن ،
تحسسه بالطلاء ، حتى آتم مهمته على خير وجه .! ثم طاف حولها ، كما يطوف الهنود

بالآلهة ، فرأى فيها (فينوس) البحر الميت ، وقد خلت من كل ستر ، إلا من أصغر
(مايوه) شاهده في حياته ؛ فقد برز نهديها الأسودان فوق جسم متألق لامع تحت
الشمس المنعكسة من الطلاء .! وما كاد يطمئنهما الى قيامه بالواجب ، حتى أرادت أن
تقابل الكرم بمثله ، فاستأذنته بطلاء ظهره ؛ ولو علمت أن طول ظهره شهر وعرضه
دهر ، لأدركت زلتها في معونته .! ويستطيع صاحبنا أن يؤكد بأنها ما كادت
تطلي قسماً من ظهره ، حتى جف الطلاء سريعاً ، لارتفاع حرارته أكثر من ثلاث
وأربعين درجة .! وانتهت المهمة ، فسارا يتلويان على الشاطئ ، وقد أمسك كل منهما
بيد الآخر ، ثم ارتميا في المياه الحارة .! وحمد صاحبنا ربه ألف مرة ، على أن قرار
الجامعة العربية بمقاطعة البضائع الصهيونية لم يكن قد وضع بعد موضع التنفيذ وإلا
لفاتته هذه الخدمات وما جرته عليه من ثواب .!

ظلمت أتأمل ذلك (الفلم) الحلي ، يمثله نصير من أنصار الفضيلة ، وقد غرر بي
الى بحر الميت ، لوجه العلم وحده ، فاذا به يلهو بأسعاف (المنطليات) وإرشاد
التأهات ...

وخرج الجميع من البحر ، وقصدوا السيارة .! ولم يكذ شيلوخ يجلس في مقعده
ويطمئن الى زوجه المصون ، حتى حيانا وابتسم ، أو بمعنى أصح ، كشر عن أنيابه
وقال بصوت يوشك أن يسمعه الجميع بعد أن أخرج علبة سجائرهم : أمدخون .! فاعتذر
صاحبي كما اعتذرت .! ثم دار الحديث بأن سأل الرجل صديقي عن مهنته : فاعترف
بكل خجل أن صناعته موظف .! فقال شيلوخ :

وكيف رأيتم فلسطين ، والمعامل .! والبحر .! إنها — على ما أعتقد — مسلية
مغبطة ، وقد أبرزتها الايدي اليهودية العاملة ، عروساً شرقية متحضرة .! وتابع :
إن الشعب اليهودي ، الذي ساهم بخدمات جليلة للبشرية ، لم يكافأ عنها بشيء ؛
بل على العكس ، ظل مهملًا مزدري .! فهذا هو (آنشتين) صاحب نظرية النسبية ،
وذلك هو (فرويد) صاحب نظرية التحليل النفسي ، وذاك (فرتر هاير) مكتشف
الآزوت ، و (برغسون) و (سبينوزا) وغيرهم ، وغيرهم .! لم تكافئهم الشعوب

على قدر جهودهم .! فكان اليهود خلقوا للمغارم دون المغنم .! إن روحنا منذ عهد
الانبياء والرسل ، مشبعة بعواطف العدالة الاجتماعية والدولية . . وعدد طلابنا
وأساتذتنا في الجامعات ، أعلى من نسبتنا العددية .! وإن هذه الروح العالمية ، ستخلق
في فلسطين ، جيلاً مشبعاً أيضاً ، بمبادئ الحق والخير والجمال .!

إن إنشاء الوطن القومي في فلسطين ، هو فائدة عالمية يجب أن تعضده سائر الشعوب .
وهنا وقف (الباص) قرب مخفر لبوليس البريطاني ، على الطريق ، وركب
أحد الجنود العرب ، قبالة صاحبنا شيلوخ . وما إن حركنا رأسينا مشجعين له ليم
حديثه ، حتى تطفل الشرطي ، واشرب بعنقه متشوقاً الى كل كلمة تخرج من فم
الصهيوني . . أما الرجل الشاكي الباكي فقد شرع ينفخ سيجارته كالشياطين ،
ويقذف الكلام كالحمم ، دون أية مبالاة بمن حضر أو غاب من الناس وعاد يقول :
إن زعماءنا وأقطابنا مجتمعون على أن لا سلامة لليهود العالم ، إلا بتجمعهم في وطنهم
المنشود . . وكما أن (الارلنديين) لم يتراجعوا عن مطالبهم ، ولا (البوير) في
سالف الزمن ، فاننا نحن كذلك .!

نعم ، لا شيء أسوأ من فقدان الحرية . . غير أن هنالك ما هو أسوأ منها وأشر ،
ألا وهو فقدان الوطن .! فالارض هدفنا قبل كل شيء ، والزراعة كعبتنا ؛ ولئن
طرد اليهود من كل مكان ، وأجبروا على التجارة والصناعة دون الزراعة — وهي
ينبوع غزير الفوائد لدى كل الأمم — فسيكون هدفنا الاول في فلسطين ،
الارض والزراعة .!

واذا كانت كل حركة تجديدية ، أو كل تبديل وتغيير في حياة الشعوب ، يستدعي
المتاعب والثورات والاحتجاجات ، فان سبب ذلك كله ، هو عجز الالهين عن
مجاراة الفاتحين المجددين .!

وهنا ، قال كلمة تدل على اعتقاده بنا كيهود ، بعد أن تحمس وانتفخ :
فالي هؤلاء الذين يناوئونا في فلسطين نقول : لا تفكروا في إلغاء وعد (بلفور)
بل حاربونا بسلاحنا ، حاربونا بالزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، والعلم ، والتنظيم ،

ونسيان المصالح الخاصة في سبيل المصلحة العامة. ! حاربونا برسم البرامج والاهداف
لمئات السنين .!

ثم ضحك ضحكة جريئة خشنه، نزعت وسادة الطمأنينة التي نرقد عليها.. وقال:
إن وسائلنا العاجلة ، لانشاء الوطن القومي ، الذي يعضده صك الانتداب ،
ووعد (بلفور) ، وعطف العالم المتمدن ، ستقوم على هجرة كلية خاطفة ، تساندها
رؤوس أموالنا المقيام بالمشاريع الحيوية. ! ولا سلامة لهذه الاموال في المهجر أبداً .
إنما سلامتها هي بين جنبات الوطن القومي .! ولو فرضنا المستحيل ونمت ثورة
شيوعية هنا ، فلا خطر منها على أموالنا ، لانها ستبقى في فلسطين ، متكئة في
الارض ، لينتفع بها المجموع . . وإن أمريكا أنصفتنا حقاً حينما قالت : إن منح
فلسطين لليهود ، ليس عملاً عدلاً فقط، بل هو مكافأه لهم على ما بذلوه أثناء الحربين
لقضية الخلفاء .!

فعلينا أن نمد يد المساعدة ، لتغذية صناديقنا المالية ، وتقوية وكالتنا اليهودية ،
ولنعمل كل ذلك يدأ واحدة ، بشجاعة ودون توقف أصلاً .! فهما فقدنا من مال ،
ومهما بذلنا من تضحيات ، فهو قليل ، مقابل خلاصنا من حياة الغربة الذليلة، حيث
تنب ثرواتنا ، ويذبح رجالنا، وتنتهك أعراضنا .

إن كل تضحية في سبيل فلسطين ، ستكون ضئيلة جداً ، إذا قورنت بما
خسرناه مالياً وروحياً في الحرب الحاضرة .! وليدرك الشعب اليهودي أنه بنضاله
لوطنه القومي ، إنما يناضل من أجل حياته ، وسلامته ومستقبله . . إن نضالنا لن
يذهب سدى ، آجلاً . . أو عاجلاً .!

إن سبعة عشر مليوناً (؟) مجتمعين ، هم أكثر مما يلزم لبلوغ هذه النهاية ، وإن
تنظيم جهودنا وقوانا، وتوجيهها لانشاء الوطن المنشود ، يتعلق به سلام قضيتنا النهائي،
وسيتقرر لآجيال طويلة .! وهنا ، ربتت على كتفه زوجته ، لتعطيه قطعة من
(السندويش) أخذ يلتمها بشراهة .! ولم نكد نعتدل في جاستنا ، حتى وقف
(الباص) . . وهم شيلوخ بالزول مودعاً : شالوم .! واذا بالجندي يقرب منا ،

بعد أن سمعنا نتكلم العربية الشامية ، وتبادل النظرات ، فقال : حضرتمك عرب . ؟
قلنا : نعم ! قال : و . . . و . . . يهود . ؟ قلنا مذعورين : لا . . . أبداً . ! فزفر عندئذ
زفرة ارتياح وهمس : أتدرون من هذا . ؟ — وغمز بعينه — إنه من رجال الصحافة
الصهيونيين البارزين . . . !!

أيها العربي

هذا حديث هام يمثل وجوها عديدة للصهيونية :
يمثل لك أن الصهيونيين ، كباراً وصغاراً ، مشبعون بفكرة الوطن القومي ،
مؤمنون بتحقيقه ، يفتخرونه ويدافعون عنه بكل قواهم ؛ ومن ورائهم الوكالة الصهيونية ،
تدمم بالمعلومات ، وتزودهم بأفانين الدعاية .
ويمثل لك أن مطامع الصهيونيين لن تقف عند حد . . . فجالهم الحيري هو
بلادك العربية طراً ، لا فلسطين وحدها . صرحوا بذلك في كل مناسبة ، فأمنوا به ،
ويريدون أن ينالوه بكل ما أوتوا من قوة مادية ومعنوية .
ويمثل أخيراً قوة الصهيونية الصناعية الجبارة . . . إن استثمار البحر الميت ليس بالامر
السهل ، إنه شركة من أعظم شركات الشرق الأدنى ، غمرت منتوجاتها الخاققين ،
وراح العربي يشتري بماله ما يساعد الصهيوني على القضاء على العروبة وبلادها .
فقاطع بضاعته ، واصبر على حاجتك ، وارفع يدك عن سلعته ، فهي تلدغك كالعقرب ؛
وحذار أن تنسى أن أغلب رؤوس الأموال اليهودية هي أميركية أو انكليزية ، وأن
أية لجنة تحقيق لن تنصف العرب ، ولو شاهدت حقهم كالشمس في رابعة النهار . . .
فيأيها العربي . . .

إلى العلم ندعوك ، وإلى الوعي الصحيح نهيب بك ، وإلى المشاريع الصناعية
نستثير همتك . واذكر دائماً وأبداً ما قاله ذلك اليهودي : « لا تفكروا في إلغاء
وعد بلفور ، بل حاربونا بسلاحنا ، حاربونا بالزراعة والصناعة والتجارة والعلم والتنظيم
ونسيان المصالح الخاصة في سبيل المصلحة العامة ، حاربونا برسم البرامج والاهداف
لمئات السنين . . . »

الجامعة العبرية

مخزن أسلحة ..

لبست

الجامعة العبرية من مبتكرات (وايزمن) و (بلفور) أو غيرها ،
من اعتادوا الرقص على القبور . ولكنها ترجع الى عهود تاريخية سحيقة في القدم .
هذا ما قاله صاحبا ، والسيارة تتسلق (جبل الزيتون) ، لتدرك الجامعة
العبرية في ضحى ذلك النهار المشرق ؛ ثم شرع يدلي ببعض منسياته ، عن أعظم مؤسسة
صهيونية ثقافية ، يرجع تاريخ الحلم بها إلى أواسط القرن الاول للميلاد ، حين
رفع (يوحنا بن زكاي) طلباً الى القيصر الروماني « وسباسيانوس » يلتمس فيه
إنشاء مؤسسة عبرية ، تحفظ تراث اليهود الفكري . فأذن له ، وأقيمت الجامعة ،
قرب ميناء حيفا ، في مدينة « آبي » . ثم دمرتها الزلازل ، فأنشئت ثانية في مدينة
« أوشا » قرب طبريا . ولم يكتب لها العمر الطويل أيضاً ، فاندثرت دون أن تترك
منها سوى رؤيا لاذة ، ظلت تدغدغ أفئدة اليهود ، حقة من الدهر ! . وقد ألمع الى
ذكرها غير واحد من قادة الفكر ، ومنهم (روسو) في كتابه (اميل) ؛ بيد أنها
لم تبرز ثانية الى الوجود ، إلا مع اليقظة العالمية اليهودية . . فقد فكر فيها لأول
مرة « هرمان شايبيرا » ، — أستاذ الرياضيات في جامعة (هيدبرغ) في ألمانيا — ،
فحضر على إنشاء هذه الجامعة عام ١٨٨٢ ، ولم يوضع المشروع ، موضع التنفيذ ، إلا
عام ١٩١٣ . فبدأ البناء عام ١٩١٨ ، وظلت تنمو باستمرار ، حتى وصلت الى ما هي
عليه بالتدريج . ففي عام ٩٢٨ توحدت معاهد العلوم اليهودية والشرقية ، والآداب
الغربية ، في كلية الآداب ، وفي عام ٩٣٥ نشطت كلية العلوم ، ثم كلية الطب عام
٩٣٩ ، وكلية الزراعة عام ٩٤٠ ..

وربت على كتفي منبهاً إياي الى وقوف السيارة .. فهبطنا صامتين ، نتمتع أبصارنا

بالوديان ، ونشرف على المسجد الأقصى ، والرابع الخضراء ، والبيع المنشورة في كل مكان ، بين الاشجار، وخلف التلال، وكأنها مزيج من الأحلام والخيال والسحر.. وحمدت الله ثلاثاً ، أن قطع الحديث علي ، هجوم المشاهد التي تحلب الأبواب والعقول ! ذلك أن دم العروبة الحار ، ما زال يمني من سماع أبناء النشاط الصهيوني.. فهو نشاط من شأنه أن يبعث في نفسي التشاؤم ، ويرهني كما يرهني العدو المستحکم ، فتهدم قصور سعادتني ، التي أنشأتها ، بالتفاؤل والامل، منذ نعومة الاظفار ، وتتهار كأنها قصور من ملح !.

نعم ! لم يكذبنا ينشر خريطته المهوده ، ويشير الى بناء الجامعة ، أو على الاصح الى أبنيتها المتعددة ، حتى شرع يزيد تليذه اليأس المسكين ، من المعلومات الواسعة الفسيحة ؛ فيتلو عليه أي بلاغته مرة أخرى .! فسلمت أمري الى الله، وفي سبيل العلم ، أصخت اليه ، يسرد علي نشاط العدو الهائل ، في هذه القلعة المشرفة على القدس ، فقال :

وكان من أشهر المتحمسين للاستاذ (شايرا) ولمقالاته الرنانة (تيودور هرتسل) ثم (وايزمن) . . فشریت الارض فوق الطور ، وأعلن اللورد بلفور — سحراً لذكراه — عام ١٩٢٥ افتتاحها رسمياً ، في حشد من العلماء ، ومجندي الصهيونية .! ثم قهقه صاحبي بصوته الجهوري وتابع : وهكذا فأنت ترى كيف ظهرت الجامعة بسرعة البرق ، وكيف نمت باطراد ؛ وذلك بفضل التآزر والتساند الفعلي ، بالمادة والمادة وحدها ، لا الكلام والخطاب !.

دليل ناعثم زو زهرين

ولم يكذبنا يتم بحثه ، حتى ولجنا الجامعة ، بين صنوف الطلاب والطالبات . وكانت الفحوص والتسجيلات قائمة على ساق وقدم . . فأسرع بكتفيه السمينتين ، لا العريضتين ، وصبني الى غادة مغناجة ، قائلاً لها : شالوم .! وحسبه من العبرية هذا السلام .! فأجابته الفتاة بتحفظ ووجل : شالوم . . ولكنه ما إن كلبها بالفرنسية ،

معتذراً عن جهله العبرية ، حتى هشت له وبشت ، وصافحته بجرارة ، وكانها أكلت معه — معاجن — من الخبز والملح .! فهمي فرنسية يهودية ، وهو شامي يهودي ، — كما بدا لها — مع زميله شيلوخ الآخر . . . — استغفر الله — ذاك الذي لم يستطع ازدراد التنكر بسهولة ، فحوقل واحمر حتى كاد يذوب .!

تطوعت الحسنة لخدمتنا ، وكان غنم صاحبنا كبيراً ، فقد أصبحت الغادة محظيته ؛ وعبثاً حاولت بفرنسياتي الركيكة ، أن أضع قدميها في شبكتي المرقعة ، فلم أفلح ؛ فأنحزت عندئذ إلى العلم ، والعب منه ، تناسياً للهب والحريق ، من عيونها الكحل . . . ولم تكن هيئاتنا وأشكالنا تم عن عبث أو ريبة ، وإنما كنا حقاً صهيونيين تائبين ، في صحراء الجمال واليهود ، نعرف من بينهما نظرات دسمة ، ومن شفقتها المزمومتين ، شهد العلم والمعرفة .!

وقد سألتها صاحبنا ، كدون جوان مثقف ، ويا ليمته لم يسأل ؛ لأنها أسرعت تدرج له المعلومات والاجوبة بسرعة خاطفة ، كمن يحفظ عن ظهر قلبه ، ، أنشودة خالدة .! سألتها عن ينفق على الجامعة ، ومن أين يأتيها المال ، وكيف
وكم عدد الطلاب . . . والاساتذة . . . و . . . ؟!

وكما أنه سبك كلماته ، بمقصورات وأراجيز ، صبت هي أجوبتها في قوالب المعلقات والمطولات فقالت : سوف لا تدهش أيها الصديق ، اذا علمت أن موازنة الجامعة عام ٩٣٦ كانت (٥٠) الف ليرة فلسطينية ، وأن المنتسبين اليها من الطلاب العبريين بلغوا (٧٣١) طالباً ؛ وعدد الاساتذة (٣٨) أستاذاً . ثم تبدلت الحال هذه واختلفت في عام ٩٤٠ ، فكانت موازنتها (١١٠) آلاف جنيه فلسطيني ، وعدد طلابها (١١٠٠) طالب ، وأساتذتها (١٣٥) أستاذاً . . . ثم ضحكت ضحكة مرحة مباهية ، مفخرة ، وابتسمنا إلى الاثني .! وأضافت : وايسر جامعتنا هذه حكومية كما تعرفون ، ولا تعتمد بنفقاتها على صندوق عام ، وإنما هي جامعة يهودية ، أنشئت ونمت ، بأموال الشعب اليهودي وجهوده وحدها ؛ فان ثلثي موازنتها ، يتألفان من التبرعات .! وتلقى الدروس كلها بالعبرية ، عدا دروس اللغات ، كالعربية والانكليزية

والفرنسية وبقية اللغات الحية . وأشارت غادتنا الى جهة معينة وقالت : هنا تقع الدوائر الادارية . . ثم التفتت الى الجهة المقابلة قائلة : وهناك دار الكتب اليهودية والجامعة . . وثمة النادي الجامعي ، والمدرج ، ودار الالعاب الرياضية .!

مكتبة عمارة بالزخائر

جذبت كلمة المكتبة صاحبي ، فظفقت يفرح يديه بهجة وسروراً . . وطلب اليها بالخاح أن ترينا هذه الدار ؛ فلم تدعه يتم حديثه ، حتى جذبته من يده ، وكأنه طفل شب عن الطوق .! وهرع كالظامي ينهل من مشاهد الكتب ، خاشعاً متصدعاً من الاحترام ، وكأنه في محراب .! شرعت غادتنا ، وكأنها مجبولة من صبر وتؤدة ، تدير عجالات أرجلنا ، في كل قسم من المكتبة ، فاذا بها أعظم مكتبة في فلسطين ، بل من أهم المكتبات في الشرق الاذنى .! فهناك قاعة المطالعة ، تزخر بالكتب المختلفة المتنوعة من عبرية وانكليزية وألمانية . ويسودها الاتقان والترتيب والنظام ، حيث الحواجز ، والمناضد ، على الاكفاف ، تتألق جدة ونظافة . والى جانبها بهو خاص ، لاسماء الكتب وأرقامها ، وتسمى حجيرة (السكاتلوك) أو الفهارس .! وهي مترعة الاطراف والاسط بجوارير ، مقسمة مرقمة ، تحتوي على بطاقات مكتوبة ومعنونة ، بأحرف وأعداد متسلسلة ، توصلك الى ما يتبعه من أمكنة الكتب وأرقامها ، في الطابق الاسفل تحت بهو المطالعة تماماً .! فتحة المكتبة المصدر أو مخزن الكتب . وقبل أن نهبط سلم هذا المخزن ، مررتنا بقاعة الصحف والمجلات العلمية الاختصاصية . . وهي مرتبة ومنضدة على رفوف عديدة ، على اختلافها وكثرتها ، وقد جمعت منذ القدم حتى أصبحت تتعدى الحصر .!

وهبطنا ساهماً لولياً ، قادنا الى أرض من البلور الكثيف ، تقوم عليه رفوف حديدية ، تحمل الكتب المكدسة على أطرافها ؛ وتفصل بين أنواعها ، حواجز معدنية مدهونة ، بما يمنع عنها الصدأ واحتمال الحريق .! أما الكتب المطلوبة الى دور المطالعة ، أو الآتية منها ، فتروح وترجع ، على مصاعد كهربائية . ثم أرتنا آلة

لتعديل الجو في الغرف، وجعله ثابتاً ، صيفاً شتاءً، لئلا يتأثر الورق فتفسد الكتب .
ولقد همست دجاجتنا ، في أذن « الشاطر حسن » — تفخر أمامه بالمكتبة —
وكأنها تقبله : ألا ترى أيها الدمشقي ، كيف نمت هذه المكتبة في زمن قصير ،
وبسرعة خاطفة .؟ فهي تحوي منذ عام ٩٤٠ ما يربو على (٤٠٠) ألف مجلد .!
وربما كان بين أعدادها ، أكثر من ألف مجلد عربي قديم .! ولا تعجبوا من ذلك
فان لهذه المكتبة أربعة أهداف : فهي مبدئياً ذات مهمة قومية خاصة ، وثانياً فهي
تتماز بمهنة وطنية شاقة ، تضطلع بها بنشاط ؛ ثم بمهمة جامعية جميلة ؛ وأخيراً بمهمة
تثقيفية عامة .! أما كتبها الكثيرة فقد جمعت عن طريق الشراء أو المبادلة
أو الهبات .!

العلم والكيمياء المفتك

غادرنا المكتبة ، نتم جولتنا في أرجاء الجامعة ، بجانب دليمتنا المفتان، فوجدنا
ملعب الكرة ، ومدرج الالعب الرياضية والفنية . . وهو ملعب يرقد بين الاشجار
الصنوبرية، ويشرف على الوديان والجبال ، وتفوح من أرجائه رائحة العفص والصنوبر
فتؤرج المدرج الذي يبدو كأنه ملعب روماني ، يقع على هذه التلة بين الوهاد
والهضاب ؛ كما يظهر البحر الميت من بعيد ، بسواحه البيض أبيضاض الاملاح
المستخرجة منه .! ولقد كنت أتحرق شوقاً لرؤية قسم العلوم الكيمائية ، وقسم
الطبيعيات ، التي يعنى بها الصهيوينيون عناية كبرى ، فيدرسون فيها أمراض
البلاد الحارة ، المنتشرة في فلسطين ، وفي سائر البلاد المجاورة ، مع طرق مكافحتها .!
وكان البناء واسعاً ، مقاماً على أحدث طراز للأبنية العلمية الملائمة لمثل هذه
الغاية . فالابواب من البلور الواسع ، والخشب مدهون بالطلاء الابيض الكثيف
حتى لتحسبه مرآة مجلوة ، والغرف ناصعة نظيفة جداً ، والارض والسلام والجدران
كلها بيضاء كالحمامة أو القطن المنفوش .! أما القيمات على الغرف، والمرضات الجميلات،
فلا بد وأنهن اختلسن غفوة رضوان ففررن من جنانه ، وفضلن الحياة بين الجرذان

والأرانب والطيور الكثيرة المعدة للتجارب ، بعيداً عن نعيم رياض الخلد ومعاشرة الغلمان المرذوبين وصبايا الحور العين !.

فالى هنالك قصدنا ، بعد أن ودعنا دليلتنا الحسنة ، وشكرنا لها طيب سعيها ؛ وخدمنا الحظ ، فتمعرفنا بفتى عراقي متخصص في علم الجراثيم ، وهو يعرف العربية معرفة تامة . . فبدأ يشرح لنا كل خفي عسير ، وهو يحسبنا من بني ملته .
فمررنا بقسم الصحة والجراثيم ، حيث يعنى القائمون عليه هناك بدراسة الامراض المعدية المنتشرة في بلاد فلسطين والشرق الادنى ؛ وأما قسم الطب فتنتشر فيه المختبرات بين يدي الاساتيد للقيام بدراسات متنوعة اختيارية للمولعين من العلماء . . كعلم الطفيليات والانسجة ، والكيمياء العضوية ، والكواشف . . وقد حدثنا الشاب أنهم يعنون عناية خاصة ، ومندسنوات بدراسة امراض السرطان ، فأنشؤوا لهذه الغاية مختبرات وحجرات عديدة ، وذلك بفضل تبرعات المحسنين المجهولين عام ١٩٣٤ الذين تبرعوا بـ (٣٩) ألف جنيه فلسطيني للهدف المذكور ؛ كما أنه وصل الى الجامعة مبالغ أخرى من المحسنين أنفسهم دون أن تعرف اسماؤهم ، على فترات متقطعة . .
وذلك لانشاء القسم الكيميائي الملحق بالمختبرات لداء السرطان !. وهذا عين ما يتبرع به رأسماليونا وتجارنا ، وما يقوم به علماءنا الاطباء لخدمة المجتمع !. وهنالك رأينا كل ما يتعلق بأحدث أدوات التصوير بأشعة (إكس) ، وما يتعلق بالاكتشاف والاختراع العلمي الحديث البحت . . وذلك في سبيل تكتل الثقافة اليهودية ، وإبراز العالم اليهودي حياً يستحق كل إجلال وتكريم من قبل العالم المتمدن !.
وقصدنا بعدئذ دار كلية الآداب التي تشمل معهد العلوم اليهودية ؛ بما فيه من العلوم الشرقية والغربية ومتحف الآثار اليهودية . وشاهدنا كليات العلوم التي تضم داري (آنشتاين) للطبيعيات والرياضيات وطبقات الارض . وهنالك كلية للزراعة ، وهي مؤسسة مشتركة بين الجامعة العبرية ومحطة التجارب في (رحابوت) ، وتلقى دروسها بالعبرية .
ويتفرع عن كلية الطب المستشفى الجامعي التابع للجمعية (الهندسة) ومدرسة الممرضات للهندسة أيضاً ؛ كما يوجد في (الجامعونة) محطة خاصة لبحث حمى الملاريا ،

ترتبط بكلية الطب أيضاً..!

الهدايا جنري للخمرة

عندما يقال : فتش عن المرأة ؛ يحسب بعضهم أن هذه الجملة تضم كثيراً من المغالاة وصنوف المبالغة .. ولكننا ، أبدأً لم نفلح في رحلتنا ، لولا أولئك الأطباء الهيفوات ، اللاتي كن لا يفرقن بين الجنسين تفرقاً محسوساً ..! لست أدري ما الذي جمعنا بهذه الغادة المباركة ..!

فقد دخلنا مشفى (الهاداسا) نستأذن ، فقولنا بالرفض ؛ رغم أننا من بني إسرائيل .. المزيفين .. بيد أن النسوة شغوفات شغوفات ، لا يفلت من شباك أنظارهن إنسان دون تمحيص وتدقيق ، فما إن نظرت إلينا إحداهن ، وهي وراء (الداكتيلو) من تحت رمش طويل واسع مكحل ، حتى ابتسمت ..! ولعلي حسبت الابتسامة لي ، فرددت لها التحية بأحسن منها ، غير أنها عبست و - كسفتي - ولم تلتفت إلي ، بل قدمت من صديقي الذي كان يحمل قبعة بيده وسألته بفرنسية ركيكة جداً . هل أنت أديب ؟ فتمتم كعادته .. و .. و .. فأسرعت بضمائم الاسعاف أقول : نعم .. إنه صحافي ..! قالت : مؤكداً .. يبدو ذلك عليه .. فلقد قرأت أن الأدباء والشعراء والصحافيين يهملون ذقونهم أحياناً على سبيل (الموضة) في التغيير والتبديل ..!

وتحمل صاحبنا هذه الصدمة المزلزلة بصبر وجلد ؛ وتنازل فنطق وعرفها بي .. أو بالأحرى عرفها بنا معاً .. إسرائيليين من دمشق ، نفتشان عن مأوى للهجرة ..! فضحكت .. وجعلت تردد لفظة : أوه المعسولة .. ما أكثر المهاجرين الهارين ..! إن فلسطين تتسع لكثير منهم .. وتنتظر الكثير من أقصى العالم ..! إننا نحبيهم وليت للمهاجرين جميعاً فماً واحداً لا قبلهم .. ثم كلمت رئيس المكتب بالعبرية ، فقرع جرساً ، أقبل على إثره شاب يتكلم العربية قليلاً ..! فتحادثنا ملياً .. وبعدئذ أشير إلينا باتباعه ، فسرنا ، وكان نعم الدليل ..!

كان يعرف العربية ، ويفهم الفرنسية ، ويتقن الانكليزية والعبرية .! وكان أول
 ما فوجئنا به ، علامة الخاتم السليمانى ، شعار الصهيونية المقدس ، تضعه الممرضات
 على رؤوسهن ، كما فرشت أرض المدخل به من البلاط الأحمر . ولقد علقنا على
 الجدار الايسر لوحة واسعة جداً ، تمثل مصوراً لأمريكا المتحدة وولاياتها جميعاً ،
 وأسماء الجالية اليهودية الموزعة هناك ، وبجانبها قوائم بأسماء المتبرعين من اليهود
 والاعضاء ، الذين يرعون مشفى (الهاداسا) ، أعظم مشفى في الشرق الأدنى . . .
 كانت رائحة الطعام تفوح وتملأ الخياشيم ، ولم يعد صاحبنا يقوى على السير بعد
 ذلك ، ولم يعد يكثر بشيء إلا بالمطبخ .! فأردت أن أثنيه عن عزمه ، فلم أفلح ولم
 يصنع إلي . . . وهمس في أذن الدليل مازحاً : ألا تطعمون الأضياف في الظهر ،
 كعادة (الكيوتس) .؟ ففقهه الشاب وقال : لا . . . لا ، هنا يقدم طعامنا للمرضى
 فقط والموظفين ، أما إذا شئت رؤيته فهلم بنا . . . ورضي صاحبنا من الطعام بالنظر . . .
 ولجنا الباب بين الطاهيات اللذيذات ، بلحومهن المزهرة ، وبشراتهم الناعمة
 الأوروبية . . . وكان مطبخاً حقاً . . . شبيهاً بما شاهدناه في (شفىا) ؛ بيد أنه أعظم
 وأضخم ، وعلى شكل أكثر تعقيداً وتركيباً .! فلالوانى هنا ، أوسع مما هنالك
 وأكثر عدداً وجدة .! ولقد شددهنا أمام مخبز المعجنات ، الذي يعمل على الكهرباء ،
 بشتى عليه المعدنية المغلقة الواسعة . . . وثمة آلة كبرى لخفق العجين وسحق الطحين ،
 وخزانة أخرى هائلة للتبريد وحفظ الأطعمة . . .

ولم يرعنا ويسل اعابنا ، سوى جام بلوري ، نضدت فيه اللحوم والدواجن
 المطهية ، وأصناف (الكاتو) استعداداً لارسالها الى جهاتها الخاصة . . . فأومأ صاحبنا
 باصبعه هامساً : انظر الى هذا الطائر السمين ذي اللحم الوردي ، يقال في رسالة
 الففران إن اسمه (الديك العقوق) الذي لم يشهد التساريخ أن أكله غير الكفرة .!
 وقد روى بعضهم أنهم يخررون لدى رؤيته ساجدين .! ثم ألقى عليه نظرة ملتبية ،
 كانت تكفي لخرقه . . .

أما بيت المؤنة ، فكان هائلاً جداً ، لا يمكن أن تقارنه بمخزن المؤن في جامعة

أو مستشفى آخر ؛ وفيه تحفظ المواد ضمن أقباص كبيرة . وأما بهو الطعام فقد
قسم الى حجرات وفسحات واسعة ، فهناك ردهة الموظفين والموظفات ، وهناك
مطعم الناقين والناقيات من المرضى ، وثمة مطعم الايساندة . . . وهلم جرا .! ويصعد
الطعام الى الطبقات العلوية بمصاعد كهربائية صغيرة . . .

قادنا الدليل الى حجرة واسعة خاصة بتنظيف الأواني ، فدهشنا حقاً بما رأيناه ،
ولولا بقية باقية من الايمان بالنفس والثقة بالمستقبل ، لترعزت عقيدتنا بهمة اخواننا
العرب وقواهم التقدمية .! فقد كانت هنالك آلات وأدوات خاصة مختلفة تدار على
الكهرباء ، لغسل الصحون على البخار ، وتنظيف الأواني ، وتسخين الأكال
وتبريدها .! أما نظافة الممرضات — لا الجمال والنعومة اللتان تضرب بهما الأمثال —
فحدث عنها ولا حرج ، فهن كالقطن المندوف بياضاً وشفاءً . . .

وكان غسل الاثواب والاعوية والالبسة المختلفة يجري على الكهرباء أيضاً .
فتهبط من الطبقات العليا في ميازيب خاصة داخل الجدران تصل مباشرة الى مكان
المغسل ، وتتخذ من جوارير خشبية تفتح فوق أقباص ذات عجلات من المطاط ،
لا صوت لها ولا حس ، تحمل تواءماً فيها الى البراميل الضخمة الدوارة ، حيث
يوضع فوقها مسحوق الصودا مع الصابون بمقدار مرتب من وعاء كبير بجانب كل
برميل ؛ ثم تستخرج الاثواب الى آلة العصر ، ومنها الى آلة التجفيف . وتمدد
الاثواب فوق سطح متصل بالآلة ، تدور فوقه اسطوانة حامية بدورات متوافقة مع
انسياب السطح ، فتخرج مجففة من الجانب الآخر ومكواة . وقد يكرر عليها
هذا العمل ، في آلة اخرى مثلها لتجف نهائياً . أما الاثواب البيضاء اللطيفة أو
الحريرية فتكوى بالمكاوي اليدوية الكهربائية في قسم خاص بها ، له موظفاته وعماله
وخدمه . فترى الجميع وراء عملهم ، وقد ارتدين الأبيض فبدون كالحائم والزنابق .
أما اللحف والاقمشة الملونة الكشيفة ، فتجفف في خزائن خاصة ، ذات حواجز
معدنية توضع بينها ، ثم ترفع الحرارة بالكهرباء حسب الحاجة والازوم .!

أحب الشاب أن يرينا دار التوليد ، فلم نرفض له طلباً .! فصعدنا الى الطابق

الثاني ، على ممر طويل مفروش بالمطاط ، فلا تسمع فيه نائمة أو حركة أو وقع قدم . !
كانت الدار تعج بالامهات والودات ، وأهليهم الزوار ، واغلبهم من الصنف
الشعبي الفقير . ! اما حجرة الرضع والموليد ، فهي عبارة عن بهو واسع ، يخترقه
النور من جدار بلوري كثيف مؤلف من قطعة واحدة ؛ وعليه سجف متحركة ..
وفيه صفوف الاسرة الصغيرة البيضاء ، وقد لف كل رضيع فيها بأثوابه وملائته ،
وكتب على السرير في لوحة صغيرة : اسم الوليد ولقبه وتاريخ ولادته واوصافه
العرضية . ويوجد في المستشفى آلات لتعديل الجو صيفاً وتسخينه شتاء ؛ وضمت
مخرباتها في أقبية البناء . ! وأخيراً أدركنا الوقت ، ومللنا مشاهدة النشاط ، وأضجينا
متخومين مناظر ورؤى ؛ فودعنا الشاب ، وخرجنا زكض في أكتاف المستشفى ،
فقد أهلكنا الجوع ، وكاد صاحبي يفنى فيها ، بعد ان حركت عصافير بطنه ،
ألوان الطعام في المطبخ ، وصنوف الكاتو والمجنات . . وخاصة ذلك الديك العقوق . !
ولولا خوف من الله ، لاختلس قطعة ليبرهن فيها على جهاده في أرض العدو . .

ولقد ضعنا في الممرات وتمنا بين أشجار الصنوبر والسرو ، فظللنا
هائمين على وجهنا ، حتى قربنا من جناح الممرضات ، فخرجت الينا ممرضة . ! ولأول
مرة جعلنا مرآها نؤمن بالقبح الخام اليهودي . ! كانت مشرفة على الحسين ؛ ولكنها
كقضيبي الرمان ، صلبة و (معرقة) . . ولم اسمع صاحبنا يستعيز بالله من الشيطان
الرجيم في حياته إلا في تلك الآونة . ! فان نظراتها التي كانت ترسل شرار مدفع
(الهاون) جعلته يموت فزعاً ويتقلص متراجماً القهقري . ! ثم حدثته بصوت
مقيت عبري ، كانت (توصوص) به كالصصور ، فتخرج الالفاظ من فمها كاعينات
ابليس . . فأشار اليها ، بأننا نود مخرجاً الى الطريق العام . . فافتقر ثغرها الكهفي
عن أسنان مرقة مبرية ، وأومات بيدها بعيداً ، كأنها تطردنا طرداً لا هوادة فيه
ولا رحمة . ! فأسرعتا هاريين من الباب الذي كانت تحرسه ، ونحن ننشد :
سالمة يا سلامة . .

كان صاحبنا يود أن يسأل عن مصادر لكتابه العريق في القدم ، والذي

يُذكّره بين الحين والحين ، فيتنهد من كل قلبه ويزفر ، لأنه لم يتم بعد .. وقد ينتهي إن شاء الله من تأليفه عام ١٩٧٠. وكان بحثه مما يشوق اليهود ويرغبهم فيه ، وخاصة إذا صدقوا مؤلفه كيهودي فعّال !. ولو عرفوا أنه مسلم عربي ، أصيل في عداة الصهيونية ، لانهاؤا علينا ركلاً ووخزاً حتى أوصولنا الى البحر الميت . وانكته لم يبرك برنا انسان — والله الحمد — وعندما سأل عن غرف الاساتذة في كلية الآداب ، عجب القوم ، ولم يتطوع أحداً يكون دليلنا أبداً !. ولولا نجدات الصبايا الأملودات العظوفات ، لما حظينا بمقابلة أشهر أساتذة الجامعة من مجندي الصهيونية الراسخين في العلم !.

معجم كبير للغة عظمى

كانت الغرف في الطابق العلوي حيث يقيم الاساتيد المحترفون .. وهي حجرات عديدات مختلفة لأبحاثهم وأعمالهم ومطالعاتهم .. وكنا نقصد بصورة خاصة قسم الأبحاث الشرقية ، الذي يشرف عليه أمثال العلامة (بيرو) ، و(بور) وأضربهما من المستشرقين ..

وعندما تبينت للاستاذ الكبير .. أهدافنا وهويتنا كيهود ، لم تحف دهشته لهذه الروح اليهودية الشامية ؛ فدعانا الى الجلوس . وقد سر وأعجب .. وما إن سأله صاحبنا عن مصادر كتابه العزيز ، الذي انقطع فيه — بنصف الطريق — وهو تاريخ اليهود تحت حكم العرب في الأندلس ، حتى دله على مصادر عديدة ؛ وأضاف بأنهم يدرسون الآن : اليهود تحت حكم الفرنجة في الأندلس . وكان الاستاذ أول من لقيناهم من المستشرقين الألمان ، وهو يتكلم العربية الفصحى بلكنة أعجمية .! فقال يشرح لنا اختصاص هذا القسم من الجامعة في مضار العلم والثقافة :

نحن هنا نهتم بدراسة مواد اللغة العبرية وآدابها القديمة والحديثة ؛ ونهتمك بشروح التوراة والتناوود والفلسفة اليهودية ، والتاريخ اليهودي ، والجغرافيا التاريخية لفلسطين القديمة .! وسأله صاحبنا بلغة فصحى : وكم تستغرق الدراسة عندهم ؟!

فأجاب بهدوء : ثلاث سنوات !. وبمعدل ثماني ساعات أو عشر كل يوم . . ثم عاد الى حديثه : ونحن نعمل هنا — في معهد العلوم الشرقية — وهو معهد له خطورته وأهميته العالمية ، لأن إدارة الجامعة تعنى به خاصة وتعتبر أبحاثه من المبادئ الأولية في أهدافها ؛ ذلك أن موقع الجامعة الجغرافي هو في مدينة من أهم المدن الشرقية الرئيسية — في الشرق الأدنى — .! فالجامعة تبذل جهدها ، لتدريس العلوم الشرقية ، القديمة والحديثة على وجهها الكامل .! وقد أسس معهد العلوم الشرقية عام ١٧٢٦ . وقام بتنظيمه وإدارته الاستاذ (هوروفيس) المستشرق في جامعة (فرانكفورت) في ألمانيا .! فقال صاحبنا : وما هي غاية المعهد ؟ فأجاب الاستاذ : الغاية من ذلك هي إعداد رجال ، يعملون على نبش كنوز الشرق العلمية والأدبية من مدافنها ، وتوثيق عرى التفاهم الروحي ، بين الشرق والغرب ، لا سيما بين الشعوب المجاورة لفلسطين والشرق الأدنى .!

ثم تنهد الاستاذ ، واستعاد بعض قواه وشرع يقول :

ويدرس في المعهد ثلاث مواد أصلية ، ومادتان ثانويتان ؛ فالواد الثلاث الأصلية هي : الثقافة الإسلامية — واللغات السامية — واللغة والآداب العربية . أما المادتان الثانويتان ، فهما : علم الآثار في الشرق الأدنى ، وعلوم مصر القديمة .!

فمادة الثقافة الإسلامية تشمل : الآثار الإسلامية ، والتاريخ الإسلامي في القرون الوسطى ، واللغة التركية ، والفلسفة الدينية الإسلامية ، وعلم الاقتصاد والاجتماع في الشرق الأدنى بصورة عامة ، وفي فلسطين بصورة خاصة . وأما مادة اللغة والآداب العربية ، فتشمل : اللغة العربية ، والآداب العربي القديم ، وقواعد اللغة العربية ، والقرآن ، والآداب العربي الحديث . . وقد عهدنا الى بعض الباحثين الملحقين بالمعهد ، بأعمال هامة ، لها أثرها البعيد ، في الآداب العربية والتاريخ الإسلامي .!

فقاطعناه قائلين : نظن أنكم تقصدون بذلك ، المعجم المفهرس للشعر العربي القديم .! فابتسم وقال : أخال أنكم اطلعتم على ذلك في المجلات والصحف .! أجل ، إننا نعمل في سبيل هذا المعجم ، منذ زمن طويل ، كما نهم أيضاً باصدار كتاب

أسباب الاشراف أيضاً ، للمؤرخ العربي القديم (البلاذري) . . .
وهناكم تفصيل ذلك : إن المعجم المفهرس الذي قرأتم عنه ، مستمد من الشعر
العربي القديم ، منذ نشأته الى آخر عهد بني أمية .! وقد بلغ عدد البطاقات ، التي
جمعت ونظمت حتى الآن ، أكثر من (٥٠٠) ألف بطاقة .! ثم نهض ودعانا الى
خزائن مرتفعة ، ذات جوارير مرقمة ، سحب أحدها ، فاذا به مترع بالبطاقات
المرصفة المكسدة ، وتناول قسماً منها إيرينا إياه قائلاً : ولهذا المعجم أهمية كبرى . .
فهو يلقي ضوءاً جديداً ، على الآداب العربية القديمة ، فيساعد على فهمها من الوجهتين
اللغوية والتحقيقية .! أما أثره في الناحية اللغوية من الآداب المذكورة ، فهو أن
المعجم سيشتمل على جميع ما ورد في الشعر العربي القديم ، من كلمات وألفاظ وتعابير ،
فيمكننا أن نعتبره ، أوثق مصدر اللغة العربية القديمة .! هذا ، عدا أن الكلمات
المستعملة في اللغة العربية القديمة ، يوجد بينها عدد عديد ، لا يمكن العثور عليه ،
حتى في أقدم وأعظم المعاجم العربية ؛ كاللج واللسان وغيرها . . فلا يتعذر إدراك
معناها من سياق الكلام ، في هذا المعجم المفهرس .! خذ مثلاً على ذلك هذه البطاقة . .
أنظر الى الرقم والكلمة . . فهي : مهبّر ، الواردة في بيت لعمر بن أبي ربيعة ،
حيث يقول :

ألا ، لا وبيت الله إني مهبّر . .

فإن هذه الكلمة ، غير موجودة في القاموسين المذكورين أو في غيرها ؛
وإنما جاءت في ملحق القواميس العربية ، للعلامة (دوزي) فقط .! و (دوزي)
هذا ، تولى شرحها ، باعتبار أنها وردت لأول مرة في مقدمة ابن خلدون .! أما
الحقيقة التي اطلعنا عليها فهي أنها وردت قبل ذلك بـ (٧٠٠) سنة في المصراع
المذكور لأن أبي ربيعة . . فانظروا الى البطاقات وتأملوها . .
وتأملناها كمالين — ولا مؤاخذه — وهزنا برأسنا إعجاباً ودهشاً . .
وقرأنا فيها ما يلي :

« هبر » نال الأعداء منهم فيلق هبروا

الأخطل (٢٧٠ = ٤) طبعة صالحاني ، بيروت عام ١٨٩١

ألا ، لا وبيت الله إني مبير

عمر بن أبي ربيعة (٤٠ = ٧) طبعة شوارتس ليزنغ ١٩٠١

حساماً اذا ما هز لم يرض بالهبر

حاتم الطائي (٢٨ = ١٧) طبعة شوطنس ليزنغ ١٨٩٨

كلون الملح ضربته هبر

المتنخل في مجموعة أشعار الهديليين (٩٧ = ٥) طبعة هل ليزنغ ١٩٣٣

فظافت بالهبر بحيث كانت

ديوان الفرزدق (٢٧ = ٦) طبعة بوسيه ، باريس ١٨٧٠

فالهيح فأعلي هبيره السهل

عبيد بن الأبرص (١٧ = ١٠) طبعة لايل ليدن ١٩١٣

فظالت وظلوا يركبون هبرها

الفرزدق (٢٣٥ = ٦) . . .

وعلاوة على ما تقدم ، فإن هذا المعجم يساعد مساعدة قيمة ، على تحديد معنى

الكلمات ، في الآداب العربية القديمة ، كما ظهر لكم من هذه البطاقات .!

وأما أثره في الناحية التحقيقية ، فكثيراً ما تطالعنا بعض الكتب الأدبية ، بمثل

هذه الألفاظ : قال الشاعر ، أو : وقال آخر ، أو : وقال الأول ، وما أشبه ذلك

عند سرد الآيات ، لجهل ناظمها الحقيقي .!

فالمعجم يسد هذه الثغرة ، ببيان اسم الناظم لكل بيت مجهول ، مع الإشارة

كما رأيت إلى المصادر وعدد الصفحات والأسطر ، التي يمكن الرجوع إليها

للتحقيق من ناظمها .!

وفضلاً عما ذكرت ، فإنه يخفف عن الباحثين ، عناء التنقيب في دواوين ضخمة ،

أو مجموعات شعرية كبيرة ، لمعرفة موضع بيت ما في إحدى القوائد أو الديوان

بأجمعه . هذا وقد نسب بعض الرواة من العرب ، طائفة من الاشعار لغير ناظمها ، أو أنهم نسبوها لشعراء متقدمين متعددين ، في وقت واحد . فالمعجم المشار اليه ، يساعد على تحقيق اسم الناظم الحقيقي ، لكل بيت من هذه الايات ، وإزالة ما يكتنفه من غموض تلك الجهة .! ولقد حصل في الشعر القديم ، لذات الاسباب المذكورة أو لغيرها ، كثير من التغيير والتبديل والتحريف ؛ فهذا المعجم سيساعدنا على معرفة ذلك أيضاً ، مع تحديد النص الصحيح ، لكثير من الشعر العربي الذي وصلنا على غير صورته . وأما كتاب أنساب الاشراف الذي ذكرته لكم ، فيقع في عشرة أجزاء ، ولا يزال في غمار البحث والتنقيب عنه . . . وقد صدر منه حتى الآن جزءان . . . وأخيراً فإن معهدنا هذا ألحق به عام ١٩٣٥ قسم خاص بالموسيقا الشرقية للقيام بأبحاث منظمة عن هذه الموسيقا بصورة عامة والموسيقا الفلسطينية بصورة خاصة . واعلموا أيها الابناء قبل أن تغادرونا بأن الجامعة العبرية هي معهدكم ، وهي المعهد الأوحد للعلوم اليهودية لليهود ، وهي أعظم وأكمل معاهد العالم .! وإن إدارتنا لتبذل جهودها للتحسين والنمو المطرد ، كما تقدم لليهود الشرق أجل الخدمات .!

وما كدنا نودعه لنفادر الابنية الجامعية ، حتى وجدنا أنفسنا أمام بهو كبير ، فيه عدة مقاعد منظمة غريبة الشكل ، أوضح لنا موظف هنالك ، شيئاً مما غمض علينا . . . فهي قاعة المساجلة والمناظرة بين الطلاب والأساتذة ، تتسع لأربعمئة طالب ، وإلى جانبها بهو آخر أصغر منها لذات الغرض .! أما المقاعد ، فلكل طالب مقعد منفرد ، يتصل بلوحة جانبية ، مثبتة فيه ، للكتابة عليها والاستملاء . . . ثم سرنا بضع خطوات ، فرأينا مدرج المحاضرات ، الذي يتسع لألوف الأشخاص . . . وسألنا فتى كان يوصل سلكاً بمكبّر للصوت ، استعداداً لاجتماع خطير ، فأجابنا رغم انهاكه في عمله ، قائلاً : إن الاجتماعات التي تعقد عادة هنا ، هي علمية ، وقومية وسياسة . . . وعندما تزور البلاد شخصية كبرى من الصهيونيين لاجتماع عام ، تستقبل هنا في هذه القاعة ، كما استقبل في الماضي (وايزمن) ، وبلفور ، وغيرهما من رجالات اليهودية . . . وان هذا الاجتماع الذي نستعد له ، هو في سبيل الاكتتاب

لشراء الاراضي .. وقد وضعوا على باب الجامعة علمين صهيونيين وفي وسطها لوحة
كبيرة من القماش ، خطت عليها فقرات حماسية عبرية سياسية ..
وهكذا ، عدنا الى القدس ، ونحن نذكر هذه القلعة الحصينة ، أو المعمل
الكبير ، الملق بشباب صهيون العامل المفكر ، وهي أخطر المؤسسات لتقوية الوطن
القومي المنشود ..

أثرنا العربي

لقد قرر المؤتمر الاسلامي المنعقد في ١٧ - ١٢ - ٣١ في بيت المقدس ، إنشاء
جامعة اسلامية علميا ، ذات فروع متعددة ، تفي بحاجة المسلمين في دينهم ودينهم ،
وتكفل للتعلمين منهم تعليماً ثانوياً أن يستغنوا أو يستغني بعضهم عن الالتجاء الى
الجامعات غير الاسلامية .

واتخذ المجلس الاسلامي عام ١٩٣٥ خطوات اولية لتأسيس جامعة اسلامية ،
ولكن المشروع ما لبث أن توقف بسبب التطورات السياسية .

وسمعنا أخيراً ان مدينة نابلس تفكر في هذا المشروع وأن الحكومة ستنتشي
للغرب جامعة علمية عربية ، وقد اعتدت ٧٠ ألف جنيه لهذا الغرض .

وبعد ، ففي كل خطوة كنا نخطوها في رحاب الجامعة العربية ، كنا نتمنى من
صميم الفؤاد أن نرى للعرب جامعة ، تكون ميداناً للأبحاث ودراسات واكتشافات
العلماء العرب ، ونعم المصنع الأمين للشباب معقد الرجاء ومناط الأمل ..

واذا كانت الجامعة العربية لم تبصر النور بين عشية وضحاها ، بل تمت وترعرعت
بالعمل المستمر ، والبذل المتواصل ، ووضوح الهدف ، حتى غدت منارات ودوى
في هذا الشرق العربي ، فما أحرانا أن نلم الشعث ، ونضاعف الهمة لإنشاء جامعتنا
العتيدة المرتجاة ..

ولسنا نشكر أن تأسيس (جامعة) يجب أن تسبقه خطوات تمهيدية ، من أهمها
دعم التعليم الثانوي ، وإعداد الاساتذة ، وإيجاد الأماكن الخاصة بالتدريس

والسكن ؛ وكل بحث جدي يجب أن تسبقه مؤتمرات صغيرة تمثل فيها البلاد العربية
على أننا اليوم ، وقد أصبح خطر الصهيونية جارفاً ، ونما الوعي القومي في
الشعوب العربية ، وبتنا نعتقد أن لا سبيل إلى قهر العدو إلا بسلاحه ، والعلم في كل
عصر ومصر أمضى سلاح ، فمن العجز أن تقف مكتوفي الأيدي ، ولا نجاري
مواكب الزمن ، ولا نقارع الخصم بحجته .

لندكر أن كثيراً من هيئة أساتذة الجامعة العربية كانوا في أعظم جامعات العالم ،
ولقد تركوا مناصبهم هنالك ليلتحقوا بجامعتهم التي يغدونها بنتائج عبقريتهم ، والتي
يعتزون بها ، ويسرون بها قديماً .

ولندكر أن الهبات والتبرعات تنهال على هذه الجامعة سرّاً وعلناً ، وفي كل يوم
ينمو فيها جناح ، وتؤسس دائرة ، وتسير قدماً نحو الكمال . . .
فالسبيل واضحة ، والأهداف نيرة ، والغاية نبيلة ، ومثلنا العربي يقول : ما
حك جلدك مثل ظفرك . . .

فإلى تحقيق هذه الجامعة العربية المرتجاة ، نهيب بالعرب جميعاً ، برجال الفكر
والمال والنفوذ ، وبالهيئات الرسمية وغير الرسمية ؛ ولعل جامعة الدول العربية تعبر
هذا الموضوع الخطير بعض اهتمامها ، فترى في المستقبل القريب ، وفي ظلال المسجد
الأقصى جامعة عربية ، تنشر شمس العلم والمعرفة ، في هذه الربوع الشرقية الحبيبة
إلى قلب كل عربي واعٍ مخلص مجاهد



العودة

عار صاحبنا من رحلته ، بعد أن شاهد نواحي واسعة مجهولة ، من حياة الصهيونية في فلسطين ، وآس آس اليد أشياء هينات ان يتاح لغيره أن يطلع عليها.



لم يعد يرى في عودته المستعمرات يدب فيها النشاط ، والمصانع تزخر بالعاملات والعمال ، والجامعة تعمل في سبيل نشر الثقافة اليهودية وإحيائها ، والصهيونيين يكدحون ويجاهدون ، والشوارع تعج بالمارة ، والشطآن تتمرغ فوقها الاجسام البشرية ... لم يعد يرى في عودته كل هذه الاشياء بل راح ينظر الى ما وراء ذلك ويستشف خباياه ...

فاذا كنا ندرس التاريخ مثلاً، لا لنطلع على حياة الشعوب اليومية ، أو مظاهر حضارتها ، وثوراتها واضطراباتنا ، بل لنفقه ما وراء ذلك ، ولنستخلص دروساً تقيد في سير مواكب الشعوب ، فنعلم كيف تنشأ الامم وكيف تسمو وكيف تنهار ، ولتقتبس منها العظات ، لئلا يصيبنا ما أصاب من قبلنا ، فان صاحبنا كان ينظر في رجعتنا الى ما وراء الصهيونية الماكرة، أي ما وراء المحسوس منها والظاهر للعيان ..

كان يرى تياراً جارفاً لشعب موتور ، يسعى جاهداً لانشاء دولة صهيونية على
رفات شعب آمن مسلم ، دون أن يعبا بالعقبات ، أو يخضع لقانون .
عاد ، وقد انتشرت أمامه صفحات سوداء ، تحمل أرجاس الصهيونية ، الى جانب
صحائف أخري بيضاء ، تحمل الاجلال والعتاف لهذا الشعب العربي المجاهد النبيل ..
أجل ! فان تلك المستعمرات والمعامل والمتاجر ، والملاهي ودور الثقافة
والصحة ، وسائر المؤسسات الصهيونية ، لم تعد في نظره ، قوية صامدة أمام أعاصير
المقاومة العربية ؛ ولم يعد سلاح أبناء إسرائيل ذا حد مرهف مخيف ، ما دام العرب
يحاولون أن يملكوا مثله ، ويجهدون في سبيل نلعه وتحطيمه .

نواح مظلمة في حياة الصهيونية

غرباء في أوطانهم

ما كادت الحرب العالمية الاولى تضع أوزارها ، حتى أذيع وعد بلفور ، بعد
كتمانه طويلاً؛ ففسره غلاة الصهيونية بمعنى تهويد فلسطين لغة وروحاً وديناً وسياسة؛
وراحوا يدعون الى الهجرة ، فلبى نداءهم نفر من الشباب المتحمسين المتهورين ،
وطوائف من المغرورين الخدوعين ، وجماعات من الثقافة السذج ، والفقراء العاطلين؛
تدفقوا كالسيل الجارف الى فلسطين ، بعضهم في ذلك حشد كبير من اصحاب الملايين ..
هبطوا فلسطين ، فظلوا فيها غرباء ، في الوجه ، واليد واللسان .. غرباء في
لغتهم الاصلية ، وفي تقاليدهم وعاداتهم ونظم معاشهم .. ورغم كل ما بذلوه في
ميادين التربية والتعليم ، لصهر جميع العناصر ، فلا زال الاختلاف قائماً . لان اجتماع
الطبائع المتنافرة ، والاخلاق المختلفة ، والامزجة المتباينة ، في صعيد واحد ، أمر
صعب التحقيق ، مهما سمت الغاية ، ونبذ المبدأ . فهذا مهاجر شرقي يزدرى المهاجر
الغربي ، والعكس صحيح . حتى أن الشرقي نفسه ليحتقر الشرقي ، والغربي نفسه
ليمتنن الغربي . فهذا مهاجر شامي ، يشمخ أنفاً على المهاجر اليماني ، وهناك الالمانى

المشعب بفكرة تفوق الدم والعنصر، يشيح بوجهه عن المهاجر الروي، ربيب سبيريا،
أو روسيا البيضاء ..

فكيف بهذه الطبقات المختلفة، التي تكره بعضها بعضاً، تنشئ أمة من الامم،
تباينت أهدافها وتنوعت مصالحها؟ ناهيك بالشعب اليهودي الذي لا يعرف لنفسه
وطناً إلا الربيع، والكسب، والمال، .. وأنى لهؤلاء القوم، أن يحبوا مع العرب،
سكان البلاد الاصيلين؟ ألا إن خلط الماء بالزيت، لأهون من حياة العرب، مع
شداد الآفاق من الصهيونيين ..

نفوس في الجحيم

غرروا بهم، وحملوهم الى فلسطين، وقالوا لهم: كدوا واكدحوا لتأكلوا
وتلبسوا وتسكنوا .. اعملوا لتعيدوا هيكل سليمان، وعرش اسرائيل .. لتنشئوا
وطناً تستقرون فيه، وتخلصوا الى الابد من حياة (الجيتو) والارهاق المستمر ..
ولقد عرفنا كثيراً من الشاميين والشاميات، ممن ذهبوا الى فلسطين، ليعيشوا
عشرة أشخاص، ذكوراً وإناثاً في غرفة واحدة، لا يتجاوز حجمها خزانة الملابس ..
ونعرف في (تل أبيب)، وراء تلك الدور المتألقة بأنوار الكهرباء، أكواخاً
حقيرة صغيرة رطبة، تحمل أدناس الصهيونية وأرجاسها، يقطنها اناس خدعوا
بعظمة الرسالة، ونبيل الهدف، فأصبحوا يتمنون العودة الى مساقط رؤوسهم،
بيأس غلاب، وصبر نافذ .. وفي كل مكان، حيث يتاح الافصاح بحرية عن الفكر،
يصرح المضطهدون بما يخالج نفوسهم، وعلائم الاثنى ترسم على وجوههم ..

عرفنا فتيات كزهرات الربيع، وقطر الندى، طاهرات بارات، غادرن دمشق
مغريات بالدعايات المزوقة الباطلة، وحلن فلسطين؛ فكان نصيبهن العمل القاسي في الحقل،
في صبارة الشتاء، وحمارة القيظ، وفي المعامل والمصانع، في جو مفعم بالروائح
الكريهة، والاختار الجسام، لقد قيل لمن: اعملن لتأكلن، اعملن في سبيل
وطن مرتجى، اعملن ولو هتكت الاعراض، وامتهنت الكرامة البشرية .. فغدّون

وراء الثغور الباسمة ، أحزان دفينة ، وهموم مكتومة .
ومن ذا يجروء على معاكسة التيار الطامي ؟ وأي صهيوني يستطيع الجهر برأيه ،
أو يلوح بالعودة الى بلاده .؟ إن سيف (ديموكليس) مسلط فوق عنقه . . وهل
جاءك نبالباخرة (باتريا) ، المترعة بالمهاجرين الى جزيرة (موريتنوس) ، كملجأ
موقت متحتهم إياه بريطانيا .؟ لقد نسفها الصهيونيون ، وهم يصرخون : إما فلسطين ،
وإما الموت في قاع البحار .!

ورغم كل الاحتياطات والدعايات ، والوعيد والتهديد ، فإن (٣٢) ألف يهودي
غادروا فلسطين بين عام ١٩٢٠ و ١٩٣٢ ، فقط . . ولو أن الاضطهادات النازية
تأخرت قليلا لكان مغادرو فلسطين ، أضعاف أضعاف المهاجرين . .
فلو أن اليهود طرأ يعتقدون بالصهيونية ، ويؤمنون بها ، لما وجدوا عن
فلسطين بديلاً . ولكنه ، اليهودي الأفق . . اليهودي الذي لا يعرف لنفسه ديناً
سوى صفحة الدينار ، شيلوخ البندقية ، لا تهمة فلسطين ، كما لا تهمة أي بقعة في
العالم . فوطنه حيث يعمل ويكسب ، ووداعاً للحنين الى الاوطان ، الى الأبد الآبدن . .

ضراعة وإمامية

هنالك على ذرا الكرم ، وفي مغاني الهادار ، على شاطئ البحر ، وضاف
النهر ، في الدور والفنادق ، وفي المستعمرات ، وتحت كل خافق ، ما زالت بنت
صهيون هي الغانية التقليدية العارية ، تتلوى على سرير الفحش ، بين شباب الوطن
القومي ، وطالبي اللذة من أي جنس ولون . . فترى حداثق الاطفال ، والمياتم
والملاجئ ، مترعة بالاولاد الطبيعيين ، جنود الصهيونية في قادمات الايام . . هنالك
في المستعمرات ، شباب مراهقون ، وفتيات مراهقات ، ونساء عازبات ، وأراميل
متصايات ، وزوجات ملولات . . يعبثن تحت الظلال ، وفي الغرف ، وخلف التلال .!
هنالك إباحية سافرة ، وتحرر مبدول وضع . . فلن هذه المقاعد الشعرية ،
تحت الحائل المنزوية .؟ ولن تلك الاثرائك الخشبية في شعفات الجبال ، وجنابات

الوديان ؟ ولبن تلك الهمسات والقبلات ، والالين والعنين ، في رآد الضحى ، وهدأة الليل ، بين النخاريب والزوايا .؟ ومن هؤلاء القوم في الليالي القمرء والظلماء ، على رمال الشاطيء ، وفوق مقاعد لا تنتهي ، وماذا يفعلون .؟ أجل ! لم تزل لعنة الربا على رجالهم ، والزنا على نسائهم ، الى يوم يبعثون .!

وهل هؤلاء الفتيات المتمايلات في الشوارع ، بمظاهر شاذة لا تتلاءم مع تقاليد البلاد ، وأفعال غريبة لا تتفق وأحوال الفضلاء ، يسرن بسر او يلمن القصيرة ، حتى لتسكاد تبدو عاناتهن . . والانداء تطل براعمها عليك من شتى الفجوات . . واللحوم بارزة ، والاغراء سافر . . هل هؤلاء إلا صبايا دونهن نساء الماخور ، خرجن يتصيدن ساعات اللذة بعد عمل المزرعة ، والمصنع المرهق .؟ جرب أن تدخل مخزناً ، أو مكاناً عامراً بهن ؛ تظاهر بالصهيونية ، تكلم العبرية ، وتعال ارو لي الاحاديث . . ستري ما لم تعلم به . . انهن يخطفنك . . راودنك عن نفسك ، دون بذل حلال أو جرام . . لانك عبري ، تساهم في بناء الهيكل ، ومملك سليمان .!

جزاء سخار

ولعل انك لترا لم تندم على وعد بذاته ، كما ندمت على وعدها اليهود بالوطن القومي ، فلقد ضحت بالكثير من سمعتها ، وراحتها ، وجنودها ، وأموالها . . وعادت العرب والمسلمين كافة من أجلهم . .

وماذا حصدت ؟ لقد لاقت الامرين منهم .! نفي كل يوم تهديد وقتل ، ونهب وتدمير ، واعتداءات متوالية على الرجال والاملاك . . ذلك هو اعترافهم بالجميل ، وجزاء الاحسان بالاحسان ، بعد أن أنقذوا من برائن الموت ، وسياط الطفاة .! انهم يفتكون بأصدقائهم ولا محالب لهم . . فكيف بأعدائهم العرب ، وخاصة بعد أن تبنت لهم الاظفار ، وتحدد الانياب .؟

ألم تسمع صرخة زعيمهم (وايزمن) يقول : « سنبقى في فلسطين . . سواء أردتم أيها البريطانيون أم أيتهم . . يمكنكم أن تعجلوا أو تؤخروا قدمنا . . ولكن

من الأفضل لكم أن تساعدونا ، لئلا تتقلب قوانا التعميرية الى قدرة تدميرية ،
تضطرب لها الدنيا بأجمعها . . اننا نريد أن نجعل فلسطين يهودية ، مثما أن انكلترا
انكليزية . .

واستمع الى آخر يقول: « لن يستولي الشعب اليهودي على فلسطين ، حتى تنحل
الامبراطورية البريطانية، وما غايتنا الا القضاء على السياسة البريطانية الاستعمارية . »
وقد وجدوا في غرفة المتهمه (حاسيا) من أفراد عصابة (شتيرن) وثيقة جاء
فيها : « واننا نعتبر كل عنصر غير يهودي يسيطر على هذه البلاد عدواً لدوداً لنا،
وهكذا نرى في بريطانيا العظمى عدواً لنا ما دامت تسيطر على فلسطين . »
ولكنه (الولد المدلل) ومن أجله يهون كل عذاب ؟

على نفسها جفت برافس

ان الصهيونية شؤم على اليهود أنى كانوا ؛ فبعد أن عاش العرب وإياهم مدى
العصور اخواناً ، يتعاونون معهم تعاوناً شريفاً ، فكانوا تحت حكمهم في الاندلس
سراة ، لهم ما للجميع وعليهم ما عليهم ، جاءت الصهيونية الماكرة ، الضالة المضللة ،
ونفخت في أنوفهم ، فجعلتهم اعداء لكل مسلم وكل عربي . لقد طوحت بالروحانية
الصوفية اليهودية ، وجعلت منهم — اذ ينتحلون الصهيونية — مواطنين سيئين ، لا
يعتمد عليهم ؛ ففقدوا بالتالي عطف العالم ، وعدواً منبعاً للشر والمصائب . .

فلن يستطيع الأمريكي مثلاً ، أن يفهم قول (وايز) حاخم (نيويورك) الاكبر :
« أنا اميركي منذ ستين عاماً ، ولكنني يهودي منذ ثلاثة آلاف عام » . ولن يهضم
الشرقي قول (أبي العافية) رئيس (السيفراد) في فلسطين : « ان اليهود مضطهدون
في كل بلد شرقي » .

لا ! ان العرب لم يكرهوا اليهود من قبل ، فان السيد المسيح يقول : « أحبوا
أعداءكم . . » والقرآن الكريم يقول : « ادفع بالتي هي أحسن ، فاذا الذي بينك
وبينه عداوة ، كأنه ولي حميم » . .

نعم ، لم يكره العرب اليهود ، ولن يكرهوهم أبداً ، لانهم أهل الذمة ، وأهل الكتاب ؛ ولولا اتناؤهم الى الصهيونية لما خلق هذا الكره المقدس ؛ أجل . ! هي الصهيونية التي أساءت الى الامتين ، من حيث لا تدري ، لانها شاءت أن تجعل من فلسطين العربية دولة يهودية ، وأن يعود اليها عرش اسرائيل ..

فليذكر اليهود أنهم اضطهدوا تحت كل كوكب ، لانهم دخلاء لا يمتزجون بغيرهم ، ولانهم أذعياء الشعب المختار ، ونقاء العنصر ، ولانهم صالبو المسيح ، ومقرضو الربا وما يتبع ذلك من قسوة وضعة ودناءة ، فكانوا كبش الفداء طوال العصر ، وفي كل مكان إلا بين ظهراي العرب ..

إن العرب لم يشهدوا مرة واحدة ذلك الكيش .. ولم تثر في وجهه أية عاصفة من شأنها إسالة دماؤه ، وتضحيته على مذبح الشهوات والغضب . ! ان التاريخ ليعلمنا أنهم كانوا المقربين لدى بلاط الخلفاء في الشرق والغرب ؛ في بغداد ودمشق والقاهرة والاندلس ، وان المسلمين استقبلوهم أحسن استقبال ، وأحسنوا اليهم وآوؤهم ، حين جاؤوا في القرن الخامس عشر من اسبانيا مشردين طريدين ..

فاذا انقلبت اليوم الآية ، وأصبح العرب من أشد الناس مقتاً لكل من هو يهودي في فلسطين ، وأصبحت تزر الوازرة وزر الاخرى ، فالفضل في ذلك للصهيونية ..
وكم كان العرب واليهود في غنى عن ذلك . !

على أن العرب لم يعمقوا إلا من ادعى الصهيونية ، وحمل رسالتها .. وثمة شتى الحلول لمحو هذا الحقد وفي قمتها : اغسل أيها اليهودي يديك من الصهيونية ، ولا تدع اليها ، وغادر فلسطين ، واختر لنفسك أي وطن تشاءه ، إلا فلسطين .. لانها صغيرة في مساحتها ، فقيرة في مواردها ، لن تتسع لبني قومك بالفين الملايين فضلاً عن أنه من الجريمة أن تشيد سعادتك على شقاء الآخرين .

ان جمهورية (دومينيكو) تفتح ذراعيها لكل زائر ، وهي على استعداد لقبول كل مهاجر .

وان أمريكا اللاتينية ، وخاصة (البرازيل) من الاماكن الصالحة لسكنناكم ،

ويمكن أن تصبح من أغنى دول العالم ، إذا سكنها (١٥٠) مليوناً من البشر ،
وليس فيها اليوم أكثر من (٤٠) مليوناً ؛ إنها مترامية الاطراف ، غنية الموارد ،
لا كفلسطين الفقيرة الضيقة .

وهناك (نيوزيلاندا) ، فهي واد خصيب لليهود ، كإيابان مساحة ، وتتسع
لتسعين مليوناً في حين لا يتجاوز عدد سكانها اليوم مليوني نسمة . .
واستراليا ، تتسع الى جانب سكانها الحاليين لعشرين مليوناً آخرين ، دون
الحاجة الى التوسع في اعمال الري القائمة الآن . . ثم انه لا يمكن لأستراليا
بملايينها السبعة الحاليين الدفاع عن نفسها ، اذا فكر عدو يهاجمها ، لسبب قلة
سكانها ، واتساع مساحتها . وحسبك لتدرك اتساعها أن تعلم أن الباخرة (كوين ماري)
تم دورتها حول استراليا في أربعة أسابيع ، اذا سارت بأقصى سرعتها .
فاذا أراد اليهود أن يضعوا حداً لآلامهم ، وينالوا صداقة العرب ، فعليهم أن
يوجدوا كلمتهم ، وينزعوا من أدمغتهم فكرة فلسطين ، ويتجهوا نحو وطن آخر ،
يكون أنفع لهم وأجدى . .

عمير ، وعمير

أبي الصهيونيون إلا أن يجمعوا النقيضين . فتراهم مرة يدعون الحرية ، وتراهم
أخرى أذلاء خائعين . فالارض التي يمتلكونها في فلسطين ، لا يسمونها قرية ، أو
مزرعة ، أو أي اسم تعارف الناس عليه ، بل يسمونها مستعمرة ؛ كأنهم لا يجدون
في قاموس لغتهم المهدب ، سوى هذا اللفظ البغيض . .
مستعمرة . . أجل مستعمرة (كيبوتس) ؛ كأن بذور الذل والهوان قد
باضت وفرخت في خلايا أدمغتهم ، وكأن البشرية لم يكفها جهاد القرون ، لتتخلص
من ربة الاستعمار ، حتى أتى أذعياء المدنية ، يجددون هذا الاسم البغيض ، في ديار
قوم ليس أحب الى قلوبهم من الحرية والاستقلال . .
وهؤلاء الزاعمون أنهم أحرار ، وأنهم شعب الله المختار ، سادة البشر وصفوة
الخلق ، يلدون وخمائر العبودية تجري في عروقهم ، ولن يستطيع المرء ، مهما أوتي

من العقل ، أن يفهم كيف يغادر اليهودي الأمريكي بلاده ، ليأتي الى فلسطين ،
ويسعى جاهداً لتظل بلاده منتدبة ، أو مستعمرة ، أو موصى عليها .!

وبعد ألم يصرح (بن غوريون) « بوجوب الانتداب واستمراره ، لتأييد الهجرة ،
وصيانة حق اليهود في الوطن القومي ؟ . »

ألم يقل غيره : « إننا نعارض فكرة تحقيق الحكم الذاتي لفلسطين ، لاننا نصبح
مرة ثانية أقلية ، كما هو حالنا في كل مكان آخر ، وتحيط الغابات المنشودة من
إنشاء الوطن القومي . » ؟ .

وإذا كان الاحرار لا يطيقون القيود والاغلال ، فهل لقبول الصهيونيين
الانتداب أو الوصاية أو الاستعمار سوى تفسير واحد : هو أنهم عبيد يعانون مركب
النقص في صورة حادة منذ أقدم الاجيال ؟ .

نعم . لانهم يتنازلون راضين مختارين عن حرياتهم ، ليصبحوا في فلسطين أذلاء
عبيداً خولاً ، فما أبخس الغاية ، وما أغلى الثمن . .

سحرني وأنا سبرك

حياة الصهيونية سلسلة من المؤامرات ، لان أصحابها بحاجة ليل نهار الى مقو ودافع
لعلمهم الاء كيد أن دعوتهم باطلة مشكوك في نجاحها ، وأن انكترا لم تناصرهما
لا حقيتها او عدالتها ، ولكن لاجتماع مصلحتها ومصلحة الصهيونية . فلانكليز
يعتبرون فلسطين ممرأ للهند ، ونقطة ارتكاز لهم في الشرق ، وأماناً لقناة السويس ،
والصهيونيون يعتبرون فلسطين وطنهم الروحي والتاريخي ، وهكذا فقد اتفق
الغرضان ، وكلاهما باطل . .

ومن العجيب ، أن أمريكا الديموقراطية ، تساعدهم ، وتسخر لهم بالوعود ،
كأن تأييدهم هو الورقة الراجعة لكسب أصواتهم في الانتخابات ؛ فهي تصرح : « إن
منح فلسطين لليهود ، ليس عملاً عدلاً فقط ، بل مكافأة لهم على ما بذلوه أثناء الحرب ،
لنصرة قضية الحلفاء ، وعملاً تاريخياً للتعويض عليهم . » وهكذا وجدوا في (رومان)
نصيراً قوياً ، فألحوا عليه بفتح باب الهجرة ، وظفروا بتصريحه المعروف بالصلاح لمئة

ألف يهودي بدخول فلسطين ؛ رغم أن سلفه الطيب الذكر (روزفلت) وعهد
جلالة الملك عبد العزيز آل السعود ، بالألا يعمل شيئاً دون رأي العرب ؛ وكم نتخى
أن يحل (ترومان) المشكلة الصهيونية بفتح أبواب أمريكا لليهود ، وهم جماعة انتاج
وعمل ، وعليه ان يبدأ البر بنفسه .

والحق الذي لا ريب فيه ، أنه ما أتت لجنة تحقيق الى فلسطين — ولقد بلغت
سبع عشرة — وما درس محافي ، أو كاتب أو باحث ، معضلة فلسطين ، حينما يضع
العدل رائده ، والانصاف دليله ، إلا وآمن بأن حسق العرب صراح أبلخ ، وأيقن
أن الآمال الصهيونية باطلة ، ولا يمكن تحقيقها إلا بالقوه المسلحة . وليس أدل من
هذا الاجحاف بحقوق العرب ، وبطلان المسألة الصهيونية ؛ وليس من المعقول أن
تستخدم القوة لتنفيذ الوعود ، إن كانت عادلة .!

وإن تعجب ، فاعجب لأول مفوض سام عين لفلسطين ، وهو (المير هيربرت
صموئيل) الصهيوني ؛ فقد دخل البلاد تحرسه المصفحات ، وتحوم فوقه الطائرات ،
وتحيط به الفرسان والمشاة ، وهذا أكبر دليل على ما تخشاه الحكومة من تعيين
يهودي حاكماً لبلد عربي .

وها هو ترومان يصرح قائلاً : « إننا سنعمل كل ما باستطاعتنا لإنشاء دولة
يهودية في فلسطين ، شريطة ألا يكافنا ذلك إرسال جيش له حافظه على الأمن هنالك » .
ولكن أي أمن سيخيم فوق ربوع يابى أهلها الميامين الاعتراف بوعد باطل ،
لشعب موتور ، يريد إجلالهم عن أرضهم وارض آبائهم وأجدادهم زوراً وبهتاناً ،
بعد أن سمعوا احد زعمائه يقول بوقاحة ذهبت مثلاً : « يجب على العرب ان يقوضوا
خيامهم ، ويعودوا الى الصحراء التي جاؤوا منها » .!

وهكذا ، فان من كان يستجدي قطعة أرض ليجد فيها ملاذاً وسكناً ،
كشر عن أنيابه الزرقاء ، ولبس ثوب النمر ، وراح يزجر ، طامحاً طامعاً قائلاً : « إن
اليوم الذي سيبني فيه الهيكل لقريب ، وسأعمل بقية حياتي في سبيل إعادة بناء
هيكل سليمان ، في مكان المسجد الأقصى . . . »

والتضخم حماقتهم ، وتزيغ أبصارهم ، حين يصرخون بملء أشداقهم : « ليس من الممكن ان يكون في فلسطين سوى وطن قومي واحد ، وهو الوطن اليهودي ؛ ومن المستحيل ان تكون ثمة مساواة في الشراكة بين اليهود والعرب ، بل ينبغي ان تكون هنالك سيادة يهودية » .

فهل هذا هو الوطن القومي الذي لا يخل بحقوق سكان البلاد الاصليين ؟ إنهم لا يطلبون وطناً مشتركاً ، بل وطناً مستقلاً لهم أسياده . . . يطلبون كل ما فيه تمييز ومحابة لهم . يطلبون طرد الاصيل ، ولو على أسنة الرماح !

ولذا تتور نائرتهم ، ويحجن جنونهم حينما تلوح في سماء العلاقات الدوائية بارقة عطف على العرب ؛ وما هذه الاعتداءات المتوالية ، والاعتيالات الدنيئة ، والتدمير والنسف ، والنهب والتقتيل ، سوى تفريغ لجام غضبهم . واذا كان الفرد يفقد اتزانه العقلي والعاطفي في الاحوال الشاذة ، وخاصة في ثورات الهيجان ، فهذه الحقيقة تنطبق كذلك على الصهيونيين الذين قاست منهم انكساراً في هذه السنوات الاخيرة الامرين .

لقد أثاروا غضب الدنيا على تصرفاتهم الدنيئة ، وهم يحسبون أنهم بهذه التصرفات الآثمة سيلفتون أنظار العالم المتمدن ، للعطف على قضيتهم . حتى قال (السير ادوار كريج) : انه لا يوجد في العالم من يريد ان يرى في فلسطين دولة إرهابية على غرار النظام النازي . . .

قصور من ورق وأباطيل

وهؤلاء المطالبون بأرض فلسطين ، يستندون في ادعائهم الى أسس سيخيفة مرفوضة ، يستندون الى ثلاث دعائم واهية ، تنهار بنفسها ، هي الحق التاريخي ، والديني ، والقانوني .

وحقهم التاريخي يعني وجودهم في فلسطين منذ ألفي سنة . ولكن ، سائل الاجيال والقرون ، سائل سهول فلسطين وجبالها ، سائل بحارها وأنهارها ، سائل

كل بقعة من بقاعها ، وكل حجر من أحجارها ، كم تدارلتها من أمم ، وكم وطنتها من شعوب ، تحيك لو تستطيع الكلام : سكتني أكثر شعوب الارض . ولكن ما استوطنني طويلا حتى يوم الناس هذا سوى العرب . وإن مرور اليهود بفلسطين منذ ألفي سنة ، لا يخوهم حق العودة اليها ثانية . .

لم يقطن اليهود فلسطين مرة ، إلا وهاجروا تحت تأثير الفتوحات والمجاعات ، والاطماع والارياح . .

نعم ! مرة واحدة دخلوها فاتحين ، ليذيع قائدهم (يشوع بن نون) خطبته التاريخية : « حرقوا كل ما في المدينة ، واقتلوا كل رجل وامرأة ، من طفل وشيخ ، حتى البقر والغنم ، بحمد السيف ، واحرقوا المدينة بالنار مع كل ما فيها » .

فأي عدل وأدب ورحمة بين قوله ، وقول الصديق يوصي جيوش المسلمين الفاتحين : « لا تخونوا ولا تغدروا ، ولا تغلوا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً كبيراً ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً . وسوف تمرن بأناس قد فرغوا لأنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

ولا زال أتباع اسرائيل يتبعون وصية يوشع ، ولا زال المسلمون سائرين على نهج الصديق ..

نعم ، سكن اليهود فلسطين في غابر الدهر ؛ ولو جمعنا كل عهودهم فيها ، منذ آلاف السنين ، لما تجاوزت أربعمئة سنة ، كانوا فيها بين سي وتشريد واضطهاد . بينما ظل المسلمون والعرب في هذه الديار ، منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، يمارسون سلطنتهم مهدوء واستمرار ، والتاريخ يؤيد هذا النوع من التملك للبلاد والثروة اذا كان مبنياً على حسن النية ، ويعدده سبباً من أسباب الملكية الشرعية .

ولئن جاز لكل شعب ان يزعم حقاً له في أرض سكنها اجداده ، فما قول الامريكيين لو طالبهم الهنود الحمر بالتزوج عن الولايات المتحدة ، وماذا يقول الاسبان لو ادعى العرب أنهم اصحاب حق في شبه جزيرة (ايبريا) ..

فأي حق هو هذا الحق التاريخي ، الذي يدحضه الواقع بأجلى بيان ؟
ويستندون الى حقهم الديني . . . وقد أوردنا في تضاعيف الكتاب من شواهدهم
ما فيه الكفاية ، لتأييد هذه الحججة الواهية ، ونضيف قول (حزقيال) في أسفاره :
« افتح قبورك ، واصعدكم من أجداثكم يا شعبي ، وآتي بكم الى أرض اسرائيل . »
ولكن هذا الكلام قيل أيام سبيهم البابلي ، فعادوا ثانية الى فلسطين ، وتحققت
النبوءة ، وبنوا الهيكل ايدمر ثانية على يد (طيطس) الروماني ، الذي ختم صفحات
تاريخ اليهود في فلسطين ، فمضوا ايدي سباً ، ايدوقوا عذاب التشريد والعبودية
من جديد .

وإذا كان اليهود يستندون في حق العودة الى فلسطين الى توراتهم ، وهو
كتابهم ، فسيحيو العالم ومساموه يستندون الى انجيلهم وقرآنهم ، وهما لا يشيران
قط الى عودتهم ، بل ينكرانها ، ويعدانهم ان يظلوا تائبين معذيين .
وأكبر الظن أنه سها عن بلهم العهد الذي وقعه عمر بن الخطاب للنصارى ،
تلمية لطلب البطريك (صوفرونوس) حين فتح القدس : « بالألا يسمح لآحد من
اليهود بالسكنى معهم » .

وهيئات أن يتدبروا قول احد أخبار نصارى العرب : إن الدين المسيحي يقول
لليهودي إن روابطي بفلسطين هي أقوى جداً من روابطك . فان يكن لك فيها
أنبياء وملوك ، فهي موطن مخلصي وإلهي ، وموطن رسله ، ومهد كنيسته .
وكانهم لم يعلموا أن لفلسطين في نظر المساميين المكان المرموق ، ففيها أولى
القبلتين ، ومقام ثالث المساجد التي تشد اليها الرحال ، وفيها قال تعالى : « يا قومنا
اسكنوا الارض المقدسة التي باركنا فيها » .

أضف الى ذلك ، متى كانت القوميات تبنى على النبوءات ، والايوطان تشاد على
كلمات الرسل ، والممالك تؤسس على بشارت الانبياء ! .

فأي حق هو هذا الحق الديني المزعوم ، الذي يدحضه الواقع بأجلى بيان ! .
ويستندون أخيراً الى حقوق قانونية ، وفي طبيعتها : وعد بلفور ، وصك الانتداب .

وإذا علمنا أن تصريح بلفور أعطي لليهود يوم (٢) تشرين الثاني عام ١٩١٧
وفلسطين لا تزال تحت حكم الاتراك، وأهل البلاد الأصليون لم يُستشاوروا في الامر،
أدر كنا قيمة هذا الوعد القانونية .

فمن بديهيات القانون أنه لا يجوز لاحد أن يتصرف في ملك غيره بدون اذنه ،
ولا يجوز لاحد أن يأخذ مال غيره بلا سبب شرعي ، والامر بالتصرف في ملك
الغير باطل . . .

فكيف يجوز لانكلترا إذن أن تدلي بهذا التصريح، وأنى لها ان تعد اليهود
بفلسطين ، وإنشاء وطن قومي لهم ، وهي لا تملك البلاد آنئذ ، ولا سلطان لها على
العباد .؟ إنه وعد غير قانوني ولو وافقت عليه (٥٢) دولة ، وسجل في صك الانتداب،
وأيدته جامعة الامم . . .

ولقد أصاب كبد الحقيقة من قال : « إن وعد بلفور وعد سياسى لا قانوني » .
وإلا فأى فرق بين هذا الوعد ، وبين أن يأتي اليك غاصب ، بيده سند ، موقع
عليه من شخص لا يملك حق التوقيع ، ويشهد عليه اثنان وخمسون شاهد زور ،
قائل لك : إن هذا البيت الذي تسكنه ملكي ، وعليك أن تخليه بأمر موقع هذا السند . .
وإذا كان الانتداب موضوعاً على الشعوب المنسلخة عن الامبراطورية العثمانية ،
أو الشعوب التي بلغت درجة من الرقي ، وهي بحاجة الى مساعدة دولة أخرى ، فما
كان اليهود شعباً يوم وضع صك جمعية الامم ، ومادته ال (٢٢) المتعلقة بالانتداب ،
وما كانوا كذلك من شعوب الامبراطورية العثمانية . . .

أضف الى ذلك أن عبارات التصريح المنوه عنه ، لا تشير قط الى تحويل
فلسطين بجملتها وطناً قومياً لليهود ، وإنما تعني أن وطناً كهذا يؤسس في فلسطين ،
ويقوى ؛ وليس معنى تقويته إرغام الاهالي على التنازل عن أملاكهم وإجلائهم عن
بلادهم وإفقارهم ، بل النهوض بهم مع زيادة في الطائفة اليهودية .

عرب فلسطين بعمر ربع قرن

ولنا أن نتساءل بعد ذلك ، ماذا أفاد العرب من قدوم الصهيونيين الى فلسطين .؟

وماذا جنوا بعد ربع قرن من انتداب مزدوج جائر ، لم تبطل به بلد من بلاد الله ؟
وهل تحققت أمنية المرحومة جامعة الامم ، بايداعها أمر فلسطين الى انكلترا ؟
إن العرب لم يجنوا في هذه الغضون ، سوى انتقاصات متوالية لحقوقهم الطبيعية ،
من إدخال اللسان العبري ، وإقامة القضاء اليهودي ، وتشجيع التجارة والصناعة
والزراعة الصهيونية ، ثم تلك الامتيازات التي لا تنضب ، الممنوحة الى الصهيونيين ،
في حلهم وترحالهم .!

أفاد العرب تكاثر اليهود ، وازدياد نفوذهم لدى الحكومة ، واتخاذ بريطانيا كل
الوسائل لتأمين وطن قومي يهودي لهم ، فخلقت الوكالة الصهيونية لتهم بمصالح اليهود ،
دون غيرهم . وبموجب امتيازاتها أصبحت كحكومة داخل حكومة .

لقد كفت أيدي العرب عن التصرف في شؤون وطنهم ، لتسلم الى أيدي شذاز
الآفاق ، بينما كانوا يتمتعون إبان الحكم العثماني بحقوق واسعة ، حتى كان منهم
النواب وكبار الموظفين .

أفاد العرب أن بلادهم غمرت بشعب قدير مزاحم متسلح بالمال والعلم والخبرة ،
رغم ان مهمة المنتدب الأخذ بيد اهل البلاد الاصليين ، لرفع مستواهم كي يستطيعوا
حكم أنفسهم بأنفسهم .

أفاد العرب تدخل المستعمر في شؤون معارفهم ، وتوجيهها كيفما شاء ، بينما
ترك اليهود أحراراً في تعليم أولادهم وتربيتهم كما يهرون ، تتولى ذلك دائرة معارفهم
الخاصة ذات الميزانية الضخمة والمناهج المرسومة .

أفاد تدخل المستعمر في التضييق على حرية الصحف ، وحرمان العرب من
حق التشريع . .

أفادوا أمراضاً اجتماعية وجيوشاً من العاطلين من العمل والفلاحين . .
أفادوا فقراً وجهلاً وتشريداً ونفياً . . صحائف يسود لها وجه الانسانية ويندى
لها جبين البشرية . . أفادوا خروجهم من ديارهم وجلاءهم عن أراضيهم .
لنتصور جلاء العرب عن مرج ابن عامر ، أخصب سهول فلسطين ، وأهم منتج

للغلال فيها ؛ لنتصور إجلاء نيف وعشرين قرية عربية يقطنها ما لا يقل عن عشرة آلاف نسمة ، أجلوا بالقوة ، والرصاص ، والسياط ، عن أرض آبائهم وأجدادهم .. لنتصور جلاء العرب عن عشرات القرى الاخرى ، يتركون أمجادهم وتاريخهم وذكرياتهم ، يتركون معابدهم ودورهم ومرابهم ، ليحتلها موتور والشعوب ، وشذاذ الآفاق .. وبالامس القريب ، في أواخر عام ١٩٤٣ أخرج سكان قرية الشيخ يونس ، لتضم الى بلدة (تل أبيب) ، بالقوة الغاشمة التي لا تعبأ بالقوانين ، ولا بتدمير الاهلين ..

أفاد العرب أنهم أصبحوا كمية لا يعبأ بها في بلادهم .. ففي كل مناسبة ، يقال الطوائف اليهودية ، والطوائف غير اليهودية ، كأن اليهود أصل ، والعرب فرع .. وهذا أقصى ما عرف في التاريخ من ضروب الامتهان والاهمال ، والخذاع والتضليل !! أفاد العرب عدم المساواة بأجلى معانيها .. فحيثما وجد عربي ويهودي ، فضل ثانيهما على أولهما ، حتى في تعهدات الحكومة والبلديات ؛ وفي المصارف والمؤسسات المالية ، تفضل معاملة اليهودي على العربي ، وبفائدة أقل مما يؤخذ من العربي .. وفي الاعمال الصناعية والزراعية ، لم يستخدم العرب ؛ وهل أدل على ذلك من عقود ايجاز بنك (كيرين كايتم) حين تقول في مادتها (٢٣) « يتعهد المستأجر بأن يجري جميع الاشغال المختصة بفلاحة الارض ، وزراعتها ، بواسطة عمال من اليهود ، واذا خالف هذا الشرط ، يدفع عشرة جنيهات فلسطينية عن كل مخالفة ؛ ويعتبر استخدام العمال من غير اليهود ، دليلاً قاطعاً على الاخلال بهذا العقد » . وفي مقاولات مصرف (كيرين هايسود) ينصون على أن : « يتعهد المستأجر بأن يستأجر عمالاً من اليهود فقط ، اذا اضطر لاستخدام عمال .. فأين هذا الواقع مما جاء في الكتاب الأبيض : بأن الهجرة ، اذا كانت سؤدي الى حرمان العرب من العمل ، فيتحم على الدولة المنتدبة إيقافها .! » وأخيراً .. لقد نعمت سوريا ولبنان والعراق ، وحتى شرق الاردن بالاستقلال .. فهل فلسطين أدنى من هذه الأقطار حضارة وروحاً وثقافة ..؟! .

طريق الخلاص

الآن وبعد خمس وعشرين سنة، من نشوب هذه المشكلة الصهيونية المعقدة في فلسطين، نسرح الطرف لنجد حلاً ناجعاً لها، فلا نعثر إلا على لجان إثر لجان، وتوصيات بعد توصيات، وكلها مخدرات مؤقتة، لم تستطع حسم الداء من أساسه، وسيقى العرب في بحران سياسي عاظم، إن لم يلتجئوا إلى وسائلهم الخاصة، وينقذوا أنفسهم بأنفسهم.

ونظرة واحدة إلى المشكلة، نظرة فيها حزم وحكمة، وبصيرة وصراحة، تدلنا على طريق الخلاص من هذا الضيف الثقيل، والكابوس المفاجيء. إن الدواء متصل ببعضه ببعض، كالحلقة المفرغة، وعلى رأس قائمة العلاج: لا تبع أرضك أيها العربي، وقاطع الانتاج الصهيوني..

لا تبع أرضك أيها العربي

ظلت الصهيونية تأنهة حيرى عشرات السنين، بين أوائل حر كتبها، وتصريح بلفور؛ حتى كاد اليأس يدب في نفوس أصحابها؛ لأنهم لم يجدوا لانفسهم أرضاً يلجؤون إليها.. فقد وقفت الحكومة العثمانية لهم بالمرصاد، فحرمت عليهم امتلاك الارض، فظلوا خارج فلسطين؛ ولكنهم ما كادوا يظفرون بوعد بلفور المشؤوم، وتضع الحرب أوزارها، حتى سارعوا إلى أرض الميعاد يمتلكون الارض؛ فبدلوا كل رخيص وغال للحصول عليها؛ ودفعوا في العشرة مئة، وفي المئة ألفاً!

وليتك تسمعهم اليوم كم يأسفون لم لم يستغلوا الحوادث، ويتعاقوا أكبر جزء ممكن من أرض فلسطين العربية، منذ أوائل الهجرة..

إنهم يشترون الارض أولاً، ثم يأتون بها جريهم؛ واليوم وقد امتلكوا ما استطاعوا امتلاكه، وللارض درجة من الاستطاعة لتحمل كثافة السكان، فهم

إن لم يجدوا أمامهم أرضاً يشترونها ، أسقط في أيديهم وانهارت أحلامهم .
إن بيع الأرض أمر منوط بالعرب وحدهم . فهم سادة أرضهم ، وملاك تربتهم .
ونحمد الله على أن إخواننا عرب فلسطين ، يشعرون بهذا الشعور ، وقد اقترح رجالهم
البارزون أكثر من مرة أن تغدو الأرض وقفاً ذرياً لا يصح بيعه ،
ولا فراغه .

لأنهم علموا أن بيع الأرض معناه الجلاء ، والتشريد والبطالة ، وفقدان العمل ؛
بعد أن شاهدوا ببصيرة القلب كيف يتقدم تيار بيع الأرضين ، ليدفع العرب أمامه ،
ويحتل اليهود الديار ؛ ولو استمر بيع الأرض ، لما بقي في فلسطين عربي . .

إن اليهود لا يهتمون بشيء اهتمامهم بالأرض ، فلمنعوها عنهم ، تحرموهم من
الماء والهواء ، تمنعهم من الحياة ، بل تمنعهم من آمالهم العذاب ، فتشاهدوا
بأعينكم انهيار أحلامهم ، واذكروا دائماً شريعة اليهودي ، ومثله الأعلى في الحياة ؛
اذكروا أن مثله هذا هو الربح ، وإذا ذهب الأرباح قوض خيامه ، وطوى أعلامه ،
وسار يبغى وطناً جديداً . .

إن منع بيع الأرض هو الحصن الحصين الذي تتكسر على سفوحه أحلام
صهيون ؛ واثن فعلتم ذلك ، حصرتم أعداءكم في حلقة ضيقة يصعب عليهم تجاوزها ،
ولن يرغمكم على معاملتهم أحدهم ، وما كان كل زارع بحاجة إلى شخصين اثنين
يعملان من أجله في المدينة ، فاذكروا أنكم باحجامكم عن بيع الأرض ، تعدمون
ثلاثة أفراد بضربة واحدة . .

اذكروا أن شكواهم ما ارتفعت إلا من أجل الأرض وامتلاكها ، فخلاصنا
في أيدينا ، وحذار من الانسياق مع تيار الشهوات ، واتباع أطماع النفس . .
وإذا كان لليهود صندوقا (كيرين كايتم) و (كيرين هايسود) وغايتها شراء
الأرض ثم تعميرها ، — وتقوم ما ليتها كما رأينا على التبرعات — فما على العرب إلا
أن يدفعوا الشر بمثله ، وينشئوا الصناديق المشابهة . . وإذا كان صندوق الأمة العربية
يقوم بهذا الجهد ، فإنه يحتاج إلى تغذية رأسماله ، ليقوم بالمهمة الملقاة على عاتقه خير

قيام . . . ولن تتحقق هذه الامنية الغالية إلا بالبذل من الافراد والحكومات؛ ولنذكر
أن اليهودية العالمية ، لا تتواني لحظة عن مساعدة يهود فلسطين ، واذا كان لا
يبني المالك كالمضحايا ، فلن يبني مجد فلسطين العربية كالتضحيات . . .

إن سياستهم ترمي الى انشاء دولة يهودية في فلسطين ، وهذا لا يستطيع إلا
بحشد عدد كبير من اليهود في البلاد ، الى أن يصبحوا — لا قدر الله — أكثرية
فيها . فالسياسة الصهيونية قائمة في الحقيقة على بقاء باب الهجرة مفتوحاً . واذا
رأيت اليهود يقاومون كل محاولة ترمي الى وقف الهجرة ، أو يرمون بالكتاب
الابيض ، ويشيرون ضده أشد الدعايات ، ويقومون باعمالهم الارهابية ، ايرغموا
السلطات البريطانية على إلغاءه ، فلعلمهم أن وقف الهجرة معناه القضاء على الصهيونية!
ولكن ، مهما يكن موقف الحكومة البريطانية من الكتاب الابيض ، ومن
لجنة التحقيق ، فإن في استطاعة عرب فلسطين إيقاف الهجرة ، ولو وقفت دول العالم
طراً في سبيلهم ، وذلك بالحيلولة دون تسرب الاراضي العربية لليهود ، وامتناع
العرب عن شراء المنتوجات الصهيونية .

فالهجرة اليهودية لن تكون ممكنة ، إلا اذا استطاع اليهود الاستيلاء على
الارض ، لحشد المهاجرين فيها ، مع تنمية صناعاتهم ، التي من شأنها أن توسع مقدرة
البلاد على استيعاب العدد الاكبر من المهاجرين .

وبرنامج التوسع الصهيوني لا يحتاج الى بيان ، فمجالهم الحيوي يشمل فلسطين
وشرق الاردن وسوريا والعراق ، ومصر أيضاً . . .

إنهم يريدون أن يجعلوا من فلسطين مركزاً استراتيجياً ممتازاً للتسلط على البلاد
العربية ، وبالامس القريب ، حين اعلن استقلال شرق الاردن ، احتجت الهيئات
الصهيونية العالمية قائلة على لسان (شروتوك) : « إن إلغاء الانتداب على شرق الاردن ،
واعلان استقلاله ، مسألة خطيرة جداً ، فان أمل الصهيونية كان يقوم دائماً على
اقامة اتحاد فلسطيني اردني ، وجعل اليهود قادرين على مساعدة الشعب الاردني
المتأخر » . . .

واحتجت الوكالة الصهيونية الامريكية للرئيس ترومان ، على ما تقره بريطانيا
من اعلان شرق الاردن دولة مستقلة ، وطلبت اليه التدخل واقناع بريطانيا
بالعدول عن هذا الامر ، واختتمت احتجاجها قائلة : « إن شرق الاردن تملكها
فلسطين اليهودية ، ويدعمها في هذه الملكية العدل والتاريخ والحقوق الشرعية ، وقد
وضعت تحت الانتداب ، كما وضعت فلسطين ، لينشأ فيها وطن قومي يهودي . . »
فليذكر العرب أنهم لا يبيعون أمتاراً من الارض ، بل يبيعون وطنهم ووطن
آبائهم وأبنائهم ، ولا حياة لشعب لا أرض له؛ وليمجولوا دستورهم في الحياة : يبعوا
اليهود كل شيء إلا الارض ، ولا تشتروا منهم شيئاً إلا الارض .

المقاطعة

ولست فكرة المقاطعة وليدة اليوم .
ففي عام ١٩٣٠ قاطع عرب فلسطين اليهود مقاطعة تامة ، ودعوا الى ترويح
المصنوعات العربية ، فألحقوا باليهود خسائر فادحة : حتى اضطرت الحكومة الى
سن قانون خاص يعاقب كل داع الى المقاطعة ؛ وكان من محاسن هذه المقاطعة ، أن
تدارك الوطنيون بأنفسهم أشياء كثيرة كانت تنقصهم ، وكانوا قبل يعتمدون في
الحصول عليها على اليهود ؛ فوجد لدى العرب عدة متاجر وشركات وصناعات
مختلفة ، ولو طالت المقاطعة آنذ ، والحركة الصهيونية لم تكن قد وقفت على قدميها
بعد ، لقصت على الناحية الاقتصادية اليهودية قضاء مبرماً . .

وبعد ستة عشر عاماً ، يعلن العرب ، لا في فلسطين وحدها ، بل في سائر
أقطارهم ، من أسياف بحر الظلمات الى شواطئ الخليج الفارسي ، مقاطعتهم للبضائع
الصهيونية ؛ وذلك بالاياعاز من جامعتهم العربية . فقد درست وسائل الفتك الصهيوني
درساً عميقاً ، واستعرضت الاخطار التي تهدد البلاد العربية ، من تجمع اليهود في
نطاق الوطن القومي ، الذي أرادوه هوئلا لهم ، فاذا هي على كثرتها وتنوعها تتلخص
في استعمار فلسطين : باستخلاص أراضيها وثررة أبنائها ، واستعمار البلاد العربية

جميعاً بغزو أسواقها بمنتجات الصناعة الصهيونية، التي ازدهرت في الحرب، رغم أنها غير متقنة، ولا رخيصة ..

ولما كان الصهيو نيون يعتبرون البلاد العربية مجالهم الحيوي، وسوقهم التجارية، الممتازة، فإن عواقب مقاطعة بضائعهم وخيمه جداً على مستقبلهم، فإذا كانت تباع وتجد لها المستهلكين أثناء الحرب، فاليوم وغداً، حينما تعود التجارة العالمية الى سابق عهدها، وتتراكم البضائع الصهيونية، ولا تجد لنفسها مستهلكاً، تعم البطالة، وتتفاقم الخسائر، ويواجههم الموت الاقتصادي المحتوم، بتهدم مصانعهم، ويعود اليهودي لينشد معزوفته التاريخية، وطني حيث ربحي، فتنهار آمالهم باستعمار فلسطين ..

إن الصناعة اليهودية لا تقنع بالمستهلكين من اليهود، وتحتاج الى عشرات أضعافهم، وترى في البلاد العربية المجاورة خير سوق لتوزيع مصنوعاتهم .

أضف الى ذلك أن المقاطعة نعمة عميمة، فهي ذات وجهتين: سلبية وإيجابية: سلبية بمقاطعة المنتوجات الصهيونية، وكل مؤسساتها ومرافقها، وإيجابية بإنشاء المعامل والمصانع، وإنشاء الشركات، وإحياء الزراعة في الاراضي العربية ..

ولئن كانت المقاطعة شاقة أحياناً، وخاصة على عرب فلسطين الذين كانوا عالة على المنتوجات الصهيونية، فإن ما تطمح اليه النفوس من عواقبها ونتائجها، يعزينا عن كل حرمان آني .. فمنذا الذي يرى المحلات اليهودية، والباصات، والمقاهي، ودور السينما، قد اقفرت من زبائنها العرب، ولا يتنلى قلبه غبطة .؟

إن مدينة حيفا، لا يوجد فيها دار سينما عربية؛ وكانت الدور الصهيونية ملتقى لرواد هذه المتعة الطريفة . ولكن، ما كادت المقاطعة تبدأ حتى صد العرب عن ارتياد هذه الدور، ولو حرموا متعة من متع الحياة .. فإن من يصمم على قهر عدوه، يستعمل جميع الاساليب المشروعة، وقد يحرم نفسه لذات عدة، فيجوع، ويبرد، ويتألم، ولكن نبل الهدف، وشرف الغاية ينسيانه كل هذه المشاق، وفي سبيل العزة والكرامة يهون كل بذل ..

خطوة ، خطوة ، ابرها العربي

امتنع عن بيع الارض ، وقاطع المترجات الصهيونية ، ثم خبرني عن أحلام اسرائيل .. لن تقوم لأمة قائمة إلا بجيحتها الاقتصادية ، ومن وضع يده على المال ، سيطر على سائر مرافق الحياة ، وما نشبت حرب في التاريخ ، إلا ووجدنا بعد فحص وامعان ، أن في رأس قائمة الاسباب المباشرة الحقيقية سبباً اقتصادياً بحتاً .. وهكذا اذا تحققت هاتان الامنيتان : عدم تسرب الارض للصهيونيين ، ومقاطعة بضائعهم ، نكون حاربنا عدونا بسلاحه ، سلاحه الذي استند اليه طوال العُصر . فالمعركة معركة موت أو حياة . ونحن أمام تداير تحمينا وتدفع عنا أفصح الاخطار ، وهي مقياس لاتحاد العرب وتضامنهم وجدارتهم للحياة ..

ولكن المعركة لم تنته بعد . وفلسطين ما زالت تئن .. والاطبوط الصهيوني ما زال يمد أصابعه ليلتهم بكل ما يستطيع التهامه من البقاع المقدسة .. إن الشعب العربي الفلسطيني ، لا زالت أكثريته الساحقة بحاجة الى إنعاش ، فعلينا أن نخلق نهضة شاملة لكل نواحي الحياة : من القرية الى المدينة ، ومن البيت الى المدرسة ، ومن الصناعة الى التجارة والزراعة ، ومن الاحزاب السياسية الى الاحزاب غير السياسية .

ولن يضرنا قط أن نسلك السبل المشروعة التي نهجتها الصهيونية .. واذا كنا قد أفدنا من رحلتنا ما نستطيع أن تقدمه لخواننا العرب ، فاننا أدركنا تمام الادراك ، أن الصهيونيين في فلسطين ، يمتازون بالتنظيم والتضحيات ، والوعي القومي ، وحسن الدعاية ..

عناصر أربعة ، ما سار عليها شعب ولا أمة إلا ونال النجاح . فلنحاول تطبيقها على كل شأن من شؤون حياتنا في فلسطين ، لنطبقها على الزراعة العربية مثلاً .

علينا أن نستعمل وسائل الصهيونيين وفهم وخبرتهم ، علينا ان نستفيد من كل التحسينات العلمية والفنية التي أدخلوها على الزراعة والتي اكتسبوها طوال الايام . فمن العار أن يهرف زعيم : « إن المحراث العربي يشبه محراث العبري في عهود التوراة ، وقد يكون أدنى منه » .

لنحسن القرية العربية ، ولنرفعها الى مصاف قرى القرن العشرين ، وليعيش فيها بشر واع يتمتع بالصحة والعلم والمال .

علينا انعاشها بكل ما اوتينا من قوة ، لرفع مستواها الصحي والثقافي والاقتصادي؛ واذا كان الدافع الاكبر للعربي ، في بيع ارضه ، هو الفقر والجهل ، فلنعالج هذين الداءين الويلين بصبر وحزم ، وأناة وتصميم .

إن القرية العربية تستدعي إنشاء الجمعيات التعاونية ، لشراء وبيع المحاصيل ، تماماً كما يفعل الصهيونيون ، واذا كان سكان القرية ، لا يستأجر كل فرد منهم ولده معلماً خاصاً ليعلمه ، بل يبعثون بأولادهم طراً الى مدرسة واحدة ، لما يعلمون في ذلك من اقتصاد وفائدة ، كذلك ، من الأفضل ان يتعاونوا في انتاجهم وتداولهم وتوزيعهم واستهلاكهم .

زيد أن نرى (تنوفا) عربية و (هامشبير) عربية ، وبالاحرى (هستدروت) عربية .. ويمتاز الصهيونيون بالتضحيات : التضحيات المادية والمعنوية .

فان سائر مستعمراتهم وكثير من معالمهم خاسرة ؛ ورغم ذلك ، فالوكالة الصهيونية ، ومن ورائها يهود العالم ، تقدم بالمساعدات المالية التي لا ينضب معينها . يتبرعون بالملايين دون أن يرجوا جزاءً أو شكوراً . واذا دعاهم الداعي لينخرطوا في الجيوش السرية ، والعصابات الارهابية ، ضحوا بنفوسهم في سبيل بناء المستقبل . ولا يتقاعس أعظم عظيم بينهم ، عن أن يشمر عن ساعديه ليعمل في الحقل أو المعمل ، ولو كان يحمل أرقى الالقاب الجامعية ، فهم ينسون مصالحهم الخاصة في سبيل النفع العام . . .

واذا كان العربي لا يحجم عن بذل النفس والنفيس في سبيل الغاية المقدسة ،

فقد آن الأوان ، لتغدق الاموال الشعبية والحكومية على صناديق الامة العربية في فلسطين ، فننقذ الأرضين ، وننشئ المعامل ، ونكافح المرض والجهل والفقر .
ويمتازون بالوعي القومي ، فان أهدافهم واضحة ، وبرامجهم جلية ، يلقنونها لاطفالهم في رياض الاطفال ، ويرعونها في المدرسة والمعهد والجامعة ؛ ولا ينون عن إلقاء المحاضرات ، واذاعة المنشورات ، لتحديد المبادئ والغايات ..
وهكذا خلقوا خلقاً جديداً ؛ فانظر العامل في معمله ، والزارع في حقله ، والتاجر في متجره ، إن السرور اينعمرهم لدى قيامهم بأعمالهم . فهم يعتقدون بايمان لا يتزعزع أنهم يعملون في سبيل الوطن القومي وإعادة مجد اسرائيل . فيقول أحدهم : « لاني لا أشعر في فلسطين بمركب النقص ؛ فان لي هنا شيئاً هو ملكي ؛ وأنا وقومي نمشي ورؤوسنا مرفوعة ؛ وهنا لا أرى قط لوحاً كتب عليه : « الزبائن محدودون » أو « لا يسمح لليهود والكلاب بالدخول » . ولنا أغانينا ورقصنا القومي ؛ وقد صارت لغتنا العبرية لغة حية » .

نفسية زاخرة بالامل والنشاط ، خلقت في نفوس هؤلاء القوم ؛ فما أحرانا في هذه المرحلة الحاسمة من نضالنا ، أن نذكر قول النبي العربي الاعظم ، حين كان يعود من الحرب : « رجعنا من الجهاد الأصغر ، الى الجهاد الأكبر ، جهاد النفس » .
فأزمتنا روحية نفسية ، لا جسدية مادية ، هي معضلة القلوب ، لا معضلة الجيوب ؛ فلا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس . لتوحد الصفوف ، ولتنس الضغائن والحزانات الشخصية ، والنعنات العائلية ، و« إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ، كأنهم بنيان مرصوص » . فالمعركة حاسمة ، والنصر معقود الاواء لاشد الفريقين ايماناً ،
وان يفل الحديد إلا الحديد . ويمتازون بالدعاية ..

فتجن في عصر بفيض دعائية ، حتى غدا فيه الحق على قدر صاحبه . واذا كان الصهيونيون قد وجدوا في مشارق الارض ومغاربها ، من يشد أزرهم ، ويمطف على قضيتهم ، ويدعم مطالبهم ، فالفضل في ذلك عائد بالدرجة الاولى الى شبكة دعاياتهم القوية المنظمة ..

هذه أمريكا مثلاً : وهي من نعلم من الرقي وال عمران ، قد أخذت بدعايات اليهود وترهاتهم . فالمسيحيون فيها يتبرعون للصهيونيين بنصف مليون دولار سنوياً ، والقسس يدعمون إنشاء الوطن القومي ، وأصبح الأمريكيون لا يفرقون بين مشكلة يهود أوروبا ومشكلتهم في فلسطين . لقد آمنوا بأن فلسطين هي وطن اليهود ، فيجب أن يعودوا إليها ، لأنهم سكنوها في عهد التوراة .. فليسكنوها اليوم ! إنهم معذبون ، مضطهدون ، وهم ضحية بريئة لشعوب بربرية ، إنهم ككباش الفداء الضعيف رغم علمهم وكفاءتهم وخدماتهم للمدنية . . .

بمثل هذه الأباطيل استطاع اليهود إقناع الخفاقين ، وتلك الدعايات المنظمة تعضدها الاموال والجهود كسبوا المعركة أو كادوا ، رغم أنها لا تستند الى حق ، بل تعنى أشد العناية بكسب عواطف العالم . . .

وإن دعاياتهم ليست كلاماً مرصوفاً أو تمنيات عابرة ، بل دخلوا البيوت من أبوابها ، واستخدموا الصحف الكبرى ، ودور الاذاعة ، وألقوا المحاضرات ، ونشروا الرسائل والكتب ، حتى أن الوكالة اليهودية خصصت للدعاية عام ١٩٤٥ أربعة أو خمسة ملايين جنيه ، هذا عندما تنفقه المنظمات الصهيونية الاخرى في العالم . . .

على أن المجال لا زال متسعاً أمام العرب ، لتبلغ أصواتهم الآفاق . فالشعب الأمريكي نفسه ، الذي خدع بترهات الصهيونيين ، هو أقرب الشعوب لتفهم قضيتنا ، وأكثرهم عطفاً عليها . لان موقفه من اليهود شديد الشبه بموقفنا ، فهو لذلك يشعر بما نشعر به . فالأمريكي لا يستطيع ان يهضم قول (وايز) ، حاخام (نيويورك) الاكبر : « أنا يهودي من ثلاثة آلاف عام ، ولكنني أمريكي منذ ستين عاماً » . ولا يستطيع الأمريكي كذلك ان يرى نواطح السحاب ، وأكثرها ملك اليهود ، إلا ويفيض قلبه حسرة . فاليهودي يهودي قبل كل شيء ، والامريكي يتولاه الألم منه وهو يزاحمه على مرافق الثروة . . .

أضف الى ذلك أن القضية الفلسطينية ، ليست قضية محلية تحل في القدس أو

القاهرة أو دمشق، بل هي قضية عالمية؛ بحاجة إلى أقلام مرهفة، وألسنة ذرية وقرائح
فياضة، تكتب وتخطب وتجادل وتناقش في لندن وواشنطن وموسكو، وفي كل
عاصمة كبرى .

أجل ! لمن امتاز الصهيونيون بالتنظيم والتضحيات والوعي وحسن الدعاية فعملينا
أن نقبس الحكمة أني ووجدت، ولا جناح علينا . وأخيراً لنجعل نصب أعيننا أن
لا راحة لفلسطين إلا بالغاء وعد بلفور، وزوال الانتداب، وإعلان فلسطين دولة
مستقلة حرة؛ وإن شعباً كالشعب الفلسطيني الأبي، لم ينم على ضم طيلة سبعة
وعشرين عاماً، لو اصل باذن الله إلى حقه، بقوته ونضاله، ولو كره المستعمرون .

وبعد، فقد عاد صاحبنا تسيطر عليه فكرتان : أولاهما أن الصهيونية حركة
جبارة ماكرة، تشق طريقها قدماً، وقد برهنت على عمل وتنظيم وذكاء وصبر،
ولكنها ما زالت بحاجة إلى جهود وعطف ونضال طويل، لتحقيق برامجها والفوز
بأمالها . . .

وثانيتهما أن عرب فلسطين، لم يهنوا ولم يجزعوا طيلة ربع قرن، بين نكبي
انتداب مزدوج، لم يتبل بمثله بلاد أخرى؛ فقاموا بالاستجيل لأحباط مشاريع
أعدائهم، وعرقلة مهمتهم، وهم يزدادون قوة ومنعة، وعاملاً ومالاً، وتنظيماً وإيماناً،
يوماً بعد يوم . . .

عاد وقد آمن إيماناً راسخاً بأن أحلام الصهيونية لن تتحقق كما شاء أصحابها،
ولن تزدهر أكثر مما ازدهرت طيلة ربع قرن، فلا زال بين أصحابها وهدفهم المنشود
أهوال وأهوال . . .

وبينما كان العالم أجمع يعطف على القضية الصهيونية، ويعاضد إنشاء الوطن القومي
دون أي حساب للملايين العرب المساميين، تبدلت الدنيا غير الدنيا، وبدأت العميون
تفتح على هذا الخطر الماحق الذي يهدد الأماكن المقدسة لدى سائر الملل والنحل . . .
عاد وقد أيقن أن عرب فلسطين لم يعودوا وحدهم في ميدان المعركة، يصلون

أهوالها ، بينما أخوانهم في أدنى الارض وأقصاها في شغل شاغل عنهم ، ويعطفون عليهم عطفاً أفلاطونياً ، بل بدأ رجال العرب يتنبهون الى أمر هذه البلاد المقدسة ، فينمو الوعي القومي والوطني والديني عند الجميع ، ويتسارعون الى عقد المؤتمرات ، وتنظيم الحائط ، ومد يد المساعدة الفعلية ، واذا بقضية فلسطين تصبح قضية العرب والاسلام قاطبة لمساكنها المقدسة ولعلم العرب أجمعين أن خطر الصهيونيين سيهدد بلادهم في آيات الأيام ...

فلقد أدرك العرب أولاً ، أن أطماع اليهود لن تقف في فلسطين ، بل ستتعداها الى ما جاورها من البلاد العربية ، بعدما سمعوا (بن غوريون) يقول : «إن خارطة فلسطين إنما هي خارطة الانتداب ، وإن للشعب اليهودي خارطة تاريخية اخرى ، على شباب اليهود أن يحققوها ، وهي خارطة التوراة التي جاء فيها : « وهبتك يا اسرائيل ما بين دجلة والنيل » ..

بلاد اعتبروها مجالهم الحيوي ، وصرحوا بأطماعهم فيها أكثر من مرة ؛ فاذا كانوا يقضون المضاجع في فلسطين ، ولما يتعدوا نصف المليون بعد تقريباً ، فماذا يحدث غداً ، لو تسربوا الى أوقيانوس العالم العربي ، وغدت هجرتهم اليه ؟

وأدرك العرب ثانياً أنهم اذا توانوا عن نصره اخوانهم عرب فلسطين ، ووقفوا موقف المتفرج ، هان أمرهم على جميع الامم ، وأصبحوا هذفاً لكل طامع ، وغدا ما يسمى بالامة العربية ، اسماً بلا مسمى ، فيتهاقت عليهم خصومهم يجدون فيهم لقمة سائغة جديدة طرية الجانب ، وتنهار كل مهابة لهم في نفوس الخلق ، ويسري الداء من فلسطين الى ما جاورها ، وإن من لم يستطع ايقاف الظالمين في رقعة صغيرة من اوطان العربي ، لن يستطيع الصمود أمام جحافل الأمم ، التي لا تعرف لها في الحياة مذهباً سوى القوة والغلبة ..

وأدرك العرب أخيراً أن العالم طراً ، منذ أقدم العصور يكافحون اليهود ، لاسباب مختلفة ، وتخشى كل دولة نفوذهم ، واذا كان قليل اليهود ليس بقليل ، وأن أكثر

دول العالم ، ممن أوتيت القوة والهيبة والمال ، قد ضحت ، وحاولت التخلص منهم ، فلا يعقل أن يسكت العرب عن وجودهم في فلسطين . . فلن تقول إن (٨٠) مليوناً من الجرمانيين خشوا نصف مليون يهودي ، فطار دوحهم شر مطاردة ، ولن تقول إن (٤٢) مليوناً من الايطاليين ضاقوا ذرعاً بـ (٤٢) ألفاً من اليهود ، بل ان الانكايز أنفسهم ، أرباب « الطفل المدلل » ، رفضوا أن يقبلوا في بلادهم يهودياً واحداً إلا كعابر سبيل ، رغم أن امبراطوريتهم لا تغيب عنها الشمس ، وكم من مستعمرات لهم خالية خاوية ، تتسع لأضعاف أضعاف يهود العالم . .

أدرك العرب هذه الامور وعواقبها ، فكانت فلسطين مباركة مرة اخرى ، إذ ألقت بين قلوبهم ، فاتحدت صفوفهم ، ونادوا بالخطر الاكبر ، على الوطن الاكبر ، فلم يعد عرب فلسطين وحدهم في المعركة ، بل التفت العرب حولهم كهالة حديدية تدفع كيد المحتاجين ، وأشعبية الطامعين . .

ولم يقتصر ذلك على العرب وحدهم ، بل تعداهم الى مسلمي الهند ، لاعتقاد الجميع بان الدفاع عن فلسطين جهاد مقدس ، وعلى كل عربي ومسلم أن يؤدي قسطه من هذا الواجب . فليست المصيبة منحصرة في فقد فلسطين ، بترابها وأحجارها وأشجارها ، ولكن المصيبة معنوية ايضاً ، المصيبة بزوال الهيبة ، وسقوط الاعتبار بين أمم الارض ، وأن تغدو الامة العربية هدفاً للمعتدين . .

نعم ، لم تعد فلسطين وحيدة في المعركة . . فاتحاد الامم العربية ، والشعوب الاسلامية ، وعطف الطبقات المتمدينة في ارجاء المعمورة ، كل ذلك ، جعل صاحبنا يشعر شعوراً عميقاً بانهيأ آمال الصهيونية القريب ، وأن وراء هذا الليل البهيم صباحاً مبيناً . . .

لم تعد فلسطين وحيدة في المعركة . . فقضيتها قضية كل قطر عربي ، وهي خط الدفاع الاول عن الثغور ، ولقد مضى ذلك العهد الذي قال فيه طاغية ألمانيا :

« إن ألمانيا لا ترضى أن يكون على حدودها فلسطين ثانية ، ولن تبيع

اضطهاد أبنائها كما يضطهد العرب في بلادهم ؛ فالعرب المساكين ليس لهم من يدافع عنهم ، بل ربما كانوا متروكين .. أما ألمان تشيكوسلوفاكيا فلهم من يدافع عنهم وليسوا بمتروكين ..

لقد أصبحت قضية فلسطين قضية العرب أجمع ، وإن أي تدخل أجنبي محجف بحقهم ، يعد عملاً ظالماً طاغياً على حرية الشعوب ويقابل بالرفض .
هذا هو رأي ملوك العرب ورؤسائهم وأمرائهم ، بل هذا هو رأي رجل الشارع أيضاً ..

فالدول العربية والشعوب العربية ، أصبحت قضيتها قضية فلسطين ، تقابل كل بادرة بحزم وعزم ، واحتجاجات مدوية ، وتنتظر الوقت المناسب لامتناع الحسام للدفاع عن الحرمات ..

ألم يقل جلالة الملك عبد العزيز آل سعود للمستتر تشرشل : « إن أية محاولة انكليزية لتحويل فلسطين الى دولة يهودية ، سيعدها جلالة عملاً عداًئياً يحاربه بالسيف ، وانه على اتفاق في هذا الشأن مع سائر رؤساء العرب ..! »

ألم يقل للطيب الذكر (روزفلت) : « اقسم بشر في أنكم اذا اعطيتم فلسطين لليهود ، فلن أستريح حتى اقتل أنا وأولادي دفاعاً عنها .. » ؟

عاد صاحبنا شديد التفاؤل بالمستقبل القريب ..

عاد وملاء إهابه أمل شديد بمستقبل بسام زاهر ، مآله أن فلسطين لن تصبح وطناً قومياً لليهود ، ما دامت الامم العربية تقف صفاً واحداً يلوّح بالنار والبتار والدم الفوار في سبيل القضية المقدسة ..

ألا إن خلاص فلسطين بأيدينا ، نحن العرب ، وهي أمانة الآباء والاجداد ، واذا غفل الشعب العربي يوماً ، واستكان الى الدعة ، فليذكر المآسي الجائرة في فلسطين طيلة سبعة وعشرين عاماً ..

ليذكر البيوت تنسف ، والاعمال تعطل ، والكرامة تتمهن ..

ليذكر السجون وقد أترعت بالابرياء الذين لم يقترفوا إثماً ، سوى أنهم يريدون
أن يعيشوا أحراراً في دنيا الاحرار ..
ليذكر المنافي والمعازل ، يُلقى فيها زعماء البلاد ، وشبابها ، ومفكروها ، وهم
قلبها النابض ، ودماعها المفكر ..
ليذكر مآسي الجلاء التي تقشعر لهولها الأبدان ...
ليذكر اليتامى والائتمى والشكلى ..
ليذكر أعواد المشانق وقد علّق عليها المجاهدون الابرار ، وبطاح فلسطين
المتزعة بنجيع الشهداء الأطهار ..
ليذكر أن اليهود مصرون على تأسيس دولة لهم مهما لاقوا من صعاب ..
ليذكر دائماً وأبداً أن عرب فلسطين إن أخرجوا من ديارهم ، فلن يُسمع في
المسجد الاقصى أذان ، ولن تفرع أجراس كنيسة القيامة ، تدعو المصلين ..
وليذكر أن جهاده لن يذهب مع الريح ، وسيسطر المؤرخون تاريخه وهم
حاسرو الرؤوس ، إجلالا لهذا الشعب العربي الأبي الذي لم يهن ولم يجزع .!
عاد صاحبنا وهو مؤمن بأن طريق الخلاص أمامنا ، ومفاتيح النجاة بين أيدينا ،
وذلك بالعمل المستمر المنظم الواعي ؛ فلتصبر فلسطين ، ولتعمل ، ولتتفاءل ، فلقد
مضى ليل الظلم ، وبزغت شمس الأمل والرجاء ...



الفهرس

سبيري الفاري

لاحظ أن كل عنوان مما يلي يحوي طيه عناوين هامة لأبحاث خطيرة، لم تذكرها خشية التطويل والضرورة طارئة فانتبه الى ذلك ولك الشكر .

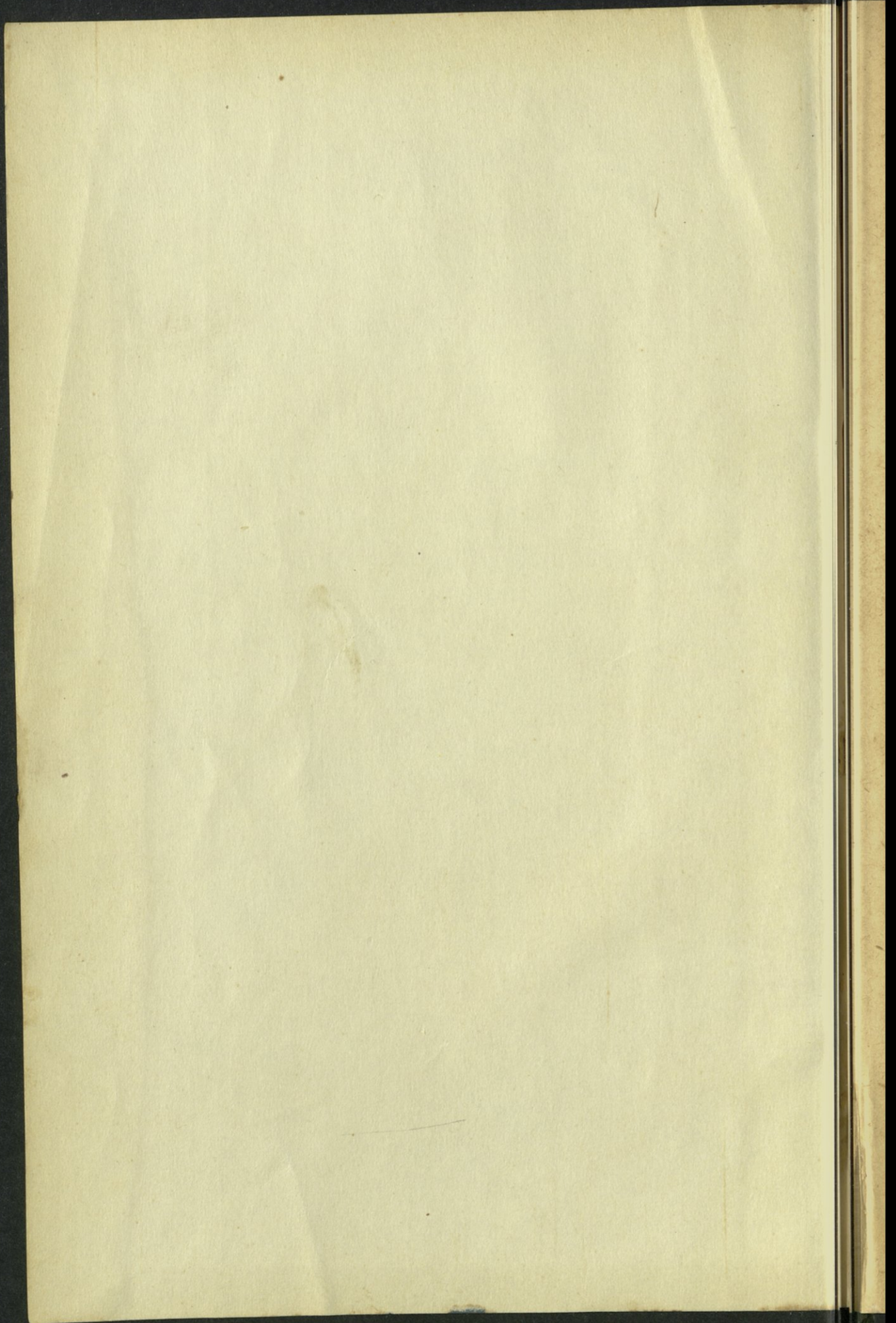
ص	ص
١٥٥	١
١٦٠	٩
١٦٩	٢٠
١٧٨	٢٤
١٨٧	٣٢
٢٠٣	٣٩
٢٢٥	٤٥
٢٣٠	٥٢
٢٣٥	٨٧
٢٤٨	٩٥
٢٦٥	١٠٢
٢٦٦	١٢٧
٢٨١	١٤٠



جدول الخطأ والصواب

لا شك أنك تحب مطالعة الكتاب بلذة وشغف... إذن فصح هذه الخطيئات القليلة الآتية، وتسامح بالهنات الكثيرة، التي لم نجد ضرورة لاصلاحها، ولا تخفى على ذكاء القارىء...

الصواب	الخطأ	س	ص
يكافئونه	يكافئنه	١٥	١٠
جذلاً	جزلاً	١٥	١٧
الزيتوت	الزيتوت	١٣	٣٣
بدئت	بدأت	٨	٣٥
الظامئون	الظامئين	١	٤١
كلارنا إليها	كلها إليها	١١	٤١
حنيناً	حنياً	٦	٤٤
العقول	النفوس	١٥	٤٥
ومقاه	ومقاهي	١٣	٤٩
وكلتا	وكلا	٥	٥٢
الخامسة	الخامس	١٢	٦٧
كارد...	وبدا كارد	١٤	٩٦
،	وهو	١٧	٩٨
سينكسر	سينكر	٥	١١٦
، ماء...	وهو ماء	١٩	٢١٣
١٩٢٦	١٧٢٦	٧	٢٥٩



0515 "Lutz" "

296:K11hA:c.1

كعدان، بشير

هؤلاء الصهيونيون

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01002303

American University of Beirut



296
K11hA

General Library

